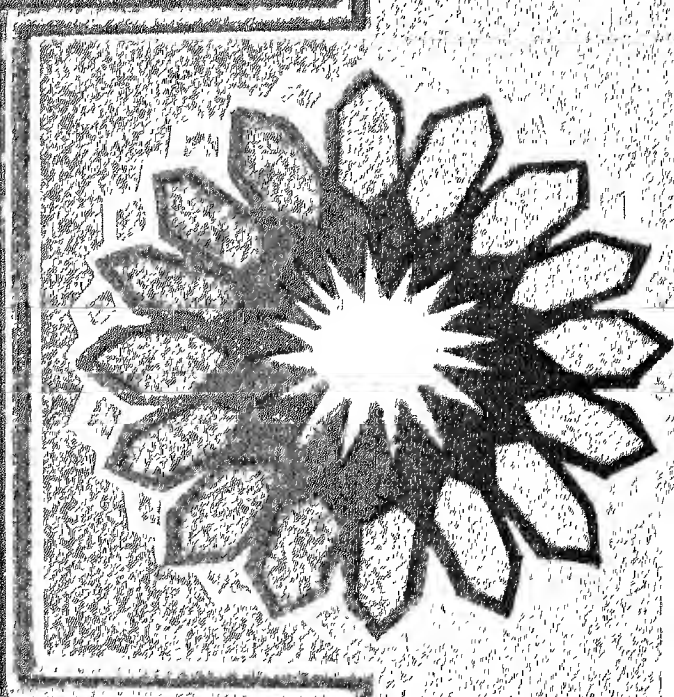


ندوة التاريخ الاسلامي والوسطى

المجلد الثاني
١٩٨٣



تحرير

دكتور قاسم عبده قاسم
دكتور رأفت عبد الحميد

نَدْوَةُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْوَسْطِيِّ

المجلد الثاني

١٩٨٣

تحرير:

دكتور قاسم عبده قاسم
دكتور رافت عبد الحميد



دارالمعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج ٢٠٠٤

المحتويات

صفحة	
٧	مقدمة
١١	أولا : الدراسات والبحوث :
	١ - عقد مراجعة من العدمر انفاطمي
١٣	للدكتور أحمد عبد الرازق
	٢ - حول اتخاذ السواد ورفع الألوية والاعلام السوداء في المغرب
٤٩	والأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم
	٣ - الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب في العصور الوسطى
٨٣	للدكتور رأفت عبد الحميد
	٤ - صليبية الأطفال
١٤٥	للدكتور عبد الغنى محمود عبد العاطى
	٥ - الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية
١٨٧	للدكتور قاسم عبده قاسم
	٦ - الفتح النورمانى لانجلترا - ملحمة فريدة في تاريخ انجلترا
	ونورمانديا في العصور الوسطى
٢٣٥	للدكتور محمد محمد الشيخ
	٧ - الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين
٢٦٣	للدكتور محمد عبد الحميد عيسى
	٨ - قوانين الملكية الزراعية في الامبراطورية البيزنطية في القرن
	العاشر الميلادى : دراسة تحليلية .
٣٩٩	للدكتور وسام عبد العزيز فرج

صفحة

٣٤٣

ثانياً : الكتب والدراسات الجديدة

١ - تقرير عن معرض القاهرة الدولي للكتاب ١٩٨٣م

٣٤٥

محمد مؤنس عوض

٢ - عرض ونقد كتاب « تاريخ المغرب - محاولة في التركيب » .

٣٥٥

سنوسى يوسف ابراهيم

ثالثاً : رسائل الدكتوراه والماجستير المسجلة في التاريخ

الاسلامى والوسيط بالجامعات المصرية

٣٧٧

اعداد محمد مؤنس عوض

٣٧٩

١ - رسائل الدكتوراه والماجستير التى نوقشت

٤٠٩

٢ - رسائل الدكتوراه والماجستير المسجلة

٤١٥

٣ - الرسائل التى نوقشت بين يناير ١٩٨٢ وابريل ١٩٨٣

« ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط »
كتاب سنوى يشترك فيه مجموعة من الأساتذة

المراسلات باسم :

الدكتور قاسم عبده قاسم : كلية الآداب — جامعة الزقازيق — قسم
التاريخ *

الدكتور رافت عبد الحميد : كلية الآداب — جامعة عين شمس — قسم
التاريخ *

الذى دار حول مبدأ الانتخاب الجرماني ، وحق وراثته العرش في الملكية الألمانية في العصور الوسطى . وأهمية الدراسة تكمن في أنها تكشف النقاب عن مدى ما يمكن للبيئة أن تلعبه في تشكيل التاريخ السياسي لبلد ما ، كما أنها توضح لنا بجلاء الدور المدمر الذي لعبته البابوية في السياسة الأوزبية إبان فترة تمتد حوالى ثلاثة قرون ما بين الحادى عشر والثالث عشر . والدراسة الرابعة يطرحها الدكتور عبد الغنى محمود عن صليبية الأطفال . هذه الدراسة تتناول جانبا هاما من تاريخ الحركة الصليبية ، وهو الجانب المتعلق بالتدين العاطفى لدى شعوب الغرب الأوروبى ، ومدى ما انسم به هذا التدين من حماسة وتعصب ضد أصحاب الديانات الأخرى . كما يكشف الدكتور عبد الغنى كيف أن هذا التعصب قد أعنى الغرب الأوروبى بالدرجة التى جعلت الناس يلقون بفلاذات أكبادهم فريسة سهلة للمشعوذين والمصابين بالهوس الدينى ، بالشكل الذى جعل حملة الأطفال تنتهى نهايتها المأساوية الشهيرة .

الدراسة الخامسة قام بها الدكتور قاسم عبده قاسم عن الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية . وهى دراسة تستهدف كشف النقاب عن العوامل الحقيقية التى حفزت أبناء المجتمع الأوروبى في أخريات القرن الحادى عشر لحمل راية الصليب والسير على طريق القدس . وأهم ما في هذه الدراسة أنها توضح أن الصليبيين الذى شاركوا في الحملة الأولى قد ساروا تحت راية ايديولوجية واحدة ، ولكن الأهداف الحقيقية لكل طبقة في مجتمع غرب أوروبا كانت تختلف عن أهداف الطبقة الأخرى بل وتتناقض معها . الدراسة السادسة يطرحها الدكتور محمد الشيخ عن الفتح النورمانى لانجلترا ، وهى دراسة تكشف عن حقيقة تاريخية هامة مؤداها أن فتح انجلترا على يد وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ ، بعد معركة هاستنجز الشهيرة ، كان منعطفا هاما في مسار التاريخ الانجليزى ، وتاريخ منطقة نورماندى على الجانب الآخر من القنال الانجليزى . والدراسة تحمل كثيرا من المعلومات الهامة عن الأوضاع السياسية في انجلترا قبيل الغزو النورمانى .

أما الدراسة السابعة فمقد طرحها الدكتور محمد عبد الحميد عيسى عن موضوع فائق الأهمية ، وهو الحضارة الأندلسية في مرحلة التكوين ، وعلى الرغم من صعوبة البحث في مثل هذه الموضوعات فإن الدكتور عيسى قد عالجهما بقدر كبير من اليسر والبساطة ، لا سيما وأن اهتمامه بالجوانب الأدبية

في الدراسة قد سهل عليه رصد علامات كثيرة في هذا الميدان . هذه الدراسة تشير الى أن البحث في مثل هذه الموضوعات قد بات ضرورة ملحة أمام الباحثين المهتمين بتاريخ هذه الفترة من تاريخنا العربي الاسلامي . أما الدراسة الثامنة التي قسام بها الدكتور وسام عبد العزيز فرج ، نتناول موضوعا هاما وطريفا ، وهو القوانين المنظمة للملكية الأرض الزراعية في الامبراطورية البيزنطية في القرن العاشر الميلادي . هذه الدراسة تكشف عن كثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، بل والسياسية والعسكرية ، في بيزنطة ابان هذه الفترة الحرجة من تاريخها . واهمية الدراسة تتبع من كونها دراسة بعيدة تماما عن التاريخ السياسي الذي مازال بعض الباحثين يعولون عليه . وعلى الرغم من أن موضوع الدراسة حافل بالصعوبات ؛ فان الوثائق التي استعان بها الدكتور وسام ، وقدرته على التحليل والاستنباط جعلت قراءة البحث أمرا ممتعا .

في هذا العدد أيضا نقد وتحليل كتاب « تاريخ المغرب — دراسة في التركيب » للدكتور عبد الله العروى ، قام بها السيد / سنوسي يوسف ابراهيم المدرس المساعد بأداب عين شمس . وهذا النقد يعارض كثيرا من الأفكار التعميمية التي اشتهر بها الدكتور عبد الله العروى ، ويرد كثيرا من الأمور الى صحتها التاريخية . أما الجهد الكبير الذي قام به السيد / مؤنس عوض المعيد بقسم التاريخ بأداب عين شمس سواء فيما يتعلق بتحليله الذكي للكتب الجديدة ، أو عرضه للرسائل التي نوقشت أو حرده ودقته — هذا كله يبشر بباحث واعد يمتلك كل مقومات النجاح .

هذا العدد ، بكل ما فيه ، خطوة أخرى على الطريق نعتزف أنها قاصرة ؛ ولكننا نرجو أن نحقق الكمال ، أو نقترّب منه ، في الأعداد القادمة ان شاء الله ، ولكن ذلك لن يكون ميسورا اذا لم يساعدنا القراء بملاحظاتهم ونقدهم وما يشيرون به . والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

دكتور رأفت عبد الحميد

أولاً :

الدراسات والبحوث

عقد مراجعة من العصر الفاطمي

للدكتور أحمد عبد الرازق
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
بآداب عين شمس

عقد مراجعة من العصر الفاطمي

تحتوى مجموعة دار الكتب المصرية من أوراق البردى العربية على عدد كبير من عقود الزواج من بينها عقد مؤرخ في العشر الأخير من شهر جمادى الآخرة سنة ٤٦١ هـ / ١٧ - ٢٦ أبريل ١٠٦٩ م باسم حسن بن المكنا بابى البدر وضياء ابنة غنائم الطواف (لوحة ١) ، قام بنشره للمرة الأولى الاستاذ جبروهمان عام ١٩٣٤ ضمن مجموعة من عقود الزواج التى تنسب الى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى (١) . ونظرا لأهمية هذا العقد فقد رأينا من المناسب إعادة نشره من جديد بهدف تصحيح بعض القراءات الخاصة بنصومه ولالقاء مزيد من الضوء على نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر ابان هذه الفترة الحرجة من التاريخ الفاطمى المعروفة بالشدّة المستنصرية التى عانت منها البلاد قرابة سبع سنين ٤٥٧ - ٤٦٤ هـ / ١٠٦٥ - ١٠٧١ م (٢) ، وكذا لمقارنته بعقود الزواج المعاصرة التى دونت

A. Grohmann, Arabic Papyri, Cairo, 1934, I, pp. 101-106, (١)
pl. V. fig. 45.

(٢) المقرئى ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٢٤ - ٢٧ ؛ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، القاهرة ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٨ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، القاهرة ١٣١١ هـ ، ج ١ ، ص ٦٠ - ٦٢ ؛ محمد عبد الله عنان ، مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١ ، ص ٨٨ - ٩٠ ؛ عبد النعم ماجد ، الامام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٥٦ - ١٥٨ .

على النسيج ووصلنا نموذج منها خاص بالطبقة الحاكمة (٢) .

والعقد الذي نحن بصدده مدون على صحيفة رمادية ضاربة الى الصفرة يرجح انها جاءت من مدينة الأشمونين تبلغ مقاييسها ٢٣ × ٢٠.٨ سم ، ومدون عليها ثلاثة وعشرين سطرا بالمداد الأسود نقشت بخط النسخ الذي كان متداولاً في المكتبات النيويمية في سطور متزاحمة خاصة ابتداء من السطر السادس عشر بحيث تداخلت بعض كلمات الأسطر التالية مما يزيد من صعوبة قراءتها ، ومع هذا فالوثيقة في حالة جيدة من الحفظ باستثناء بعض أطرافها العليا التي تآكلت بفعل الزمن ، وكذا بعض الثقوب التي أصابت الأسطر الأولى من جانبها الأيمن .

وفيما يلي نص هذا العقد :

- ١ — (بسم الله) الرحمن ا (لرحيم) .
- ٢ — هذا ما أصدق حسن بن المكتنا بابو (كذا) البدر (٤) الساكن يومئذ مدينة (الأشمونين) .
- ٣ — ضيا (ء) ابنة غنائم (٥) الطواف (٦) الساكن يومئذ بهذه المدينة المذ (كورة ...) .
- ٤ — وتزوجها به تزويجا مستأنفا اذ كانت زوجته (٧)
- ٥ — ودخل بها وأصابها وطلقها طلقاً واحدة واسترجعها بهذا .

A. Grohmann, Arabische Paläographie, Vienne, 1967- (٣)
1971, I, p. 106, pl. XIV; Yusuf Ragib, Un contrat de mariage sur soie d Egypte fatimide, Annales Islamologiques, XVI, (1980), pp. 31-37, pl. xiii.

- (٤) قراها جروهان القدر أنظر : Arabic Papyri, I, p. 102.
(٥) قراها جروهان عنام بالرغم من وجود نبذة واضحة تعلق حرف اليم انظر : Arabic Payri, I, p. 102.
(٦) قراها جروهان الطرف Arabic Payri, I, p. 102.
(٧) هناك مكان لأربع كلمات قرأ منها جروهان كلمتي به ، وهذا ، بيد أننا لا نوافق على هذه القراءة أنظر : Arabic Payri, I, p. 102.

- ٦ — الصداق أصدقها أربعة دنانير مستنصرية جواد العيون نقدها .
- ٧ — م [ن] ذلك ديناراً واحداً قبضته منه لنفسها نقداً في يدها ناهياً وأفياً .
- ٨ — وأبرأه منه ومن اليمين عليه برا [ء] قبض واستيفى [كذا] وأخرت
الثلاثة دنانير .
- ٩ — الباقي [كذا] مهرها عليه إلى انقضى [كذا] خمسة ليلى
متواليات أولهن تاريخ .
- ١٠ — هذا الكتاب وعليه أن يتقى الله عز وجل فيها ويحسن صحبتها بالمعروف .
- ١١ — كما أمر الله سبحانه في كتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وعلى آله .
- ١٢ — وسلم تسليماً وله عليها مثل ذلك ودرجة (كذا) زائدة وولى تزويجها
إياها بذلك .
- ١٣ — الشيخ أبو الفضل العباس بن هبة الله بن عفيف بأمر القاضي أبو
القاسم .
- ١٤ — عبد الله بن علي بن عبد الرحمن خليفة القاضي أبي الحسن مسرة
بن عبد الله .
- ١٥ — على الحكم والصلاة والخطابة والقضا (ء) والمظالم بمدينة الأسمونيين
وأعمالها إليه .
- ١٦ — بكشف حالها وتزوجها وكيل المتولى ذلك وكشف عن حالها
فوجدتها (٨) مستحقة .
- ١٧ — الناكحة فزوجها من الزوج المسما معها فيه بإذنها ورضاها بالمهر (٩)
المذكور عاجله .
- ١٨ — وأجله المذكورين في هذا الكتاب وشاهدى (كذا) عدل شهدا له
عليها بالرضا وقبل .
- ١٩ — الزوج من المتولى هذا النكاح ورضى به وألزمه نفسه بمخاطبة جرت
بينهما على جميعه .

(٨) قرأها جروهمان فوجبها أنظر : Arabic Payri, I, p. 102.
(٩) قرأ جروهمان العبارة الأخيرة ورضا وبالمهر أنظر :
Arabic Payri I, p. 103.

- ٢٠- شهد على اقرار الزوجين والمتولى الشيخ بجميع ما فيه بعد أن قرئ عليهم فاقروا بفهمه
- ٢١- ومعرفته (١٠٠) جميعه وكتب في العشر الأخير من جمادى الآخر سنة احدى وستين وأربعمائة .
- ٢٢- أشهد (١١) على بن نجيب (١٢) بن على المغربى على اقرار الزوجين والمتولى وكتب في تاريخه أشهد (١٣) على بن حفص بن على بن حفص على اقرار الزوجين
- ٢٣ - والمتولى بما فيه وكتب في تاريخه .

لعل أول ما يلفت النظر في هذا العقد هو أنه خاص ببعض أفراد طبقة العامة بدليل خلوه من المقدمة أى خطبة الصداق التى تميزت بها العقود الخاصة بالطبقة الارستقراطية الحاكمة ، والتى كانت تختلف فى الطول والقصر بحسب مكانة صاحب العقد اذ كانت « تطال للملوك وتقتصر لمن دونهم بحسب الحال (١٤) » . ويتجلى ذلك بوضوح من عقد زواج معاصر باسم أبى المنصور هاشم بن ماكنون بن شبيب وسلامة ابنة الأمير ناصح الدولة الصيادى (لوحة ٢) المحفوظ بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة تحت رقمه ٩٣٨١ ، والمدون على قطعة نسيج حريرية (١٥) ، اذ يحتوى هذا العقد

- (١٠) قرأها جروهمان بمعرفة أنظر : Arabic Papyri, I, p. 103.
- (١١) قرأها جروهمان شهد أنظر : Arabic Papyri, I, p. 103.
- (١٢) قرأها جروهمان نجيد أنظر : Arabic Papyri, I, p. 103.
- (١٣) قرأها جروهمان شهد : Arabic Papyri, I, p. 103.
- (١٤) القلقشندى ، صبح الاعشى فى صناعة الانشاء ، القاهرة ١٩١٤ - ١٩٢٨ ، ج ١٤ ، ص ٣٠٠ .
- (١٥) تنوعت المواد التى سجلت عليها عقود الزواج الفاطمية ، اذ بلا حظ أنها دونت على البردى والورق والنسيج . كما وصلنا عقد من نفس الفترة مدون على قطعة من الرق أنظر :

G. Levi Della Vida, A marriage contract on parchment from Fatimite Egypt, in L.A. Mayer Memorial volume, Ertz-Israel, VII, 1964 pp. 64-6٤.

على خطبة صداق تحفل سبعة أسطر من مجموع أسطر العقد البالغ عددها ستة عشر سطرا أى ما يقرب من نصف المتن تقريبا (١٦) ، وهذه الخطبة عبارة عن مجموعة من العبارات الدعائية وبعض الأحاديث النبوية المتعلقة بالزواج والحاضنة عليه ، فضلا عن بعض العبارات الشيعية التى ذاعت بصفة خاصة إبان العصر الفاطمى مثل «...» وأشهد أن محمدا رسوله المصطفى وأمينه المرتضى ... صلى الله عليه وعلى وصيه على أمير المؤمنين ، وعلى ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين ، وعلى سبطيه الحسن والحسين بابى الرحمة ، وعلى الأئمة من ولد الحسين بدور الدجى وشموس الضحا وأمناء الله على الورى ...» . وذلك فى الوقت الذى اقتصر فيه متن العقد الذى نحن بصدد دراسته على صلب العقد فقط مما يشير بوضوح الى انتهاء صاحبيه الى طبقة العامة من الشعب المصرى (١٧) .

ويفهم أيضا من متن هذا العقد أنه عقد مراجعة أى تجديد نكاح بمعنى أن المدعو حسن كان متزوجا من قبل بيضاء هذه ثم طلقها طليقة واحدة ، ويبدو أنه رغب بعد ذلك فى استرجاعها فأعادها الى عصمته بموجب هذه الوثيقة التى بين أيدينا الآن ولكن بعد انقضاء عدتها (١٨) بدليل أنه أصدقها صداقا جديدا (١٩) مقداره أربعة دنانير مستنصرية ، عجل لها بدينار

Yûsuf Râgib, Un contrat de mariage, Annales Islamico-linguistiques, XVI, pp. 34-35.

(١٧) استمر هذا التقليد متبعا طوال العصرين الأيوبى والمملوكى

A. Dietrich
انظر
Eine arabische Eheurkunde aus der Aiyûbiden zeit, in Documenta Islamica Inedita, Berlin 1952, pp. 121-154;

Ahmed Abd ar-Râziq, Un document concernant le mariage des esclaves au temps des Mamlûke, in JESHO, XIII/3, 1970, pp. 309-314.

(١٨) العدة المقررة حسب الشريعة الإسلامية هى ثلاثة قرؤ أى ثلاث حيضات ، انظر سورة البقرة ، آية رقم ٢٢٨ .

(١٩) ابن عابدين ، رد المحتار على المختار ، شرح تنوير الأبصار فى فقه مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان المعروف بحاشية ابن عابدين ، القاهرة ١٩٠٥ ، ج ٢ ، ص ٤٤٠ — ٥٢٤ ؛ محمد زيد الأيبانى ، الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية ، القاهرة ١٩١٩ ، ص ١١٥ .

واحد قبضته بيدها تاما وافيا ، وآخر لها الثلاثة الباقية الى حين انعضاء
خمس ليال متواليات من تاريخ هذا النكاح .

والحق أن ظاهرة تأجيل جزء من الصديق تعد من الأشياء المألوفة في عقود
الزواج التي وصلتنا من أيام الطولونيين بل واستمرت أيضا حتى أيام
الأيوبيين والمالوك تشهد بذلك العقود الأثرية التي تحت أيدينا الآن والتي
نص بعضها على ضرورة سداد الجزء المتبقى من الصداق على أقساط معلومة
تدفع في نهاية كل سنة (٢٠) خلافا لما جرى عليه العرف في الوقت الحاضر (٢١)
الذي نقضى بتأجيل باقى الصداق لأقرب الاجلين الطلاق أو الموت (٢٢) .

ويسترعى الانتباه في صيغة هذا العقد العملة التي تقرر بها الصداق
وهى الدينار المستنصرية (٢٣) الجياد العيون ، وكذا قيمة هذا الصداق .
أما عن العملة فالمقصود بها الدينار الذهبية التي أصدرها الخليفة الفاطمي
المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر الاعزاز دين الله ، خامس خلفاء
الفاطميين في مصر الذي ولى الخلافة بعد وفاة أبيه في الخامس عشر من
شعبان سنة ٤٢٧ هـ / ١٣ يونيو ١٠٣٦ م وبقي شاغلا لها الى حين وفاته

(٢٠) حسن الهوارى ، عقد زواج على قطعة من الحرير ، مجلة
كلية الحقوق ، أكتوبر ١٩٢٧ ، ص ٥١ ؛ سعاد ماهر ، عقود الزواج على
المنسوجات الأثرية ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ٦ ، ١١ ، ١٨ ، ٣٠ ؛
عبد الله مخلص ، عقدا نكاح كندا في أواسط القرن الثامن ، مجلة المجمع
العلمى العربى ، ج ٢١ ، (١٩٤٦) ، ص ٤٢٠ ، ٤٢٢ ؛

Grohmann, Arabic Papyri, I

pp. 67-68, 83, 86, 92, 97; Ahmed Abd ar-Râziq,
Un document, JESHO, XIII/3, p. 309; La Femme
au temps des Mamlûks en Egypte, Le Cairo, 1973,
p. 130-133.

(٢١) سعاد ماهر ، عقود الزواج ، ص ١٢ .
(٢٢) عمر عبد الله ، أحكام الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية
القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩٢ .
(٢٣) أشار جروهمان الى ورود لفظة الدينار المستنصرية في العديد
من الوثائق البردية انظر :
Grohmann, Arabic papyri, I, p. 105.

في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٤٨٧ هـ / ١٠ يناير ١٠٩٤ م بعد أن أقام فيها ستين سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام (٢٤) أصدر خلالها مجموعة كبيرة من العملات الذهبية بعضها من ضرب مصر والاسكندرية والبعض الآخر من ضرب دمشق ، وفلسطين ، وطرابلس ، والمهدية ، وصقلية ، وصلنا منها بالفعل مجموعة طيبة محفوظة بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة بيانها كالاتى حسب تاريخ اصدارها :

رقم السجل بالمتحف	الوزن	مكان الضرب	سنة الضرب	مسلسل
٤٣٦٠	٤١٢ جرام	مصر	١٠٣٦/هـ٤٢٨ م	١
١/١٧٠٨٠	٤٢٤ جرام	مصر	١٠٣٧/هـ٤٢٩ م	٢
٤٣٦١	٤٢٠ جرام	مصر	١٠٣٨/هـ٤٣٠ م	٣
٩/١٧٠٨٠	٤١٤ جرام	مصر	١٠٤٠/هـ٤٣٢ م	٤
١٢/١٧٠٨٠	٤٣٠ جرام	مصر	١٠٤٣/هـ٤٣٥ م	٥
١٤/١٧٠٨٠	٤٠٠ جرام	مصر	١٠٤٤/هـ٤٣٦ م	٦

(١٤) عن هذا الخليفة أنظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق امدرود ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ٨٣ - ٨٤ ؛ ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٥٥ ؛ ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٦٧ - ٨١ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٩ - ١٩٧٢ ، ج ٥ ص ٢٢٩ - ٢٣١ ؛ النويري ، نهية الأرب في فنون الأدب ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٩ معارف عامة ، ج ٢٦ ، ورقة ٦٢ ؛ ابن أبيك ، كثر الدرر وجامع الغرر : الدرر المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح المنجد ، القاهرة ١٩٦١ ، ج ٦ ، ص ٣٤٢ - ٤٤٠ ؛ المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ١٨٤ - ٣٣٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٩٣٠ - ١٩٧٢ ، ج ٥ ، ص ١ - ٢٣ ، ج ٦ ، ص ١٤١ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٧٥ ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٥ - ٢٢٠ .

رقم السجل بالتحرف	الوزن	مكان الضرب	سنة الضرب	مسلسل
٣/١٧.٨٠	٤ر٠٢ جرام	مصر	م ١٠٤٥/هـ٤٣٧	٧
١٧/١٧.٨٠	٤ر١٠ جرام	مصر	م ١٠٤٦/هـ٤٣٨	٨
٩٧٣٢	٤ر٢٥ جرام	مصر	م ١٠٤٧/هـ٤٣٩	٩
٤/١٧.٨٠	٤ر٠٨ جرام	مصر	م ١٠٤٨/هـ٤٤٠	١٠
٤٣٧٠	٤ر١٠ جرام	دمشق	م ١٠٤٩/هـ٤٤١	١١
٢٣٥٤٦	٤ر٠٢ جرام	الاسكندرية	م ١٠٥٠/هـ٤٤٢	١٢
٤٣٦٢	٤ر١٠ جرام	فلسطين	م ١٠٥٠/هـ٤٤١	١٣
٨/١٧.٨٠	٤ر٠٠ جرام	مصر	م ١٠٥١/هـ٤٤٣	١٤
٤٣٦٣	٤ر٢٠ جرام	صقلية	م ١٠٥٢/هـ٤٤٤	١٥
١٠/١٧.٨٠	٣ر٨٨ جرام	مصر	م ١٠٥٣/هـ٤٤٥	١٦
١٦/١٧.٨٠	٤ر٣٠ جرام	مصر	م ١٠٥٤/هـ٤٤٦	١٨
٤٣٦٤	٤ر٢٨ جرام	مصر	م ١٠٥٥/هـ٤٤٧	١٧
١٦٥٢٧	٤ر١٥ جرام	مصر	م ١٠٥٦/هـ٤٤٨	١٩
٧٠٩٧	٤ر٠٢ جرام	دمشق	م ١٠٥٩/هـ٤٥١	٢٠
٤٣٦٥	٤ر٣٩ جرام	طرابلس	م ١٠٥٩/هـ٤٥١	٢١
٤٣٦٧	٤ر٢٠ جرام	المهدية	م ١٠٥٩/هـ٤٥١	٢٢
٤٣٦٨	٤ر١٠ جرام	فلسطين	م ١٠٦١/هـ٥٤٣	٢٣
١٥/١٧.٨٠	٤ر٢٢ جرام	مصر	م ١٠٦٢/هـ٤٥٤	٢٤
٤٣٦٩	٤ر٢٠ جرام	المهدية	م ١٠٦٣/هـ٤٥٥	٢٥
١٧/١٧.٨٠	٣ر٩٤ جرام	مصر	م ١٠٦٤/هـ٤٥٦	٢٦
٩٧٣٣	٤ر٠٢ جرام	مصر	م ١٠٦٥/هـ٤٥٧	٢٧
٠٢/١٧.٨٠	٤ر٠٠ جرام	مصر	م ١٠٦٦/هـ٤٥٨	٢٨
٢٤/١٧.٨٠	٤ر١١ جرام	مصر	م ١٠٦٧/هـ٤٦٠	٢٩
٣٨٧٦	٤ر٠٣ جرام	مصر	م ١٠٦٨/هـ٤٦١	٣٠
٢٣٥٩٠	٤ر١١ جرام	الاسكندرية	م ١٠٧٩/هـ٤٧٢	٣١
٩٠٩٧	٤ر٣٠ جرام	مصر	م ١٠٨٧/هـ٤٨٠	٣٢
٢٣٥٤٧	٤ر٢٥ جرام	الاسكندرية	م ١٠٨٩/هـ٤٨٢	٣٣
١٨٤٤٧	٤ر٠٢ جرام	مصر	م ١٠٩٠/هـ٤٨٣	٣٤
٣٨٧٥	٤ر٠٣ جرام	الاسكندرية	م ١٠٩١/هـ٤٨٤	٣٥

من هَذَا العرض يتضح لنا أن الخليفة المستنصر بالله قد جرى على سنة غيره من الخلفاء الفاطميين من حيث تعميم دور سك النقود الشيعة لبس في مصر وحدها بل أيضا في شمالي أفريقيا والشام وطرابلس وفلسطين. وصور وصقلية بدليل تلك الدنانير التي وصلتنا من عصره من كل هذه الأقاليم والتي تذر بها المتاحف ودور الكتب ضمن غيرها من العملات الفاطمية المحفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة ودار الكتب المصرية (٢٥)، ومتحف دمشق الوطني ، والمتحف العراقي ببغداد ، ومتحف استنبول ، والمكتبة الأهلية بباريس ، والمتحف البريطاني بلندن ، ومتحف اشموليان باكسفورد ، ومتحف جمعية النميات الأمريكية بنيويورك (٢٦) ، ومتحف برلين ، ومتحف كوبنهاجن ، ومتحف بالرمو بصقلية (٢٧) وغيرها من المتاحف والمجموعات الخاصة التي يحتاج الأمر للتعرف على ما فيها من مسكوكات الى اتصال شخصي باصحابها من الهواة (٢٨) .

(٢٥) عن هذه المجموعة انظر كل من

Lavoix, Catalogue ds monnaies

musulmanes de la Bibliothèque Nationale, III, Egypte et Syrie, Paris, 1896; Lane-Poole, Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo, London, 1897.

(٢٦) حاول ميلز في سنة ١٩٥١ اعطاءنا احصاء دقيق لمجموعة المسكوكات الفاطمية في جمعية النميات الامريكية وجامعة بنسلفانيا في كتاب اثار فيه الى المراجع المقارنة للنقود الفاطمية التي قام بنشرها انظر : Miles, Fatimide Coins New-York, 1951.

(٢٧) انظر ما كتبه كل من لاجومينا وبالوج عن هذه النقود

Lagumina, Catalogo

delle monete arabe esistenti nella Biblioteca comunale au Parlermo.

(٢٨) قام الدكتور عبد الرحمن فهمي بنشر بعض الدنانير الفاطمية المحفوظة ضمن مجموعة الدكتور فتحي سلام بيد أن هذه الدنانير تخلو من نقود مستنصرية انظر ، عبد الرحمن فهمي ، اضافات جديدة في مسكوكات الفاطميين ، مجلة المجمع العلمي المصري ، المجلد ٥٢ ، موسم ١٩٧٠ / ١٩٧١ ، ص ٣ - ٢٤ .

ويستشف أيضا من دراسة هذه القائمة الخاصة بالدنانير المستنصرية جودة الدينار المستنصرى من حيث الوزن ، إذ كان وزنه يفوق عادة الوزن الشرعى للدينار وهو ٢٥٠ جرام ، بدليل انه وصلنا دينار من ضرب طرابلس في سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م وزن ٣٩٠ جرام (٢٩) ، وآخر من ضرب مصر في سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م وزنه ٣٠٠ جرام ، الأمر الذى يفسر لنا عبارة « جياذ العيون » المصاحبة للفظة الدنانير المستنصرية الواردة فى عقد الزواج الذى نحن بصدد دراسته ، والتي يقصد بها الدنانير المستنصرية الجيدة الذهب ، ولا عجب فى هذا فقد كان العرب يطلقون على الدنانير لفظة التبر والعين (٣٠) - ولعل المقصود بهذه العبارة أيضا الدنانير التامة الاستدارة ، لأنها كانت تضرب مدورة على شكل عين الحيوان (٣١) وهى الصفة الغالبة على دنانير الخليفة المستنصر بالله التى وصلتنا والمحفوظة حاليا بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ودار الكتب المصرية إذ يتراوح قطر كل منها فيما بين ١٩ مم ، ٢٢ مم .

والحق أن اختلاف حجم دنانير هذا الخليفة ينقلنا الى الحديث عن طرازها ، أى الكتابات الوازدة عليها ، ولذا فقد وقع اختيارنا على أربعة قطع من مجموعة متحف الفن الإسلامى بالقاهرة وقطعتان من دار الكتب المصرية ، الأولى من ضرب سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م ، والثانية من ضرب سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٥٣ م ، والثالثة مؤرخة بسنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م ، والرابعة

(٢٩) وصلنا دينار من ضرب مصر فى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ضمن مجموعة متحف فيلاديلفيا وزن ٤٨٤ جرام ، وآخر من ضرب فلسطين سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ضمن مجموعة جمعية النميات الأمريكية وزن ٤٨٢ جرام انظر : Miles, Fatimide Coins pp. 32, 34, no. s 314, 320.

(٣٠) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٣ .

(٣١) الكرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ١٤٩ .

من ضرب سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م تنشر هنا للمرة الأولى (٣٢) . أما الخامسة والسادسة فهما من اصدار سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م وفيها يلي عرض لهم :

١ - دينار من ضرب مضر سنة ٤٢٩ هـ (لوحة رقم ٣)

وجه	ظهر
مركز :	مركز :
لا اله الا الله	الامام
وحده لا شريك له	معد ابو تميم
محمد رسول الله	المستنصر بالله
على ولي الله	امير المؤمنين
هـامش	هـامش

محمد رسول الله أرسله بالهدى الدينر بمصر سنة تسع وعشرين ودين الحق ليظهره على الدين بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا كله ولو كره المشركون وأربعمائة

القطر : ٢٢ مم

السوزن : ٢٤ جرام

متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٣٥٤٥ .

(٣٢) انتهت هذه الفرصة لاسجل شكرى لكل من الاستاذ عيد الرؤوف على يوسف مدير متحف الفن الاسلامى بالقاهرة وللسيدة سهام المهدي امينة قسم العملة بالمتحف لتفضلهما بالموافقة على منحى حق نشر هذه القطع .

٢. — دينار من ضرب مصر سنة ٤٤٥ هـ (لوحة رقم ٤)

وجه	ظهر
هامش خارجي :	هامش خارجي :
محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون	بسم الله ضرب هذا الدين بمصر سنة خمس وأربعين وأربعمائة
هامش أوسط :	هامش أوسط :
وعلى أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين	دعا الامام معد لتوحيد الاله الصمد
هامش داخلي :	هامش داخلي :
لا اله الا الله محمد رسول الله	المستنصر بالله أمير المؤمنين
القطر : ٢٠ مم	
الوزن : ٤٢٣ جرام	
متحف الفن الاسلامي بالقاهرة رقم السجل ١٠/١٧٠٨٠	

٣. — دينار من ضرب مصر سنة ٤٥٨ هـ (لوحة ٥)

وجه	ظهر
هامش خارجي :	هامش خارجي :
محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون	بسم الله ضرب هذا الدين بمصر سنة ثمان وخمسين وأربعمائة
هامش أوسط :	هامش أوسط :
وعلى أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين	دعا الامام معد لتوحيد الاله الصمد

هامش داخلى :
لا اله الا الله محمد رسول الله المستنصر بالله أمير المؤمنين
القطر : ٢١ مم
الوزن : ٤١٢ جرام
متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ٢٠/١٧٠٨٠

٤ - دينار من ضرب صور سنة ٤٦١ هـ

ظهر	وجه
مركز :	مركز :
معد	على
عبد الله ووليه	لا اله الا الله
الامام أبو تميم	وحده لا شريك له
المستنصر بالله	محمد رسول الله
أمير المؤمنين	ولى الله

هامش :
محمد رسول الله أرسله بالهدى
ودين الحق ليظهره على الدين
كله ولو كره المشركون

هامش :
بسم الله الرحمن الرحيم ضرب
هذا الدينر بصور سنة احدى
وستين وأربعمائة

القطر : ٢٢ مم
الوزن : ٤١٢ جرام
دار الكتب المصرية رقم السجل ١١٦٨/١٥٤٧

٥ - دينار من ضرب مصر سنة ٤٦١ هـ

ظهر	وجه
هَامِشْ خَارِجِي	هَامِشْ خَارِجِي :
بِسْمِ اللّٰهِ ضَرَبَ هٰذَا الدِّينَر	مُحَمَّدَ رَسُوْلَ اللّٰهِ اَرْسَلَهُ بِالْهَدْيِ
بِمِصْرٍ سَنَةِ اَحَدِي وَسِتِّيْنِ	وَدِيْنِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلٰى الدِّيْنِ
وَأَرْبَعِمِائَةٍ	كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُوْنَ
هَامِشْ اَوْسَطُ :	هَامِشْ اَوْسَطُ :
دَعَا الْاِمَامَ مَعْدَ لِتَوْحِيْدِ	وَعَلٰى اَفْضَلِ الْوَصِيِّيْنَ
الِاِلٰهِ الصَّمِدِ	وَوَزِيْرٍ خَيْرِ الْمُرْسَلِيْنَ
هَامِشْ دَاخِلِي :	هَامِشْ دَاخِلِي :
الْمُسْتَنْصِرَ بِاللّٰهِ اَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ	لَا اِلٰهَ اِلَّا اللّٰهُ مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللّٰهِ
	الْقَطْرِ : ٢١ مَم
	الْوِزْنُ : ٤ر٠٣ جَرَام
	دَارُ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ رَقْمُ السَّجْلِ ١١٦٨/١٥٤٦

٦ - دينار من ضرب مصر سنة ٤٨٣ هـ (لوحة رقم ٦)

ظهر	وجه
مَرْكَزُ :	مَرْكَزُ :
مَعْد	عَلٰى
عَبْدَ اللّٰهِ وَوَلِيَّهِ	لَا اِلٰهَ اِلَّا اللّٰهُ
الْاِمَامَ مَعْدَ اَبُو تَمِيْمِ	وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ
الْمُسْتَنْصِرَ بِاللّٰهِ	مُحَمَّدَ رَسُوْلَ اللّٰهِ
اَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ	وَلِيَّ اللّٰهِ
عَال	

هامش :

محمد رسول الله أرسله بالهدى
 ودين الحق ليظهره على الدين
 كله ولو كره المشركون
 بسم الله الرحمن الرحيم ضرب
 هذا الدينر بمصر سنة ثلث
 وثمانين وأربعمائة

القطر : ٢١ مم

الوزن : ٤ر.٢ جرام

متحف الفن الاسلامى بالقاهرة رقم السجل ١٨٤٤٧ .

من هذه الدراسة يمكننا القول بأن الدينار المستنصرية كانت تضرب على طرازين مختلفين : الأول يتألف من كتابات مركزية تسير على كلا الوجهين في سطور أربعة أو خمسة متوازية ، يحيط بها هامش خارجى تدور كتاباته عكس اتجاه عقرب الساعة ويفصلها عنه دائرتان من خطين بارزين (اللوحتان ٣ ، ٦) ، وهذا الطراز متأثر الى حد كبير بالعملة التى ضربها الخلفاء الفاطميون فى شمالى افريقيا قبل مجيئهم الى مصر . أما الطراز الثانى فقد بدا أكثر زخرفة ، إذ أخذت التصنوص المكتوبة عليه شكل دوائر متتالية تسير فى عكس اتجاه عقرب الساعة ويحيط بها حلقات من خطوط يارزة على وجهى الدينار (اللوحتان ٤ ، ٥) وهذا الطراز مطابق بدوره للنقود الفاطمية التى ضربت بالمنصورية التى أسسها الفاطميون فى تونس الحالية سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م . والى جانب ذلك ، التشابه بين أشكال ونصوص الدينار المستنصرية والسكة الفاطمية فى المغرب ، نجد تشابها آخر فى العيار فقد وصل عيار النقود الذهبية فى مصر الفاطمية بصفة عامة الى ٢٣٥ قيراط وهو عيار جيد جدا يتمشى أيضا مع عيار النقود الفاطمية التى ضربت فى المغرب ويعكس لنا العهد القديم الذى قطعة جواهر على نفسه للمصريين عند استيلائه على مصر فى سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م . بتعير النقود وتجويدها ومنع الغش فيها وصرفها الى العيار الذى عليه النقود المنصورية فى شمالى افريقيا (٣٣) .

(٣٣) عبد الرحمن فهمى ، النقود العربية ، ص ٥٩ ، ٦١ ؛

A. Ehrenkretz The Crisis of Dinar in the Egypt of Saladin,
 JAOS, 76, pp. 178-180.

ننتقل بعد ذلك الى الحديث عن الصداق نفسه اى الدنانير الأربعة التى أصدقها حسن الى زوجته ضياء وهو مبلغ ضئيل فى نظرنا خاصة لو تذكرنا أن هذا الزواج قد تم ابان سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م التى روى المؤرخ ابن ميسر بصددها ما نصه « وفيها اشتد الفلاء بمصر وقلت الأوقات فى الأعمال ، وعظم الفساد واكل الناس الجيف والميتات ، ووقفوا فى الطرقات فقتلوا من ظفروا به وأخذوا ماله » (٢٤) . وابن ميسر يشير هنا الى بعض الأحداث المجاعة الكبرى التى حدثت بمصر بسبب تقصير النيل واستمرت سبع سنين من ٤٥٧ — ٤٦٤ هـ / ١٠٦٥ — ١٠٧١ م حتى عرفت باسم الشدة المستنصرية وثبتهت بسنى يوسف الصديق بسبب ما ترتب عليها من آثار وخيمة وصلت آثارها الى العراق والحجاز بل وبلاد ما وراء النهر (٢٥) وعظم الأمر خلالها حتى تعذر وجود الأثوان وارتفعت الأسعار حتى بيع رغيف فى زقاق الفناديل كما تباع الطرف بأربعة عشر دينارا ، وقيل أربعة عشر درهما ، وبيع أردب القمح بمائتى (٢٦) ، وبذا لم تعد للأموال أهمية من أجل الحصول على الطعام بدليل ان حارة سميت بحارة الطبق بعد أن بيع فيها عشرون دارا لقاء طبق من الطعام (٢٧) . وتتحدث المصادر أيضا عن امرأة من أرباب البيوتات ، باعت عقدا لها قيمته ألف

(٣٤) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص ٣٥ .

(٣٥) ابن أبيك الدوادار ، كنز الدرر ، ج ٦ ، ص ٣٦٩ .

(٣٦) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص ٥٨ ، انظر ايضا كل من المقرئى ، افائة الأمة ، ص ٢٤ ؛ ابن أبيك الدوادارى ، كنز الدرر ، ج ٦ ، ص ٣٧١ ، حيث أشار الى بيعه بثمانين دينارا فقط ، على جين اشار ابن تغرى بردى الى بيعه بمائة دينار ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٧ ؛

Ashtor, Histoire des

prix et des salaires dans l'Orient médiéval, Paris,

1969; pp. 125, 132.

(٣٧) ابن أبيك الدوادارى ، كنز الدرر ، ج ٦ ، ص ٣٧١ ؛ عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله ، ص ١٥٧ ؛ ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٣٥ .

دينار بتليس دقبق ، نهب منها أثناء الطريق بعد أن استطاعت أن تأخذ منه ما يعجن قرصة ، ثم أخذتها ووقفت في مكان مرتفع ورفعتها في يدها بحيث يراها الناس ونادت بأعلى صوتها : « يا أهل القاهرة ، ادعوا لمولانا المستنصر ، الذي أسعد الله الناس بأيامه ، وأعاد عليهم بركات حسن نظره حتى تقومت على هذه القرصة بألف دينار (٢٨) » . ونقرأ أيضا عن حبة القمح التي وقفت على صاحبها بدينار كامل (٢٩) ، وعن البيضة التي سارت تباع بنفس المبلغ (٤٠) . مما اضطر أعيان الدولة ورؤساءها الى خدمة الناس لقاء كسرة من الخبز يسدون بها رمقهم ، بل ولم يكن الخليفة نفسه يجد ما يقتات به فكانت الشريفة بنت صاحب السبيل ترسل اليه برغيفين أو يقعب من فتيات ، يقتات منه مرة واحدة في اليوم (٤١) .

كذلك اضطر الناس الى اكل الميتة من الكلاب والقطط والبغال وأخذوا في البحث عنها في كل مكان حتى بيع الكلب بخمسة دنانير ، والقط بثلاثة دنانير (٤٢) ولم يعد يصل اليها الا اهل السعة والثراء وزادت المسغبة حتى

-
- (٣٨) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٥ - ١٩٦٧ ، ج ١ ، ص ٥٨-٥٩ ؛ النوويرى نهاية الأرب ، ج ٢٦ ، ورقة ٦٦ ؛ ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص ٥٧ ؛ الذهبى ، العبر في خبر من غبر ، الكويت ١٩٦٠ ، تحقيق صلاح المنجد ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ؛ المقرئى ، الخطلط ، ج ١ ، ص ٣٣٧ ؛ اغائة الأمة ، ص ٢٥ - ٢٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ص ١٧ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .
- (٣٩) ابن ميسر ، المنتقى من أخبار مصر ، ص ٥٧ ؛ النوويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٦ ، ورقة ٦٩ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢١٨ .
- (٤٠) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٧ ؛ زكى حسن ، كنوز الفاطميين القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٥ .
- (٤١) المقرئى ، اغائة الأمة ، ص ٢٥ ؛ عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله ، ص ١٥٨ .
- (٤٢) المقرئى ، اغائة الأمة ، ص ٢٤ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٣٦٨ .

حتى اضطر سكان القاهرة الى اكل لحم الالهسان ، فقد أشارت بعض المصادر الى قصة الوزير الذي نزل يوما عن بغلته ، فغفل عنها الفلام المكلف بحراستها بسبب ضعفه من الجوع فاستولى عليها ثلاثة نفر وذبحوها واكلوا لحمها ، فقبض عليهم وتم صلبهم ، فلما أصبح الناس لم يروا سوى عظامهم لأن الناس اكلوا اثناء الليل لحومهم . وقيل أيضا أن الرجل صار يأخذ ابن جاره ويذبحه ويشويه ويأكله ولا ينكر ذلك . بل صارت طائفة من الناس تجلس بأعلى ببوتها ومعها سلب وحبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم أحد القوها ونشلوه في أسرع وقت وشرحوا لحمه واكلوه حتى عرف الزقاق الذي يجلسون فيه بزقاق القتل (٤٢) . ورغم ما في هذه الروايات من مبالغات واضحة (٤٤) قد تكون من افتعال بعض مؤرخي السنة الذين رأوا فيها أصاب البلاد من كوارث كانت بمثابة انتقام الهى لما ارنكبه الوزير السياسيرى حين ثار في العراق وجعل الخطبة والسكة في بغداد باسم الخليفة المستنصر بالله (٤٥) ، فانه من المسلم به أن هذه الشدة قد صاحبها ارتفاع ملحوظ في الأسعار فقدت معه النقود قيمتها الفعلية وبذا

(٤٣) المقرئى ، خطط ، ج ١ ، دس ٣٣٧ ؛ اغائة الامة ، ص ٢٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٥ ، ص ١٧ ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٦٠ ؛ عبد المنعم ماجد ، الامام المستنصر بالله ، ص ١٤٨ .

(٤٤) قارن بين الأحداث هذه الشدة وبين ما حدث ابان السنين الأولى من حكم السلطان العادل الأيوبى (٥٩٦ - ٦١٥ هـ / ١٢٠٠ - ١٢١٨ م) حدث اشتد الجوع بالناس حيث كلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والارواث ، تعدوا ذلك الى أن اكلوا صفار بنى آدم فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صفار مشويون أو مطبوخون . انظر عبد اللطيف البغدادى ، الافادة والاعتبار فى الأمور والمشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر ، ص ٦٢ وما بعدها . انظر أيضا المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٣٢ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٤٥) ابن ميسر ، المنقى من الخبر مصر ، ص ١٩ .

يكون الصداق المقدم من المدعو حسن الى زوجته ضياء مبلغا رمزيا (٤٦) لأنه لم يكن يكتفى لشراء رغيف من الخبز بلغة هذا العصر نتيجة لما حدث فيه من تضخم .

والواقع أنه من الصعب أن نقرر هنا عما اذا كانت الدنانير الأربعة تمثل الحد الأدنى للصداق الذي كان يقدم للمرأة من عامة الشعب زمن الدولة الفاطمية ، كما أنه من الصعب علينا ان نتعرف في الوقت نفسه على أكبر صداق قدم لنساء هذه الطبقة بسبب ندرة عقود الزواج التي وصلتنا من هذه الفترة . ومن المستحيل كذلك أن نعقد مقارنة هنا بين ما كان يقدم لنساء عامة الشعب وبين ما كان يقدم لنساء الطبقة الحاكمة بسبب خاؤ عقود هذه الطبقة ، التي تحت أيدينا الآن ، من قيمة الصداق (٤٧) ، وان كان بالإمكان ان نشير الى أن عقود الطبقة الأولى كانت تسجل على البرديات بخط الرقاع ، على حين كانت عقود الطبقة الأرسطوقراطية تسجل على قطع من النسيج المغموس في مادة نشوية بالخط الكوفي الذي شاع استخدامه عنى تحف العصر الفاطمي (لوحة رقم ٢) .

أما فيما يختص بالشيخ ابي الفضل الذي بولى عقد هذا الزواج بأمر من القاضي أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن ، خليفة القاضي أبي الحسن مسرة بن عبد الله ، فلم نعثر على ترجمة لأحد منهم في المصادر المعاصرة ، باستثناء الأخير إذ ورد اسمه على بردية محفوظة بمتحف برلين تحت رقم ١٥٠٢٢ / ١٢ ، وبالتالي فاننا نجهل عما اذا كانوا من الشيعة او السنة وان كان المتريزي يشير الى ان قضاة الولايات كانوا يقومون بعملهم

(٤٦) اختلف الفقهاء فيما بينهم بصدق الحد الأدنى للصداق فهو ثلاثة دراهم عند المالكية ، وعشرة عند الشافعية انظر :

D. Santillana, Istituzioni

di diritto musulmano Malichita con riguardo anche al sistema sciafiito, Roma, 1926, I, pp. 170-173; Shorter Enc. Isl., art. nikâh, 'urs; D. et J. Sourdel, La Civilisation de l'Islam classique, Paris, 1968, p. 585.

حيث نجد ان الحد الأدنى له يجب ألا يقل عن عشرة دنانير .
 (٤٧) انظر : Yûsuf Râgib, Un contrat, Ann. Ist., pp. 34-35.

القضائى نائبين عن رؤسائهم فى القاهرة (٤٨) ، كما نعلم فى الوقت نفسه أن أهل القرى المصرية كان معظمهم من أهل السنة المحافظين ، الذين لم يكن من السهل تحويلهم عن مذهبهم التقليدى (٤٩) .

ونستشف أيضا من هذا العقد أن مدينة الاشمونين وهى من أعمال الصعيد (٥٠) وموضعها حاليا احدى قرى مركز ملوى (٥١) ، كانت مجلسا للحكم وان القاضى بها كان بمثابة الوالى عليها وعلى أعمالها لجمعه بين الحكم والصلاة والخطابة والقضاء والمظالم فى آن واحد كما جاء فى نص العقد ، وذلك على الرغم مما ذكره التلقشندى من وجود ولاية واحدة بانصعيد هى قوص التى يحكم متوليها على جميع بلاد الصعيد (٥٢) . وهذا يعنى أنه كان يعين بسجل من قبل الخليفة ، وان كان الوضع قد تبدل بعد ضعف سلطة الخلفاء وصار تعيين الولاة من قبل وزراء السيف ، كما بطل عزل الولاة عند وفاة الخيفة ، بل صارت تجدد لهم الولاية (٥٢) .

بقى أن نشير فى نهاية هذه ادراسة الى أن هذا العقد قد توافرت فيه أركان العقد وشروطه من حيث العناية بالاشهاد اذ نجد فى صلب العقد شاهدى عدل شهدا على موافقة الزوجة على هذا الزواج باذنها ، وتبولها للدمداق المذكور عاجله وآجله . كما شهدا أيضا على اقرار الزوجين معا وكذا المتولى لهذا الزواج أى الشيخ أبو الفضل العباسى بن هبة الله ، وذلك بعد أن قرأ عليهما صيغة هذا العقد ، الذى أقرأ بفهمه وبمعرفة جميع ما جاء فيه ثم قام كل منهما باثبات شهادته واسمه فى نهاية العقد . أما الشيخ

-
- (٤٨) المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٦٣ .
 - (٤٩) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ١٣٤ .
 - (٥٠) أنظر التلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .
 - (٥١) محمد رمزى ، الشاموس الجغرافى ، القاهرة ١٩٦٣ ، القسم الثانى ، ج ٤ ، ص ٥٩ — ٦٠ .
 - (٥٢) التلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٣ ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .
 - (٥٣) التلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٨ ، ص ٢٣٩ — ٢٤١ ؛ عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ١٣٢ — ١٣٣ .

التولى للعقد وكذا العاقدان فلا توقيع لهم هنا ولعلمهم قد اکتفوا بتوقيع الشاهدين فقط .

وهذه العناية بالاشهاد على عقود الزواج بصفة خاصة ، ترجع الى عناية الشارع نفسه لخطره وعظم شأنه فهو وان كان كغيره من العقود أركانه الايجاب والقبول الا أنه خصه من بينها باشتراط حضور شاهدين لصحته ، وذلك لقول الرسول ﷺ « لا نکاح الا بشهود » (٥٤) . ومن المعروف أن الشهود كانوا يكونون زمن الدولة الفاطمية طائفة متميزة خضعت لنظام دقيق ، اذ كان يشرف عليها رئيس يعرف « بوجه الشهود » أو « مقدم الشهود » (٥٥) ، أما بقية الشهود العدول ، فكانت مراتبهم تختلف حسب تقدم أو تأخر تعديلهم ، وقد درج بعض القضاة على احاطة مجلس حكمهم بعدد كبير من الشهود رغبة في اعلاء شأنهم (٥٦) .

وهكذا تكشف لنا هذه الوثيقة عن بعض النواحي الاجتماعية المتعلقة بالزواج وقيمة الصداق الذي كان يقدم لنساء الشعب وعن بعض الفوارق الاجتماعية الشائعة تحت حكم الفاطميين في مصر من حيث طريقة صياغة عقود النواج ، وأيضا المادة المستخدمة لتسجيل هذه العقود ، وطرز الكتابة التي كانت تدون بها نصوص العقود التي كانت تختلف من طبقة الى أخرى .

كما أسهمت هذه الوثيقة في التعريف ببعض العملات التي كانت سائدة وقت صياغة هذا العقد والدليل على مدى جودتها ، كذلك كشفت عن التعريف ببعض التقاسيم الادارية باقليم الصعيد وما بها من وظائف متنوعة . والأساليب المتبعة بصدها من حيث الجمع بين هذه الوظائف ، وكذا التعريف بأسماء بعض من كان يشغلها من أغفلت المصادر الفاطمية الاشارة اليهم والتعريف بهم وبوظائفهم المحلية المتنوعة .

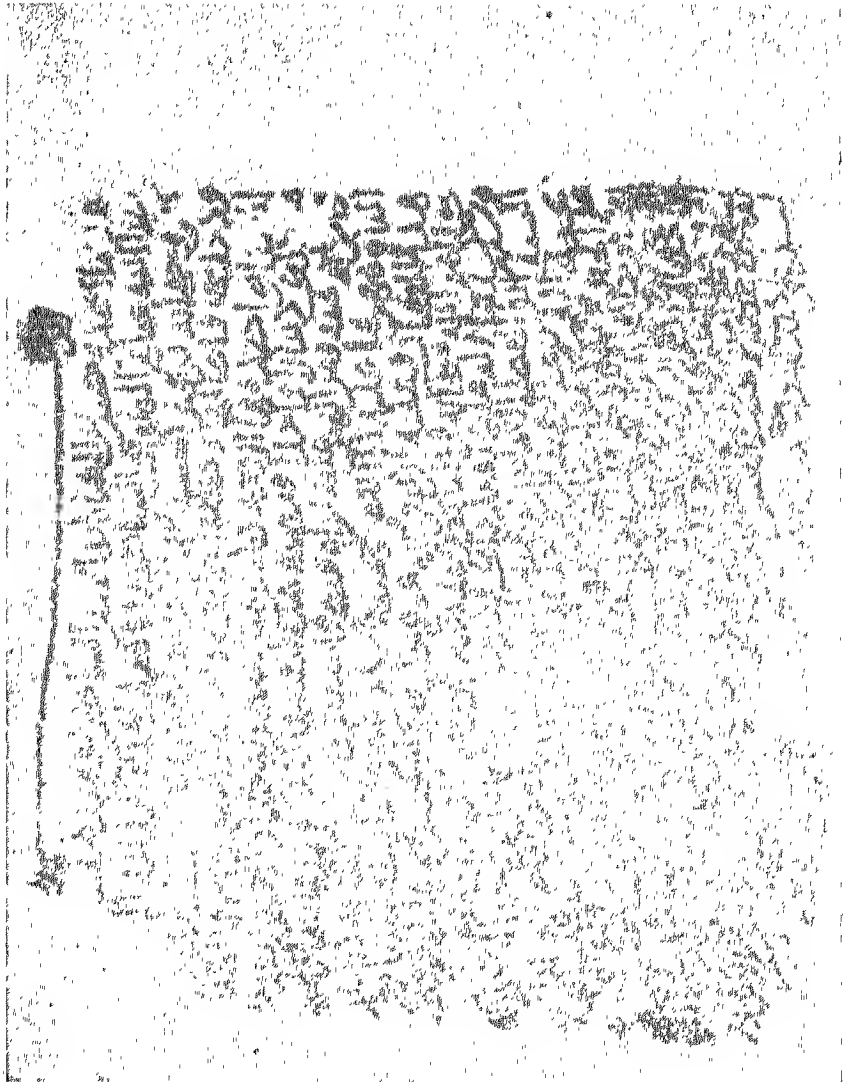
(٥٤) سعاد ماهر ، عقود الزواج ، ص ١٣ .

(٥٥) الكندی ، الولاة والقضاة ، تحقيق رفن جست ، بيروت ١٩٠٨ ،

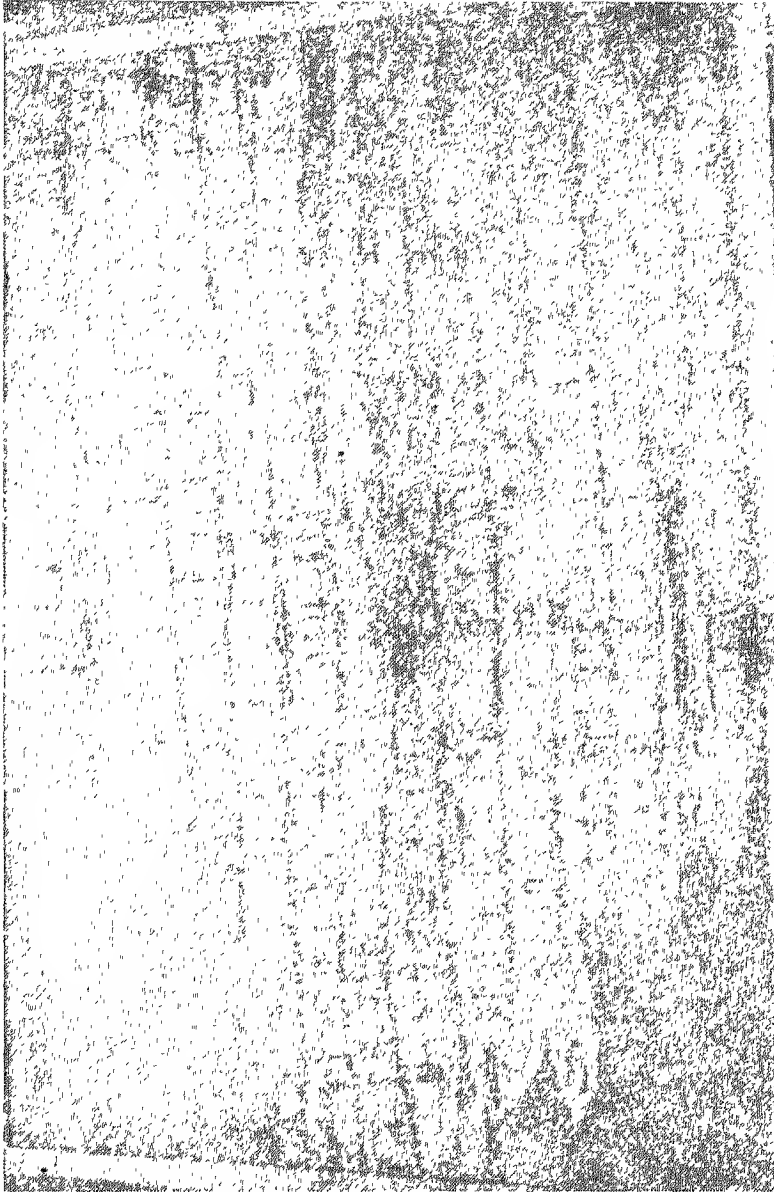
ص ٥٨٨ ، ٥٨٩ .

(٥٦) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ، ص ١٤٨ .

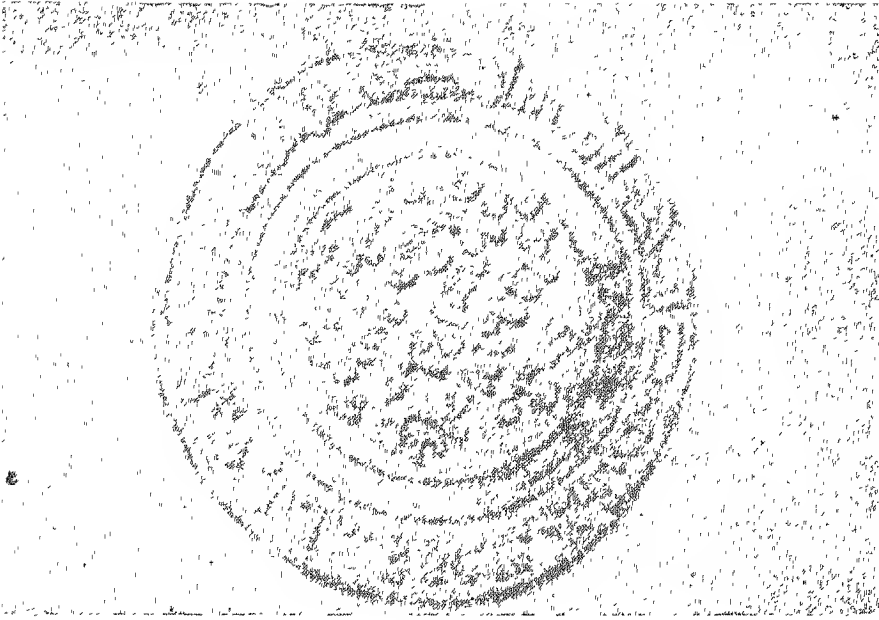
لوحة رقم ١



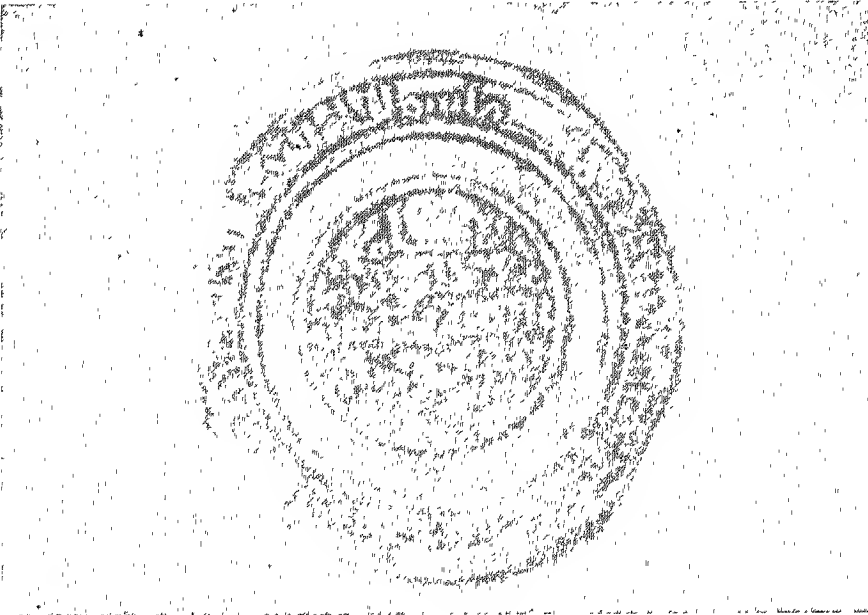
لوحة رقم ٢



لوحة رقم ٣

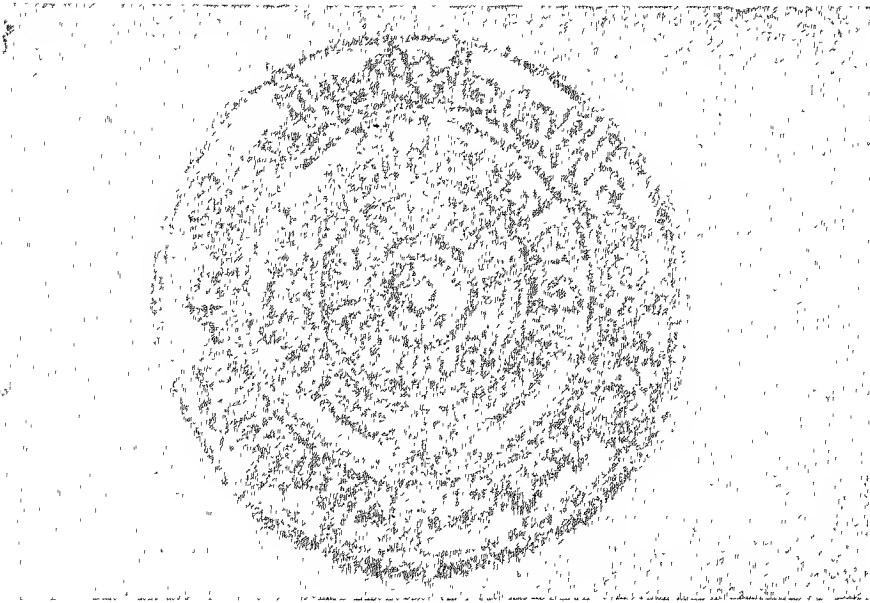


وجه

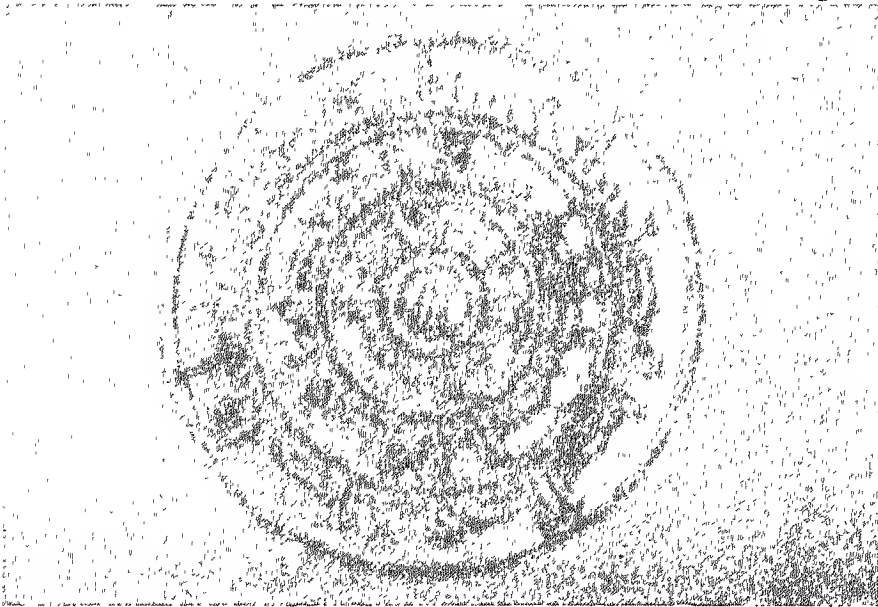


ظهر

لوحة رقم ٤

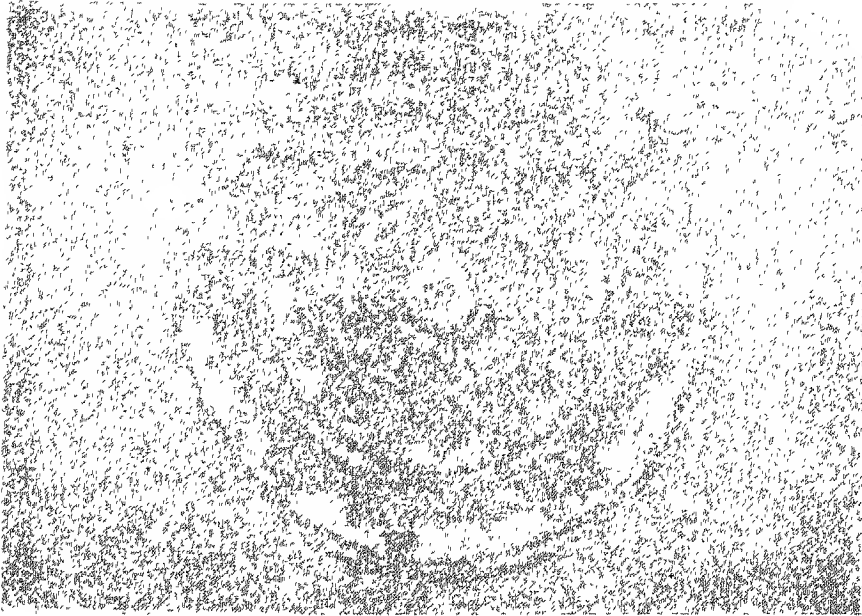


وجه

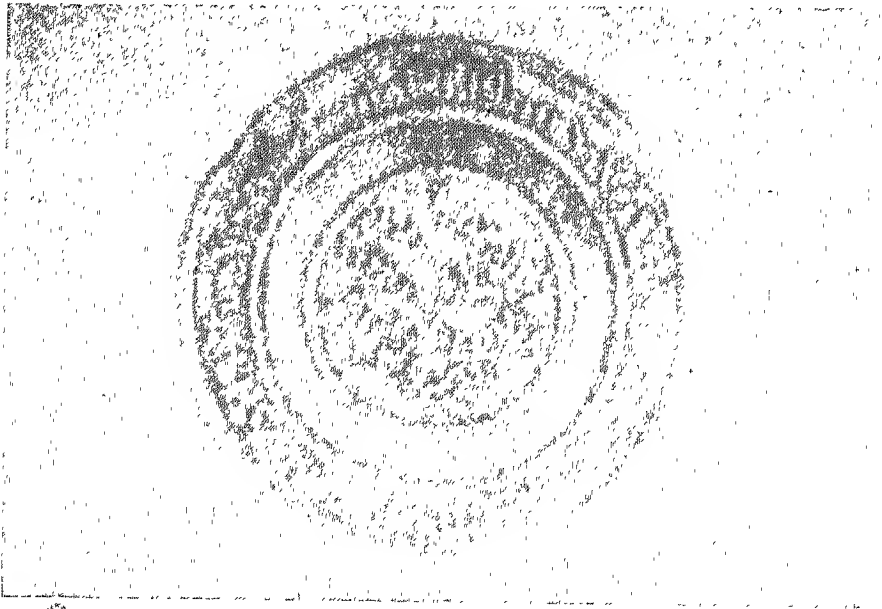


ظهر

لوحة رقم ٥

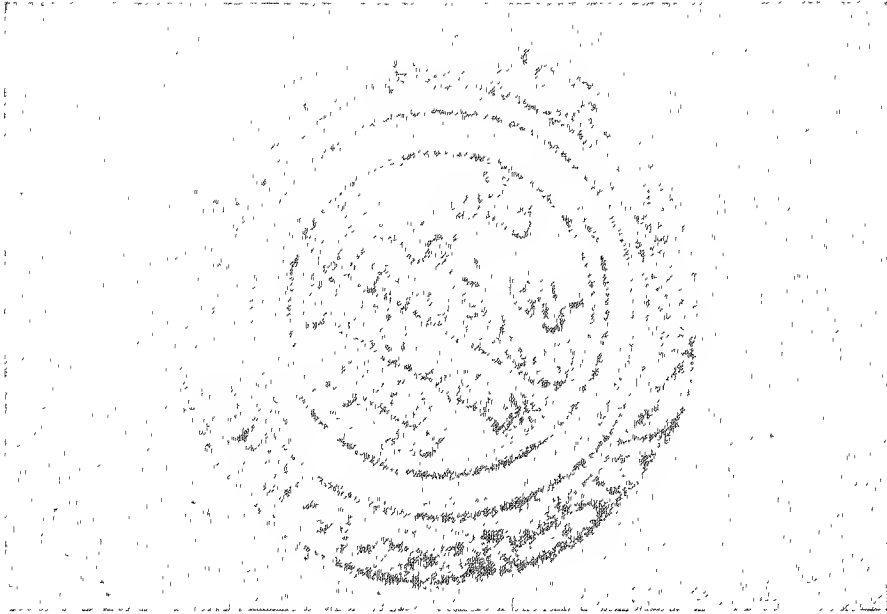


وجه

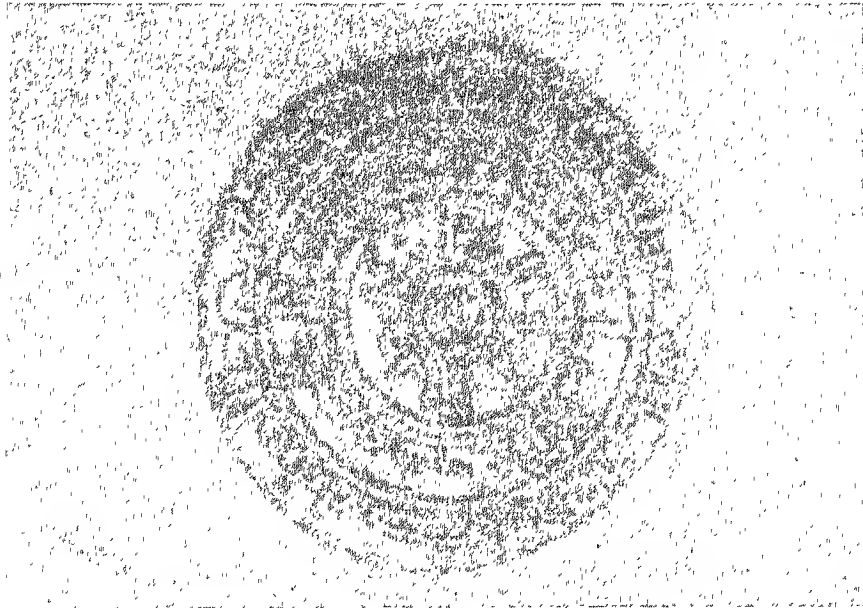


ظهري

اوحسة رقم ٦



وجه



ظهر

حول اتخاذ السودان ورفع الألوية والأعلام السوداء في المغرب والاندلس

للدكتور السيد عبد العزيز سالم استاذ التاريخ
الاسلامى والحضارة ورئيس قسمى التاريخ والوثائق،
والمكتبات بجامعة الاسكندرية

حول اتخاذ السودان ورفع الألوية والأعلام السوداء في المغرب والأندلس

كان لألوان الألوية والأعلام في التاريخ الاسلامى معان ورموز تشير اليها ، فكان التبييض ، أى رفع الرايات البيضاء ، والتسويد ، والتخضير والتخضير شعارات لها معان ومدلولات (١) ، فإذا ما رفع العلم الأسود ،

(١) يعتبر اللونان الأبيض والأسود ، وكلاهما نقيض للآخر ، من الألوان الرئيسية عند العرب ، أما الألوان الأخرى فكانت أقل شأنًا ، فالأخضر درجة من السواد ، والأحمر درجة من البياض ، والخضرة عند العرب السواد ، فكانوا يعبرون عن كثرة النخل والشجر بالسواد لخضرته والسوداده ، وقيل أن ذلك لأن الخضرة تقارب السواد ، وأرض السواد يقصد بها المناطق الخضراء من العراق . وكان العرب إذا أرادوا الأبيض من اللون قالوا أحمر ، ومنه كلمة حميراء (تصغير حمراء) التى وسمت بها السيدة عائشة أم المؤمنين بمعنى بياض ، والحمراء العجم لبياضهم ولأن الثنقرة أغلب الألوان عليهم (ابن منظور الأفريقى المصرى ، لسان العرب ، مادة سود ، وجر ، وخضر — الزبيدى ، تاج العروس من جواهر القاموس ، مادة خضر وسود) والمحمرة الخرمية هم أتباع المازيار بجرجان ، سموا كذلك لأنهم يحمرون راياتهم خلاف المسودة من بنى هاشم (عبد القاهر بن طاهر البغدادى ، الفرق بين الفرق ، القاهرة ، تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد ، ص ٢٦٨ — الزبيدى ، تاج العروس ، مادة حمر) ، وربما ترمز الحمرة عندهم بسفك الدماء لرغبتهم فى قتل أعدائهم العباسيين أما الصفرة فتقابل السواد ، والأصفر الأسود (تاج العروس ، مادة صفر ، وراجع : أبو الحسن على بن اسماعيل الأندلسى المعروف بابن سيدة =

شعار العباسيين في الأندلس أو المغرب في فترة ما من التاريخ الاسلامى ، دل ذلك على قيام ثورة على الحكم القائم ، استند فيها الثوار على شرعية هذا الرمز ، ولذلك فان اللون الأسود للعلم يعبر من حيث مدلوله اللغوى عن امور لها ابعادها التاريخية ، ومن هنا كانت اللغة الاطار الذى يحدد مدلولات الأشياء . فالبياض ، نقيض السواد ، كان لون لواء المسلمين الذى حمله مصعب بن عمير يوم غزوة بدر الكبرى ، وكان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم دخول مكة ابيض الأصفى (٣) ، وكان البياض ايضا شعار الأمويين فى المشرق وفى الأندلس (٤) ، وقد ظل رمزا لهم حتى بعد سقوط دولتهم فى المشرق ، فكان انصارهم الثائرون على أبى العباس السفاح ، أول خلفاء بنى العباس ، يرفعون الألوية البيضاء رمزا للنضال ضد الدولة العباسية (٤) ، وكذلك كان يقال للحرورية ، الخوارج ،

= المرسي ، كتاب المخصص ، طبعة بيروت ، السفر الثانى ، المجلد الأول
ص ١٠٥)

(٢) عبد الحى الكتانى ، كتاب التراثيب الادارية فى المدينة المنورة العلية ، طبعة بيروت ، نسخة مصورة عن طبعة الرباط ١٣٤٦ هـ ص ٣٢٠ . ومن المعروف أن لواء رسول الله (ص) كان ابيض اللون ورايته سوداء (ابن هشام ، السيرة النبوية ، طبعة بيروت ، ١٩٧٥ ، ج ٢ ، ص ١٨٦ — عبد الحى الكتانى ، كتاب التراثيب الادارية ، ص ٣١٨ ، ٣٢٢) وزاد ابن عباس انه كان مكتوبا على لوائه صلى الله عليه وسلم « لا اله الا الله محمد رسول الله (راجع ابن الجوزى ، الوفا بأحوال المصطفى ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ، ج ، ص ٦٧٠ — عبد الحى الكتانى ، التراثيب الادارية ، ص ٣٢٢)

(٣) احمد مختار العبادى ، فى التاريخ العباسى والأندلسى ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٢١٠ .

(٤) بيض حبيب بن مرة المرى فى البثنية وحوران سنة ١٣٢ هـ ، وبيض أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث النكلابى قائد أبى محمد عبد الله بن يزيد بن معاوية ، المعروف بالسفثيانى فى قنشرين ، كما بيض أهل الجزيرة وشقوا عصا الطاعة على أبى العباس السفاح ، وزحفوا نحو =

المبيضة لأن راياتهم في الحروب كانت بيضاء (٥) ، كما كان المسلمية الرزامية والمقنعية الناقمون على العباسيين يبيضون في بلاد ما وراء النهر (٦) . والبياض عند الأمويين وربما عند غيرهم قد يعنى النقاء والطهارة والصفاء ، اذ أن اللون الأبيض عند العرب يعنى النقى الخالى من العيوب (٧) ، وقد يكون ذلك هو السبب في اختيار الأمويين للون الأبيض شعاعا لهم . أما العباسيون ، فقد اتخذوا السواد شعاعا لهم منذ أن لبسه أبو مسلم الخراساني في رمضان سنة ١٢٩هـ ، وجعله لون لوائه (٨) ، ربما تعبيرا عن حزنهم (٩) على الشهداء من آل البيت الذين سقطوا ضحايا المطالبة بحقهم في الخلافة ، وهو حق انتزعه الأمويون منهم ، وإن كان العباسيون بدورهم قد فعلوا نفس الشيء مع الطالبيين ، وينسبون في ذلك التفسير الى بكير بن ماهان ، داعى العباسيين في الكوفة (١٠٥ — ١٢٧هـ) قوله : « قد تتابعت على آل رسول الله مصائب لا يفكر معها لأتباعهم لباس السواد حتى يدركوا بنأرهم » . ولكن عددا من الباحثين لا يقر هذا التفسير ، ويعتقدون أنه

= حران ، وبيض أهل قرقيسياء ، والرقعة ، ودارا ، وماردين ، والرهما ، وسهمياط في نفس الفترة ، تمسكا بولائهم للدولة الأموية البائدة (السيد عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب ، ج ٣ : العصر العباسي الأول ، الاسكندرية ١٣٩٨هـ ، ص ٥٧) .

(٥) الزبيدي ، تاج العروس ، مادة حمر .

(٦) عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٧ .

(٧) الزبيدي ، تاج العروس ، مادة حمر .

(٨) ولهذا السبب عرف العباسيون بالمسودة ، فكانوا يخرجون وقد حملوا الرايات السوداء (راجع اصطلاح المسودة في اخبار مجموعة في تاريخ الأندلس ، نشره لافونتي القنطرة ، مدريد ١٨٦٧) .

(٩) جرت العادة في العصر العباسي أن يتخذ اللون الأسود أو الأزرق علامة للحداد والحزن على الموتى من الأقارب ، فعندما بلغ زبيدة أم الأمين نبأ مدرع ابنها ، أمرت بثيابها فسودت ولبست مسحا من شعر (المسعودي ، مروج الذهب ، طبعة بيروت ، ج ٣ ، ص ٤١٥) كذلك لبس الرشيد يوم وفاة أمه الخيزران طيلسانا أزرق اللون (الاربلى ، خلاصة التبر المسبوك ، بغداد ١٩٦٤ ، ص ١١٢) .

لا توجد ثمة صلة بين اللون الأسود وبين أحزان العباسيين على شهداء أهل البيت استنادا الى أن بعض المعارضين للحكم الأموي أمثال أبي حمزة الخارجي والحارث ابن سريج سبقوا العباسيين في حمل اللواء الأسود في حروبهم ضد الأمويين ، فالكميت يخاطب الحارث بن سريج بقوله :

والا فارفعوا الرايات سودا . . . على أهل الضلالة والتعمدى (١٠)

ويكون للسواد في تلك الحالة علاقة بأهل الضلالة والبغى ، فيرمز للحق والعدالة (١١) . ويستندون في ذلك الى أن رسول الله ﷺ كانت له راية تسمى العقاب (١٢) مصنوعة من صوف أسود مربعة ، رسم فيها هلال أبيض ، كان يحملها في غزواته وحروبه ضد المشركين (١٣) . وذكر ابن حجر العسقلاني

(١٠) احمد مخنار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٢٦ . والمقصود بأهل الضلالة والتعمدى الأمويون .
(١١) عبد العزيز الدوري ، العصر العباسي الأول ، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص ٣٦ .

(١٢) جاء في المخصص لابن سيده أن العقاب العلم الضخم شبهت بالعقاب من الطير ، وهي اللواء (راجع ابن سيده ، المخصص ، السفر السادس ، المجلد الثاني ، ص ٢٠٤) .

(١٣) عبد الحى الكنانى ، كتاب التراتيب الادارية ص ٣٢٠ وما يليها . وربما استهدف العباسيون من اتخاذ السواد شعارا لهم وحمل الألوية السوداء في حربهم مع الأمويين الاقتداء برسول الله ﷺ في حربه مع المشركين أهل الضلالة والكفر ، فان هشام في السيرة النبوية يذكر نقلا عن ابن اسحق ، أنه كانت لرسول الله ﷺ رايتان سوداوان احدهما مع على بن أبى طالب يقال لها العقاب والأخرى مع الأنصار (ابن هشام ، السيرة النبوية ج ٢ ص ١٨٦ أبو الربيع سليمان بن روس الكلاعى الأندلسى ، الاكتفاء فى مغازى رسول الله ج ٢ تحقيق دكتور مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٨ ، عبد الحى الكنانى ، المرجع السابق ص ٣٢١) وذكر ابن الجوزى أن راية الرسول كانت سوداء من مرط لعائشة من مرطل وكانت على شكل مربع من الصوف تسمى العقاب (أبو الفرج بن الجوزى) .

في الإصابة عند ترجمته لسعد بن مالك الأزدي ، أنه وفد على النبي ﷺ ،
 فعقد له راية على قومه سوداء فيها هلال أبيض (١٤) ، وذكروا أنه عندما قدم
 عمرو بن العاص من غزوة ذات السلاسل ، كانت تخفق بالمسجد النبوي في
 المدينة رايات سود ، وكانت لعلى بن طالب (رضى الله عنه) راية سوداء
 حملها له الحضير بن المنذر بن الحارث بن دعدة المعروف بصاحب راية
 ربيعة ، يوم صفين وفي ذلك يقول على (رضى الله عنه) :

لن راية سوداء تخفق ظلها . . . إذا قيل قدمها حضيرين تقدما (١٥)

وقد يرمز السواد للسيادة والمجد والشرف ، فيقال ساد يسود سودا
 وسؤددا وسيادة ، والأسود من القوم على هذا النحو سيدهم وأجلهم قدرا
 وأعظمهم (١٦) . وقد يرمز للغلبة والتفوق ، لأن السواد يعنى الكثرة العددية ،
 وسواد الناس عامتهم . واعتقد أن للسواد علاقة بقدر السادة والأخذ بالثأر
 منهم من قول الشاعر :

فان أنتم لم تنأروا وتسودوا . . . فكونوا بغيا في الكف عياها (١٧)

والواء الأسود في هذه الحالة يرمز الى الدعوة لقتال السادة طلبا

=

الوفاء بأحوال المدمطى ، ج ٢ ص ٦٦٩) . ويصفها الشيخ عبد الحى الكتاني
 بأنها شملة مخططة من صوف ، وقيل فيها مثال الأهلة ، وقال نقلا عن ابن
 جماعة في مختصر السير ، وكان لرسول الله ﷺ راية سوداء مربعة يقال
 لها العقاب (كتاب التراثيب الادارية ، ج ١ ص ٣٢٢) .

(١٤) ابن حجر العسقلاني ، كتاب الإصابة في تمييز الصحابة ، ج ٢ ،
 طبعة مصورة بالأوفست ، عن طبعة مدر ١٣٢٨ هـ ، ص ٣٢ ، ترجمة ١٣٩٢ .
 (١٥) عبد الحى الكتاني ، المرجع السابق ، ص ٣٢١ (١٠) ابن حزم
 القرطبي ، جهرة أنساب العرب ، تحقيق د. عبد السلام هارون ، القاهرة
 ص ٣١٧ .

(١٦) الزبيدي ، تاج العروس ، مادة سود - ابن منظور ، لسان
 العرب ، مادة سود .

(١٧) نفس المصدر .

ثلاثاً أو استعادة للحق من أهل البغى والتعدى والظلم . ويفهم هذا المعنى بوضوح تام في قول بكر بن ماهان سالف الذكر : « قد تتابعت على آل رسول الله مصائب لا ينكر معها لأشسياعهم لباس السواد حتى يذركوا يثارهم » ، بل اننى أعتقد ان نفس هذا المعنى يتضمنه بيت الشعر الذى استشهد به القائلون بأن الراية السوداء ترمز للحق والعدالة :

والا فارفعوا الرايات سودا . . . على أهل الضلالة وانتعدى

وعلى ضوء ما سبق ، وفى نفس الاطار يمكن أن نفسر اللون الأسود الراية الرسول ﷺ بعد تشريع الجهاد ضد المشركين الذين ظلموا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ، من قوله تعالى عز وجل : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » (١٨) وكان محمد بن على العباسى يقول : « عليكم بالسواد فليكن لباسكم » (١٩) . وقد أخذ خلفاء بنى العباس بذلك ، فكانوا لا يلبسون فى الرسميات الا الثياب السود ، وذكروا أن الرشيد كان يلبس يطوس يوم وفاته جبة سوداء ، خز بغير قميص ، وعليها فنك ، وفوقها دراعة خز سوداء مبطنة بفنك ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة وعمامة خز سوداء ، وكان متطلسا بطيلسان أسود .

وكان من اصحاب أبى جعفر المنصور عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز وكان ممن يلبس السواد ويلزمه حيث كان (٢٠) ، أما اللون الأخضر ، فكان رمزا للتشيع ، فعندما بايع المأمون العباسى الامام على الرضا بن موسى الكاظم بولاية العهد فى سنة ٢٠١ هـ ، طرح السواد من الثياب والاعلام ولبس الثياب

-
- (١٨) القرآن الكريم ، سورة الحج ٢٢ ، آية ٣٩ ، ٤٠ .
 (١٩) مجهول ، أخبار الدولة العباسية ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدورى ، بيروت ، ١٩٧١ ص ٢٤٥ .
 (٢٠) الجهشيارى ، كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا وآخرين ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٢٢٠ .

ويضاف الى هذه الالوان الثلاثة اللون الأصفر الذي اتخذه أبو زيد مخلد بن كيداد اليفرنى الخارجى الثائر على الدولة الفاطمية فى المغرب فيمسا بين عامى ٣٢٢ ، ٣٣٧ هـ ، لبندين من بنوده ، سجل فى أحدهما البسمة وعبارة « محمد رسول الله » ، وفى الآخر عبارة « نصر من الله وفتح قريب على يدى الشيخ أبى يزيد . اللهم انصر وليك على من سب أولياءك » (٢٤) . وقد سبق أن رأينا أن اللون الأصفر من فصيلة الأسود شعار الدولة العباسية . ويهمننا من هذه الالوان الأربعة اللون الأسود بالذات الذى أصبح اللون الرسمى فى الثياب عند العباسيين ، واتخذوه فى طياتهم وعمائمهم وقلانسهم وألويتهم ، وأصبح هذا اللون فى المغرب والأندلس — موضوع هذا البحث — شعارا للثورة على الأوضاع السياسية السائدة فى هذين الصقعين ، المجافية لطبيعة الأمور ، أو مظهرا من مظاهر الشرعية فى الولاية ، أو التماسا للتبعية الاسمية للخلافة العباسية ، أو اقرارا لعمل مخالف لإرادة المحكومين . وقد تمثلت هذه الحالات جميعا فى فترات مختلفة من تاريخ الأندلس تكرر فيها اتخاذ السواد ورفع الألويا السوداء ، والدعاء باسم الخليفة العباسى المعاصر للواقعة .

وأول من رفع اللواء الأسود فى المغرب عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع النهري ، أحد أحقاد عقبة بن نافع مؤسس القيروان ، تاييدا للثورة العباسية التى أطاحت بدولة بنى أمية ، وربما كسبا لسند شرعى يدعم دولته فى افريقية . ولقد ظهرت أطماع عبد الرحمن بن حبيب النهري فى الامارة منذ يوم بقندورة الذى انهزم فيه العرب على أيدي البربر فى طليعة عام ١٢٤ هـ ، فانحاز ابن حبيب الى الأندلس مع بلج بن بشر بن عياض

أحد رجالات العرب المعارضين للحكم الأغلبى فى عهد إبراهيم بن الأغلب ويدعى حمديس ، ولكن ثورته انتهت بالفشل ، وتمكن عمران بن مجالد ، قائد ابن الأغلب من استرجاع تونس (ابن الأثير ، الكامل التاريخ ، ج ٥ طبعة القاهرة ١٣٥٧ هـ ص ١٠٤ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، طبعة بيروت ، ج ٤ ص ٤١٩) .

(٢٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٠٨ وما يليها .

القشيري والطالعة البلجية المنسوبة اليه عساه يجد في الأندلس سبيلا يوصله الى تحقيق أمنيته ، ولكن ابواب الامارة في الأندلس كانت موصدة ، فلم يوفق في التماس مجال له هناك بسبب الصراعات العنيفة التي احتدمت في الأندلس أولا بين العرب والبربر ، ثم بين البليديين من العرب والبربر وبين الشاميين الطارئين ، فلما وجه حنظلة بن صفوان والى المغرب ابا الخطار الحسام ابن ضرار الكلبي الى الأندلس امرا ، يئس عبد الرحمن من تحقيق أمنيته ، وخاف أن يقع في قبضة الأمير الجديد (ابي الخطار) ، فركب سفينة اقلته الى تونس (٧٥) ، فنزلها في جمادى الأولى سنة ١٢٦هـ املا في الدعوة الى نفسه بين جماعات البربر الذين ينتسب اليهم عن طريق امه . ثم دعا الناس اليه في ٢٧ جمادى الآخرة من نفس السنة ، فأجابوه ، وجمع حشودا منهم لقتال حنظلة بن صفوان واخراجه من افريقية ليخلو له الجو ، ويعلم نفسه اميرا على افريقية . ونجح عبد الرحمن بن حبيب بعد محاولات خسيصة في حمل حنظلة بن صفوان على الخروج من افريقية الى دمشق في جمادى الآخرة من نفس السنة (٧٦) ، ومن افريقية بعث عبد الرحمن بيعة الى مروان بن محمد مع بعض الهدايا (٧٧) ، فأقره مروان بن محمد على ولاية افريقية . ولم يكن ابن حبيب في واقع الأمر في حاجة الى مثل هذا الاقرار ، اذ كان قد اغتسب الولاية بالفعل من حنظلة بن صفوان ، وكسان مروان بن محمد واقعيا ، فلم يكن امامه سوى اقراره على ما ببده في الظروف

(٢٥) يعبر ابن الأبار عن ذلك بقوله : « فلم يزل عبد الرحمن بهما (الى الأندلس) يحاول التغلب عليها الى أن دخل أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي واليا . . . فخافه عبد الرحمن وخرج مستترا ، فركب البحر الى تونس » (ابن الأبار ، الحلة السراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ٢ ص ٣٤١) .

(٢٦) راجع تفاصيل هذه المحاولات وما اصطنعه ابن حبيب من الغدر والمخائلة في حمل صفوان على الرحيل من أرض المغرب في : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصور الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٧ .

(٢٧) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٧ .

الصعبة التي كان يواجهها في الشرق الاسلامي ، وبهذا الاقرار أصبح ابن حبيب أميرا شبيه مستقل عن الخلافة الأموية المحتضرة ، وتمكن من التغلب على جميع خصومه السياسيين في افريقية ، وبطش بأعدائه البربر الاباضية في اقليم طرابلس وافريقية . ولكن هذا الانتهازي المغامر لم يكد يعلم بانتصار الثورة العباسية ومصرع مروان بن محمد ، وقيام دولة بني العباس في سنة ١٣٣هـ حتى بادر باعلان دخوله في طاعة أبي العباس السفاح ، فلما توفي السفاح في سنة ١٣٦هـ وخلفه أبو جعفر المنصور في تلك السنة أقر ابن حبيب الفهرى على ولاية افريقية ، وأرسل له خلعاً سوداء ، وهو أول سواد دخل افريقية . والظاهر أن ابن حبيب كان يسعى الى كسب تأييد شرعى من وراء هذه الخلع ، بدليل أنه ما كاد يستوثق من تمكين سلطانه في البلاد وثبات قدمه في الامارة ، حتى بادر بخلع طاعته للمنصور ، وأمر بتمزيق خلع المنصور . ولكن أنصار الدولة العباسية تأهروا على قتله ، وتنصيب أخيه الياس — المتعش الى الامارة — مكانه ، واعادة الدعوة لأبي جعفر المنصور ، وتولى الياس نفسه تنفيذ المؤامرة وقتل أخاه عبد الرحمن في سنة ١٣٧هـ ، ولما يهنأ بالامارة ، ولم يلبث الياس أن أعاد الدعاء على منابر افريقية لأبي جعفر المنصور لحاجته الى تأييد عباسى يشد أزره ، ويدعم شرعيته في الحكم بعد جريمته الشنعاء ، ولم يتردد في أن يبعث بطاعته الى المنصور مع وفد من العرب من بينهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضى افريقية (٢٨) .

وواضح مما سبق أن دخول بنى حبيب في طاعة العباسيين ، واتخاذهم السواد ، كان ضرورة سياسية حتمتها الظروف لتدعيم مركزهم المتأرجح في الداخل ، والاستناد في امارة افريقية على سند شرعى في تلك المرحلة الانتقالية الحرجة بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية . وربما كان عبد الرحمن بن حبيب يستهدف تحقيق استقلال ذاتى في افريقية قريب الشبه

(٢٨) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٤ ص ٢٨٠ — ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ص ٤٠٩ .

بإستقلال الأغلبية بهذا القطر فيما بعد ، مع الإبقاء على ولائهم للعباسيين ، فلما طالبه المنصور بالتبعية المباشرة ، لم يتردد ابن حبيب في تحديه ولعنه ، وأقدم على خلع السواد ، واحراق اللواء والخلع .

ثم ظهر اللواء الأسود في الأندلس للمرة الأولى في ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، ويبدو أن يوسف كان قد استنقل عن الخلافة الأموية في السنين الأخيرة من عصر مروان بن محمد ، فبعث أبو جعفر المنصور عند بدء قيام الدولة العباسية الى عامر بن وهب بن عمرو بن المصعب بن أبي عزيز بن عمير — وكان له في الأندلس قدر — سجلا ولواء بولاية الأندلس ، وقام بسرقتها ، ولكن يوسف الفهري قتله (٢٩) . واعتقد أن يوسف كان يرغب في الاستئثار بولاية الأندلس مهما كلفه الأمر ولهذا أراد أن يكسب شرعية في الحكم فخطب لأبي جعفر المنصور الى أن دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وأسس دولة بنى أمية في الأندلس . ثم رفع اللواء الأسود من جديد في سنة ١٤٦هـ لتقويض دعائم الحكم الأموي في الأندلس لصالح العباسيين ، رفعه العلاء بن مغيث اليحصبي على الأمير عبد الرحمن الداخل ، وذلك بعد ثمان سنوات فقط من مبايعة الأخير بالإمارة . ومن المعروف أن عبد الرحمن بن معاوية كان يدعو في بدء توليه الإمارة لأبي جعفر المنصور على نحو ما كان يفعل يوسف بن الرحمن الفهري ، والى الأندلس السابق ، ويذكر ابن الأبار في الحلة السيرة أن عبد الرحمن أقام الدعوة باسم المنصور لمدة تقل عن العام ، ومثلا في ذلك يوسف الفهري في دعائه للعباسيين (٣٠) ، في حين يحددها المقرئ بعشرة أشهر فقط . واعتقد ان المنصور كان يتوقع اقدام

(٢٩) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ١٢٦ .

(٣٠) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، تحقيق د. حسين مؤنس ، ج ١ ، ص ٣٥ . ويقول ابن الأبار « أقام أشهرا دون السنة يدعو لأبي جعفر المنصور متقبلا في ذلك يوسف الفهري الوالى قبله» . وواضح أن عبد الرحمن الداخل لم يشأ أن يقطع الدعاء للخليفة العباسي بمجرد توليه الإمارة ، وإنما تعمد الاستمرار في الدعاء له الى أن ترسخ قواعد إمارته ويثبت سلطانه . واعتقد أن عبد الرحمن كان موفقا في تلك السياسة الحكيمة التي تدل على ذكائه والمعيته وهو ما شهد له به أبو جعفر المنصور نفسه ، أنداعائه .

عبد الرحمن بن معاوية على اسقاط اسمه من الخطبة في الأندلس ، بل انه لم يكن يتوقع اطلاقاً أن يواصل عبد الرحمن ، خصمه اللدود ، وسليل خلفاء بني أمية في المشرق ، الدعاء له على منابر الأندلس ، ولهذا فان قطع الدعاء له في الأندلس لم يكن مفاجأة للمنصور ، ولم يكن لذلك ادنى اثر لديه ، ولم يحدث أى ردود فعل سريعة ، اذ كان في نيته القضاء على دولة عبد الرحمن بن معاوية سواء تابع الدعاء له أم توقف عنه . واعتقد ان انتظار المنصور الطويل ولدة ثمان سنوات ، على عبد الرحمن بن معاوية لم يكن يعنى اغفاله لأمره ، وانما كان انظاراً لفردحة موأنية ولظروف ملائمة للاطاحة بدولته . وجاءت اللحظة التي كان ينتظرها المنصور العباسي ، وتهيأت له الفرصة عندما سير الى المغرب الأدنى قوة عباسية بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي ، تمكنت من القضاء على الاباضية في طرابلس وسائر المغرب الأدنى ، ودخول القيروان في غرة جمادى الأولى من سنة ١٤٤هـ (٢١) ويبدو أن المنصور كان قد عهد الى احد قادة هذه الحملة وهو العلاء بن مغيث اليحصبي برفع لواء الثورة في الأندلس ضد عبد الرحمن الداخل ، مستغلاً الظروف الداخلية السيئة التي كانت تجتازها البلاد في هذه الفترة ، ليجمع حوله الأنصار والمؤيدين للدولة العباسية ، ويتمكن بهم من السيطرة على قرطبة . فالفترة التي دخل فيها ابن الأشعث الخزاعي بقواته العباسية — سنة ١٤٤هـ — والفترة التي قامت فيها ثورة العلاء بن مغيث في الأندلس — سنة ١٤٦هـ — متقاربة ، الأمر الذي يدعونا الى الاعتقاد بأنه كان من بين قواد هذه القوة ، لا سيما وأن المغرب قبل وصول القوة العباسية كان قد أصبح اباضياً بربرياً ، بحكم انتصار الخوارج الاباضية والصفيرية من أقصى المغرب الى ادناه في طرابلس . وأيا ما كان الأمر فقد عبر العلاء بن مغيث البحر من افريقية الى تدمير مركز جند مصر ، وأقرب المعابر البحرية في الأندلس الى افريقية . والظاهر أنه عبر في بداية سنة ١٤٥هـ ، وأنه أقام بعض الوقت في تدمير لتنظيم ثورته واعداد قوته . واعتقد أنه كان يعتمد على أنصار له في تدمير من جند مصر ، فان انتقاله الى باجة في أقصى الجنوب الغربي من

(٣٠) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٨٤ .

الأندلس ، والمركز الثامن لجند مصر ، له مغزى هام ، وواضح أن ثمة علاقة تربط بين باجة وتدمير وبين العلاء بن مغيث ، الأمر الذي يدعونا إلى الاعتقاد بأنه قدم من مصر وأنه اشترك مع القوة العباسية التي قادها ابن الأشعث الخزاعي الوالي السابق للعباسيين على مصر وأفريقية . وبذلك تكتمل حلقات الخطة التي دبرها المنصور ، وتلخصها في أنه اختار لقيادة الثورة قائدا يمينيا ، وفد إلى أفريقية مع عسكر العباسيين الذين سيرهم بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي لاستنقاذ أفريقية من عبث البربر الإباضية والصفرية ، وأنه أسند إليه مهمة الاتمبال بالمعارضين للحكم الأموي في الأندلس من اليمينية المستقرين في تدمير من جند مصر ، وأنه زوده بالأعلام السوداء وبسجل الولاية ، ليرفعها في الوقت المناسب . ثم اخبر العلاء الزمان والمكان المناسبين لثورته ، فقد كانت الثورات تجتاح الأندلس في الشمال والجنوب ، وشغل الأمر عبد الرحمن الداخل بأخمادها ، وكان وقت نزول العلاء مشغولا بقمع ثورة قام بها القيسية في طليطلة عندما بلغه قيام العلاء بن مغيث برفع اللواء الأسود ، شعار العباسيين ، في باجة ، وهذا ينقلنا إلى توقيفه في اختيار المكان الملائم لثورته وهو مدينة باجة . فهذه المدينة تقع في أقصى الجنوب الغربي من الأندلس غير بعيد من قرطبة الحاضرة وعن اشبيلية وماردة موطن الثورات اليمينية والبربرية المتواصلة (٣٢) . ثم ان باجة كانت بالاضافة إلى موقعها الاستراتيجي الهام لقيام الثورة كانت المركز الثاني لجند مصر ، حيث يمكنه ان يعتمد على تأييد أهلها للثورة ، ولهذا السبب ، ما كاد العلاء ينزل بباجة ويلبس السواد ويدعو لأبي جعفر المنصور ويرفع الالوية والأعلام السوداء ، حتى اجتمعت إليه حشود ضخمة من الناقبين على عبد الرحمن ، الموتورين منه والراغبين في خلعه (٣٣) والتخلص

(٣٢) كانت اشبيلية وما يليها من غرب الأندلس وأكبر مدنه إذ ذاك باجة وماردة . على حد قول الدكتور حسين مؤنس ، من مراكز الثورة الكبرى على عبد الرحمن الداخل الذي كان قد تمكن في العام السابق على ثورة العلاء (١٤٥ هـ) من القضاء على ثورة قام بها اليمينية في اشبيلية بزعامة عبد الغافد اليماني رئيس عرب اليمينية الذي اضطر إلى الفرار إلى المشرق حوالي سنة ١٤٥ هـ (ابن الأبار ، ج ١ ، ص ٢٤٦ ، هامش ٣) .

(٣٣) ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الأندلس ، نشره خليان ريبيرا مدريد ١٩٢٦ ، ص ٣٣ — أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس ، ص ١٠٧ — ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٧٧ — ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٥ ، ص ٥٧٥ .

منه ومعظمهم من جماعات اليمينية المستقرين بكثرة في بلاد غرب الأندلس .
وما أن علم عبيد الرحمن بن معاوية بأمر العلاء حتى ترك حصاره
لطايطلة وبادر بالانسحاب ، فأقبل نحوه العلاء بجموعه ، وتحرك في اتجاه
قرطبة الحاضرة ، فلاذ ابن معاوية بحصن قرمونة القريب من اشبيلية ،
وعندئذ أطبق عليه العلاء بحشوده الضخمة وأحكم عليه الحصار . ومضى
نحو شهرين ، نفذت خلالها الأتوات والمؤن في قرمونة بسبب الحصار الطويل ،
ودب اليأس في نفوس المحصورين من أتباع عبد الرحمن ، وفي نفس الوقت
كان معظم أنصار العلاء قد انخذلوا عنه لطول أمد الحصار ، فاعتزم عبد
الرحمن هذه الفرصة وعزم على مفاجأة قوات العلاء بهجوم خاطف سريع ،
فجمع قواته داخل المدينة في موضع قريب من بابها المعروف بباب اشبيلية ،
ثم أمر بنار فأوقدت ، وأمر باغماد السيوف فطرحت في النار ، ثم خاطب
رجاله وأمرهم بالخروج معه خروج من وطن نفسه على القتال حتى الموت ،
وسل سيفه في مقدمة أصحابه واندفع من باب المدينة ، وانقض هو ورجاله
على جيش العلاء ، فمزقوه شرمزق ، وأذرعوا السيوف فيمن بقى منهم
في ساحة المعركة ، فسقط العلاء نفسه صريعا ، فبعث عبد الرحمن برأسه
بعد أن لفه في السجل واللواء الى مكة ليوضع أمام سرادق المنصور (٢٤) .
ثم عاد اللواء الأسود يرتفع من جديد في افريقية سنة ٤٤٠ هـ ، وكان
ظهوره في هذه المرة لتأكيد الانفصال المذهبي والسياسي للمغربين الأدنى
والأوسط في آن واحد عن الدولة الفاطمية في مصر . ومن المعروف أن المعز
لدين الله كان قد استخلف على المغربين الأدنى والأوسط قبل رحيله النهائي
الى القاهرة في سنة ٣٦٢ هـ . أما الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد
الصنهاجي (٢٥) . وظل أبو الفتوح يوسف وبنوه يتوارثون إمارة المغربين الى

(٢٤) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٣٤ — ابن عذارى ، البيان ،
ج ٢ ، ص ٧٨ .
(٢٥) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ، ص ٢١٧ — ابن الخطيب ،
كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ،
والأستاذ محمد ابراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ ، ص ٦٥ .

أن تم انفصال المغرب الأوسط عن الأدنى في عهد نصير الدولة باديس بن المنصور بن يوسف في سنة ٣٩٥ : فانفرد حماد بن يوسف وبنوه بامارة المغرب الأوسط من حضرته القلعة المنسوبة اليه في حين ظل بنو يوسف بن زيري يتولون المغرب الأدنى بين المهديّة ، ويذكر ابن خلدون أن حمادا دعا للخلفاء العباسيين ، وأنه أعاد دولته الى المذهب السنّي (٣٦) ، وأنه بذلك قد سبق المعز بن باديس في اعلان انفصاله المذهبي والسياسي عن الخلافة الفاطمية بمصر نحو ثلاثين عاما (٣٧) . وكانت دولة يوسف بن زيري في افريقية موالية للدولة الفاطمية منذ ان استنابه المعز لدين الله على ولايتها ، ولكن ما أن خلف ابو الفتح المنصور بن بلتين يوسف اياه (٣٧٤ — ٣٨٦ هـ) على امارة افريقية حتى بدأ يجنح الى التفكير في الانفصال عن الخلافة الفاطمية في مصر ، ولكن العزيز بالله الفاطمي لم يترك له الفرصة لذلك ، فقد كان يبث القلاقل والفتن في افريقية حتى يصرفه عن التفكير في الانفصال ، وظلت العلاقات بين الدولتين الفاطمية والزيرية ودية في الظاهر ، وكان العاهلان يتبادلان الهدايا حفاظا على ظواهر الأمور ، فكانت تلك العلاقات أشبه بقناع زائف يخفى وراءه ما كان يعتمل فيها من التوتر والتحفز . ثم تولى المعز بن باديس في ٢١ ذى الحجة سنة ٤٠٦ هـ ، وهو ابن ثمان سنوات ، وكان قد نشأ نشأة سنّية على يد أستاذه ووزيره ابي الحسن بن ابي الرجال ، ولهذا فقد كان يكره التشيع ويضطهد الشيعة في افريقية ، وحمل الكثير منهم على الخروج من افريقية الى صقلية في سنة ٤٠٩ هـ (٣٨) ، بل انه أخذ يحمل الناس على نبذ المذهب الاسماعيلي واعتناق المذهب المالكي مستهدفا من ذلك تحقيق الانفصال المذهبي ثم السياسي عن مصر الفاطمية . ومع ذلك فقد كان الحاكم بأمر الله — رغم كله ما قيل عنه — يداريه ويسترضيه ، ويهادنه ويوادعه ،

(٣٦) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٢٤ .
 Marçais, La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen âge, Paris, 1946, p. 164.

(٣٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٨٨ . وكان قد قتل في أيامه عدد كبير من الشيعة ، وكان ذلك من الأسباب التي حملتهم على الرحيل الى صقلية فرارا من اضطهاد الزيريين لهم .

وكان ينعم عليه بالألقاب التشريعية والهدايا النفيسة حتى يغلغ علىه كل المنافذ المؤدية الى ذلك الانفصال . وتختلف الروايات في تحديد تاريخ انفصال المعز بن باديس عن الدولة الفاطمية والسنة التي دعا فيها للخليفة القائم بأمر الله العباسي ، فبينما يذكر ابن عذارى أن المعز خرج عن طاعته للفاطميين في سنة ٤٣٣هـ (١٠٤١م) وأنه دعا في هذه السنة للخليفة العباسي القائم بأمر الله (٣٩) يؤرخ المقرئ لهذا الحادث في سنة ٤٣٥هـ ، ويذكر أيضا أن الخليفة أرسل اليه في تلك السنة الخلع من بغداد على طريق القسطنطينية (٤٠). ثم يأتي المقرئ بعد ذلك بروايتين أخريين متناقضتين داخل اطار حوادث سنة ٤٤٣هـ ، جاء في الرواية الأولى أن المعز ابن باديس — بعد أن تبادل معه اليازوري وزير المستنصر بالله الفاطمي الالهات — أقسم ليحولن الدعوة الى بني العباسي ، وأنه « ليج في ذلك ، وقطع الدعاء للمستنصر ، وأزال اسمه من الطرز والرايات ، ودعا للقائم أبي جعفر بن القادر في سنة أربعين وأربعمائة ، وكتب اليه بذلك ، فكتب اليه بالعهد صحبة أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي ، فقرأ كتابه بجامع القيروان ، ونشر الرايات السود ، وهدم دار الاسماعيلية ، ووصل الخبر بذلك الى القاهرة ، فأشهر اليازوري بتجهيز أحياء هلال بن جشم والأشروزيونية ورياح وعدى وربيعة الى المغرب وتولية مشايخهم أعمال افريقية ، فقبلت مشورته وأرسل اليهم في سنة احدى وأربعين ، فوصلوا افريقية سنة ثلاث وأربعين » (٤١) .

-
- (٣٩) ابن عذارى ، نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٩٧ .
 (٤٠) المقرئ ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمد ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧١ ص ١٩٠ .
 ونفس النص نشره د. أحمد مختار العبادي عن النسخة المحفوظة بمكتبة سراي أحمد الثالث باسطنبول ضمن مقالة بعنوان « سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس » ، المنشور بصحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية بمديرد ، ١٩٥٧ ، ص ٢٢٢ .
 (٤١) المقرئ ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ٢١٦ .

أما الرواية الثانية فتتضمن النص التالي : « وفيها (أي في سنة ٤٤٣ هـ)
 أظهر المعز بن باديس صاحب إفريقية الخلفه على المستنصر ، وسير
 رسولا الى بغداد ليقيم الدعوة العباسية ، واستدعى منهم الخلع ، فأجيب
 الى ذلك ، وجهزت الخلع على يد رسول يقال له أبو غالب الشيزري ومعه
 العهد واللواء الأسود ، فمر ببلاد الروم ليعدى منها الى إفريقية ، فقبض
 عليه صاحب الروم ، وبلغ ذلك المعز بن باديس ، فأرسل الى قسطنطين ملك
 الروم في أمره ، فلم يجبه رعاية لحق المستنصر . واتفق قدوم رسول طغرل بك
 يستأذنه في مسيره الى مصر ، فأظهر المودة التي بينه وبين المستنصر ،
 وأنه لا يرخص في أذيته ، واتفق قدوم رسل المستنصر اليه بهدية عظيمة ،
 فبعث معه برسول القائم بما على يده ، فدخل الى القاهرة على جمل ،
 وأحرق العهد واللواء والهدية في حفرة بين الثصرين » (٤٦) .

وواضح أن المقرئ يناقض نفسه في الروايتين ، فيقحم اليازوري في
 الرواية الأولى التي يحدد فيها سنة ٤٤٠ هـ للدعوة للخليفة القائم بأمر الله ،
 مع أن اليازوري لم يتول الوزارة الا في ٧ المحرم سنة ٤٤٢ هـ (٤٣) ، ويؤرخ
 الانفصال وقطع الدعوة للخليفة الفاطمي في الرواية الثانية في سنة ٤٤٣ هـ .
 هذا التناقض الواضح يجعلنا في حيرة حول التاريخ الصحيح من بين
 التواريخ الثلاثة التي أثبتها المقرئ للسنة التي دعا فيها المعز بن باديس
 للخليفة العباسي ، وهي ٤٣٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ . ويتفق كل من ابن الأثير وابن
 عذارى وابن خلدون على أن تاريخ سنة ٤٤٠ هـ (٤٤) هو الذي تم فيه اعلان

(٤٢) المقرئ ، اتعاظ الحننا ، ج ٢ ص ٢١٤ .

(٤٣) نفس المصدر ، ص ٢١٢ .

(٤٤) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٨ ص ٥٥ — ابن عذارى ،
 البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٩٩ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٢٥ .
 ويذكر ابن عذارى أن المعز بن باديس اتبع حركته الانفصالية بقطع الدعوة
 للخليفة الفاطمي المستنصر بالله في الخطبة واحراق بنوده الخضراء والدعوة
 على المنابر الإفريقية للعباس بن عبد المطلب .

الدعوة للخليفة العباسي وانقطعت فيه عن الخليفة الفاطمي . وإمام هذا الاختلاف فاننى أميل الى تصور حوادث الانفصال على النحو التالى :

١ - فى سنة ٤٣٥ (وليس فى سنة ٤٣٣ كما يذكر ابن عذارى) (٤٥) بلغ ابا القاسم أحمد الجرجرائى (ت ٤٣٦) وزير المستنصر بالله نبأ اقدام المعز بن باديس على قطع الخطبة عن المستنصر والدعوة ببلاد افريقية للخليفة القائم بأمر الله العباسى ، كما بلغه ما كان يقوم به المعز من اضطهاد للعناصر الشيعية فى افريقية والدعوة للمذهب المالكى . فخاطب المعز بن باديس محذرا وهو يراجع بالتعريض بخلفائه والقدح فيهم « حتى أظلم الجو بينه وبينهم » (٤٦) .

٢ - عندما استقر أبو البركات الحسين بن عماد الدولة بن محمد بن أحمد الجرجرائى فى الوزارة بعد أن صرف المستنصر عنها أبا منصور صدقة الفلاحى فى سنة ٤٣٩ هـ ساد التوتر العلاقات القائمة بين القاهرة والمهدية ، ولم يحاول المستنصر بالله من جانبه أن يسترضى المعز بن باديس كما كان يفعل كل من الظاهر لاعزاز دين الله أو الحاكم بأمر الله من قبل ، وإنما تعمد اغفال شأنه استخفافا به ، فازدادت بذلك هوة الخلاف اتساعا وعمقا . وذكروا أنه لما بلغ المستنصر ما قام به المعز بن باديس من قطع الخطبة له والدعوة للخليفة القائم العباسى كتب الى المعز يتهدده (٤٧) ، وأورد ابن خلكان أن المستنصر كتب الى المعز يتهدده ويذكره بالتزام آباءه الطاعة والولاء للفاطميين ، فرد عليه المعز مؤكدا حق أسرته فى الاستقلال ، وقال له : « ان آبائى وأجدادى كانوا ملوك المغرب قبل أن يملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أضروهم لتقدموا بأسيا فيهم » (٤٨) . وهكذا تحطم كل أمل فى ايجاد تسوية ودية بين الطرفين .

(٤٥) ابن عذارى ، البيان ص ٣٩٧ .

(٤٦) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٢٥ .

(٤٧) ابن خلدون ، نفس المصدر ، ج ٤ ص ١٣١ .

(٤٨) ابن خلكان ، وفيسات الأعيان .

٣ - وفي أثناء ذلك كان المعز بن باديس قد سير رسولا من قبله الى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يلتمس منه الخلع واللواء الأسود والعهد ، فأجابته الخليفة الى طلبه ، وعهد بحمل الخلع والعهد واللواء الأسود الى ابي غالب الشيزرى رسولا من قبله الى المعز ، وكاتت رحلة ابي غالب الى افريقية تتطلب منه أن يمر ببلاد الروم ربما ليركب من أحد موانئها سفينة تبحر الى افريقية لطول الطريق البرى عبر بلاد الشام ومصر وبرقة الى افريقية ، وأثناء مروره وقع في قبضة السلطات البيزنطية باعتباره موفدا من قبل الدولة العباسية العدو الأول للدولة البيزنطية . فلما علم المعز بذلك سير عثمان بن ابي بكر بن حمود بن احمد الصدفي السفاحسى المعروف بابن الضابط رسولا (٤٩) من قبله الى القسطنطينية فى تاريخ يسبق سنة ٤٤٠هـ التى توفى فيها هذا السفير وهو عائد من مهمته أو حسب تعبير ابن بشكوال « صادرا أو واردا » . والظاهر أن عثمان هذا حاول اقتناع المسئولين فى بيزنطة بالانفراج عن رسول الخليفة العباسى وعدم التعرض مستقبلا لسفراء العباسيين الى افريقية حفاظا على العلاقات الطيبة بين الزيريين والبيزنطيين ولكن البيزنطيين لم يوافقوا على طلب المعز بن باديس حردسا على العلاقات الودية القائمة بالفعل بين دولتهم والدولة الفاطمية (٥٠) ، وتظاهرا بعدم قبولهم الاضرار بمصالح الناطيين .

(٤٩) ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٦ ، ترجمة رقم ٨٨٢ .

ويؤكد قيام المعز بارسال هذه السفارة الى الخليفة العباسى ، نص المقرئى فى اتعاظ الحنفا الذى سبق الاشارة اليه ، وجاء فيه « وبلغ ذلك المعز بن باديس ، فأرسل الى قسطنطين ملك الروم فى امره » (ص ٢١٤) . (٥٠) كانت العلاقات بين الدولتين البيزنطية والفاطمية قد تحسنت فى عهد المستنصر بالله الذى عقد مع الامبراطور ميشيل الرابع هدنة فى سنة ٤٢٩ هـ (المقرئى ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٧) ، كما تبادل مع قسطنطين التاسع الهدايا سنة ٤٣٧ هـ (محمد جمال الدين سرور ، سياسة القاطميين الخارجية ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ٢٤٥) .

وأعتقد أنهم وافقوا رسول المعز بعدم التعرض مستقبلا لأي من سفراء الخليفة العباسي الى افريقية ، فقد كانت للدولة البيزنطية مصالح في جنوبى إيطاليا وكان يهمها في نفس الوقت الإبقاء على صلاتها الطيبة مع الزيريين .

٤ — اتفق قدوم رسل المستنصر بالله الفاطمي بهدية نقيصة الى الامبراطور البيزنطى ، فبعث معهم السفير العباسى الأسير مع كل ما كان يحمله معه من الخلع واللواء والعهد ، فأحرقها المستنصر فى ساحة بين القصرين فى سنة ٤٤٠ هـ .

٥ — كانت العلاقات بين المستنصر بالله والمعز بن باديس قد ساءت فى تلك السنة الى أقصى درجة بحيث لم يعد هناك أى مجال للتفاهم ، وعدمت كل وسيلة لعلاج الموقف المتدهور . وكان المعز قد بلغه نبأ احراق الخلع العباسية والعهد واللواء فى ساحة بين القصرين بالقاهرة ، كما علم أن الخليفة العباسى بصدد ارسال خلع أخرى عن طريق القسطنطينية أيضا . ولكنه لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك واضطر الى التعجيل باعلان الانفصال المذهبى والسياسى عن الدولة الفاطمية رسميا فى نفس سنة ٤٤٠ هـ مدفوعا فى ذلك بضغوط شعبية من أهل القيروان المعادين للمذهب الاسماعيلى .

٦ — استعاض المعز عن الأعلام والخلع بثياب بيضاء أمر بأخراجها من فندق الكتان بالقيروان وصبغها باللون الأسود الحالك ، وجمع الخياطين وأمرهم بقطعها أثرابا ، ثم جمع الفقهاء والقضاة الى قصره ، وخطيبى القيروان وجميع المؤذنين ، وكساهم ذلك السواد . ثم اندبرفوا جميعا الى الجامع حيث أعلن انفصاله رسميا عن الدولة الفاطمية مذهبيا وسياسيا (٥١) وأمر بلعن الخلفاء الفاطميين .

(٥١) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٤١٥ .

٧ - ثم وصلت الخلع الجديدة والعهد واللواء الأسود - فيما يبدو -
 صحبة أبي الفضل بن عبد الواحد التميمي الى القيروان (٥٣) في سنة
 ٤٤١هـ ، فقرأ المعز بن باديس كتاب الخليفة بجامع القيروان ،
 ونشر الرايات السود ، وهدم دار الاسماعيلية ، وأمر بسبك ما لديه
 من الدنانير والدراهم والقطع التي تحمل أسماء بى عبيد الله ، وإزالة
 اسمائهم من الرايات والطرز (٥٣) .

٨ - أمر المعز بن باديس في آخر سنة ٤٤١هـ أو بداية سنة ٤٤٢هـ بتبديل
 السكة ، فضرب عملات أزيلت من نقوشها العبارات الدالة على المذهب
 الشيعي (٥٤) . وقد وصلت الينا عملة قيمتها ½ دينار من عهده ،
 نقوشها على النحو التالي :

مركز الوجه مركز الظهر

ومن يبتغ (غير) لا اله الا الله
 الاسلام د (بنا) وحده لا شريك له
 فلن يقبل من (هـ) محمد رسول الله

دائرة الوجه

محيت الكتابة ولم يعد مميزا منها محيت الكتابة ولم يبق منها سوى
 سوى رقم « أربعين » كلمة « شاهدا » وواضح انها آية
 قرآنية من مسورة الأحزاب

وبسك العملة الجديدة اتخذ الانفصال السياسي والمذهبي صفة

(٥٢) المقریزی ، اتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

(٥٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٤٠٢ .

(٥٤) Henri Lavoix, Catalogue des Monnaies musulmanes de
 la Bibliothèque Nationale : Espagne et Afrique, Paris,
 1891, p. 407, No. 934.

نهائية ، وتبع ذلك رد الفعل الفاطمي ممثلا في الغزوة الهلالية ، فقد أخذ المستنصر بمشورة وزيره أبي محمد اليازوري بإرسال احياء من عرب بنى هلال وسليم ورياح وعدى وغيرها الى افريقية لاشباع انتقامه من الزيريين ، موصلت طلائعهم الى افريقية في أواخر سنة ٤٤٣هـ (٥٥) .

ذلك هو تصوري لحوادث الانفصال الزيري عن الدولة الفاطمية ، وهو انفصال ارتبط بالسواد لونا للثياب والخلع والرايات .

وإذا كان اتخاذ السواد ورفع الرايات والألوية السوداء في افريقية قد لبى حاجة سياسية ومذهبية بالنسبة للدولة الزيرية الصنهاجية ، وخلص افريقية التي تأصل فيها المذهب المالكي من السيطرة الاسماعيلية فانه اتخذ بعد قيام دولة المرابطين ورسوخ قواعدها في اعقاب انتصارهم الحاسم في الزلاقة على قوى المسيحية في أسبانيا ، للتعبير عن طابع الزهد ، والروح الجهادية التي غلبت على عصر هذه الدولة ، وتبريرا لاسقاط دويلات الطوائف التي تسبب وجودها في تجرؤ الدول المسيحية على اراضي المسلمين وفي انحسار رقعة الاسلام في الأندلس ، ولم يكن كسبا لتأييد شعبي أو التماسا لسند شرعي يدعم لصاحبه سلطانه ، فقد جاء التسويد المرابطي من منطلق القوة ، وبعد سنوات من انتصار المرابطين في الزلاقة . ويذكر صاحب الحل الموشية نصا يشير الى أن ابن تاشفين لم يكن يطمع في التلقب بالقب الخليفة ، فعندما طالبه بعض أصحابه باتخاذ لقب أمير المؤمنين قال : « حاشا لله ان ننسب بهذا الاسم ، وانها تسمى به خلفاء بنى العباسي لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا راجلهم ، والقائم بدعوتهم » (٥٦) . ولهذا اكتفى يوسف بن تاشفين بأن يتلقب بأمر المسلمين وناصر الدين ، وهو لقب خلعه على نفسه في سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣ م) دون

(٥٥) راجع التفاهيل في : السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، ص ٥٨٠ وما بعدها .
 (٥٦) مجهول ، كتاب الحل الموشية في ذكرا الأخبار المراكشية ، طبعة تونس ، ص ١١ .

الرجوع الى الخليفة العباسى ، وسنرى أن الخليفة لم يخاطبه في رسالته بهذا اللقب ، ويعنى هذا أنه لم يقره عليه . والمعروف أن يوسف أصدر لهذا اللقب منشورا رسميا أورد صاحب الحلل الوثيق نصه (٥٧) .

واعتقد أن تسويد يوسف بن تاشفين كان نابعا من رغبته الملحة في إسقاط ملوك الطوائف عن عروشهم واعادة دولة الاسلام في الأندلس الى سابق قوتها ووحدتها . فقد صبر يوسف طويلا على سفه ملوك الطوائف وسلوكهم المشين فيما بينهم ، وصبر على استهتارهم بالقيم الدينية ، واستعانتهم بعضهم على بعض بقوى المسيحية في أسبانيا ، ويؤكد ابن خلدون أن المرابطين لم يقدموا على قتل المتوكل عمر بن الأمتس وولديه الا بعد أن ثبت لديهم مداخلتهم لألفونسو السادس مقابل التخلي عن بعض حصون المملكة الأندلسية له (٥٨) ، وكان قد بلغ ابن تاشفين وهو يحاضرته مراكش أن الأمير عبد الله الزيرى صاحب غرناطة ، اتفق مع البرهانش وكيل الفونسو السادس في جهات غرناطة والمرية ، وتعاهد معه على نصرته مقابل ثلاثين ألف دينار يقدمها له ، كما ثبت ليوسف بن تاشفين تعاون ابن رشيق صاحب مرسية مع النصارى أثناء حصار المسلمين لحصن لبيط بشرق الأندلس (٥٩) . كان ذلك الدافع الرئيسى الذى أدى الى اقدام ابن تاشفين على استئصال ملوك الطوائف والاطاحة بعروشهم ، غيرة على دولة الاسلام في الأندلس ، ورحمة بأهل الأندلس الذين ابتزهم ملوكهم بغير حق وأرغموهم على بذل الأموال ليقدمها هؤلاء الأمراء والملوك للملك المسيحية ، وبحجة أنه لاينفى للمسلمين قتال الروم ويتركوا وراءهم الأعداء ممن يواسى عليهم معهم (٦٠) . ويؤكد ذلك ما ورد في رسالة الامام أبى حامد الغزالي الى يوسف بن تاشفين وتتضمن فتوى بشرعية تصرفاته مع ملوك الطوائف ، من ذلك قوله : « . . . بسبب

(٥٧) نفس المصدر ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٥٨) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ١٨٧ .

(٥٩) ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله الزيرى المسماة بكتاب

« التبيين » ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ١٧٥ .

(٦٠) نفس المصدر ، ص ١٧٥ .

استيلاء أهل الشرك وامتداد أيديهم إلى أهل الإسلام بالسبى والقتل والنهب ، وتطرقهم إلى اهتضام أهل الإسلام بما حدث بينهم من تفرق الكلمة ، واختلاف آراء الثوار (أى ملوك الطوائف) المحاولين للاستبداد بالإمارة ، وتقاتلهم على ذلك ، حتى اختطف من بينهم حماة الرجال ، بطول القتال والمحاربة والمنافسة ، وافضاء الأمر بهم إلى الاستنجد بالنصارى حرصاً على الانتقام ، إلى أن أوطنهم بيضة الإسلام ، وكشفوا اليهم الأسرار ، حتى اشرفوا على التهائم والأغوار ، فرتبوا عليهم الجزا ، وجزوههم بشر الجزا . ولما استنفذوا من عندهم الأموال ، أخذوا في نهب المناهل ، وتحصيل المعائل ، واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدين وجامع كلمة المسلمين . . . عن مداراة المشركين ، فلبى دعوتهم . . . وذكر أن أولئك الثوار لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين ، وغلبته لحزب المشركين ، وسألهم رفع المظالم عن المسلمين ، التى كانت مرتبة عليهم بجزية المشركين ، وأمدادهم بهالهم ، مداراة لبقاء أمرتهم ، عادوا إلى ممالأة المشركين ، وألقوا اليهم القول فى جهة الأمير ، وجراؤهم على لقائه ، وصح ذلك عنده وعند المسلمين ، فسأله المسلمون عند ذلك انزال هؤلاء الثوار عن البلاد ، وتداركها ومن فيها من المسلمين قبل أن يسرى الفساد ، ففعل ذلك ، ولما تملكها رفع المظالم ، وأظهر فيها من الدين المعالم ، وبدد المفسدين ، واستبدل بهم الصالحين ، ورتب الجهاد ، وقطع مراد الفساد . . . » (٦١) .

وكان يوسف بعد أن تحقق له توحيد الأندلس بخلع ملوك الطوائف ، وربطها بدولته فى المغرب ، وقد عاد إلى حضرة ملكه وجمع الفقهاء وأحسن اليهم ، فقال له علماء الأندلس : « انه ليست طاعته بواجبة حتى يخطب للخليفة ، ويأتيه تقليد منه بالبلاد » ، فأرسل إلى الخليفة المقتدى بأمر الله ببغداد ، فأتاه الخلع والأعلام والتقليد (٦٢) ، ومنذ ذلك الحين اتخذ المرابطون

(٦١) مجموعات وثائقية دورية تصدرها مديرية الوثائق الملكية ، المجموعة الأولى ، وثيقة ٧٣ ، الرباط ١٣٩٦ هـ ، ص ٢٠٥ وما يليها .
(٦٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، طبعة صادر - بيروت ، ١٩٦٦ ، ج ١٠ ، ص ١٥٥ .

السواد شعارا لهم في ملابسهم والاعلامهم (١٣) ، وهذا يعنى أن الاعلام والخلع والتقليد وافته قبل سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤ م) التي توفي فيها المقتدى بالله العباسى (١٤) . ويفهم من اجتماع يوسف بن تاشفين بعلماء الأندلس أن أمرا ما خطيرا تعرض له يوسف وأراد أن يشرك فيه علماء الأندلس ويطلب مشورتهم بشأنه ، فأفتوه بسرعة التماس التقليد والخلع والاعلام ، واعتقد — كما سابين فيما بعد — أن المسألة تتعلق بشرعيته في حكم الأندلس بعد أن اقدم على اسقاط ملوك الطوائف .

وأيا ما كان الأمر ، فقد ضرب يوسف بن تاشفين بأغمات الدينار المرابطى الجديد بعد وصول التقليد والخلع بطبيعة الحال ، وقد وصل اليها دينار مرابطى ضرب في أغمات سنة ٤٨٧هـ (٦٥) نقوشه الكتابية كما يلي :

مركز الوجه	مركز الظهر
الإمام	لا اله الا الله
عبد	محمد رسول الله
الله	الأمير يوسف بن
أمير المؤمنين	تاشفين

ونقش في دائرة الوجه « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ويذكر ابن خلدون أن يوسف كتب ، في شأن تقليده ، الى الخليفة المستظهر بالله ولد المقتدى بالله وخلفه ، وأنه بعث اليه في ذلك الغرض سفارة ، على رأسها الفقيه عبد الله بن محمد بن العريبي المعافري الأشبيلي وولده القاضي الحافظ ابو بكر بن العريبي ، في سنة

(٦٣) أحمد مختار العبادى « نظام الخلافة في المغرب الاسلامى في العصور الوسطى » فصله من كتاب فلاسفة الاسلام في المغرب العربى ، ص ١٥٦ .

(٦٤) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، القسم الأول ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٤٠ .
 La voix, Catalogue des monnaies musulmanes, p. 202. (٦٥)
 No. 516.

٤٨٥هـ ، فتلطفنا في القول وأحسننا في الإبلاغ ، وطلبا من الخليفة أن يعهد ليوسف على المغرب والأندلس ، فصدر له عهده بذلك ، وعاد أبو بكر الى المغرب ومعه التقليد بولاية يوسف على ما تحت نظره من الأقطار والاقاليم (٦٦) ، فأذيعت محتويات هذا التقليد بين الناس . وأعتقد — مع ذلك — أن السفارة التي ذكرها ابن خلدون إنما تتعلق باستصدار فتوى بشرعية يوسف في اسقاط عروش ملوك الطوائف كما سبق أن أوضحت ، وقد تحقق ذلك في رسالة أبي حامد الغزالي ، سالفه الذكر ، ثم استصدار تقليد من الخليفة العباسي بتوليته ما كان يتولاه بالفعل من المغرب الأقصى والقسم الغربي من المغرب الأوسط ، وما انضاف الى ذلك في الأندلس بعد اسقاط دويلات الطوائف باستثناء بنى هود بسرقسطة ، وأعتقد أن سبب اهتمام يوسف بن تاشفين بالتقليد المذكور والفتوى أن ملوك الطوائف كانوا قد طعنوا في شرعية امارته ، وزعموا أن طاعته غير واجبة لأنه لس من قريش ، وكتبوا الى ملك قشتالة وزعماء النصارى في اسبانيا رسائل بهذا المعنى ، وقع بعضها بين يدي يوسف . وهذا يفسر اجتماعه بعلماء الأندلس في مراكش ، واستشارته لأرائهم ، فأفتوه بإرسال سفارة الى الخليفة العباسي لالتماس تقليد خلافي بحكم ما ينظره بالاضافة الى الأندلس . وقد اجتمع الفقيه عبد الله بن العربي وولده أبو بكر سفيرا يوسف بن تاشفين الى بغداد بأبي حامد الغزالي وأبي بكر الشاشي وغيرهم ، وأوضحا لهم جهاد يوسف لنصارى الأندلس ، وجهوده في توحيد كلمة المسلمين ، واستطاع ابن العربي أن يستصدر فتوى الغزالي لصالح يوسف ، وتقليده من الخليفة المستظهر العباسي بتوليته على ما بيده وتحت نظره من الأقطار . وقد كتب كل من الامام الغزالي (٦٧) والقاضي أبو بكر الطرطوشي (٦٨) الى يوسف رسالة يدعوهم الطرطوشي فيها الى تطبيق العدالة والنسك بالخير ، ويفتبه الغزالي

(٦٦) ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٦ ص ١٨٨ — عنان ، المرجع السابق ، ص ٤٢٠ .

(٦٧) وثيقة رقم ٧٣ من « مجموعات وثائقية دورية » ، الرباط ، ١٣٩٦هـ

(٦٨) وثيقة رقم ٧٤ من نفس المجموعة .

بشأن ملوك الطوائف . والمعروف أن الفقيه ابن العربي وولده قد رحلا الى بغداد في مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، وواضح أن رسالة الغزالي كتبت قبل سنة ٤٩٣ هـ والتي توفي فيها ابن العربي بئثر الاسكندرية ، فعاد ابنه أبو بكر الى المغرب في نفس السنة ومعه الرسالة والتقليد العباسي الصادر من المستظهر بن المقتدى بالله ، يقره فيه على حكم المغرب والأندلس .

ولابد لنا ، بعد هذا العرض ، أن نميز بين سفارتين : الأولى كان يوسف قد أرسلها الى المقتدى بأمر الله قبل سنة ٤٨٥ هـ ، ويطلب فيها الأعلام والخلع والتقليد بحكم المغرب ، فوافاه ذلك قبل سنة ٤٨٧ هـ التي توفي فيها المقتدى ، والثانية ، ومثله فيها ابن العربي وولده بعد سنة ٤٨٥ هـ ، وكان هدفه اقرار الخليفة العباسي سواء المقتدى بالله أو المستظهر بالله الذي خلفه ، بحكم المغرب والأندلس ، واستصدار فتوى من كبار الأئمة بشرعية ما أقدم عليه بالفعل منذ سنة ٤٨٣ وحتى ٤٨٨ (التي نفى فيها المعتمد وآله الى اغمات ، وقتل المتوكل وواديه) من عزل ملوك الطوائف والجهاد في الأندلس ، ومن المؤكد فيه أن الخليفة المقتدى كان قد أقر يوسف على إمارة المغرب ، وأنه أرسل اليه التقليد والخلع والألوية ، ولكنه لم يخاطبه بلقب أمير المسلمين الذي كان قد تلقب به يوسف منذ سنة ٤٦٦ هـ (٦٩) . وهناك رسالة أخرى صادرة من الخليفة العباسي المستظهر بالله الى علي بن يوسف بن تاشفين ، لم يخاطبه فيها بلقب أمير المسلمين (٧٠) .

وبقيت بعد ذلك حالتان ارتفعت فيهما الألوية السوداء شعار الخلافة العباسية : أحدهما حدثت في المغرب الأدنى والأوسط في عهد يعقوب المنصور ، والثانية في شرق الأندلس في نهاية عصر هذه الدولة . أما الحالة

(٦٩) الحلال الموشية ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٧٠) حسين مؤنس ، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وإياهم في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطرد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ، ص ٦٦ — ٦٨ .

الأولى فتتعلق بالأمر على بن اسحاق بن محمد بن غانية المسوفي صاحب ميورقة ، وأحد المخلصين لدولة المرابطين البائدة ، وكان قد خرج بأسطول ميورقة في سنة ٥٧٩ هـ بعد أن آلت إليه امارة الجزائر الشرقية اثر وفاة أبي ابراهيم اسحاق بن محمد بن غانية (٧١) ، متجها الى العدو ، ثم قصد مدينة بجاية عندما راسله جماعة من أعيانها ، وهناك وجد ابن غانية واتباعه الميورقيون في افريقية حلفاء جمعتهم بهم الظروف السياسية وقتئذ والهدف المشترك ، وهو القضاء على نفوذ الموحديين في افريقية والمغرب الأوسط ، والدعوة باسم الخليفة العباسي . هؤلاء الحلفاء هم عرب بنى هلال وسليم ورياح وزغبة ثم الماليك الغز اتباع بهاء الدين قراقوش الأسدي التقوى ، مملوك تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين . ولم يلبث على بن اسحاق أن دخل بجاية في ٦ شعبان من تلك السنة ، وأقام بها سبعة أيام ، صلى خلالها صلاة الجمعة ، ودعا في الخطبة لبني العباس ثم للإمام أبي العباس أحمد الناصر (٧٢) . ثم بعث على بن اسحاق ابنه مع كاتبه عبد البر بن مرشان الى الخليفة العباسي يلتمس منه الخلع والأعلام السوداء (٧٣) . ولم يكن ابن غانية ببغى من وراء السواد كسبا أدبيا أو شرعيا يعتمد عليه في حكم افريقية بقدر ما كان يهمله أن يحافظ على التقاليد المرابطية في اظهار الولاء للعباسيين ، فكان كل هدفه أن يحرر المغرب الأدنى والأوسط من السيطرة الموحدية ، ويقدم على تلك المناطق السيادة المرابطية ، التي تتمثل في السواد أو التبعية الاسمية للخلافة العباسية .

وأما الحالة الثانية ، فتتعلق بسيف الدولة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي ، الذي ينتمي الى بنى هود أصحاب سرقسطة في عصر

(٧١) هو مؤسس أسرة بنى غانية أصحاب الجزائر الشرقية : ميورقة ومنورقة ويابسة ، وينتسبون الى محمد بن على المسوفي المعروف بابن غانية والد اسحق المذكور ، وكان قد استنقل بمملكة الجزائر الشرقية وضبطها لنفسه ، وأقام فيها جاريا على أمر لمتونة الأول ، داعيا لبني العباسي (عبد الواحد المراكشي ، المعجب في أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العربيان ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٤٤) .

(٧٢) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٣٤٧ .

(٧٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ،

ص ٧١٧ .

الطوائف ، وكان قد استقل بمرسية ثم خطب للعباسيين واتخذ السواد شمعاراً (٧٤) . ولم يلبث ابن هود ابن بسط سلطانه على معظم شرق الأندلس بالإضافة الى عدد من مدن الأندلس الجنوبية والجنوبية الغربية ، ومن بينها مالقة والمرية وغرناطة وجيان والجزيرة الخضراء وقرطبة وبطليوس وماردة وأخيراً اشبيلية (٧٥) .

وكان ابن هود قد شرع حركته في رجب سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٨م) عندما تمكن من ايقاع الهزيمة بالسيد أبى العباس بن أبى عمران موسى بن يوسف بن محمد بن يوسف الموحدى ، وكان يتولى بلنسية ، فخرج اليه بقوات بلنسية ، فهزمه ابن هود ، واستولى على محله ، ثم دخل ابن هود مرسية وهو يرفع راية سوداء عباسية ملتصقا من وراء رفعها جمع صفوف المسلمين وراء رمز اسلامى روحى ، وتكوين جبهة اسلامية متحدة يمكنها أن تواجه العواصف والأنواء التى اثارها الدمع السريع لحركة الاسترداد المسيحية آنذاك للاطاحة بدولة الاسلام فى الأندلس فى اعقاب انهيار دولة الموحيدين ، وكانت هذه الحركة موجهة من مملكة أرغون نحو شرق الأندلس ، ومملكة قشتالة وليون نحو جنوب الأندلس ، ومملكة البرتغال نحو غرب الأندلس ، فالهدف اذن من التسويد التأييد الشعبى الأندلسى وخلق جبهة للتصدى أمام الضغوط النصرانية ، ولم تشتت ما تبعثر من قوى الاسلام فى الأندلس على أثر هزيمة الموحيدين فى العقاب (٧٦) . وأصبح

(٧٤) عبد الواحد المراكشى ، المصدر ، ص٤١٧ .

(٧٥) دخلت اشبيلية فى طاعة ابن هود فى سنة ٦٢٩هـ (السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس ، بيروت ١٩٧٠ ، ج ١ ص١٥٢ — تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة أسطول الأندلس ، بيروت ١٩٦٩ ص٩٩) .

(٧٦) يعتقد الأستاذ محمد عبد الله عنان أن فكرة ابن هود فى الانضواء تحت راية الخلافة العباسية أن يتشجع بثوب من الشرعية فى انتحال الولاية وفى محاربة الموحيدين ، بدليل أنه أعلن أنه سوف يعمل على تحرير الأندلس من نير الموحيدين ومن عدوان النصارى معا ، وأنه سوف يعمل على احياء الشريعة وسددها وبعدها دزست فى ظل الموحيدين (انظر : محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحيدين ، القسم الثانى . ص ٣٩١) .

رفع الشعار الأسود يرمز للمجتمع والوحدة والصحود . ونجح ابن هود في اجتذاب الجماهير وراءه ، ثم بويغ له في مرسية في أول رمضان سنة ٦٢٥ هـ ، فدعا للخليفة المستنصر بالله العباسي ، وكتب اليه يلتمس الخلع والتقليد والأعلام (٧٧) ، فبعثها اليه ، وسماه « مجاهد الدين ، سيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل على الله » ، وعرف ابن هود في المصادر الإسبانية بسيف الدولة Zafadola . وفي نفس الوقت الذي قام فيه ابن هود بتوحيد شرق الأندلس قامت في بلنسية ثورة أخرى تزعمها رئيس من سلالة بنى ابن مردنيش الذين ناعوا سلطان الموحدون في شرق الأندلس في عهد عبد المؤمن بن علي ، وفي عهد ولده أبي يعقوب بوسف ، هو أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد بن مردنيش في سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩م) ، فبعد أن انهزم السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الموحدى أمام ابن هود في مرسية ، اضطرت الثورة في بلنسية ، والتف أهل المدينة حول أبي جميل زيان الذي ذكرهم برئيسهم القديم ابن مردنيش ، فنادوا برئاسته ، وكان أبو جميل هذا وزيرا للسيد أبي زيد والى بلنسية ، ولم يسع هذا الأخير إلا أن يرحل عن بلنسية أمام الهيج في أوائل صفر سنة ٦٢٦ هـ ، ولاد ببعض الحصون القريبة ، وعندئذ قدم أبو جميل من مقره بحصن أنده ، فدخل المدينة في ٢٦ صفر سنة ٦٢٦ هـ ، ونزل بالقصر ، وعقد البيعة لنفسه في غرة ربيع الأول ، وحذا حذو ابن هود ، فدعا للخليفة

(٧٧) جاء في مخطوطة شواهد الخلعة والأعيان في مشاهير الإسلام والبلدان ، لأبي بكر محمد بن العربي المعافري ، المحفوظة بالخزانة الملكية بالرباط ، تحت رقم ١٠٢٠ د ، أن ابن هود كتب الى خليفة بغداد ، فكتب له الخليفة « التقديم على بلاد المغرب وبعثها له مع الخلعة التي مسحت ببردة النبي صلى الله عليه وسلم المعروفة لبني العباسي . قال : وفي يوم الجمعة الخامس عشر (من رمضان) قرىء التقليد الشريف الذي خطت فيه يمين ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم علامته النيرة المشرفة . . . وخرج المتوكل في الخلعة الواصلة بالسواد المعروف لخلافة بني العباسي » (نسخة ميكروفيلم رقم ١١٩٨ بمكتبة مركزا البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى ، كلية الشريعة جامعة أم القرى بمكة المكرمة) .

العباسي المستنصر بالله ، ودخلت في طاعته دانية وجنجاله وعدد من الحصون ،
وذاع أمره (٧٨) وظل أميرا على بلنسية الى أن سقطت هذه المدينة في يد
خايي الأول ملك أرغون بعد حصار طويل في ١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ .

وهكذا كانت الألوية السوداء والسواد في المغرب والأندلس وسيلة
لشرعية الولاية أو شعارا للانفصال السياسي أو المذهبي عن السلطات،
الحاكمة ، أو اقرارا بالتبعية الاسمية للخلافة العباسية بهدف لم الشعث ،
والوحدة ، في ظل رمز روى هو الدعوة للخليفة العباسي .

(٧٨) محمد عبد الله عنان ، ص ٣٩٤ وما يليها .

الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب في العصور الوسطى

للدكتور زافنت عبد الحميد - أستاذ تازيخ العدموز
الوسطى المساعد بأداب عين شمس

(م ٦ - الندوة)

الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب

في العصور الوسطى

وصفت ألمانيا في القرن السابع عشر ؛ بأنها « فوضى شاعتها العناية الالهية » ! وما ذلك القول عن ادراك الدارسين لتاريخ ألمانيا بعيد . . . ولا غلواء فيه ولا غرابة ؛ فقد تشكلت ألمانيا آنذاك مما يزيد عن ثلاثمائة دويلة وكيان سياسى ! .

فعلى الحدود الغربية عند الراين لا نجد الا اطلالا لولايات كانت تعد في الماضي هامة ، مثل بادن وورتمبرج . . أما الأزراس واللورين فقد وقعتنا في قبضة الفرنسيين منذ أواخر القرن ذاك . على حين تبدت الفوضى بعينها في الولايات الكنسية الواقعة على الراين أو بالقرب منه ، حيث كان رجال الاكليروس يمارسون حكما يفتقر تماما الى الكفاية والاعتدال ، ويفسح الطريق في يسر وسهولة أمام ضربات الجيران الأثوياء . بينما كان الشرق يبدو متماسكا وعلى قدر من القوة ، ممثلا في هانوفر وسكسونيا ، والى الجنوب عند اعالي الدانوب توجد بافاريا ، الشديدة التمسك بكاثوليكيته ، والتي تملكها الغيرة الشديدة من جاريتها الشمالية القوية ، بروسيا .

على هذا النحو كانت ألمانيا — أو بتعبير أدق — ما يسمى ألمانيا في القرن السابع عشر ، وباتت كذلك ايضا على امتداد القرن الثامن عشر ، خليطا غريبا يجمع بين دول كبرى ودويلات صغرى ، علمانية وكنسية ، حرة واستبدادية ، ولم يكن ثمة فوق هذا الخليط المتلاطم سسلطة فعالة على الاطلاق ؛ فالامبراطور كان اسما كبيرا محسب ، والامبراطورية كانت كيانا شرفيا ، لا قوة تستطيع السيطرة على زمام الأمور ، ذلك أن السسلطة الحقيقية لم تكن تتمثل في الامبراطورية ككل ، وانما في أجزائها المختلفة ، وفي حكام الدويلات التي تتكون منها الامبراطورية ، مثل النمسا وبروسيا وبافاريا وهانوفر وسكسونيا وغيرها . وهكذا كانت ألمانيا في مجموعها وفي أجزائها ، تعاني من التفسخ السياسى ، وتعجز بل وربما ترغب عن ابداء

أية مقاومة جدية فعالة تجاه نوايا جارتها القوية الطامعة .. فرنسا . حتى نعتها فولتير بسخريته اللاذعة بأنها « ليست امبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة » . وان كان ما يعيننا هنا الآن فقط .. الشق الأول من هذا النعت « الثلاثي » .. أعنى الامبراطورية .

غير أن الذي يدعو للعجب والاعجاب في الوقت نفسه ، انه رغم هذه الفوضى السياسية الضارية اطنابها في ألمانيا ، الا أن النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، شاهد ازدهارا رائعا للفكر والفن الألمانيين ؛ فقد ظهرت منذ منتصف ذلك القرن حركة بعث قومية عظيمة في هذين المجالين ، كان المساهمون الرئيسيون فيها « لسنج » Lessing و « جوته » Goethe و « شيلر » و « كانت » Kant . وفي الموسيقى رفع خلفاء « باخ » الذين يؤلفون صفا من المشاهير يضم « هايدن » و « موزارت » و « بيتهوفن » رأس البلاد انى تتحدث الألمانية عاليا في أوروبا . ولا شك ان ما أبدعه هؤلاء المفكرون والفنانون يقف على النقيض من الضعف السياسى للدويلات الألمانية في تلك الفترة .

وفي آخر سنى القرن الثامن عشر ، في أعقاب الحرب التى نشبت بين فرنسا الثورة ، وألمانيا ، وانتهت بهزيمة الأخيرة ، وانسحاب كل من بروسيا والنمسا وعقد صلحين متفردين في عامى ١٧٩٥ و ١٧٩٧ على التوالي ، ثم فرض تسوية من جانب فرنسا وحليفاتها روسيا ، أمليت فيها شروطهما وعقدتا المعاهدات مع كل دولة على حدة ، وانتهى الأمر في فبراير ١٨٠٣ بتقبول الريشستاغ الألمانى لهذه التسوية التى غيرت الى حد كبير وجه الخريطة الألمانية ؛ فقد اختفت من الوجود مائتا واثنى عشر دويلة ابتلعتها جاراتها الكبيرة ، وتوارى تماما معظم فرسان الامبراطور وجميع المدن الامبراطورية عدا ست منها ، وأزيلت الولايات الكنسية باستثناء ميوز ، وان كان قد بقي الفرسان التيوتون وفرسان القديس يوحنا بعض الوقت .

لم يمض على ذلك أكثر من ثلاث سنوات ، حتى أقدم الامبراطور الفرنسى نابليون ، والذي كان قد بلغ أوج مجده آنذاك ، على اتخاذ قرار

من جانبه بقيام اتحاد الراين ، ودعا حكام المانيا لاعلان انضمامهم أو رفضهم في غضون أربع وعشرين ساعة . وكان هذا التنظيم يقوم على أساس انشاء اتحاد من بعض الدول Confederation لا قيام دولة اتحادية . وفي السادس من أغسطس ١٨٠٦ أعلن الامبراطور فرنسوا الأول تخليه عن اللقب الامبراطورى القديم ، فانتهت بذلك الامبراطورية الألمانية ، أو ما ذاع في التاريخ باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة ! .

غير أن هذا الاتحاد « المسوخ ، الذى قصد به أساسا فرض «الحماية» الفرنسية على المانيا ، لم يقدر له أن يعمر طويلا ، إذ سرعان ما انحط بزوال سلطان نابليون ؛ ولم يكن « الاتحاد » الذى رسمه مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ بأحسن حظا من قرينه ، وإن كان العدد الاجمالي للدويلات الألمانية الداخلة في هذا « الاتحاد » الأخير أو بعبارة أدق ، هذا « المجمع » أو « الديت » Diet قد هبط الى تسع وثلاثين ، لكل منها حق مباشرة سياستها الخارجية بنفسها ، وأن تمنع وحدها اجازة وتنفيذ كل قرار هام يتخذه هذا المجلس التعاهدى ، وباختصار ، لم يكن ثمة رابطة سياسية بين الولايات المنتظمة في هذا « الديت » . ولا شك كانت العلة الكبرى لهذه المحنة ناجمة عن اختلاف الألمان انفسهم فيما بينهم في رسم خطة انشائية لمستقبل بلادهم . فالبعض منهم يصبو الى قيام دولة ألمانية تحت حكم بروسيا ، والبعض الآخر يرمى الى دولة ألمانية تدين بالولاء للتاج النمساوى ، وثالث يروم اتحادا تعاهديا تستطيع فيه النمسا وبروسيا والولايات الصغرى ، أن تكون فرقا متكافئة تتبادل التعاون فيما بينها . وهكذا لاحت المانيا كأنها تتحرك وتسير في ضباب فلسفى ، أو كما وصفها المؤرخ الفرنسى ميشليه Michelet بأنها « آسية أوروبا » ! .

ولا شك كانت فرنسا والنمسا هما أكثر الدول الأوروبية افادة من هذا الوضع المتردى في المانيا ؛ الأولى ضمننت عدم قيام دولة قوية على حدودها الشرقية ، والثانية اطمأنت الى سيادتها على هذه المنطقة ، وكان هذا مما آذى مشاعر الألمان ؛ خاصة وأن النمسا لم تكن من قبل مسوى

دوقية أوستريا Austria التي تشكلت بصورة رسمية في منتصف القرن الثاني عشر على يد فردريك برباروسا (١) Frederick Barbarossa وكان هذا دافعا لبروسيا ، ذات الطبيعة الاسبرطية ، العسكرية ، والتي وجدت في التآلف بين فرنسا والنمسا اعتداء على حقوق كانت تدعيها بالزعامة ، كي تتحين الفرصة المسانحة لتأكيد زعامتها تلك ، وساعدتها الظروف بتولى بسمارك Bismarck منصب المستشارية فيها .

وعبر أحداث طويلة وجهود مفسنية بذلها الرجل ، ولا مكان هنا لذكرها ، كان يهدف بها أساسا الى توحيد ألمانيا بزعامة بروسيا ، خاض حربين حاسمتين ؛ الأولى ضد النمسا في عام ١٨٦٦ ، تمكن على اثرها في العام التالي من توحيد شمالي ألمانيا ، والثانية سنة ١٨٧٠ ضد فرنسا ، وهي التي ذاعت شهرتها بالحرب السبعينية ، تمخضت عن قيام الاتحاد الألماني ، أو الامبراطورية الألمانية . وعلى الرغم من ذلك ، فان الذي يعيننا ، أنه رغم وجود أناس عديدين رأوا أن الوقت مناسب لاقامة دولة مركزية قوية في ألمانيا ، فان بسمارك لم يكن واحدا منهم ! فقد كان يردد دائما « اننا لا نروم أن تنضم الينا بافاريا وهي غير راضية ، بل نبتغي دولة تنضم الينا بملء اختيارها وحريتها » . ويتدرك أن هذه « الذاتية » المتمثلة بوضوح في الدويلات الألمانية تضرب في الأرض بجذورها وصولا الى العصور الوسطى ، وعبر عن ذلك صراحة بقوله : « ان السلطة المطلقة للأمراء كانت اكتسابا جذريا . تحقق على حساب الدولة ووحدتها » (٢) .

ومن هنا كان سلوكه تجاه الدول الألمانية في الجنوب بعد الحرب السبعينية ، لكي يجعلها تقبل على الاتحاد وهي راضية ؛ وفيما يتعلق ببافاريا بصفة خاصة ، كان على استعداد أن يمنحها حقوقا واسعة :

Thompson and Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 394. (١)

Mayer, The historical foundations of the German Constitution, p. 30. (٢)

كالهيئة على جيشها أيام السلم ، واسماع صوتها في الشئون الخارجية ، وتخويلها نظاما مستقلا للبريد والتغراف . وهذه كلها تمثل بشيء من التفاوت بمقتضى التطور التاريخي ، حقوق الأمراء الألمان في العصور الوسطى . وليس نعمة ما هو ادل على حكمته ونفاذ بصيرته من أن ملك بافاريا رضى أن يضع بنفسه التاج الامبراطورى على مفرق وليم الأول ملك بروسيا في حفل تتويجه امبراطورا على ألمانيا . وان يكن الدستور الألماني الجديد الذى صدر في عام ١٨٧٣ قد جاء مؤكدا « للذاتية » و « الروح » الانفصالية الكامنة في الأرض الألمانية ، بل لقد دعى رئيس الإتحاد أو الإمبراطور ؛ القيصر الألماني ، وليس قيصر ألمانيا . وتلك لها مغزاها العميق الدال على حقيقة الإتحاد . ولم يكن « القيصر » يستمد سلطته من كونه « رئيسا للإتحاد الألماني » ، بل من كونه ملكا على بروسيا . لقد كان الأمر — على حد تعبير المؤرخين : جرانت Grant وتيمرلى Temperley « أشبه بشرذمة من الحيوانات المنتظمة في سرب للصيد ، يتصدرها جميعا ذئب رمادى ضخم هو بروسيا ، يجرى في أعقابه أبناء آوى من أمثال بافاريا وسكسونيا وفر تمبرج ، ويسير في ركابه خمسة وثلاثون حيوانا أصغر ، تتفاوت أحجامها بين الجرذان الكبيرة والفئران الصغيرة » .

بل ان الحال حتى ثلاثينيات القرن العشرين ، لم تختلف كثيرا عنها في القرون التي سبقتها الى قلب العصور الوسطى ، عندما علت من جديد نعمة « الانفصالية » بين الفيدراليين وأنصار الدولة الموحدة ، وانصبت الاتهامات على رأس مؤسس الإتحاد الألماني في القرن التاسع عشر ، وعلى بروسيا . مما دفع الزعيم النازى هتلر أن يكتب في كتابه « كفاحى » مدافعا عن سلفه بسمارك ، مؤكدا أن الرجل كان يعلم يقينا حقيقة النزعات الانفصالية في دويلات ألمانيا ودويلاتها آنذاك ، وأنه « أحل هذه الحقائق محلها من التقدير ، فجعل تمثيل دول الإتحاد في مجلس « اليوندسرات » متناسبا وأهمية كل منها ، ولزم جانب الحكمة والاعتدال في تعزيز سلطة الإتحاد على حساب الدويلات التى يتألف منها ، فما أخذ منها الا ما كان الإتحاد بحاجة ماسة اليه ، وحرص في الوقت نفسه على احترام العادات

والتقاليد المحلية .. لقد أثر الاستثمار الحديدى مداراة الدويلات الألمانية تاركا للزمن أن يكمل ما بدأه هو ، لأن الطفرة غير مأمونة العواقب ، فدلل بهذا النهج القويم على بعد نظره وسلامة منطقته « (٣) .

والباحث فى تاريخ ألمانيا عبر هذه القرون الطوال من ماضيها الى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين ، يجد نفسه مواجهها بعلامة استفهام كبيرة .. كيف وصل الحال بألمانيا حتى أوليات هذا القرن الى تلك الحالة من الاعتزاز بـ « الذاتية » أو حتى « الانفصالية » ، والتي صدق عليها قول المؤرخ طومسون : « ان ألفا من الستين ويزيد قد شهد محاولات جادة أخرى لضعاف ولاء الألمانى تجاه زرعته القبليّة ، فالبافارى أو السكسونى كان يميل دائما الى اعتبار نفسه هكذا ، على أن تدعوه ببساطة ألمانيا » (٤) .
والذى يزيد الأمر حيرة أنه فى الوقت الذى بدت فيه فرنسا وبريطانيا فى القرن العاشر الميلادى ملكيات مهلهلة ، كانت ألمانيا تشكل أقوى دولة أوروبية

(٣) للوقوف على تفاصيل هذه الأحداث ، والحال التى آلت اليه ألمانيا عبر هذه القرون من الثامن عشر حتى العشرين ، والتي عرضنا لها فى هذه الصفحات السابقة فى ايجاز شديد ، كنتيجة حتمية ، ومقدمة طبيعية لألمانيا العصور الوسطى ، يمكن الرجوع الى هذه الكتب :
— بول هازار ، الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر ، جزءان . ترجمة الدكتور محمد غلاب ، القاهرة ١٩٥٨ — ١٩٥٩ ؛ بيير رنوفان ، تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ — ١٩١٤ ، ترجمة الدكتور جلال يحيى . القاهرة بدون تاريخ ؛ جرانت وتمبرلى ؛ تاريخ أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين . جزءان . الجزء الأول ترجمة بهاء فهمى ، القاهرة . بدون تاريخ ؛ فيشر ، تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ — ١٩٥٠ . القاهرة ١٩٥٨ ؛ هتلر ، كفاحى ، ترجمة لويس الحاج . بيروت ١٩٦٨ ؛ دكتور محمد كامل ليلة ، النظم السياسية ، القاهرة ١٩٦٣ . ومن الجدير بالذكر أن مجموعة من فلاحى بافاريا شاركت بحماس فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وهم يعتقدون أنهم ذاهبون لحرب أعدائهم القدامى .. البروسيين ! راجع

Thompson and Johnson, op. cit., p. 353.

Thompson and Johnson, op. cit., p. 353.

(٤)

آنذاك ، لكن ما لبث أن تبدل الحال ، فما أن وافى القرن الثالث عشر ، حتى خرجت فرنسا من تجربتها الاقتصادية ملكية قوية ، الملك فيها صاحب السلطة المطلقة . بينما أفلح النظام الاقتصادي في إنجلترا ، والمنقول من أرض القارة بصورة منتقاة على يد وليم الفاتح النورمانى وخلفائه الأنجويين ، في اخراج ملكية قوية مقيدة ، أو بتعبير حديث . . دستورية . منذ صدر العهد الأعظم في عام ١٢١٥ . هذا على حين أمست المانية ملكية ممزقة ، تتقاذف سفينها أنواع طموحات أمراء الاقطاع من العلمانيين والاكليروسيين على السواء ، هذا على الرغم من أن السمات العامة للنظام الاقتصادي الأوروبى في العصور الوسطى كانت واحدة ، متمثلة في انحلال السلطة المركزية لحساب السلطات المحلية ، من جميع النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية والتشريعية (٥) .

(٥) للمزيد من التفاصيل عن السمات الاقتصادية للمجتمع الأوروبى في العصور الوسطى يمكن الرجوع إلى الكتب التالية :

H. Pirenne, *Economic and Social history of Medieval Europe*, pp. 58-66.

G. A. Hodgett, *A Social and economic history of Medieval Europe*, pp. 24-35.

F. Ganchof, *Feudalism*, Hong Kong 1976 وايضا

Stephenson, *Medieval History*, pp. 199-241. وكذلك

P. Vinogradoff, *Feudalism*, (in C.M.H. Vol. III, pp. 458-484)

وله ايضا بالاشتراك مع الأستاذ كوبلاند ، الاقطاع والعمود الوسطى في غرب أوروبا ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٨ . وللأسناد كوبلاند كذلك . القنية والاقتصادية (مقال في تاريخ العالم الذى اشرف على نشره السير جون أ . هامرتن ، المجلد الخامس ، ص ٣ — ٢٢ ؛ دكتور اسحق عبيد : الفرسان والافنان في مجتمع الاقطاع ، بيروت ١٩٧٥ ؛ دكتور سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ٢ ص ٤٣ — ٨٨ ؛ دكتور ابراهيم العدوى : المجتمع الأوروبى في العصور الوسطى ، ص ١١١ — ١٢٦ . أما عن النظام الاقتصادي في إنجلترا فيمكن الرجوع إلى :

F. Barlow, *The feudal Kingdom of England, 1042-1216*, London 1974.

D. Douglas, *William the conqueror*, London, 1969.

وايضا

اختيار الملك ، من واقع ممارستهم له الآن (٩١١) ، وامتدادا لتقليد جرمانى
قبلى كان لدى الأجداد قائما ، وحرصا على تحقيق ذواتهم ومطامحهم .

ومن ثم لم يكن غريبا أن يطفو ذلك على السطح منذ الوهلة الأولى لممارسة
هذه التجربة ؛ إذ راح كونراد على الفور يبذل قصارى جهده لتثبيت سلطانه
كملك على الأدواق ، وتدعيم نفوذه فى الداخل ، لكن الخطأ الذى ارتكبه
كونراد ، أنه وضع هذا الهدف نصب عينيه دون أن يسلك الدرب الصحيح
، بلوغا الى تحقيقه ؛ فبدلا من قيادة الجهود الألمانية بنجاح ضد المجيار
، والصقابة والدانيين ، ترك كل دوقية تتعامل مع الغزاة بطريقتها الخاصة (٨) ،
مادامت فرنكونيا بعيدة عن متناول أيديهم ، فبدأ فى أعين الأدواق كما لو كان
حاكما لدوقية وليس ملكا (٩) . بل ان مغامراته الخارجية وجهت أساسا
لتهر اللورين لسلطانه . وحتى هذه فقد فشل فيها (١٠) . وزاد الأمر سوءا ،
أنه بغية توطيد سلطانه ، اعتمد بصفة أساسية على الكنيسة ، يدفعه الى
ذلك ما ارتآه فى نفسه وعلاقاته المترددة سوءا مع الأمراء ، فهو باعتباره
دوقا لفرنكونيا لا يستطيع أن يمد سلطانه — كعلمانى — خارج حدود دوقيته
فى ظل هذه الظروف التى تحيط به ، أما باعتماده على رجال الكليروس يصبح
ممكنا ممارسة سلطة أوسع نسبيا عبر ألمانيا . ومن هنا التى بحظه كله
دفعة واحدة فى كف الكنيسة ممثلة فى أساقفة مينز Mainz وكونستانس
Constance وسالزبورج Salzburg . . خاصة وأن الأخيرين على الأقل
كانا فى عدااء مع دوقى منطقتيهما .

ولما كان العاقل ، على حد تعبير المؤرخ سكوت M. Scott هو الذى
بتأكد من أنه لن يستطيع أن يستغنى عن عون أولئك الذين يدين هو نفسه
لهم بالنتاج الذى يضعه على مفرقه ، فقد كان طبيعيا فشل سياسة كونراد

Scott, Medieval Europe, p. 61. (٨)

Z. N. Brooke, A history of Europe, p. 21; G.M.H. III., (٩)
p. 69.

Scott, op. cit., p. 61. (١٠)

الأول فشلا ذريعا ، تلك التي لم يكن من ورائها الا سحق الأبراء العلمانيين الذين وضعوا انفسهم على هذا النحو منذ البداية في مواجهة التاج ، الى الحد الذي دفع أوتو دوق سكسونيا الذي لعب الدور الأساسي في اختيار كونراد ملكا ، الى التخلي عنه وهجر جانبه بل وتحديه ، وفعل الأدواق الآخرون مثل فعله ، ووجهوا طاقاتهم لتدعيم نفوذهم المحلي في دوقيتهم ، واثبات نواتهم وسلطانهم بين أناسهم الذين يحكمونهم ، وتحويل ولاء هؤلاء اليهم شخصيا ، فراحوا بذلك يبنون حول شخصياتهم نوعا من الهيراركية ، وما أن وافي عام ٩١٨ حتى أصبحوا قوة يحسب حسابها في دوقيتهم ، وأضحت هذه تشبه ممالك صغيرة ، وأمسى كونراد قبل أن يوافيه أجله في العام نفسه ، ملكا اسميا فقط ، بل حتى دوقا فاشلا لفرنكونيا ذاتها (١١) . ولكنه كان يدرك أن خير من يضمن لسياسته النجاح في مواجهة تحديات الأبراء ، خصمه اللدود هنري دوق سكسونيا ، ولذا جاءت آخر كلماته وهو على فراش الموت : « ان مستقبل المملكة معلق بالسكسون » (١٢) ، ولهذا أيضا جاءت توصيته باختيار هنري خلفا له ، وللمرة الثانية خلال جيل واحد ، مارس الأبراء تقليدهم الجرمانى باختيار الملك ، وعلى الرغم من أنه لم يشترك في اختيار هنري غير أمراء سكسونيا وفرنكونيا ، الا أن هنري بذل جهودا مضمية عبر جولات من الصراع والمفاوضات لفرض سلطان الملكية على الأدواق الآخرين (١٣) . وعلى هذه الصورة بدت الملكية الألمانية — كما جاء على لسان المؤرخ جيسبرخت Giesebrecht اتحادا فيدراليا من ولايات متعددة ، قاد اليه ذلك المفهوم الفرنجى عن الملكية ، والفكرة الجرمانية القديمة عن الاتحاد الحر ، والتي من خلال الاتحاد « القبلى » لكل منها ، ادت الى علاقات تدعيم سيادة اسرة بعينها ، بحيث يمكن أن نسمى ذلك

Barraclough, op. cit., p. 22; Scott, op. cit., p. 63. (١١)

C.M.H. Vol. III, p. 174. (١٢)

(١٣) قاد هنري الأول حملة لاكراه ارنولف دوق بافاريا على الخضوع

له ، ولم تخضع له اللورين الا في عام ٩٢٥ . راجع

C.M.H. Vol. III, pp. 179-180

فيدراليا . وأصبحت المشكلة قائمة في التساؤل حول ٠٠ هل يؤدي ذلك الى أن يقود التنظيم الجرماني الى اقامة نظام فيدرالى حقيقى ؟ أو احياء الملكية الفرنجية ؟ وهذا بالفعل ما تبدى لهنرى الأول ، بحيث تمكن بشيء من العنف والادراك الواقعى ، أن يحقق كسبا معيناً من أجل سيادة دوقيته ، تاركا المستقبل لشأنه (١٤) .

هكذا . . وعلى امتداد ثلاثة قرون قادمة ، شهدت ألمانيا صراعا طويلا بين سلطان التاج وسلطات الأمراء ، خفيا حيناً ، سافرا أحيين كثيرة ، كل يسعى لتدعيم نفوذه ، وتأكيد ادعاءاته ، فى ملكية وراثية شأن الممالك الأوربية الأخرى خاصة فى انجلترا وفرنسا ، أو ملكية انتخابية ، الملك فيها ليس الا الأول بين أقرانه *primus inter pares* ، مما طبع تاريخ ألمانيا كله حتى سنها المعاصرة بهذه النزعة « الانفصالية » العميقة الجذور فى تربتها أرضا وسكانا . ولا شك أن هناك عوامل متعددة ، متباينة ، تكافحت كلها لتعمل سويا على تعميق هذا الاتجاه « القبلى » أو « الانفصالى » بين الدوقيات الألمانية .

يتساءل الجغرافيون . . ما هى ألمانيا ؟ ويجيبون . . هى كما يعرفها القوميون الألمان « وطن الألمان » *Deutschland* . وهذا الوطن لم يتحد فى دولة واحدة الا منذ عام ١٨٧١ . وهو يتسع ليشمل غربا الألزاس واللورين ، ويمتد شرقا ليحاذى ساحل البحر البلطى . فالسهل الألمانى جزء من سهل أوروباى أعظم يمتد عبر شرق أوروبا فىبولندا فألمانيا حتى هولندا ، وكذلك المرتفعات الهرسينية جزء من اقليم جيولوجى أكبر وهكذا . إذ أن النطاقات الطبيعية فى وسط أوروبا نطاقات شرقية غربية ، بينما ألمانيا تقطع هذه النطاقات من الشمال الى الجنوب . وأبسط التقاسيم التضاريسية لألمانيا تنحصر فى اقليمين . . القسم الشمالى السهلى المنبسط ، والقسم الجنوبى المرتفع ، المكون من هضاب قديمة وأحواض

Joachimsen, The investiture contest and the German (١٤):
constitution, p. 97.

داخلية . واذا رسم خط متعرج من آخن في الغرب الى هانوفر وليبزج وجورلتز على نهر نيسي Neisse فانه يفصل بين هذين القسمين التضاريسيين لألمانيا + فشمال هذا الخط تمتد السهول الشمالية النى تعتبر جزءا من السهل الأوروبى الأعظم ، مموج السطح ، ينحدر انحدارا تدريجيا نحو بحر الشمال ، ولانيزيد ارتفاع الأرض فيه عن سبعمائة قدم ، بينما يزيد ارتفاع الجزء الجنوبى عن هذا القدر ، ليصل فى كثير من أجزائه الى ألفى قدم . بل أن القسم الشمالى السهل ينقسم بدوره الى ثلاثة أقسام رئيسية ؛ غرب نهر الب Elbe وهو سهل صغير تنحدر أنهاره نحو بحر الشمال ، وشرق نهر الب وهو أكثر اتساعا ، وينقسم بدوره الى عدة أقسام صغرى ، وتجرى أنهاره نحو البحر البلطى ، ثم منطقة انتقالية بين السهل والجبل ، متداخلة فى الاقليم الجنوبى لألمانيا ، الذى تجرى أنهاره هو الآخر نحو الشرق أو الغرب (١٥) . يضاف الى هذا عامل على جانب كبير من الأهمية ، هو عدم وجود حدود طبيعية منيعة تحيط بالوطن الألمانى الأصلى ، ومن ثم لم تظهر فكرة الحدود الطبيعية فى ألمانيا ، لأن ألمانيا لم تقتنرن فى ذهن الألمانى ، منذ القرون الأولى للميلاد ، بوطن معين ذى حدود طبيعية ، هذا على عكس الحال فى فرنسا تماما (١٦) . وتلك نقطة جديرة بالأهمية يوليها أصحاب النظريات السياسية اهتماما خاصا ، ويعتبرونها ركنا أساسيا من أركان قيام الدولة (١٧) .

(١٥) للمزيد من التفاصيل عن هذه النواحي — أنظر : دكتورة دولت سادق ، جغرافية العالم ، دراسة اقليمية ، الجزء الأول ، ص ٤٧٣ — ٤٨٥ .
(١٦) دكتورة دولت سادق والدكتور محمد السيد غلاب ، الجغرافية السياسية ، ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

(١٧) دكتور عبد الحميد متولى ، الوجيز فى النظريات والأنظمة السياسية ومبادئها الدستورية ، ص ١٢٤ — ١٢٨ . ودكتور محمد كامل ليلة ، النظم السياسية ، ص ١٩ — ٤٠ . وأيضا : هارولد لاسكى ، أصول السياسة ، الجزء الأول ص ٥ — ٣٩ . ومن الجدير بالملاحظة أن النظرية الألمانية عن الدولة تأثرت الى حد كبير جدا بالواقع الألمانى ، حيث ترى ان العبرة فى قيام الدولة هى وجود حكومة تملك سلطة اصدار أوامر ملزمة فى قدر معين من الشؤون المتصلة بنظام الحكم ، ولو لم تكن لها السيادة بالمعنى المطلق فى

=

هذه الطبيعة الجغرافية المتفاوتة ، واختفاء الحدود الطبيعية ، فرضت نفسها على الألمان بصورة واضحة ، في التناثر الظاهر بين سكان هذه المناطق وتلك ، ساعد على التباعد جريان الأنهار من القلب الى الأطراف هنا وهناك ، فجذب الناس بتجارتهم من المركز ، الذى لم يكن له وجود أصلا ، كجزيرة فرنسا *Ile de France* وباريس فى وسطها الى الأطراف ، كل يسعى بتجارته حسب تيار النهر . وكان هذا عاملا هاما فى ازدياد هوة « الاتنصالية » فى المانيا . فاذا أضفنا الى ذلك عنصرا آخر خاصا بالتكوين البشرى ، أدركنا مدى عمق هذه النزعة . فبينما كان اندماج العناصر السكانية يسير فى فرنسا بصورة سريعة جدا ، كان فى المانيا على العكس من ذلك ، حيث كانت القبائل المنفصلة عن بعضها قد بقيت لها قوتها وكيانها كوحدات عرقية قوية (١٨) ، وحيث كان الاتجاه القبلى فى المانيا قويا يتمثل فى اقامة وحدات سياسية المانية على أساس قبلى (١٩) ؛ ذلك أن المانيا مع نهاية القرن العاشر ، كانت مقسمة الى خمس دوقيات كبيرة ؛ لوثرانجيا ، سكسونيا ، بافاريا ، فرنكونيا ، وسوابيا ، تتفق حدود الأربع الأخيرة تماما مع تجمعات القبائل الجرمانية القديمة : السكسون والباناريين والفرنجة والأليمانى . وراحت هذه السلالات الجرمانية تدعم قوتها داخل أراضيها التى تملكها ، وحتى داخل نطاق الامبراطورية الكارولنجية بصورة لا تعرف الملل . وبينما كانت سكسونيا تحتل فى الشمال بصفة دائمة ، مركزا مؤثرا وحيويا فى الحياة السياسية الاتنصالية ، كان هناك فى الجنوب مركزان كبيران هما سوابيا وبافاريا اللتان خضعتا لمملكة الفرنجة بعد مقاومة عنيفة ، ولكنهما مع ذلك بقيتا كيانين مستقلين . ولا نجد تعبيرا أدق وصفا لحالة التناثر بين هذين العنصرين ، أمضل مما يذكره المؤرخ الألمانى « شميدلر » (٢٠)

==

تلك الشئون كافة . وهى نظرية لم تلق أى قبول . انظر ، دكتور محمد كامل لياه ، المرجع السابق ، ص ٤١ - ٤٢ .

- Mayer, op. cit., p. 8. (١٨)
 Strayer and Munro, The Middle Ages, p. 148. (١٩)
 Schmeidler, Francia's place in the structure of Medieval Germany, pp. 74-5. (٢٠)

Schmeidler في قوله : « قلما تجد بين قبيلتين المائيتين من الكراهية ، ما تجده السوابيين والبافاريين . لقد راح العداء بينهما يزداد نهوا واضطرادا ، ويتمثل في مظاهر واضحة ؛ أبرزها العداء بين الولفيين والهوهنشتاوفن *Hohenstaufens* فمع نهاية القرن الحادى عشر كان الولفيون هم البافاريين ، والهوهنشتاوفن هم السوابيين ، وخلف هذا العداء الأسرى كان يكمن العداء الموروث بين الشعبين . وكانت ايطاليا مادة دسمة للشجار بينهما بصفة دائمة .

ولقد حاول شارلمان تذيب هذه العصبية القبلية ، غير أن نجاحه كان محدودا ومؤقتا ، لم يلبث أن ضاع بوفاته . ولما كانت فترة النجاح تلك قصيرة شاحبة ، لدرجة لم يكن ممكنا معها تهن الشعور القبلى ، فقد ازداد هذا الشعور رسوخا من جراء الضعف الذى كان عليه خلفاؤه ، والذين شغلوا أنفسهم بمشروعات تتسم بالأنانية ، وهجروا بالتالى سياسته . ولما بدا عجزهم عن التصدى للهجمات الخارجية واضحا ، أصبح الجو مهيا لظهور قوى جديدة تتولى مهمة رد هذه الاعتداءات (٢١) . بل لعله مما يلفت النظر أن الحكام الكارولنجيين أنفسهم ، خلفاء شارلمان ، ساعدوا بصورة مباشرة على تعميق الفزعات القبلية . ففى عام ٨٦٩ قسم لويس الألماني جيشه بصورة تحمل طابع التفسخ الواضح ، فوجه الثورنجيين لحرب الصرب ، والبافاريين ضد مورافيا ، والسوابيين والفرنكونيين تحت قيادته ، ولما كان السمكسون قد انشغلوا بالدفاع عن أراضيهم ضد الصقالبية ، فقد تحرروا على يد لويس الألماني من الالتزام بالمشاركة فى حملاته العسكرية . وكان هذا دافعا لهم كى يركزوا كل جهودهم لحماية الحدود الشرقية (٢٢) .

ونتيجة لظروف الغزو هذه التى تعرضت لها ألمانيا ، واعتماد الدوقيات على قواها الخاصة فى هذا المجال ، جاءت نشأة الأدواق نشأة عسكرية ،

Thatcher and McNeal, 8 Source book for Mediaeval history, pp. 69-71. (٢١)

Barracough, op. cit., p. 19.

(٢٢)

حيث اعترفت كل قبيلة من القبائل المختلفة أو الأعماخ *Stems* كما كان يطلق عليها ، بزعامة محارب كبير من القادة الذين استطاعوا الحصول على لقب دوق من الناحية الادارية ، وحولوه الى لقب دال على التفوق الاجتماعى ابان الفترة الكارولنجية ، خاصة فى فترة الضعف التى شهدتها عهد لودنيج *Ludwig* الطفل ، وقد لقي هذا الاغتصاب للقب «دوق» قبولاً حسناً ، حيث نظر الناس فى كل دوقية الى هذا « الدوق » باعتباره ممثلاً لوحدهم القبلية (٢٣) . ففى سكسونيا برزت عائلة « ليودولف » *Liudolfinger* التى منها انحدر ملوك المانيا السكسون فيما بعد ، باعتبار أفرادها القادة العسكريين للحدود الشرقية *duces orientalia Saxonum* . وفى بافاريا جاءت العائلة الحاكمة من ليوتبولد *Liutpold* الذى قتل فى احدى المعارك ضد المجار ، وخلفه ابنه ارنولف الذى قرن لقبه بـ « العناية الالهية » *Dei providentia dux* . أما سوابيا فقد حمل زعيم الأسرة الحاكمة فيها من البداية لقب دوق رائيثيا *dux Raetianorum* يعنى حماة ممرات الألب السويسرية . على حين احتلت عائلة كونرادين الزعامة فى فرنكونيا بعد الصراع الداخلى الذى دار بينها وبين عائلة بيبين ، وانتهى بتحطيم الأخيرين عام ٩٠٦ ، وليصبح زعيمها أول ملك لألمانيا (٢٤) .

وهذه النقطة الأخيرة بالذات تعتبر حجر الزاوية فى السياسة الاستقلالية للألماء الألمان فى مواجهة الملكية ، فحقوق المقاطعات الخاصة لم تات من جانب سلطة حكومية مركزية ، بل جاءت ملكيتها نتاجاً محلياً خالصاً . وبالتالي فإن النبلاء الألمان حققوا لأنفسهم السيادة على ضياعهم وممتلكاتهم ، ليس عن طريق الحصول عليها من التاج بل بمجهودهم الخاص واعتمادهم

(٢٣) كانتور ، التاريخ الوسيط . ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم .
الجز الأول ، ص ٣٥٥ وأنظر أيضاً :
Thatcher and McNeal, op. cit., pp. 69-71.

(٢٤) للمزيد من التفاصيل عن النشأة العسكرية للدوقات الألمانية ،
يمكن الرجوع الى :
Z. N. Brooke, op. cit., p. 7. و *Schmeidler, op. cit., p. 79.* وايضاً
وكذلك *Barraclough, op. cit., p. 19.* ودكتور نور الدين حاطوم ،
تاريخ العدمر الوسيط فى أوروبا ، ص ٤٤٨ — ص ٤٥١ .

٩٧

(م ٧ — الذدوة)

المهياة لممارسة الوظائف العامة ، فأضحت الكونتيات والأسقفيات والأديرة
في أيديهم ، والقيادة في الحرب (٢٩) .

حقيقة ان الكونتات على عهد شارلمان ، كانوا موظفين ملكيين ، يمكن —
على الأقل من الناحية النظرية — تغييرهم بيد الامبراطور ، حتى اذا جاء
القرن العاشر الميلادي ، كان خلفاء هؤلاء الكونتات يحكمون المانيا باعتبارهم
ادواقا ، يتمتع الدوق منهم داخل حدود دوقيته بسطان يفوق سلطة الملك ،
وأصبح منصبه وراثيا ، وبالتالي أصبح من المهام الصعبة على الملك احلال
غيره محله (٣٠) . ويعبر المؤرخ الألماني ماير Mayer عن هذه الحال بقوله :
ان الدوقيات الألمانية لم تكن تعتبر لشاغلها وظائف استمدت سلطتها من
التاج ، بل وحدات تعود الى اصول مستقلة (٣١) وأخذ استقلال الدوقيات
يزداد بفعل التقاليد والعادات القبلية المختلفة في كل دوقية عن الأخرى ،
بل وحتى الأهداف . وراح هؤلاء الأدواق ينظرون الى أنفسهم باعتبارهم
حماة غيورين على هذه الادعاءات والاختلافات (٣٢) . وليس ادل على ذلك
من أنه في أثناء فترة الحرب الأهلية التي دارت بين الاخوة اعداء أبناء لويس
التقى ، ما بين عامي ٨٣٢ — ٨٤٠ ، لم تكن المانيا موحدة في اتجاهاتها ؛
فبينما كانت بافاريا وحدها تؤيد لويس الابن ، تأرجحت سكسونيا وثورنجيا
وسوابيا وفرنكونيا في موافقتها ، وان ظلت على ولائها للويس الأب . . . التقى .
فلما مات هذا . . . بقى الأمر معقدا خلال الحرب الأهلية الثانية . ففى
سكسونيا مثلا ، ونتيجة لصراعات طبقية ، اختلفت الأهواء ؛ فالأرستقراطية
النبيلة ايدت لويس الألماني (الابن) ، لأن الأغلبية العظمى المكونة من الاحرار
ايدت لوثر ! لم تكن هناك اذن وحدة في الهدف في المانيا ابان هذه الحرب
الأهلية التي انتهت بمعاهدة فردان Verdun عام ٨٤٣ ، ولا حتى بعد
أن خضعت كلها لـ لويس الألماني بمقتضى المعاهدة . لقد اعتمد أولا على

-
- Ibid, p. 206. (٢٩)
Scott, op. cit., p. 60. (٣٠)
Mayer, op. cit., pp. 15-16, 27. (٣١)
Davis, A history of Medieval Europe, pp. 210-211. (٣٢)

بافاريا ، وبعد عام ٨٥٢ لم يقدم هو أو أحد من خلفائه على أن تطأ قدمه
سكسونيا ! ،

وعلى عكس ما كان عليه الحال في فرنسا ، خلت ألمانيا من وجود جهاز
ادارى بها ، فلقد كان كونتات الفرنجة هنا مجرد نواب عن الملك ، وكان
هذا في حد ذاته يعد الشكل الأول من أشكال النظام الادارى في ألمانيا ، كما
أن الظروف التى عينوا فيها كانت تختلف تماما في سكسونيا وبافاريا مثلا
عنها بالنسبة للجزء الغربى من الامبراطورية الكارولنجية ، نعى فرنسا .
لقد كان الكونت في ألمانيا لا يعدو كونه مبعوثا ملكيا عين ليفرض ويؤد الحكم
الفرنجى فوق شعب مهزوم ، ينحصر واجبه الأساسى في تحقيق رغبات سيده
الملك الفرنجى ، ومن ثم كان عمله في المقام الأول سياسيا ولم يكن اداريا (٣٣) .
وكان وجود الملك في غالة بعيدا عن ألمانيا ، التى لم يكن بها — كما أسفنا
— سوى نوابه ، عاملا أساسيا في ضعف سلطان الحكومة المركزية بها ،
يله عدم اعتياد الألمان الخضوع لحكم مركزى مباشر ، ومن هنا يمكن القول
انه لم يكن هناك في ألمانيا ميراث لحكومة ملكية يمكن الاعتماد عليه . وهكذا
فانه تحت سطح الوحدة الظاهرية التى تكونت بقيام الامبراطورية الكارولنجية ،
فان كل اقليم من أقاليم الامبراطورية كان يحتفظ بحياته الخاصة وتاريخه
ومشاكله وخصائصه الجغرافية ، ففدت الامبراطورية على هذا النحو دولة
غير متجانسة مع تقاليدها السياسية .

ويعود ذلك في المقام الأول الى أنه في الوقت الذى كانت فيه فرنسا
احدى ولايات الامبراطورية الرومانية ، لم تكن ألمانيا كذلك . ولذا فان النظام
السياسى فى الأولى ، لم ينم مستقلا من التربة الفرنسية ، بل فرض على
أرضها بأيدى الرومان ، فلما غزا الفرنجة غالة ، وجد كونتات الفرنجة
أنفسهم وسط نظام ادارى رومانى قائم بالفعل ، كان قد أضحى أمرا طبيعيا
راسخا خلال خمسة قرون من الحكم الرومانى ، فوجهته الطبقة الحاكمة
الجديدة حسبما تقتضى مصالحها (٢٤) . وظل نظام الحكومة الرومانية ،

Barracrough, op. cit., pp 8-9

(٣٣)

Mayer, op. cit., p. 5.

(٣٤)

والمبادئ الأساسية للجهاز الإداري للدولة ، على حالهما دون أن يتعرضا للتخريب ، وبقيت للقانون الروماني هيئته ، وأصبحت له صلاحياته للسكان الغال - الرومان Gallo-Roman ، كما بقى النظام الضرائبي للدولة حيا في أسسه ومبادئه ، بل وحتى وقت متأخر ، إلى القرن العاشر ، عندما كانت تجبى ضريبة الدانيين (٣٥) Danegeld خلاصة القول ، ان مفهوم الوحدة السياسية للدولة ، الذي تمثل في هذا النموذج الروماني ، لم يدمر في فرنسا ، وأثبتت النظم الرومانية أنها الأسس الحية للدولة الفرنسية في العصور الوسطى بل والأزمنة الحديثة . أما ألمانيا فلم ينضو منها تحت السيادة الرومانية الا جزء ضئيل ، ولم يمارس الامبراطورية فيها عملية التوحيد التي طبقتها في غالة . وحتى عندما خضعت المناطق الألمانية لامبراطورية الفرنجة ، لم يحدث ذلك دفعة واحدة ، بل على فترات ، كما أسلفنا ، ولم يجد الفرنجة ميراثا اداريا لدى هذه القبائل ورثوه عن الرومان ، وكان عليهم أن يتعاملوا — عندما أخضعوا سكسونيا مثلا — مع أناس لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة الحكومة الملكية ، ولا يعرفون شيئا مطلقا عن النظام الإداري الروماني ولم يكونوا قد تحولوا حتى ذلك الوقت إلى المسيحية (٣٦) . ولذا فان الكنيسة هنا لم تكن تمثل الحفيظ على التقاليد الرومانية كما كان عليه الحال في فرنسا ؛ ذلك أن البعثات التبشيرية التي قدمت إلى الأراضي الألمانية ، جاءت من مملكة الفرنجة ، وكانت الكنائس والأديرة الكبيرة التي شيدها بونيفاس Boniface وأتباعه ، بمثابة الطلائع التي مهدت للتوسع الكارولنجي بعد ان قام الرهبان بتنصير الناس ، وتأسيس مراكز للتعليم والحضارة ، فأوجدوا بذلك الكنيسة الألمانية التي عرفت بهذا طريقها إلى الوجود قبل أن توجد

(٣٥) للمزيد من التفاصيل عن النظم الرومانية في غالة الفرنجية ، راجع البحث القيم الذي كتبه الأستاذ Ch. Pfister تحت عنوان
Gaul under the Meovingian Franks. C.M.H. Vol. II, pp. 133-158
وأیضا ، موس : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ،
ص ٣١٩ — ٣٢٢ .

Barraclough, op. cit., p. 7.

(٣٦)

أية زعامة ملكية ألمانية فعالة . وهى بهذه الصورة تعد عملا فرنجيا وليست
ميراثا رومانيا (٢٧) .

كانت ألمانيا اذن أرضا تم غزوها من جانب الفرنجة ، وطبقت فيها
النظم الفرنجية ، فالدوق فى أية دوقية ألمانية لم يكن خليفة للمحافظ الرومانى ،
كما كان عليه الحال فى فرنسا ، بل خليفة الموظف الفرنجى . وحتى هذه
لم يكسب لها السيادة هناك . وبالتالي فان النظرية الرومانية عن الدولة ،
لم تكن الأساس الذى قامت عليه الحكومة الألمانية (٢٨) . وباختصار . .
هان الوحدات الألمانية المستقلة ، والذى لعبت دورا معنا فى المهام الحكومية ،
ولم تستمد سلطانها من التاج ، بقيت منذ البداية عنصرا رئيسيا فى الحياة
العامية . وساعد على ذلك أن نظام المبعوثين الملكيين الفرنجى لم يكن من
الميسور أن يحقق أى نجاح فى أى من بافاريا وسوابيا وسكسونيا .
وسرعان ما هوى وفقد رؤساء البلاط أهميتهم منذ بواكير القرن التاسع .
كما أنه لم يكن هناك نظام ضريبى واضح فى ألمانيا ، حتى قبل نهاية العصور
الوسطى . يضاف الى هذا كله أن التشريعات الكنسية والزمنية كلها توقفت
فى ألمانيا بعد تقسيم الامبراطورية الفرنجية مباشرة (٢٩) .

وفى دولة لم يكن النظام السياسى فيها ثابتا ، ولا الادارة فيها معروفة ،
يصبح الارتباط والولاء الشخصى اهم العناصر فى ادارتها وحياتها السياسية ،
ومن ثم اعتمد الحكام على أشخاص بعينهم ، وركنوا الى ولائهم ، بالاضافة
الى اعتمادهم على مساحات واسعة من الأراضى تحت تصرفهم يبنون عليها
سلطانهم الملكى ، دون أن ينجحوا أو حتى يحاولوا اقامة جهاز ادارى كامل
يمكن أن ينجز حقيقة مشروعاتهم . وكان هذا يعنى بالتالى فقدان التاج
الألمانى للزعامة الأساسية التى يرتكز عليها الأمراء أنفسهم ؛ ففى خلال

(٢٧) كانتور : التاريخ الوسيط ، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم ،

ص ٣٥٩ .

Mayer, op. cit., p. 7.

(٢٨)

Pirenne, A history of Europe, p. 319. أيضا Ibid. p. 8. (٢٩)

الفترة الممتدة من عام ٨٧٠ حتى عام ٩١٨ كانت أراضي التاج قد تسم اغتصابها ، بالإضافة الى أن ما تبقى منها كان مبعثرا في مختلف الدوقيات الألمانية (٤٠) . وكان هذا على عكس الحال في فرنسا ؛ فرغم أن النظام الاقطاعي كان سائدا فيها ، ضاربا بجذوره في تربتها ، الا أن الملك كانت له أراضيها الخاصة ، وأصبح منذ القرن الثاني عشر قادرا على أن يسترد الامتيازات التي منحت من قبل لأفضاله ، وأن يتخذ عاصمة مستقرة للملكه ، تتركز فيها الادارات الحكومية ، وتتجه اليها كل الأنظار .

وهذه النقطة الأخيرة بالذات تعد على جانب كبير من الأهمية ؛ فتغير موطن الأسرة الحاكمة في ألمانيا من دوقية الى أخرى ، كان كفيلا أن يتبعه بالتالي التغير الكامل في كل مرافق الدولة وأجهزتها ، سعيا وراء الملك من دوقية الى أخرى ؛ فاذا كان الملك من سكسونيا ، شأن هنري الأول والأوتويين ، شكلت كل من سكسونيا وفرنكونيا قاعدة حكمهم ، وصخرة قوية في الشمال ، ووقفت مثلا كل من بافاريا وسوابيا بينهما وبين سيادة الملك في ايطاليا . واذا كانت قوة الملك في بافاريا ، شأن هنري الثاني ، كان قادرا على عزل سوابيا المعادية دائما عن كل من بوهيميا وسكسونيا . أما اذا كان الملك سوابيا ، مثل أسرة الهوهنشتاوفن ، ارتبطت أراضيها بفرنكونيا وامتدت تجاه ثورنجيا حتى تصل الى الالب ، مكونة حاجزا بين بافاريا وبوهيميا من ناحية وسكسونيا من ناحية أخرى (٤١) ؛ ذلك انه لم تكن هناك عاصمة ثابتة لألمانيا ، ولا مركزا مستقرا للحكومة . حقيقة كانت

(٤٠) يمكن احصاء ما تبقى من هذه الضياع الملكية عند اعتقال الأسرة السكسونية العرش ، على النحو التالي ؛ ٨٣ في فرنكونيا ، ٥٠ في سوابيا ، ٢١ في بافاريا ، ١٢ في اللورين ، ٥ في كل من سكسونيا وفرنيزيا . راجع Barraclough, op. cit. p. 31.

Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp. 8, 113. وانظر أيضا

Hodgett, op. cit., p. 24. وكذلك

(٤١) للمزيد من التفاصيل عن الصراعات بين هذه الدوقيات ، انظر :
Schmeidler, op. cit., pp. 82-93.

للهلوك تصورهم ، لكنها لم تكن لهم مستقرا ومقاما ، فحيثما وجد الملك توجد الحكومة (٤٢) . بل ان المشكلة لم تكن فاصرة فقط على عدم وجود مركز جغرافي يمكن الودمول اليه من هذا الخليط الهائل من الأقاليم ، بل ان ألمانيا امتقدت أيضا أى شىء يمكن اعتباره مركزا روحيا تتجه اليه الأنظار ويعتبر قبلة الألمان (٤٣) .

ولما كان وجود عاصمة دائمة يؤدي بصورة طبيعية الى قيام حكومة مركزية ، على غرار باريس ، كان من البديهي أن يتصدى الأمراء الألمان لأية محاولة فى هذا السبيل ، لأنهم يعلمون يقينا مدى تأثير ذلك فى الحد من نفوذهم وسلطانهم . ومن هنا نفهم مغزى اجهاض المحاولة الجريئة التى أقدم عليها هنرى الرابع ، بهدف تقوية سلطة التاج وتدعيم نفوذ الملك ، باتخاذ سكسونيا وباداخها جوتسلر Goslar عاصمة له ، وبنى من حولها القلاع العسكرية فى منطقة مرتفعات هارتز Harz ، ممثلا فى ذلك آل كايه الذين اتخذوا عاصمة ملكهم فى جزيرة فرنسا (٤٤) Ile de France . الا ان سياسة كهذه كان لابد أن تقابل بالاحتجاج من جانب السكسون والثورنجين ، الذين كانوا أقل الشعوب الألمانية اندماجا فى الدولة الألمانية (٤٥) . فاذا علمنا ان هذه المنطقة كانت غنية بمناجم الفضة التى عثر عليها زمن أوتو الأول ، وأن ذلك يعنى اعطاء الملك الألمانى مصدرا للدخل مستقرا بعيدا عن تحكم الأمراء ، أدركنا الأسباب البعيدة للعداء السافر تجاه سياسة هنرى الرابع من جانب السكسون (٤٦) .

-
- Z. N. Brooke, op. cit., p. 20. (٤٢)
 Pirenne, A history of Europe, p. 320. وأيضا
 D. Waley, Later Medieval Europe, pp. 73-74. وراجع أيضا
 Joachimsen, op. cit., p. 99. (٤٣)
 Ibid. pp. 110-111. (٤٤)
 Freiherr V. Dungen, op. cit., p. 211. وأيضا
 Thompson and Johnson, op. cit., pp. 374-375. (٤٥)
 Barraclough, op. cit., pp. 83-84. (٤٦)

لا ريب اذن في أن الأمور التي عرضنا لها على هذا النحو ، ترسم لنا صورة واضحة عن الأحوال العامة في ألمانيا ابان تلك الفترة من العصور الوسطى ، ونبين الدوافع الحقيقية التي حدثت بالأمرء الألمان الى التمسك بحقوقهم الموروثة بحكم النظام الجرمانى القبلى ، والمكتسبة بمقتضى الضعف الذى انتاب الملكية في ألمانيا خلال القرن التاسع ، والفتوات الخارجية الشرسة التي تعرضت لها ، والتي تحققت من خلالها سلطتهم المتزايدة داخل دوقيتهم ، مما استتبع بالتالى حرصهم الشديد على أن تكون سلطة الملك مجردة من أى سلطان يمكن أن ينتقص ولو قليلا من امتيازاتهم الواسعة ، ولن يتأتى هذا الا اذا استمرت الملكية الألمانية انتخابية بأيدى الأمرء ، بعيدة كل البعد عن اقرار مبدأ وراثة العرش . لقد كان اختيار الملك بالنسبة للأمرء — على حد قول بروك Brooke — حقا أساسيا بصفة دائمة ، ولم يسمح أبدا أصحاب مبدأ الاختيار هؤلاء ، بالاعتراف بحق الارث كما جرى التقليد في فرنسا (٤٧) . ومن الجدير بالذكر أن سياسات عدد من الملوك الألمان في الداخل ، والظروف والمشكلات الخارجية التي تورطوا فيها جميعا في الخارج ، اعنى المشكلة الايطالية ، كانت من العوامل الهامة التي عمقت مبدأ الانتخاب في الملكية الألمانية ، وجعلت حق وراثة العرش مع أخريات القرن الثانى عشر نسيا منسيا .

فالاختيار الذى تم عام ٩١١ وجاء بكونراد الى العرش كأول ملك المانى ، ثم الاختيار الثانى الذى حدث سنة ٩١٨ وثبت ما ارتآه الملك الراحل من خلافة هنرى الأول السكسونى له ، كانا لابد أن يضعفا من البداية مبدأ الوراثة في الحكم ، وهو الشئ الذى كان مطلوبا آنذاك للاستقرار الداخلى في العصور الوسطى . غير أن هنرى الأول الصياد تمكن بسياسته الداخلية ، وجهوده الخارجية التصدى للهنغاريين والدانيين ، من تثبيت دعائم نفوذه ، والتمكين لأسرته في حكم ألمانيا . واتضح ذلك جليا عندما أقدم هنرى ، وقد حضرته الوفاة — على دعوة الأمرء والناس في ارفورت Erfurt للتصديق على تعيين ابنه أوتو Otto خلفا له . ولم

Waley, op. ct., p. 73. وأيضا Z. N. Brooke, op. ct., p. 19. (٤٧)

يلبث أن تدعم هذا ثانية باختيار الأمراء الحر بعد وفاة هنرى ، ومباركة الاكليروس ، وموافقة الناس . وقد تم ذلك فى آخن Aachen ، حيث اجتمع الأدواق وكبار الكونتات والفرسان الذين أقسموا يمين الولاء له ، ثم قام رئيس أساقفة مينز ، وأخذ بيده وقاده الى صحن الكنيسة مخاطبا الناس على هذا النحو : « أقدم لكم أوتو ، الذى اختير electum من قبل الله ، وعين بواسطة هنرى ، السيد الراحل للمملكة domino rerum واصبح الآن ملكا بيد كل الأمراء ، فاذا كان هذا الاختيار electio يسركم ، فلتعلنوا رضاكم بأن يرفع كل منكم يده اليمينى » . (٤٨) . هكذا — وعلى حد تعبير باراكلاف — نجح أوتو الأول عن طريق ارادة ابيه ، وارادة الله . بحقوق الوراثة ، وبحق الانتخاب ، وبالحق الالهى ، نجح فى استخدام كل تأكيد رمزى ودينى كان متاحا فى ذلك القرن (٤٩) . وبدا للجميع ساعتها ان مبدءا الوراثة قد اخذ يستقر فى الأرض الألمانية على حساب مبدءا الانتخاب او بتعبير آخر ، تدعيم سلطان الملكية فوق سلطة الأمراء .

ولا شك ان السياسة التى اتبعها أوتو الأول اثناء عملية اختياره ملكا ، وبعدها ، تفصح عن نيات الملك الألماني الجديد تجاه الأمراء ؛ فاختياره آخن بصفة خاصة لتجرى فيها عملية تنصيبه ، توحى بأن العاهل الجديد يترسوم خطى سلفه العظيم شارل . كما ان الوليمة التى أعقبت مراسم التتويج ، على الصورة التى جرت بها (٥٠) وان كانت عند الأمراء لا تعدو امتدادا للتقليد الجرمانى القديم ، الا انها لدى أوتو كانت تعنى حقيقتها لا رمزها فقط ، أى اعتبار الأمراء « خداما ملكيين » ، تابعين تبعية مطلقة للتاج . وقد ظهر ذلك واضحا بعد عامين فقط ؛ إذ ان ابرهارد Eberhard دوق بافاريا ، والذى كان قد خلف ابيه ارنولف منذ

Widukind, History of the Saxons, in A Source book for Medieval history, by Thatcher and McNeal, pp. 72-75). (٤٨)

Barraclough, The origins of Modern Germany, p. 73. (٤٩)

(٥٠) للمزيد من التفاصيل عن المراسم والصورة التى جرت بها هذه الوليمة ، راجع Widukind, Loc cit.,

عام ١٠٩٣٥ وحصل على ولاء البافاريين (٥١) رفض دعوة التاج له بالحضور اعتمادا على هاتين الدعامين : التعيين بحق الارث عن ابيه ، وولاء دوقيته . فكانت اجابة اوتو على ذلك ، العزل . ولم يعط بافاريا لأجد من أبناء ارنولف الآخرين ، بل اعطاها لعمهم برتولد الكارنثي *Berthold of Carinthia* الذى تعهد امام الملك بعدم تعيين أى أسقف أو كونت ، وأصبحت أراضي التاج في بافاريا تابعة مباشرة للتاج ، وعين الى جانب الدوق ، رئيس بلاط يراقب تصرفاته داخل الدوقية . وكانت دلالة العزل الهامة هى القضاء على الاعتقاد السائد بحق الارث في الدوقية للأبناء (٥٢) وهو الحق الذى كان يناضل الملوك من أجله لجعله المبدأ الوحيد فى اعتلاء عرش الملكة الألمانية . ولم يضع اوتو وقتا ، فخطا خطوة واسعة عام ١٦١١ عندما تفاضى عن مسألة اشراك الأمراء فى اختيار الملك الجديد ، واقدم على تعيين ابنه وسميه حاكما شريكا . يضاف الى هذا كله اعتماد اوتو والأسرة السكسونية من بعد ، اعتمادا كاملا على الكنيسة ورجال الاكليروس فى معظم أمور الدولة ، كقوة منافسة لتحطيم نفوذ الأمراء العلمانيين ، بعد الثورات وحركات التمرد التى نشبت ضد اوتو الأول ، وكانت أخطرها بين عامى ٩٥٣ - ٩٥٥ واستهدفت اغتياله . وتلك التى واجهت اوتو الثانى وهنرى الثانى ، حتى غدت الكنيسة الألمانية هيئة دنلوبية .

ومهما يكن من أمر ، فان الجهود التى كللت بالنجاح فى مواجهة المجيار ، والاستقرار الداخلى الذى تحقق ، كان عاملا رئيسيا فى أن يظل مبدأ الوراثة محترما ومرعيا على امتداد أربعة اجيال متعاقبة ، ابتداء بأوتو الأول وحتى هنرى الثانى (٩٧٣ - ١٠٢٤) . وحتى عندما لم يكن هناك وريث شرعى مباشر للعرش ، كما حدث عند وفاة اوتو الثالث دون أن يعقب خلفا ، أقدم الأمراء على اختيار هنرى الثانى ، احتراما للأسرة التى قدمت كل ما فى مقدورها لرفعة ألمانيا ، باعتبار هنرى أحد أفراد البيت

(٥١) عن سياسة ارنولف البافارى المستقلة ، وانتزاعه يمين الولاء
 لإيانه من البافاريين ، راجع *Heinrich Mitteis, Feudalism and the German constitution, pp. 236-237.*

Barrackough, op. cit., p. 28.

السكسونى . بل ان ما حدث بعد ذلك عقب ارتحال هنرى هذا عن الدنيا ،
يبين مدى نجاح الأسرة السكسونية في تعزيز مبدأ الموراثة في اعتلاء العرش ؛
ذلك انه في عام ١٠٢٤ كان المتنازعان على العرش يدعيان انحدارهما من
سلالة ابنة أوتو الأول ، ليوتجارد Liutgard وقد فاز كونراد (الثاني)
لأن أرملة هنرى الثاني ، كونيجوند Kunigunde سلمته الأشعرة
الإمبراطورية عقب وفاة زوجها ، فعد ذلك تعيينا له باعتباره أفضل المرشحين .

هكذا بدأ عام ١٠٢٤ أن المواجهة بين مبدأى الموراثة والانتخاب ، قد
جسمت في هذه الجولة لصالح الموراثة ، وأن النزعة الاثلية لدى الأمراء ،
والتي كانت واضحة تماما خلال القرن التاسع والعفود الأولى من القرن
العاشر ، قد أخذت تخبو ، وأن النظرية التيبوتونية عن الاختيار ، قد
أصبحت قاب قوسين أو أدنى من النسيان . خاصة وأن سنوات القرن
الحادى عشر — اذ استثنينا فترة الحرب الأهلية على عهد هنرى الرابع
(١٠٧٧ — ١٠٨١) — والعقدين الأولين من القرن الثانى عشر ، شهدت
استقرار مبدأ الموراثة بصورة بدت ثابتة ، بعد أن أمكن كونراد الثانى
لابنه هنرى الثالث ، وهذا لوريثه — الطفل — هنرى الرابع ، وهذا
لابنه هنرى الخامس .

وقد اتضح منذ الوهلة الأولى لاعتلاء كونراد الثانى العرش ، تصميم
الأسرة السالية الفرنكونية على ترسيخ جذور مبدأ الموراثة ، جريا على
سنة الأسرة السكسونية ، وتدعيما لسلطان التاج على الأمراء . ففى عام
١٠٢٦ ، ولم يمض على اعتلاء كونراد العرش سوى عامين فقط ، أقدم
في أوجزبرج Augsburg على تعيين ابنه هنرى [الثالث] ذى التسع
سنوات ، وريثا له ، ووافق الأمراء على ذلك . وفي عام ١٠٢٨ تم تنويجه
ملكاً في أكس لاشابل Aix-La-Chapelle وهى السنة التى اعتببت تنويج
كونراد نفسه امبراطورا في روما (٥٢) . وهكذا يعلن الملك امبراطورا ، وما
أن يصل الى العرش الامبراطورى حتى يعين ملكا جديدا خلفا له ، مما يوحى

بأن الأمر لم يكن فقط مجرد استمرارية ، ولكن تثبيتا للحقوق التاريخية للملكية . بل ان هذا الحق امتد الى الامبراطورية ذاتها ؛ فمنذ عهد كونراد هذا اتضحت الحقيقة القائلة بأن الملك الألماني هو بحكم الواقع *ipso facto* حاكم إيطاليا ، وذهبت مع الريح حقوق الناخبين للبارد ، ومنذ عام ١٠٥٤ ظهر مصطلح *Rex Romanorum in imperatorem promovendus* الذي يعنى ان الملك الألماني ، وأن لم يكن قد تلقى بعد التاج الامبراطورى فى روما ، الا أنه بالطبع يعد « ملك الرومان » *Rex Romanorum* بحقوق ثابتة لا يمكن انتهاكها فى وراثة الامبراطورية ، حتى أن أحد فقهاء القانون فى القرن الحادى عشر ، عبر عن ذلك بقوله : « ان من تم اختياره من جانب الأمراء ، يصبح امبراطورا حقا ، حتى قبل أن يثبت البابا هذا الاختيار » (٥٤) .

وانطلاقا من السياسة العامة التى انبعتها الأسرة الفرنكونية ، والتى وضع خطوطها العريضة كونراد الثانى ، أقدم هذا الملك على وقف استنزاف أراضي التاج ، وذلك بعدم اتباع السياسة التى درج عليها أسلافه بتقديم هذه الأراضي هبات الى الكنيسة ، بل أنفقها لضرب كبرياء طبقة كبار النبلاء ، وذلك بالاعتماد على النبالة الدنيا ، أو صغار النبلاء الذين اغدق عليهم هباته ، ليصنع بهذا الاجراء قاعدة عريضة من المواليين والأبباع . وتمثل ذلك بصورة واضحة فى اعترافه بحق هؤلاء فى توريث اقطاعاتهم (٥٥) . وتجسد هذا بصورة عملية فى مواجهة للثورة التى أشعلها ارنست *Ernst* دوق سوابيا ، فقد تحالفت الملك مع الكونتات ضد الدوق (٥٦) . ولا شك أن اعتماد كونراد على النبالة الدنيا ضد الارستقراطية النبيلة ، مسألة تثير الاهتمام ، لأنها تشير للوهلة الأولى الى العداء الاجتماعى الآخذ فى الظهور خلال القرن الحادى عشر ، غير أن خطورة هذا الأمر تعود الى أنه اذا كان كونراد قد استطاع بذلك تقوية سلطانه فى الداخل ، واضعاف

Barraclough, op. cit., pp. 73-74.

(٥٤)

Thompson & Johnson, op. cit., p. 372.

(٥٥)

(٥٦) عندما طلب الدوق من الكونتات مناصرته ضد الملك أجابوه بأن طاعتهم له مرهونة بطاعته للملك ، قائلين : « نحن أحرار ، والحارس الأعلى لحررتنا هو مليكنا وامبراطورنا ، فاذا هجرنا جانبهم فقدنا حررتنا » .

شوكة الأذواق وكبار الأمراء ؛ فان هذا كان أمرا مؤقتا ، لانه أدى بسياسته هذه على المدى الطويل الى تفتيت المانيا الى اقطاعات صغيرة .

وتمشيا مع هذا الاتجاه ، وخروجا عن الخط الذي رسمه الأوتويون بالاعتماد الكامل على رجال الاكلروس ، سعى كونراد وخلفاؤه الفرنكونيون الى الاعتماد على طبقة جديدة لا تمت الى النبالة بصلة ، وجعلوا منهم الموظفين الاداريين والفرسان المسلحين ، وهذه الطبقة عرفت باسم *ministeriales* وليس لها نظير في المجتمعات الاقطاعية الأخرى في فرنسا أو انجلترا (٥٧) . وأصبحت هذه الطبقة الجديدة تعتمد بصورة أساسية على التاج في وظائفها ودخولها . واذا كانوا يشبهون الافصال في أنهم ينالون مكافآتهم بمنحهم الأراضي والمراتب ، الا أنهم كانوا يفتقدون الحرية الشخصية للفصل الاقطاعي ، ولا يمكنهم ادعاء نفس الامتيازات الخاصة بتلك الطبقة . وكان هدف الفرنكونيين من ذلك واضحا ، وهو أن هذه الطبقة من « محدثي النعمة » أقل خطرا من النبلاء وأسهل انقيادا ، لاعتمادهم أو ارتباطهم المباشر بالملك . وقد جعل كونراد الثاني منهم العمود الفقري لجهازه الاداري الجديد ، ولم يكن هنري الرابع من بعد بأقل منه استنادا اليهم ، حتى أن الشكوى التي سرت آنذاك ضده من أنه يحيط نفسه بمجموعة من ذوى الأصول المتضعة *Vilissimi et infimi homines* وأنه يسمع فقط لنصائح مستشاريه من طبقات متدنية ، وبزدرى آراء الأمراء ذوى الأصول النبيلة ، كانت تعبر عن الواقع « الاداري » الجديد باعتماد الفرنكونيين على هؤلاء « الموظفين » *ministeriales* دون غيرهم .

ولم يحاول كونراد الثاني أن يعهد بالدوقيات الشاغرة الى الأسرات المحلية ، بل وضعها جميعا في يد ابنه هنري ، حتى اذا جاءت كونراد رسل الموت تتوفاه ، كان هنري يسيطر بالفعل على كل الدوقيات الألمانية عدا اللورين وسكسونيا . فلما أصبح هنري الثالث هذا ملكا عام ١٠٣٩ حردس

(٥٧) للزيد من التماسيل عن أصل هذه الطبقة ووجودها في ألمانيا ،

Davis, op. cit., pp. 334-333.

راجع

على بسط سلطاته على كل الدوقيات ، فعهد بسكسونيا الى رئيس اساقفة بريمن Bremen ، أدالبرت Adalbert عام ١٠٤٣ ، بهدف اضعاف جانب عائلة بيلونج Billonger ، ولما كان رئيس الأساقفة مواليا للتاج ، فقد تحول العداء بينه وبين أدواق سكسونيا الى عداء هؤلاء الآخرين للملك . وان كان هنرى قد تمكن من اخماد الثورات بها ، وامضى فيها خمس سنوات يحاول تدعيم نفوذ الملكية وتقوية سلطتها هناك . اما اللورين فقد تعرضت للتقسيم بين ولدى جوتزيلو Gozilo بعد وفاته سنة ١٠٤٤ . الا أن وفاة هنرى المفاجئة سنة ١٠٥٦ عصفت بمشروعاته هذه جميعها . خاصة وأن وريثه كان طفلا صغيرا . الا ان الملك الجديد هنرى الرابع ، بعد أن باشر مهام سلطاته ، بذل جهودا كبيرة في اتمام خطط اسلافه الفرنكونيين في اقامة دولة المانية قوية .

عمد هنرى الى استعادة كل حقوق الملكية وامتيازاتها التي تم اغتصابها على ايدى الأمراء ، العلمانيين والاكليروسيين على السواء ، ابان الفترة التي كان يعاني فيها غض العمر وسن القصور ، ولو أخذنا سكسونيا مثلا واحدا فقط ، لعلمنا أنه خلال هذه الفترة ، أقدم فلاحوها على استغلال ممتلكات التاج من الغابات والمراعى جهارا ، فقطعوا اخشابها ، ورعوا انعامهم ، واورثوها أبناءهم . وكان الاتجاه الذى انتواه فيما يختص باعادة تأكيد امتيازات التاج فوق الأراضى ، وتحريم الاستغلال الخاص لها ، وتخصيص انتاجها لدخل الملك ، وبيع الاصاريح الخاصة بالانفاج بها سواء في قطع الاخشاب أو الرعى أو اقامة الطواحين . كل هذا بدأ لأعين السكسون طغيانا جائرا . وفريق هذا ، وذلك ، فإنه ضمانا لخماد الثورات التي يمكن أن يقوم بها أهالى هذه المناطق ، فان هنرى ، وقد ترسم في ذلك خطى ابيه ، أقام في اراضى التاج في سكسونيا وثورنجا عددا من القلاع ، شحنها بالمخضين له من السوابيين ، الذين حظرا بمقت السكسون وكراهيتهم باعتبارهم دخلاء يعملون في خدمة ملك ، عد عندهم طاغية . وما أن وافى عام ١٠٧٣ حتى كان هنرى الرابع قد سار في هذه السياسة شوطا بعيدا ،

مغاد بذلك السكسون الى حافة الثورة (٥٨) .

وقد ألقى المؤرخ الألماني هانز هيرش Hans Hirsh الضوء على محاولة أخرى قام بها هنرى الرابع ، دفعت الأمراء دفعا الى عدم التردد فى الاطاحة به ، عندما اشتدت حمى الصراع بين الامبراطور والبابوية ، فقد سعى الى أن يكون القضاء الجنائى ، أهم الحقوق العامة ، مستندا الى السلطة الملكية . بمعنى أن تكون الادانة من الملك نفسه ، وبهذه الصورة يمكن نقلها الى سلطان الدولة ، وكان هذا يعنى فى حالة تمامه ، التدخل المباشر فى حقوق وامتيازات النبالة الألمانية ، وهى من أهم الحقوق التى كانوا يمارسونها (٥٩) . ويبدو أن هنرى الرابع كان متأثرا فى هذه الناحية ، بما أقدم عليه ويو Wipo مستشار كونراد الثانى والذى امتدحه بأنه واهب السلام *pacis ubique dator* والمعلم ابنه هنرى الثالث ، من تقديم اقتراح الى هنرى الثالث ينصحه فيه بأن يصدر مرسوما عند تعيينه امبراطورا ، يجبر النبلاء الألمان على ارسال أبنائهم الى المدارس لتدريبتهم هناك على احترام القانون . فالإيطاليون — على حد قوله — يدرسون منذ زمان بعيد ، القانون ، مما جعل من روما سيدة العالم (٦٠) وبهذا وضع ويو يده على مواطن الضعف فى الملكية الألمانية زمن الأوتوويين والفرنكونيين . فقد كانت السلطات التشريعية والقضائية من أهم جوانب السيادة التى يتمتع بها الأذواق فى دوقيتهم . وكان اقتراح ويو يمثل المعارضة القائمة من جانب الناج ضد اتجاهات الأمراء العلمانيين ، الذين تجنبوا دوما أى قانون مكتوب كلما أمكنهم ذلك ، وراحوا يؤكدون فى تثقيف بنيتهم على الخلال الفروسية والخلفية ، والتى تقابلنا فى الملاحم

(٥٨) للمزيد من التفاصيل عن سياسة هنرى الرابع الداخلية هذه ، راجع Strayer & Munro, op. cit. pp. 207-208.

والىضا Ch. Brooke, Europe in the Central Middle Ages, pp. 181-184.

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 374-375.

وكذلك

Mayer, op. cit., pp. 27-28.

(٥٩)

Joachimsen, op. cit., 103.

(٦٠)

البيطولية (٦١) . هذه الآراء المتباينة تكشف بوضوح عن العداء الكامن والقائم بين الأحزاب المتصارعة خلال ارساء النظم الملكية الألمانية . إبان تلك الفترة ، لأن إيجاد قانون مكتوب ، وهيكلي ثابت ، لن يخدم فقط قضية القانون في ألمانيا ، بل سيدعم بالتالي مركز الملكية الألمانية داخل ألمانيا (٦٢).

كانت البدايات كلها على هذا النحو تشير الى أن الملكية الألمانية ، راحت تأخذ طريقها الى الاستقرار ، وأن ألمانيا ستغدو قوة كبيرة في أوروبا العصور الوسطى ، وأن مبدأ الوراثة قد حقق نجاحا بعيدا في التجربة الألمانية متفوقا على منافسه الخطير ، والكامن في نفوس الألمان ، وهو مبدأ الانتخاب للجالس على العرش . وبدا أن هنري الرابع سوف يوضع في عداد أقوى ملوك أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، هنري الثاني ملك إنجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا . لكن الظروف التي وجد هنري نفسه محاطا بها ، أضاعت جهوده وجهود أسرته وأسلافه عينا ، وذهبت مع الصمت الرهيب محاولات الأسرة السكسونية والفرنكونية ، وحتى أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen في اقامة دولة ألمانية موحده ، على رأسها ملك قوى ، يدعمه حق طبيعي تقليدي في وراثة العرش ، دون تدخل من جانب الأمراء .

ذلك أن هنري كان معاصرا لواحد من أقوى بابوات العصور الوسطى ، جريجورى السابع ، الذي تجسدت فيه كل مبادئ نظرية السمو البابوي منذ جلازيوس الأول Gelasius في نهاية القرن الخامس ، وحتى حركة الإصلاح الكلوني على المبادئ الجريجورية ، والتي استهدفت في النهاية وجود امبراطور واحد هو البابا (٦٣) . ولا شك أن هذا لا يتفق وسيادة

Id. (٦١)

Ibid., p. 104. (٦٢)

(٦٣) للمزيد من التفاصيل عن آراء جريجورى السابع ، راجع

Ullmann, A short history of the papacy in the Middle Ages, pp. 142-161.

Bryce, op. cit., pp. 156-158.

وايضا

الامبراطور الألماني الذي كان يرى وجهة نظر مخالفة عن الإصلاح الكنسي (٦٤) وقد حمى اتون الصراع بادىء الأمر حول مشكلة التقليد الألماني ، فلما أسقطت اتفاقية وورمز عام ١١٢٢ هذا القناع ، سمر لهيب الجدل بين البابوية والامبراطورية حول السيادة العالمية ، وانعكس هذا الصراع بصورة مباشرة على سلطان الملك الألماني في ألمانيا ذاتها . وانتهى الأمر بتحطيم الامبراطورية في القرن الثالث عشر ، وخروج ألمانيا دولة لا تحمل من حقيقتها الا اسمها فقط دون أى معنى سياسى .

كانت الكنيسة تميل دائما الى تأييد مبدأ الانتخاب في الملكية عن الوراثة ، لأن ذلك كان هو أيضا نظامها الذي تقوم عليه ، وقد رأينا أسقف مينز يباشر شيئا من هذا عند اختيار الملك الألماني . ولكن الشيء المؤكد أنها كانت ترى في ذلك تحقيقا لصالحها الخاص . وكان جريجورى السابع بصفة خاصة من أشد البابوات تحمسا لهذا الاتجاه ، خاصة وقد رأى بعيني رأسه ما فعله الامبراطور السابق هنرى الثالث من عزل ثلاثة من البابوات المرتسعين والمبارزين ، وتعيين خمسة آخرين على التوالي من تومس فيهم التمسك بأصلاح أحوال الكنيسة . وتفصح رسائل جريجورى عن القاعدة التي بنى عليها بصفة أساسية هجومه على الحقوق الوراثة للملك ، واعتبر أن الأمراء يشكلون جماعة أو هيكل واحد ، وهم لذلك يمثلون المماكة . وقد تحمس جريجورى جدا لأرائه هذه ، وقد رأى فيها عاملا هاما لتحقيق فكرته عن « صلاحية » idoneitas الحاكم (٦٥) . وقد اعتمد

Ullmann, The growth of papal government in the Middle Ages, pp. 262-309. وأيضا

Tout, The Empire and the Papey, pp. 110-114, 124-136 وكذلك
Dictatus Papae (in, Henderson, H. D. pp. 366, 7. وأنظر بصفة خاصة
Barry, The Papal Monarchy, pp. 190-227. وراجع أيضا

(٦٤) أفردنا للصراع بين البابوية والامبراطورية بحثا خاصا تحت

« السمو البابوى بين النظرية والتطبيق » .

Joachimsen, op. cit., pp. 127-129.

(٦٥)

رجال القانون الكلاسي بصفة دائمة على عبارة وردت في احدى رسائل القديس جيروم Jerome يصف فيها نظام البيعة السكندرية ، حيث يقوم الكليروسها باختيار واحد من بينهم ليكون أسقفا ، « كما يفعل الجيش بالنسبة للإمبراطور » (٦٦) .

كان قرار الحرمان الذى أصدره البابا جريجورى السابع ضد الملك هنرى الرابع فى الثانى والعشرين من فبراير ١٠٧٦ ، اشارة البدء للأمر الذى يطرحوا وراء ظهورهم تماما ، هذا التقليد الذى جرى على امتداد قرابة قرن ونصف من الزمان (٩٣٦ — ١٠٧٦) ، أعنى احترام مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانية ، وأن يبعثوا من جديد ذلك التقليد الجرمانى القديم باختيار الملك ، والذى مارسوه فى بواكير القرن العاشر الميلادى . ولم يكن هذا سلوكا عنفويا . . لكن التراكمات الطويلة الناتجة عن سياسة الأسرة السكسونية ثم الفونكونية من بعد ، والتي ابتغت تدعيم ساطان التاج وتأكيد الحق الورائى فى العرش ، ثم ما لجأ اليه كونراد الثانى وهنرى الرابع بصفة خاصة من الاعتماد على طبقات اخرى ذوى اصول غير معروفة ، لخلق منافس قوى تجاه النبالة الأرستقراطية ، ومحاولات اقامة عاصمة دائمة للمملكة فى سكسونيا ، وتجريد الأمراء ثمانية من الامتيازات التى اغتصبوها ابان فترة قصور هنرى الرابع . كل هذا جعلهم يستشعرون خطورة الأمر اذا ما تدر للملك أن يحقق انتصاره على البابوية فى صراعها حول مشككة التقليد العلمانى .

دفع قرار الحرمان ضد هنرى ، بألمانيا الى حالة من الفوضى العارمة ، تمثلت فى تحطيم وحدة الكنيسة الألمانية ، ودفعت بالأساقفة المرتعشين أن يهرولوا الى البابا طالبين الصفح والغفران . وكان اضعاف صفة القداسة على الثورة فى المانيا ، عاملا هاما فى تشجيع مختلف العناصر ، أفرادا وجماعات على اظهار سخطها (٦٧) ، وامتدت الثورة فى مختلف انحاء المانيا

Mundy, Europe in the high Middle Ages, p. 330. (٦٦)

Thompson & Johnson, op. cit., p. 382. (٦٧)

بصورة واسعة ، عجز معها هنرى عن التصدى لها . وعقد الأمراء الألمان مؤتمرا في مدينة تريبور Tribur حضره مندوبان عن البابا ، اضطر هنرى على اثره أن يلحق بكل ما قاله آنفا في حق البابا ، ووعد بأن يرضى في كل شيء الطاعة الواجبة للكرسى الرسولى والبابا جريجورى (٦٨) . وكان عليه أن يمضى أيامه الآتية في الدير حتى يأتية عنو البابا . واعلن الأمراء انه اذا لم يتمكن هنرى ، حتى الثانى والعشرين من فبراير سنة ١٠٧٧ من أن يضع عن نفسه قرار الحرمان الكنسى ، فانهم سوف يعلنون أنئذ عدم اعترافهم به كملك من بعد . ورتب الأمراء أمورهم على أن يعودوا للاجتماع ثانية في فبراير في مدينة أوجزبرج ، حيث وجهوا الدعوة الى البابا لرئاسة هذا المؤتمر المقترح ، بحيث اذا ما تقرر عدم صلاحية هنرى الرابع للبقاء على عرشه ، اختار المؤتمرون ملكا بديلا .

لا شك أن اغتباط جريجورى بهذه الأنباء كان يفوق كل وصف ، فليس أحب الى قلبه من أن يصبح وسيطا وحكما في الشئون الألمانية . فأتخذ سبيله على مهل الى المانيا في ديسمبر عام ١٠٧٦ . واذا كان هنرى قد فوت عليه هذه الفرصة ، بسعيه هو اليه ، ولقائه المهين في كاتوسا Canossa في يناير ١٠٧٧ ، وحصوله على العفو والمغفرة قبل الموعد الذى ضربه الأمراء ، الا أن ذلك كله لم يثن هؤلاء عن عزمهم ، فاجتمعوا في مارس من العام نفسه وقرروا عزل هنرى ، بعد أن اتهموه بأنه خدعهم ولم يلتزم بالبقاء في الدير حسب ما قروره في تريبور من قبل ، واختاروا ملكا مضادا هو رودلف Rudolph دوق سوابيا .

هكذا عاد الأمراء من جديد الى ممارسة التقليد الجرمانى القاضى باختيار الملك . والتقت مطامحهم وأطماعهم بالمصالح البابوية ، حتى أن المؤرخ

(٦٨) أنظر Henry IV, Promise of the King to offer obediennne to the Pope.

وأیضا Henry IV, edict Cancelling the Sentence against Gregory VII, (in Henderson, Select historical documents of the Middle Ages, pp. 384-385).

كريستوفر بروك Christopher Brooke يرى أنه كانت هناك خطة موضوعة بين جريجورى السابع والأمراء ، بعد أن أصبح واضحاً في عام ١٠٧٦ لكل من البابا وعدد كبير من زعماء الكنيسة الألمانية ، أن هنرى الرابع لم يعد على وفاق مع الأمراء ، والاضفاء صفة العدالة على خطتهم القاضية بعزل هنرى ، عادوا الى ما جاء في الكتاب المقدس ، من أن صموئيل عين داود ملكاً بينما شاول كان ما يزال على قيد الحياة . ويذكر ان هذه الرؤية كانت مرضية جداً بالنسبة لجريجورى ، وهى التى ألهمته من بعد نبوعته الشهيرة عام ١٠٨٠ ، بأن هنرى لن يلبث أن يموت ، ابان صراعه مع رودلف السوابى . أما بالنسبة للأمراء فقد كان من الصعب عليهم الاعتماد فقط على ما جاء فى العهد القديم ، والا وضعوا أنفسهم تحت رحمة اكليروس عنيف لا يرحم ، هو البابوية . ومن ثم أقدموا منفردين على اختيار رودلف دون مشورة البابا (٦٩) . ويدعم أولمان Ullmann هذا الرأى أيضاً حين يقول ان الأمراء فوجئوا بما أقدم عليه البابا فى كانوسا ، من العفو عن هنرى دون أن يستشيرهم فى هذا الأمر ، ولما كانوا قد ووجهوا بالأمر الواقع . fait accompli فقد تصرفوا هم الآخرون بنفس الصورة عند اختيارهم لرودلف السوابى (٧٠) . ولعل هذا هو الذى يفسر مغزى الرسالة التى بعث بها جريجورى السابع الى الأمراء الألمان عقب اذلال كانوسا (٧١) .

كان طبيعياً أن ينصح الأمراء عن نياتهم الحقيقية باختيار رودلف السوابى للعرش الألمانى ، فهم من ناحية أكدوا من جديد حقهم فى « اختيار » الملك ، ومن الأخرى ضمنوا أن يحققوا من خلال الملك الجديد ، الذى صنعه

Ch. Brooke, Europe in the central Middle Ages, pp.154, (٦٩)
283.

Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, (٧٠)
... Ages, p. 119.

Gregory VII, Letter to the German princes giving an account of the incident at Canossa (in Brian Tierney, The Crisis of Church and State, pp. 62-63). (٧١)

أيديهم ، كل ما كانوا يشكون من ضياعه على عهد هنرى الرابع وأسلافه ، الفرنكونيين بخاصة . ولذا كان رودلف ملكا مفضلا لدى الأمراء ، فقد كان عليه قبل أن يتم اختياره أن يتعهد باعادة حقوق هؤلاء الأمراء ، وظهر هذا واضحا خلال مرحلة المفاوضات التى سبقت اختياره . وكانت الوعود التى قطعتها على نفسه تكشف بوضوح — على حد قول المؤرخ الألماني **Mitteis** — الاتجاه الى منح رودلف مركز السيد الاقطاعى وليس مركز الملك (٧٢) . ومن ثم كان أهم ما تمخضت عنه عملية اختيار رودلف السوابى ، أن الملكية الألمانية — كما يراها الأمراء ، يجب أن تبقى انتخابية ، وأن يتولى الى الظل مبدأ وراثه العرش . ولذا فقد كان حرص الأمراء باديا على أن يتعهد لهم رودلف بعدم الإقدام على احياء مبدأ وراثه العرش من جديد .

ونتيجة لحرب التقليد العلمانى ، تحطمت محاولة الأسرة الفرنكونية لاقامة ملكية قوية ، فقد ألفت البابوية بثقلها فى الميدان ، واستغلت الأرسنقراطية هذا النزاع لتدعيم مصلحتها ونفوذها ، ولعبت الحروب الأهلية (١٠٧٧ — ١٠٨١) دورا كبيرا فى تمزيق وحدة ألمانيا ، واستغلت فترة الثلاثين عاما ، الواقعة بين ١٠٧٦ — ١١٠٦ ، وهى التى لم يكن فيها هناك من الناحية القانونية ، ملك معترف به من الألمان جميعا ، فى ممارسة سلطات متزايدة للأرسنقراطية ، وبدلا من النظام الفرنكونى للحكومة ، أقامت الأرسنقراطية نظاما ينفق ومصالحها هى ، وأهملت تماما حقوق الملكية . وهكذا شهد المجتمع الألمانى تحولا خطيرا فى تركيبه الاجتماعى خاصة فى الفترة ما بين اتفاقية وورمز سنة ١١٢٢ واعتلاء فردريك الأول برباروسا العرش عام ١١٥٢ ، بحيث يمكن القول ان ألمانيا تحولت بالفعل الى مجتمع اقطاعى ، بعد أن انتشرت القلاع فى كل مكان ، واختفى الفلاحون الأحرار ، وتحول النبلاء الصغار الى فرسان وارتبطوا بالسيادة بروابط الفدالية (٧٣) . وساعدت الحرب الأهلية فى ألمانيا على التمكين لهذه القوى الجديدة ، وكان كل كسب يحققه الأمراء ، يعد بالتالى خسارة للتاج ؛ ذلك أنه كان على الملوك أن يقدموا باستمرار تنازلات متزايدة لهؤلاء الأمراء المكسب تأييدهم ،

Heinrich Mitteis, Feudalism and German Constitution, p. 241. (٧٢)

Barracough, op. cit., p. 136. (٧٣)

خاصة التأييد العسكرى . وكان هذا يعنى اعترافا متزايدا بطموحاتهم الخاصة وبحقوقهم السيادية فى مناطق سيادتهم ، بما فيها سلطانهم على النبالة الدنيا ، وحقهم فى الوراثة . وهكذا أصبح من السهل انتقال لقب الدوق أو الكونت من الأب الى ابنه وكذا الأراضى . وأمست فكرة إقامة دولة لها كيانها السياسى ، خاصة الالتزام العسكرى تجاه الملك ، أمرا عبثا (٧٤) . كما أن الادعاءات الخاصة بالامبراطورية أثرت الى حد كبير فى كفاءة ومقدرة الملكية الألمانية ، بعد أن أخفق الملوك الألمان أنفسهم فى مشكلات إيطاليا ، وتعددت سنوات غيابهم هناك بعيدا عن ألمانيا ، مما أعطى الفرصة للأمرء الألمان كى يمارسوا سلطانهم وسيادتهم بعيدا عن أعين الملوك (٧٥) .

كان اختيار رودلف السوابى اذن ، نقطة البدء فى طريق اللا عودة الى مبدأ وراثة العرش ثانية ، وإذا حدث من بعد فئ ن يمثل الا الاستثناء ، كما سنرى زمن أسرة الهوهنشتاوفن . بل لقد استعر الهجوم على الملكية الوراثة عقب موت رودلف السوابى عام ١٠٨٠ ، اذ لقي اقتراحا بتعيين كونراد ابن هنرى الرابع بدلا من أبيه ، رفضا جامحا من أوتو كونت نوردهيم Otto of Nordheim الذى قال : « لا أرى الا عجلا شاردا يولد من ثور هائج ، لذا ، فأنا لا أريد الابن ولا الأب !! » (٧٦) . وكان تهرد هنرى [الخامس] ضد أبيه ، وقبوله التاج وعلان نفسه ملكا بيد الأمرء عام ١١٠٥ ، يعنى اعترافا منه بالسماة الأرستقراطية للمجتمع الألمانى ، وبما وصل اليه سلطان الأمرء . وباختصار ، فان حقوق الارث الملكى والامتيازات التى لا تقبل المناقشة بالنسبة للملكية ، قد انهارت تماما من جراء الصراع حول التقليد العلمانى ، والحرب الأهلية بين عامى ١٠٧٦ — ١١٠٦ وظهر ذلك واضحا فيما قتاله أسقف مينز ، الذى طالما أدمى ومارس حق تنصيب الملك ، وراح يناضل الآن من أجل أن يجعل من نفسه « صانع الملوك » ، كى يتحكم فى مصائر المملكة وأقدارها . قال فى عام ١١٠٦ وهو يسلم الأشعرة الملكية الى هنرى الخامس : « اذا لم تغد حاكما عادلا ، حاميا لكنيسة الله ، فانه مصيبك حتما ما أصاب من قبل أباك ! » (٧٧) .

Z.N. Brooke, op. cit., p. 506.

(٧٤)

(٧٥) أفردنا بحثا خاصا عن هذه الناحية تحت عنوان : « المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية » ، منشور بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد ٣٠ .

Barracough, op. cit., p. 15, n. 1

(٧٦)

Ibid. pp. 153 — 154

(٧٧)

ولقد كان على هنرى الخامس أن يقدم بدوره التعهدات على نفسه والتي لا تخرج عن تلك التي اعطاها صاغرا من قبل ، رودلف ، فقد وعد هنرى السكسون حتى يحصل على ولائهم عام ١١٠٦ ، وعدا بأن كل فرد سوف يحظى بالعدالة *at omnibus iustum indicium faciat* . وفى عام ١١١٩ أحنى رأسه للعاصفة ، وجدد وعوده فى عبارات محددة واضحة تجاه الملكة جميعا . لقد كانت النتيجة الطبيعية للانتخاب ، باختصار ، الاعتراف بالحقوق المقررة لأمرء الاقطاع « (٧٨) » .

ولو أن الأمور جرت على نحو طبيعى كما كانت تسير قبل عام ١٠٧٦ ، لوجدنا أن السابقين اللتين جريتا فى عام ١٠٠٢ باختيار هنرى الثانى باعتباره وريثا لأوتو الثالث ، وعام ١٠٢٤ باختيار كونراد الثانى ، لكونه مرشحا من قبل زوجة الملك الراحل هذا ، ليمكن أن نشتيرا الى أن الأمرء سوف يقدمون الآن فى سنة ١١٢٥ بعد وفاة هنرى الخامس ، على اختيار فردريك السوابى الهوهنشتاوفنى الوريث الشرعى لهنرى ، والمرشح من قبله قبل وفاته . غير أن هذا أصبح الآن شيئا مستحيلا ، إذ لو حدث لرأى فيه الأمرء عودة الى مبدأ الوراثة ، ولذا فقد عمدوا الى اختيار لوثر *Lothar* دوق سكسونيا . وكان أدالبرت رئيس أساقفة مينز ، والعدو اللدود لهنرى الخامس ، هو المحرك الأساسى وراء هذا الاختيار ، فقد أغرى الناخبين بعدم احترام وصية هنرى الأخيرة ، بالاضافة الى أن لوثر كان معروفا بعدائه الشديد لسلفه إبان حياته ، ولم تكن لديه أية ادعاءات وراثية فى العرش (٧٩) ولذا كان يضع نصب عينيه أن امتلاكه للتاج راجع فقط الى الانتخاب وحده . وشجع الأمرء على ذلك ، أنه كان قد بلغ الخمسين من عمره ، ولم يكن له وريث ذكر ، ولم يبد عليه أى علامة من علامات الطموح فى تكوين أسرة ملكية أو التدخل فى حقوق الأمرء وامتيازاتهم . لقد كان لوثر باختصار أحد أفراد تلك الطبقة الجديدة التى ظهرت نتيجة لحرب التقليد العلمانى (٨٠) .

وطيلة عهد لوثر (١١٢٥ — ١١٣٧) كان يتصرف بما لا يزيد عن كونه

Ibid. p. 155

(٧٨)

(٧٩) عن دور رئيس أساقفة مينز ، راجع Adalbert, letter to the bishop of Bamberg, (in S.B.M.H., pp. 167).

أما لوثر فكان ابنا لأحد صغار الكونتات فى سكسونيا ، وإن كان قد حصل على حكمها سنة ١١٠٦ ، عن طريق ادساره الى أسرة بيلونج *Billung* راجع Scott. op. cit., p. 116.

Davis, op. cit., p. 317.

(٨٠)

زعيمًا لجماعة النبلاء أكثر منه ملكًا المانيا . ولما ووجه بعداء أصحاب الحق الشرعيين في العرش ، الهوهنشتاوفن ، ركن الى تدعيم نفسه بإقامة حزب أقوى الى جواره ، دون أن يدخل في اعتباره أنه حاكم لملكة . فوزعت الأراضي الملكية لجذب الأنصار ، وارتمى في أحضان الكنيسة ، وابتاع رضاها بما قدمه من تنازلات باهظة ، وخسرت الملكية الألمانية كل ما كانت قد حققتة زمن هنرى الخامس بمقتضى اتفاقية وورمز عام ١١٢٢ . لكن الخسارة الكبرى تمثلت في تنازله للكنيسة عن أملاك الكونتيسة ماتيلدا ، وقبوله بادعاءات البابوية عليها ، وتلقيها من انوست الثانى Innocent II اقطاعا بابويا ، في مقابل حصوله على التاج الامبراطورى سنة ١١٣٣ ! (٨١) .

وكان هنرى المتكبر Henry the Proud الولفى دوق بافاريا ، من اكبر مؤيدي لوثر عند تتويجه ملكا ، وتدعم التحالف بينهما عام ١١٢٧ بزواج هنرى من ابنة لوثر الوحيدة ووريثته ، وجاء هذا الزواج في نفس العام الذى حمل فيه الهوهنشتاوفن ، الأعداء التقليديون للولفيين والملك ، السلاح ، وأقاموا ملكا منافسا ، وظلت لهم اليد العليا حتى عام ١١٣٠ ، وان كان التحالف بين لوثر وهنرى قد أدى الى تحسن موقف الملك وانتصاره على خصومه عام ١١٣٥ . وكان لا بد أن يكافئ صهره على حسن دينه ، ف جعله ماركيزا لتوسكانيا وعهد اليه ادارة أملاك الكونتيسة ماتيلدا ، مما جر على الملك غضب الكنيسة في أخريات سنى حياته . وزاد المسألة تعقيدا في المانيا ، أن لوثر ضم الى هنرى أيضا دوقية تسكانيا ، فغدا بذلك عند وفاة صهره أقوى المرشحين للعرش ، بسيطرته على بافاريا وسكسونيا في المانيا ، وتوسكانيا في ايطاليا ، وبتلقيه للأشعرة الملكية من لوثر الذى بعث بها اليه عندما حضرته الوفاة . كما أنه عن طريق زوجه جرتود Gertrude ورث ضياع لوثر الخاصة ، التى تشمل أملاك أكبر عائلتين في سكسونيا قديما ، بينما توجد الأملاك الوسيعة لأسرته في بافاريا تحت ادارة أخيه ولف Welf (٨٢) .

(٨١) راجع Lothar, Coronation Oath, 1133. وأيضا الوثيقة الخاصة بمنح أراضى الكونتيسة ماتيلدا كقطاع بابوى الى لوثر
Innocent II grants the land of Countess
Matilda to Lothar II, 1133, (in Thatcher & McNeal, A
Source book for Mediaeval history, pp. 169-171).

(٨٢) للمزيد من التفاصيل عن المركز المتميز للولفيين ، راجع
Z. N. Brooke, op. cit., p. 278.

أضحى من الممكن في ظل هذه الظروف ، قيام حكومة ألمانية مستقرة ،
 وأن تغدو الدولة الألمانية قوية . لكن شيئا من هذا لم يحدث ، لأن قيام
 ملكية ألمانية قوية لم يكن في مصلحة أى من النبلاء أو الكنيسة . وكانت
 شخصية هنرى المتكبر ، بلقبه الذى اقترن باسمه ، تنفر الأمراء والاكليروس
 من الاتتماد على اختيار ملك لا بد أن يصبح « متعجرفا » مزهوا بقوته .
 وهكذا تكرر من جديد ما حدث عام ١١٢٥ بعد وفاة هنرى الخامس ، إذ
 ضرب بعرض الحائط آراء النفس القليل الذى كان ينادى بإعادة مبادئ
 الشرعية والوراثة ، رغبة في تقوية الملكية (٨٣) ، ولعبت الدوافع الشخصية
 دورها حاسما ، متمثلة في المندوب البابوى الذى يعث به البابا على عجل ،
 ليعمل قدر طاقته في ألمانيا لصرف التاج عن هنرى ، ووقع اختيار الأمراء
 والمندوب البابوى على كونراد الهوهنشتاوفنى دوق سوابيا ، ليكون
 ملكا . ولما كان منصب رئيس أساقفة ميونخ شاغرا ، بينما تم اختيار رئيس
 أساقفة كولون لتوه ، فقد تزعم أسقف تريير **Trier** أدالبرو **Adalbro**
 الدعوة لمنع وجود ملك قوى ، يملكن أن ينقض كل التنازلات التى حصلت
 عليها الكنيسة من قبل على عهد لوثر (٨٤) .

هكذا أكد الأمراء خلال أقل من خمسة عشر عاما ، وعلى مرتين
 متتاليتين ، حقهم في انتخاب الملك ، وتأكيد كون الملكية الألمانية انتخابية .
 ولكنهم في الوقت ذاته حكموا عليها بأن تظل ضعيفة ، ودفعوا بألمانيا الى
 عداء اقطاعى مدمر بين الولفيين والهوهنشتاوفن (٨٥) زاده ضراما ضعف
 شخصية كونراد ، ولجؤته الى نفس الأسلوب الخاطيء ، قصير النظر الذى
 سار عليه سلفه لوثر ، فأقام الى جانبه حزبا مناوئا للولفيين ، فعيين

Barraclough, op. cit., p. 158.

(٨٣)

Z. N. Brooke, op. cit., pp. 278 — 79.

(٨٤)

Thompson & Johnson, op. cit., p. 393. وأيضا

Scott, op. cit., p. 119.

(٨٥)

البرت الدب Albert the Bear على سكسونيا ، وليوبولد Leopold الأخ غير الشقيق للملك ، دوقا على بافاريا ، بعد أن انتزعهما من هنرى المنكبر . غير أن ذلك لم يؤد الا الى اشعال نيران الحرب الأهلية ، فلما فشلت محاولاته ، وانتصر الحزب المؤيد لهنرى الأسد ، ابن هنرى المنكبر ووريثه ، لجأ الى عملية تغذية هذه النيران ، فحرض براندبرج ضد سكسونيا ، وأوستريا (النمسا) ضد بافاريا . غير أن هذه السياسة كشفت الى أى مدى أمست الملكية الألمانية الى ضياع .

ولم يكن أمام الملك من طريق سوى استرضاء الأمراء ، حتى أنه عند اعتلاء كونراد الثالث العرش ، كانت كل الضياع قد أصبحت وراثية ، بينما تحولت أراضي التاج الى رقع مبعثرة ، خاصة في شمالي ألمانيا ، سواء من حيث المساحة أو الامتداد (٨٦) . وفى عام ١١٢٥ حمل التغيير فى الأسرة الحاكمة الى مزيد من التدمير لأراضي التاج ، فقد ذهب جزء كبير منها الى أسرة الهوهنشتاوفن ، بمقتضى الظن عند هنرى الخامس بانتقال العرش اليها عن طريق فردريك السوابى الذى بعث اليه هنرى بالأشعرة الملكية . ثم ازدادت المشكلة تعقيدا عام ١١٣٨ بذهاب أراضي التاج الى هنرى المنكبر ، بحكم الظن أيضا بانتقال العرش اليه بعد وفاة ليوثر . حتى أن هنرى — كما أسلفنا — غدا بالأراضي الواقعة تحت سلطانه ، أقوى من كونراد الثالث نفسه عند اعتلاء العرش . ولا ريب أن ضعف الدعائم المادية للملكية ، مع ازدياد وتقوية الحقوق الخاصة بالأمراء ، يعد السمة الرئيسية للفترة الواقعة ما بين عامى ١١٠٦ و ١١٥٢ ، حيث أصبح الملك يعد عند الأمراء الأول بين أقرانه Primus inter pares (٨٧) . ولقد أصاب أوتو الفريزى Otto of Freising كاتب سيرة فردريك الأول Gesta Frederici عندما ذكر أن الملكية التى كانت زمن الفرنكونيين وراثية عملا ، أمست فى

Bryce, op. cit., p. 162.

(٨٦)

Barraclough, op. cit., pp. 159-162.

(٨٧)

عام ١١٥٢ انتخابية تتم حسب رغبات الأمراء ؛ ذلك ان العمد التي ارتكزت عليها الملكية الفرنكونية كانت قد ولت ، فالكنيسة غدت اقطاعية ، ولم يعد الأساقفة على ولائهم للتاج ، والموظفون الملكيون الذين اعتمد عليهم هنرى الرابع فى برنامجيه ، تأرجحت أهواؤهم بفعل عدم استمرارية الأسرة الحاكمة أو سياستها (٨٨) .

وفى عام ١١٥٢ مات كونراد الثالث ، وتفاضى الأمراء عمدا عن ابنه الأكبر ، وتحولوا الى اختيار ابن أخيه فردريك دوق سوابيا ، ورغم أن الأمر بدا على هذا النحو يمثل تأرجحا بين الوراثة والانتخاب ، الا ان الأمراء كانوا يدركون تماما ، أن البديل لذلك هو الوقوع تحت سطوة زعيم البيت الولى ، الشخصية القوية الصارمة ، هنرى الأسد . يضاف الى ذلك ان الأمراء رأوا فى فردريك شخصية قد توثق نزيف الحروب الأهلية والصراعات الداخلية بين العائلات الأرستقراطية الكبيرة ، فقد كان فردريك ودودا مع الولىين ، كما أن امه جوديث Judith كانت أختا لهنرى المتكبر (٨٩) . لذا لم يلق اختيار فردريك برباروسا الهوهنشتاوفنى معارضة ، كما حدث لسلفيه من قبل . وكان أول شىء أقدم عليه الملك الجديد اظهار حسن النية من جانبه تجاه الولىين ، فاعترف بحق هنرى الأسد فى الأراضى التى يسيطر عليها بالفعل عبر نهر الالب ، وكذلك سكسونيا ، ورد عليه دوقية بافاريا ، وأقطع الولىين أيضا اراضى امبراطورية فى توسكانيا ، فاستطاع بهذه العلاقات أن يجعل من الأمراء الألمان قوة الى جانبه (٩٠) .

غير أن هذه السياسة التى لجأ اليها فردريك برباروسا فى أول عهده ، لم تكن تنم عن شخصيته أو أهدافه الحقيقية ، بل جاءت ترضية لخواطر

Ibid, p 162.

(٨٨)

Z.N. Brooke, op. cit., p. 287.

(٨٩)

Thompson & Johnson, op. cit., p. 394.

(٩٠)

الأمرء وتهدئة للأمور في ألمانيا بعد فترة عصيبة ، لعبت بها النزعات والأهواء الشخصية كثيرا منذ حرمان هنرى الرابع حتى وفاة كونراد الثالث (١٠٧٦ - ١١٥٢) . لقد كان فردريك يدرك تماما حقوقه الملكية ومدى سلطانه ، شأن أى سيد اقطاعى ، ولم يكن يدخر وسعاً في سبيل تثبيت هذه الحقوق ، ولذا فقد أضحى البلاط الملكى على عهده بتوالى السنين ، شيئاً يثير الرهبة في نفوس ربيعت على الاحترام . وكان زواجه من *Biatrice* وريثة كونتية برجنديا ، قد حمل اليه أرضاً جديدة وأفضالا تابعين (٩١) أما فيما يختص بالكنيسة ، فان فردريك ، بعد التبعية والخضوع الذى كان قد أظهره كل من لوثر وكونراد تجاهها ، عاد بصورة متطرفة الى تلك السياسة التى انتهجها الأوتوويون من قبل . فأعلن عزمه على التمسك بكل الحقوق التى أعطيت للتاج بمقتضى اتفاقية وورمز ١١٢٢ ، وكان السبيل الذى انتهجه في ذلك يدور حول استبدال الأساقفة المصلحين الذين يرغبون في تركيز السلطة الكنسية في يد روما ، بغيرهم من الأساقفة السياسيين . من المدرسة الألمانية القديمة ، ولذين لم يهجروا جانبه مطلقاً ، بما يتميزون به من العناد . وكان من أبرز هذه الشخصيات رينالد *Rainald* رئيس أساقفة كولون ، وقد ظل حتى اليوم الأخير من حياته يعمل في خدمة الدولة ، ويستحث فردريك على الدفاع عن حقوقه الى درجة ربما أبعد مما كان يسعى اليها فردريك نفسه . كما أنه وجد في كريستيان رئيس أساقفة مينز ، عقلاً متقدماً ونصيراً غيوراً (٩٢) .

وكان من بين الدعامات التى لجأ اليها فردريك لتدعيم نفوذه وأسرته ، حردسه على أن يوجد الى جواره ادارة تنفيذية تعمل بأمره ، وأراضى واسعة للتاج وخاضعة له مباشرة ، ورغبته في تطبيق مبادئ القانون الاقطاعى ،

Ibid. p. 395. (٩١)
C.M.H. Vol. V, pp. 392-397. وأيضا *Ibid.* pp. 395-6. (٩٢)

بجعل الهراركية العسكرية Heerschild ونظام القيادة العسكرية مرتبطا أيضا بالتاج . وكان هذا يعنى مدخلا طبيعيا لمفهوم وحدة monistic الدونة فى ألمانيا (٩٢) . وهذا يستتبع بالتالى العودة الى اقرار مبداء الوراثة فى العرش ، والذي كان قائما أيام الأستريين السكسونية والفرنكونية . وهذا بدوره سوف يقود حتما مقضيا الى الصراع مع الأمراء والكنيسة جميعا . وقد تهيأت الفرصة لفرديريك بربروسا فى عام ١١٨٠ عند تحطيمه لقوة خصمه هنرى الأسد ، وكان الأخير قد استغل التفوق الضخم الذى حازه ، بما أهدقه عليه فرديريك فى البداية ، فراح يطبق نظاما عسكريا صارما فى سكسونيا ، واهتم بتأسيس المدن فى مناطق نفوذه مثل برونزويك Brunswick وميونخ Munich ويمارس سياسة خارجية مستقلة ، فأصهر الى هنرى الثانى ملك انجلترا وتزوج ابنته ، وقام برحلة الى الأراضى المقدسة ، واستقبل رسل الامبراطور البيزنطى ، الذى كان على عداء مع الملك الألمانى . فلما استشعر فى نفسه القوة ، رفض الاشتراك فى الحملة الخامسة التى قام بها الامبراطور الى ايطاليا عام ١١٧٦ ، وكان لغبابه أثره الكبير فى هزيمة فرديريك فى موقعة ليجنانو Legnano ، وما ترتب عليها من اعادة تكرار مشهد كانوسا ثانية فى البندقية ، على يد البابا اسكندر الثالث . فلما عاد الملك الى ألمانيا ، راح يستجمع قواه وقوى الأمراء الحاقدين على هنرى الأسد ، وتمكن من تحطيمه سنة ١١٨٠ (٩٤) .

غير ان فرديريك فوت على نفسه واسرته فرصة اقامة ملكية ألمانية وراثية قوية ؛ وذلك بالأسلوب الذى اتبعه بعد تدمير قوة خصمه ؛ ذلك أن عقابه جرى فى اطار النظام الاقطاعى ، فباعترار هنرى فصلا اقطاعيا

Mayer, op. cit., pp. 28-29.

(٩٣)

عن تفاصيل هذه الأحداث ، راجع

Z.N. Brooke, op. cit., pp. 51, 501-503.

بتمردا ، أدين بمقتضى القانون أو النظم الاقطاعية ، فجرد من ممتلكاته كعقوبة .
 اقطاعية أيضا . وبدلا من ضم هذه الأراضى والممتلكات الى التاج لنقويته ،
 وزعت على صغار النبلاء الذين ساعدوه فى محاكمة هنرى والقضاء عليه .
 وكانت هذه سابقة خطيرة ، بحيث لم يستطع أى ملك المانى فيما بعد أن
 يضم أراضى مصادرة لفصل متمرد الى ملكية التاج ، هذا على عكس ما حدث
 بعد ذلك بعشرين عاما فى فرنسا ، عندما أقدم فيليب أوغسطس بعد هزيمة
 جون ملك إنجلترا ، على ضم نورماندى الى أراضى أسرة كابيه (٩٥) . لكن
 الشيء الجدير بالذكر أن سياسة فردريك هذه بتوزيع ممتلكات هنرى الأسد ،
 غيرت الخريطة السياسية والاجتماعية لألمانيا ، وإذا كانت قد ضمنت
 له السيادة على ألمانيا طيلة عهده ، بعدم وجود قوة كبيرة تماثل قوة هنرى .
 الأسد ، إلا أنها عملت على تفنيت وحدة ألمانيا تماما ؛ فقد اختفت أو كادت
 الدوقيات الكبيرة القوية ، وحلت محلها دوقيات صغيرة هزيلة ، وأصبح
 لقب الدوق ومنصبه وليس له نفس البريق الذى كان من قبل ، وظهرت
 نبالة جديدة لم تكن ضمن طبقة الأرستقراطية النبيلة من العائلات العريقة .
 وترك ذلك آثاره السيئة على مستقبل ألمانيا فيما بعد . . . وأثبت فردريك
 بذلك أنه لم يكن رجل سياسة من الطراز الأول (٩٦) .

ومع أن الحملات العسكرية المتتالية التى قادها فردريك الى إيطاليا ،
 قد أرهقت ألمانيا من أمرها عسرا ، إلا أن ما حصل عليه فردريك فى
 النهاية بمقتضى نجاحه فى زواج ابنه هنرى السادس من الأميرة كونستانس
 وريثة عرش النورمان فى صقلية ، عوضه كثيرا عن جرح كبريائه أمام مدن
 العصبة اللومباردية فى شمالى إيطاليا ، والبابوية . وضمن فردريك العرش
 الألمانى من بعده لابنه هنرى السادس ، يعد هو الآخر نجاحا وإن كان
 مؤقتا لبدأ الوراثة ؛ ذلك أن العمر القصير الذى أمضاه الملك الجديد على
 العرش (١١٩٠ — ١١٩٧) ، وانشغاله المستمر بتثبيت دعائم ملكه فى

Barracough, op. cit., pp. 189, 193-4.

(٩٥)

Slessor, The Middle Ages in the West, p 113.

وراجع أيضا

Z. N. Brooke, op. cit., pp. 503-506.

(٩٦)

Freiherr V. Dungern, op. cit., p. 221.

وأيضا

Ganshof, Feudalism, pp. 160-161.

وراجع كذلك

صقلية ، وحروب في إيطاليا ، وطفولة ابنه ووريثه ، وضعف خلفه فيليب السوابي ، والحرب الأهلية الضروس التي استمرت ستة عشر عاما ، كل هذا أطاح لقرون طويلة آتية بإمكانية قيام ملكية وراثية قوية في ألمانيا .

لقد شهدت نهاية القرن الثاني عشر ، وبواكير القرن الثالث عشر ، قمة المأساة في الدبراع الطويل بين مبدأى الوراثة والانتخاب للعرش الملكي في ألمانيا . وحسبت لصالح الانتخاب . ولعبت فيها البابوية دورا رئيسيا الى جانب الأمراء الألمان ، ان لم يكن الدور كله . فقد كان يعينها في المقام الأول فرض سلطانها وسيادتها على ألمانيا في اطار نضالها من أجل السيادة العالمية . ولقد كان اثوسنت الثالث — على حد تعبير باراكلاف (٩٧) — على استعداد ليس فقط لتدمير السلام في ألمانيا ، بل لجعل دول أوروبا جميعها تعلن الحرب ضد بعضها بعضا . هذا على الرغم مما كان يعلنه من أنه لا يريد بالامبراطورية شرا . لكن الامبراطورية التي كان يعينها ، كانت شيئا غير ذلك تماما . لقد كان يعنى امبراطورية بمفهومه الخاص ، وليست تلك الامبراطورية التاريخية التي نهضت من وحل مشكلة التقليد العلماني بفضل عبقرية الهوهنشتاوفن . كما أن امتداحه للوثر الثاني ، يكشف عن أفكاره التي تعود بنا الى جريجورى السابع ، وهي تقوم على أساس أن يختار الملك بواسطة الأمراء ، ولا يسمح له ممارسة سلطانه الا بعد أن يتم التمهيص الواجب من جانب الكرسي الرسولي ، كي يحصل على الموافقة والتثبيت والرضى من قبل البابا .

وهذا هو ما حدث تماما ابان الأزمة التي تفجرت بالموت المبكر لهنرى السادس ، بينها ابنه ووريثه فردريك (الثاني) يحبو في عمر الطفولة . لقد بذل هنرى قسارى جهده لاغراء الأمراء الألمان لجعل العرش وراثيا ، بحيث يخلفه ابنه بصورة تلقائية امبراطورا وملكا على صقلية . ونجح في مارس ١١٩٦ من الحصول على تأكيد من جانب اثنين وخمسين أميرا ، اجتمعوا في فيرزبرج Wursburg بقبول مبدأ الوراثة على العرش . ولكن لم يكن

Barraclough, op. cit., p. 207.

(٩٧)

هناك تجربة سابقة يمكن أن تكون ضمانة مؤكدا على أن الأمراء سوف يلتزمون بما عاهدوا عليه هنرى ، إذا ما مات قبل أن يصل ابنه الى سن الرشيد (٩٨) . وهنا يبدو الخلاف كبيرا بين ما آلت اليه الملكية فى ألمانيا ، وما كانت قد بلغته فى إنجلترا وفرنسا . فهنا كان الملوك قادرين على مرض هذا المبدأ بمقتضى التقليد الذى أصبح متوارثا جيلا بعد جيل . أما هنرى فقد اضطر الى أن يشترى موافقتهم بمزيد من القنازلات ، فاعترف لهم بحق الوراثة كاملة فى اقطاعاتهم ، وامتد ذلك ليشمل أيضا الإناث والأصهار . أما بالنسبة لرجال الألكيروس ، فقد منحهم حقوقا مساوية لهذه فيما يتعلق بالتصرف فى الوصية . لقد كانت أسرة الهوهنشتاوفن بدءا بكونراد الثالث ثم فردريك الأول ، فابنه هنرى السادس ، فابنه فردريك الثانى ، تسعى حقيقة الى تدعيم نفوذها كأسرة قوية ، لكن الوسائل التى استخدمها التاج فى سبيل ذلك ، استخدمها الأمراء أيضا فى أراضيهم ، وهى القواعد الأساسية فى سيادة الأمراء وازدياد نفوذهم (٩٩) . وحتى هذه التنازلات التى قدمها هنرى ، لم ترض جميع الأحزاب ، فعدد من الأمراء ، ومن بينهم دوق النمسا ، كانوا قد حققوا بالفعل هذه الحقوق الوراثة بامتيازات خاصة .

وتمثلت المصالح والدوافع الشخصية خير تمثيل فى موقف كل من البابا كلستين الثالث Celestine ورئيس أساقفة كولون . فهذا الأخير ، شأن قريته أسقف مينز (١٠٠) ، كان يدعى حقا قديما فى تتويج الملك المختار لألمانيا بيد الأمراء ، رأى أن نجاح هنرى فى ضمان العرش من بعده لابنه ، يعنى تهديدا لسلطانه . أما البابا والذى كان متفقا مع أسقفه أول الأمر ، فقد أقدم على تتويج فردريك الثانى ملكا ، متخطيا حق أسقف كولونى فى هذا

Waly, op. cit., p. 74 (٩٨) وأيضا Scott, op. cit., pp. 256-257.

Freiherr V. Dungern, op. cit., p. 221. (٩٩)

هناك وثيقة خاصة بأسقف مينز فى هذا الشأن تعود الى سنة (١٠٠) راجع ذلك فى Albert ١٢٩٨ ، وصادر عن الملك البريت

Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval history, pp. 276-277.

السبيل ، ضازبا عرض الحائط بغضبه ، وذلك عندما لوح له هنرى باستعداده للخروج فى حملة صليبية ، وبالدخل الذى كان يحصل عليه البابا بمقتضى الاتفاق بين ابيه فردريك الأول والبابا لوقا الثالث ، من جميع كنائس الامبراطورية بدلا من المناطق المتنازع عليها فى وسط ايطاليا (١.١) ، وهو الذى لابد ان يسيل له لعاب البابوية . ومع ان البابا قد رفض مقترحات هنرى باقامة ملكية وراثية ، بعد ان رأى اشتداد المعارضة من جانب الأمراء خاصة دوق اللورين ، الا ان هنرى سرعان ما اكتسب ثقة الأمراء ، وزعامة ألمانيا عندما أعلن اعتزاهم بالخروج بالحملة الصليبية التى كان قد وعد بها ، وبمزيد من التنازلات ، وافق الأمراء فى ٢٥ ديسمبر ١١٩٦ على تعيين فردريك ابنه ملكا (١.٢) . ومع ان هذا الذى تحقق لم يكن يمثل نجاحا لكل مشروعات هنرى السادس ، الا انه ضمن على الأقل استمرارية الأسرة على العرش . وان كانت هذه الأحداث كشفت بجلاء عن حقيقتين هامتين : قوة الأمراء وازدياد نفوذهم ، وارتباط مصالحهم بالمصالح البابوية .

على ان الشيء الذى يستلفت الانتباه حقا ، هو ان الأمراء الألمان كانوا فى حالة تعرض ألمانيا لخطر خارجى بهدها ، يتناسون — الى حين — خلافاتهم ونزعاتهم الشخصية ، حتى وان كانت مسألة ظاهرية . وقد تمثل ذلك عند الموافقة على اختيار هنرى الأول الصياد ، ثم الموافقة الاجماعية عند تعيين اوتو الأول ملكا ، وكذلك الرضى العام الذى صحب اختيار فردريك الأول برباروسا . وقد تكرر نفس الشيء الآن بعد وفاة هنرى السادس المفاجيء والمبكر عام ١١٩٧ : فالأمراء الذين يحملون راية الصليب فى الشرق ، اعلنوا ولاءهم لفردريك الثانى . وفى صقلية اظهر ماركوارد Markward أمير انويئر Anweiler الحليف القوى والوالى لهنرى السادس ، قوة كبيرة فى الدفاع عن الحقوق الألمانية فى صقلية (١.٣) . أما

(١.١) للمزيد من التفاصيل ، راجع Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, pp. 204-206.

Barracough, op. cit., p. 203.

(١.٢)

C.M.H. Vol. V, p. 479, VI, 12.

(١.٣)

فيليب السوابي ، أخو هنري السادس ، فقدم لتوه من توسكانيا وأعلن وقوفه الى جانب فردريك ، وأغرى زعماء سكسونيا وبافاريا باختياره وصيا على العرش ، حتى يبلغ فردريك سن الرشد (١٠٤) . وهكذا فان حقوق الورثة في أسرة الهوهنشتاوفن ، والتي تحددها الأمراء عام ١١٩٦ ، وهنري السادس بعد حى ، قد ارتضوها الآن سنة ١١٩٨ عندما اختاروا رودلف السوابي ملكا بعد أن أعطى المواثيق والضمانات بعدم المساس بحقوق فردريك الثماني ابن أخيه ..

كان من الممكن جدا أن تفدى ألمانيا من صدمتها العنيفة بوفاة هنري السادس ، وأن تستجمع قواها من جديد في ظل ملكية موحدة كما أرادها الهوهنشتاوفن ، لكن عاملين هامين قلبا كل هذه الاحتمالات وبدداها ، أولهما تدخل البابوية بصورة سافرة متمثلة في شخصية انوسنت الثالث الذى يعيد الى الأذهان ذكرى سلفه جريجورى السابع ، والذى وضع نصب عينيه منذ اليوم الأول لاعتلائه العرش تحطيم أسرة الهوهنشتاوفن ، وبالتالي تحطيم الإمبراطورية ، لتحقيق للبابوية السيادة العالمية الكاملة . وثانيهما التدخل الأجنبي في شئون ألمانيا من جانب فرنسا وانجلترا ، ولم يكن ذلك راجعا لمصالح لها في ألمانيا ذاتها ، بقدر ما كان انعكاسا للصراع الطويل بينهما حول الوضع القانوني لمنطقة نورماندى ، بعد أن أصبحت مشكلة غاية في التعقيد في أعقاب فتح دوقها وليم لانجلترا في عام ١٠٦٦ وعلان نفسه ملكا عليها ودوقا لنورماندى . ولما كانت عائلة الولفيين ترتبط برباط المصاهرة مع البيت الإنجليزي الحاكم ، منذ أصهر هنري الأسد الى هنري الثانى ملك انجلترا ، بالإضافة الى ما كان من أمر وقوع ريتشارد الأول ملك انجلترا في أسر هنري السادس ، في طريق عودته من الأراضى المقدسة ، واستمرار بقائه أسيرا طيلة عامين . ازاء هذا كان طبيعيا أن تلقى فرنسا بثقلها الى جانب الهوهنشتاوفن حتى لا تدع لانجلترا فرصة الانفراد باحراز نصر سياسى لها عن طريق أنصارها في ألمانيا . الا أن عاملا ثالثا كان له أكبر الأثر في نجاح مسعى هذين العاملين ، ألا وهو طفولة الوريث الشرعى فردريك الثانى ،

مما أعطى الفرصة السانحة للحزبين الكبيرين في ألمانيا ، الولفيين والهوهنشتاوفن ، أن يسطرعا حول العرش . وعلى البابوية أولا وأخيرا تقع مسئولية هذه الفترة العدمية من تاريخ ألمانيا ، والتي كانت نقطة فاصلة في تحويل مسارها التاريخي الى دولة ممزقة الأشلاء مهلهلة ، كما أرادتھا البابوية ! .

ولقد ظهر ذلك واضحا من تلك اللهجة العذيفة والتوبيخ ، الذي وجهه انوسنت الثالث الى كونراد رئيس أساقفة مينز سنة ١٢٠٠ ، عندما حاول جاهدا إيقاف نزيف الدم المتدفق في ألمانيا من جراء التطاحن بين الأحزاب المتصارعة ؛ لأن هذا يعانى — كما أنصح البابا — أن تقف ألمانيا جبهة موحدة ، وهذا مجرد البابوية من حجية التدخل في شئون الامبراطورية (١٠٥) . أما الأمر الثانى فيتمثل في تلك الأوامر البابوية الصادرة الى المندوب البابوى في الغرب في نفس العام ، ببذل كل جهد لعرقلة اتمام الصلح الذى كانت المفاوضات تدور بشأنه بين فرنسا وانجلترا ، لان اتمامه سوف يوقف تسابقتها على التدخل في الشئون الألمانية ، ويوقف بالتالى الفوضى الحادثة في ألمانيا ، ويجعلها تلتئم تحت سيادة الهوهنشتاوفن ، أصحاب الحق الشرعى في العرش ، وهذا لا شك يؤلم البابوية ! (١٠٦) .

وكان عدد كبير جدا من أمراء ألمانيا ، ممن يمثلون الأرسقراطية النبيلة ، قد اجتمعوا على اختيار فيليب السوابى ، أخى هنرى السادس ، منكا على ألمانيا عقب وفاة هنرى مباشرة ، وتم تتويجه في مينز في الثامن من سبتمبر ١١٩٨ . وفي مايو من العام التالى ، التقوا في سباير Speyer وكتبوا الى البابا انوسنت الثالث ، يخبرونه أن اختيارهم للملك أمر لا رجعة فيه ، وحق لا يمكن نقضه ، ويوضحون له أنهم سوف يظهرون في روما قريبا لاتمام الاجراءات الرسمية لتتويجه امبراطورا . وارتج الأمر

Barraclough, op. cit., p. 207.

(١٠٥)

Id.

(١٠٦)

على انوسنت الذى كان يرى فى هذا التصرف خروجاً على طاعته بمقتضى
 السلطة البابوية التى يدعيها الجالسون على الكرسي الرسولى فى روما ،
 وحاول أن يوضح لهم اعترافه بحقهم فى اختيار الملك ، لكنه ذكرهم أن التاج
 الامبراطورى يمنح من البابا وحده ، وأنه فى حالة تنازع مرشحين على
 العرش ، فان المسألة تحتاج الى تمحيص دقيق ، وهذا يستدعى بعض
 الوقت . وكان هدف انوسنت من ذلك واضحاً ، كى يدفع كلا المرشحين
 لطلب عونه ، وبالتالي تقديم تنازلات واسعة (١٠٧) . لكن اجتماع سبائير فى
 جوهره أعاد الى الأذهان من جديد ، ذلك المفهوم القديم جداً عن الامبراطورية ،
 والذى أحياه فردريك برباروسا ، متحدياً ادعاءات البابوية ، معلناً — كما
 أسلفنا — أن من يتم اختياره من جانب الأمراء ، يصبح امبراطوراً شرعياً ،
 حتى قبل أن يحصل على موافقة البابا (١٠٨) .

وفى مقابل فيليب السوابى ، اجتمع عدد قليل من انصار البيت الولى ،
 واختاروا اوتو الرابع دوق برنيسويك ، ابن هنرى الأسد ، ملكاً منافساً ،
 وتوجوه فى آخن فى الثانى عشر من يولية ١١٩٨ . ولعبت الرشوة النى
 قدمها ملك انجلترا للأمراء الألمان فى الشمال الغربى دوراً كبيراً فى هذا
 الاختيار ، حتى غدا الأمراء — كما وصفهم باراكلاف — مجرد جنود مرتزقة
 من كثرة ما دفع لهم من فرنسا وانجلترا (١٠٩) . وقد حمل هذا الترشيح
 معه نذر شر مستطير بالنسبة لألمانيا ، فقد أفقدها لأمد بعيد امتد حتى
 القرن التاسع عشر ، املها فى دولة موحدة . وكان اوتو غربياً عن الأرض
 الألمانية ، اذ لم ير أرض آبائه من قبل ؛ فقد ولد فى نورماندى ، ونشأ فى
 بلاط انجلترا ، وأعلن ايرلا على يورك ١١٩٠ ، وكونتا لبواتو Poitou
 فى ١١٩٦ . وصفه أحد المعاصرين بأنه كان « غطريساً غيبياً » (١١٠) .
 ولما كان لا يملك أى حق أو سند شرعى يؤهله لاعتلاء العرش ، فقد أعلن
 على الفور قبوله لكل شروط البابا ونظريات البابوية فى السيادة .

Stephenson, op. cit., p. 406.

(١٠٧)

(١٠٨) راجع صفحة ١٠٩

Barraclough, op. cit., p. 210.

(١٠٩)

Slessler, The Middle Ages in the West, p. 128.

(١١٠)

ودون أن نخوض في تفاصيل الصراع الداخلى والحرب الأهلية التى استمرت ما بين عامى ١١٩٨ و ١٢١٤ أى ستة عشر عاما (١١١) ، فانها معناها منها تلك الوثيقة الهامة ، التى سجلها على نفسه البابا انوسنت الثالث والتى تفصح دون أدنى ريب عن أهداف البابوية ومصالحها ومطامعها فى ألمانيا ، وتشجيعها لاستمرار هذه الحرب الأهلية الطاحنة ، واصرارها على ان تظل الملكية الألمانية انتخابية وليست وراثية ، حتى تتاح لها الفرصة للتدخل فى شئونها .

والوثيقة خاصة بقرار المناضلة بين المرشحين الثلاثة ، فيليب السوابى ، وأوتو الرابع ، وفردريك الثانى (١١٢) ، وصدرت عن البابا سنة ١٢٠١ ، أى بعد ثلاث سنوات من الانتظار والترقب من جانب الأحزاب المختلفة ، والتعمد من جانب البابا . وقد جاء فى ديباجتها أن من مهام البابا النظر فى توفير الأمان والخيرية للإمبراطورية ، وأنه « مادام الأمر قد انعقد باختيار ثلاثة ملوك من جانب الأحزاب المختلفة . . . فان أمورا ثلاثة أيضا لا بد أن توضع فى الاعتبار عند المناضلة بينهم ، وهى الشرعية والسلحية وأسلوب الاختيار » . وراح انوسنت يطبقها على المرشحين واحدا بعد الآخر ، واعترف صراحة بأن « الشاب — يعنى فردريك الثانى — ليس هناك أى سبب قانونى للاعتراض على انتخابه ، لأنه قد حظى من قبل بالأيمان التى أخذها أبوه على الأمراء . . . وأن الأمراء قد صدروا عن ذلك بمحض اختيارهم . . . ليس من الحق اذن معارضته » . ورغم هذا الاعتراف الصريح ، إلا أنه رفض تأييده ، « لأن الأمراء عندما اختاروه ، اختاروا للإمبراطورية شخصا لا يصلح لها ولا لأى منصب آخر ، لأنه لم يكن قد تجاوز من العمر عامين . . . ولما كان لا يمكن حكم الإمبراطورية عن طريق وصى على العرش ، أو نائب ،

(١١١) تراجع تفاصيل هذه الأحداث فى بحثنا الذى ألفردناه لذلك تحت عنوان « السمو البابوى بين النظرية والتطبيق » .

Innocent III, The decision of the disputed election of (١١٢)
Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201, (in
Thatcher & McNeal, A Source book for Mediaeval
history, pp. 220-227).

ولما كانت الكنيسة لا ترغب ولا تقدر على أن تمارس رعايتها دون امبراطور ،
لذا كان من الضروري اختيار شخص آخر » .

أما فيما يتعلق بفيليب السوابي ، « فلا يبدو أن هناك أيضا من الناحية
الشرعية والقانونية ما يعترض اختياره » ، حيث اختاره عدد كبير من
الأمراء ، من ذوى المرتبة الرفيعة ، وهكذا « فان اختياره يبدو شرعيا ...
ولكن دون اختياره عقبات ... فهو قد حرم كنسسيا لأنه استولى على
أراضي القديس بطرس في توسكانيا ودمرها ورفض المصالحة » . لكن أهم
ما في الأمر هنا قول انوسنت الثالث ؛ « وليكن واضحا أيضا ، أنه ربما يكون
من اللائق أن نعترض على اختياره ، لأنه بإعتلائه العرش ، سوف يرث
الأخ أخاه ، كما ورث الابن من قبل أباه ، عندما سلم فردريك الأمر الى
ابنه هنرى السادس ، وحاول هنرى أن يسلمه أيضا لابنه فردريك الثاني .
وهكذا فان الإمبراطورية سوف تنحو الى أن تصبح وراثية ، وبالتالي سوف
تعدو المفسدة قانونا بحكم طول العادة !! » .

وهذا هو بيت القصيد في القضية كلها . . . فالبابوية لا يعينها قرار
الحرمان هذا . فقد كان بمقدورها أن تضعه عن كاهل من حملته إياه ،
ولا تقييم وزنا للشرعية أو الصلاحية أو أسلوب الاختيار ، وهى القواعد
الثلاث التى وضعها بنفسه انوسنت فى البداية معيارا للمفاضلة . وهذا
يتضح على الفور من حديثه عن أوتو الرابع حين يقول : « انه يبدو للوهلة
الأولى أنه ليس من اللائق قانونا الوقوف الى جانبه ، لأنه اختير على يد
سر قليل ، كما أن حزبه قليل وضعيف » (١١٢) . ومع ذلك فهو يؤيد اختياره
ويعتبره أفضل المرشحين الثلاثة ، ويعلنه ملكا على المانيا .

كان هذا القرار من جانب انوسنت الثالث ، ضربة قاضية وجهت الى
مبدأ الوراثة فى الملكية الألمانية ، وانتصار ساحقا لمبدأ الانتخاب . لكن الضحية
فى حلبة الصراع كانت ألمانيا ذاتها التى حرمت قيام دولة قوية موحدة ، حتى

(١١٣) كان عدد الأمراء الذين اختاروا فيليب السوابي ، ٢٦ أميرا ،
بينما أيد أوتو ستة أمراء فقط . راجع
Slessor, op. cit., p. 129.

سبعينيات القرن التاسع عشر ، على النحو الذى عرضنا له فى مقدمة بحثنا ؛ ذلك أن البابوية لم تقف عند حد اصدار القرار ، بل مارست التدخل العلنى للسافر ، وراحت تنقل تأييدها — دون مراعاة لأية مبادئ — من فريق الى آخر حسبما تقتضى مصالحها . فما هى تؤيد أوتو الرابع ، فيقدم لها تنازلات مهينة على حساب الملكية الألمانية ، حتى اذا أحسست أن قضيته أمست خاسرة ، وأن كفة فيليب هى الراجحة ، قلبت لحليفها الأول وصنيعها ظهر المجن ، وأعطت خصمها الهونشتاوفنى كل تأييدها ، وحصلت منه بالتالى على تنازلات أشد مهانة (١١٤) . حتى اذا اختطفه الموت غيلة عام ١٢٠٨ ، والتف الأمراء حول أوتو الرابع ثانية ، بعد أن سئموا هذه الحرب الطويلة ، أعلنت من جديد وقوفها الى جواره ، لكنها سرعان ما سعرت لهيب الحرب ضده عندما رأت فيه هونشتاوفنى السياسة ، رغم أصله الولفى ، وأنه يسعى لاقامة المانيا قوية مرة أخرى . وعادت تستدعى ذلك « الشاب » — كما يصفه البابا — فردريك ، الذى نبذته مكاتبها قصيا ، وأعلنته ملكا ، ولم يتوان فردريك هو الآخر عن تقديم المزيد من التنازلات الأقصى مهانة (١١٥) . وخلال هذا كله كانت فرنسا وانجلترا تستبقان من أجل تحقيق نصر سياسى فى المانيا ، يحقق بالتالى كسبا فى نورماندى ، حتى تمكنت القوات الفرنسية المنصرة لفردريك ، من انزال هزيمة قاسية عند بوفان Bouvines سنة ١٢١٤ بالقوات الانجليزية الولفية المشتركة ، أضحت فرنسا على أثرها ، الكبر قوة سياسية فى أوروبا ، بينما انحطت المانيا الى السفح تضمد من نفسها الجراح ! .

ورغم أن فردريك الثانى (١٢١٢ — ١٢٥٠) بعث قوة أسرة الهونشتاوفن ثانية ، ونفخ فى روح المانيا من جديد ، الا أن عهده كان بريقا خاطفا سرعان ما خبا فى الظلام ، فقد ناصبته البابوية العداء السافر

Philip of Suabia, Concession to Innocent III, 1203 (١١٤)
(in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 228-230).

Frederick II, promise to Innocent III, 1213; Promise to (١١٥)
resign Sicily 1216, (in Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 230-233).

حتى مات . واضطر هو في سبيل ضمان تأييد الأمراء ، الى اعطائهم الكثير من الامتيازات والتنازلات على حساب التاج الألماني (١١٦) ، فلما مات عام ١٢٥٠ ، مات معه كل أمل في دولة ألمانية قوية ، وتولت البابوية الاجهاض على مبدأ الوراثة تماما ، بعد أن سددت له الضربة القاضية من قبل ، وغرقت ألمانيا في بحر من الفوضى ، استمرت ثمانية ثمانية عشر عاما (١٢٥٠ — ١٢٦٨) ، رشحت البابوية خلالها ملوكا لألمانيا ، ليسوا من بينها على الاطلاق ، ريتشارد إيرل كورنول Richard of Cornwall والفونسو العاشر ملك قشتالة Alfonso X of Castile وحتى تطمئن البابوية الى أن مبدأ الوراثة في الملكية الألمانية قد أدخل القبر ، سيق الصبي الصغير كونرادنيو Conadino حفيد فردريك الثاني ، وآخر سلالة أسرة الهوهنشتاوفن ، الى نابولي ، حيث أعدم بموافقة البابوية ! .

ولعل آخر مثال يوضح لنا الحال التي ترددت فيها ألمانيا آنذاك ، اقدم الأمراء في عام ١٢٧٣ على اختيار رودلف الهابسبورجي Rudolf o Habsburg اذ رأى فيه الأمراء شخصا ينتمي الى عائلة لا تستطيع أن تطاولهم قوة . حقيقة كانت للهابسبرج أراضيهم في الألزاس ، وأعلى الراين . ولم تكن هناك دلائل تشير الى مستقبل ما لهذه الأسرة . لقد كان رودلف يعتمد على الأمراء بصورة جعلتهم يظفرون منه بعود قاطعة ، بأنه لن يقدم على التصرف في أى جزء من أراضيه ، هبة ، دون موافقتهم (١١٧) . ولدينا وثيقة دامغة على هذه الناحية ، جاءت على قلم رئيس أساقفة مينز ، تقول : « وارنر Werner رئيس أساقفة مينز بفضل الله . . . لما كنا نرغب دائما في أن نكون مطيعين ومتفقين مع سيدنا الجليل ، رودلف ،

Frederick II, Statute in favor of the princes, 1231-1232;(١١٦)
 Concessions to the ecclesiastical princes, 1220 (in
 Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 238-240, 233-36).

Waley, op cit., pp. 76-78.

(١١٧)

الملك ، فانا قد اعطيناه بصورة تامة وصريحة موافقتنا على أن يهب لكاقطاع
قرى لنكرشام **Lenkersheim** وايرلباخ **Erlebach** وبروك **Brucke**
وكل متعلقاتها الى فردريك حاكم نورنبرج **Nurnberg** حيثما رغب في
ذلك « (١١٨) .

لقد كان الانتخاب في الفترة المبكرة ، محط اهتمام كبار النبلاء ،
باعتبارهم ممثلين للدوقات الألمانية ، وان كانت قد جاءت فترات معينة ،
حولت فيها الوراثة ، مسألة الانتخاب الى مسألة نظرية فقط . فلما توفي
هنرى السادس ، ودست البابوية في المانيا أنفها وذراعيها وقدميها ، أصبح
الانتخاب حقيقة واقعة ، وتخلفت المانيا عن انجلترا وفرنسا سبعة قرون
سويا .

Werner, electoral letter of Consent, 1282 (in Thatcher & (١١٨)
McNeal, op. cit., pp. 265-266.

وراجع أيضا وثيقة اختيار هنرى السابع سنة ١٣٠٨ ليتضح
مدى دور الأمراء في ذلك . (Thatcher & McNeal, op. cit., pp. 277-278).

الوثائق والمراجع

أولا : الوثائق

Adalbert, Archbishop of Mainz :

Letter to the bishop of Bamberg.

Albert, German King : The archbishop of Mainz is Confirmed as archchancellor of Germany, 1298.

Frederick II, Emperor : Promise to Innocent III, 1213.

- Promise to resign Sicily, 1216.
- Concessions to the ecclesiastical princes, 1220.
- Statute in favor of the princes, 1213-1232.

Gregory VII, Pope : Dictatus papae.

Letter to the German princes giving an account of the incident at Canossa.

Henry IV, Emperor : Promise of the King to offer obedience to the Pope.

- edict cancelling the sentence against Gregory VII.

Henry VII ,German King : Declaration of the election of Henry VII 1308.

Innocent II, Pope :

Innocent III grants the land of Countess Matilda to Lothar II, 1133.

Innocent III, Pope : The decision of the disputed election of Frederick, Philip of Suabia, and Otto, 1201.

Philip of Suabia, German King : Concessions to Innocent III, 1203.

Werner, Archbishop of Mainz : Electoral «letter of Consent». 1282.

Widukind, History of the Saxons (in. S.B.M.H.)

وهذه الوثائق موجودة ضمن مجموعات الوثائق التالية :

Hinderson (E. F.), Select historical documents of the Middle Ages, London, 1925.

Thatcher (O. J.), McNeal (E. H.),

A Source book for Mediaeval history, New York.

Tierney (B.), The Crisis of Church and State 1050-1300, U.S.A. 1964.

— The Middle Ages, Vol. I, Sources of Medieval history, New York, 1978

ثانيا : المراجع الأوروبية

Barlow (F.), The feudal Kingdom of England, 1042-1216, London, 1974.

Barraclough (G.), Mediaeval Germany, 911-1250; essays by German Historians, translated and ed. by Barraclough, Oxford 1948

— The Origins of Modern Germany, Oxford 1947.

Barry (W.) The Papal Monarchy, from st. Gregory the Great to Boniface VIII, New York 1906.

- Brooke (Ch.), Europe in the central Middle Ages, 962-1154, London 1966.
- Brooke (Z.N.), A history of Europe from 911 to 1198, London 1966.
- Bryce (J.), The Holy Roman Empire, London 1950.
- Cambridge Medieval History, 8 Vols. planned by J.B. Bury, Cambridge 1962. Vols. II, III, V, VI.
- Davis (R.H.G.), A history of Medieval Europe, from Constantine to St. Louis, London 1957.
- Douglas (D.C.), William the Conqueror, London 1969.
- Freiherer (O.), Constitutional reorganization and reform under the Hohenstaufen, trans. from German by Barraclough, in Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 203-233). Oxford 1948.
- Ganchof (F.), Feudalism, Honk Kong 1976.
- Hodgett (G.A.), A Social and economic history of Medieval Europe, London 1972.
- Joachimssen (p.), The investiture contest and the German Constitutions, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, Vol. II, pp. 95-129), Oxford 1948.
- Mayer (Th.), The historical foundations of the German Constitution, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, vol. II, pp. 1-34), Oxford 1948.
- Mitteis (H.), Feudalism and the German Constitution, trans. from German by Barraclough, in (Mediaeval Germany, vol. II, pp. 235-279). Oxford 1948.

- Hundy (J.H.), Europe in the high Middle Ages, 1150-1309, London 1973.
- Pfister (ch.), Gaul under the Merovingian Franks, in (C. M. H. vol. II, pp. 133-158 .
- Pirenne (H.), A history of Europe London 1951.
- Schmeidler (B.), Franconia's Place in the structure of Mediaeval Germany, trans. from German by Barraclough in (Mediaeval Germany, vol. II, pp. 71-94). Oxford 1948.
- Scott (W.), Medieval Europe, London 1975.
- Slessor (H.), The Middle Ages in the West, London.
- Stephenson (C.), Mediaeval History, New York, 1962.
- Strayer (J) & Munro (O.), The Middle Ages, 395-1500, New York 1970.
- Thompson (J. W) & Johnson (E.N.), An introduction to Medieval Europe, 300-1500, New York 1966.
- Tout (T.F.), The Empire and the Papacy, London 1924.
- Ullmann (W.), The growth of Papal government, in the Middle Ages, London 1955.
- A short history of the Papacy in the Middle Ages, London 1974.
- Vinogradoff (P.), Feudalism, in (C.M.H. vol. III, pp. 458-484).
- Waley (D.), Later Medieval Europe, from St. Louis to Luther, London 1976.

ثالثا : المراجع العربية

ابراهيم العدوى (دكتور) — المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى —
القاهرة ١٩٦١ .

اسحق عبيد (دكتور) : الفرسان والأقنان في مجتمع الاقطاع — بيروت ١٩٧٥
جرانت (٢٠ ج) و نمبرلى (ه)

تاريخ أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، جزءان .
الجزء الأول ترجمة الأستاذ بهاء فهمى . القاهرة بدون
تاريخ .

دولت صادق (دكتورة) — جغرافية العالم ، دراسة اقليمية . الجزء
الأول . القاهرة ١٩٥٩ — الجغرافية السياسية . القاهرة
١٩٦٥ .

رنوفان (بيري) : تاريخ العلاقات الدولية ١٨١٥ — ١٩١٤ . ترجمة دكتور
جلال يحيى . القاهرة ، بدون تاريخ .

سعيد عاشور (دكتور) : أوروبا العصور الوسطى . الجزء الثاني ،
القاهرة ١٩٦٣ .

عبد الحميد متولى (دكتور) : الوجيز في النظريات والأنظمة السياسية
ومبادئها الدستورية . القاهرة ١٩٥٨ — ١٩٥٩ .

فيشر (ه) : تاريخ أوروبا في العدمر الحديث ١٧٨٩ — ١٩٥٠ . ترجمة
دكتور أحمد نجيب هاشم ، وديع الضبع . القاهرة ١٩٥٨ .

كانتور (ن) : التاريخ الوسيط ، قصة حضارة : البداية والنهاية . الجزء
الأول ، ترجمة دكتور قاسم عبده قاسم . القاهرة ١٩٨١ .

- لاسكى (ه) : اصول السياسة ، أربعة أجزاء ، ترجمة محمود فتحى عمر .
القاهرة بدون تاريخ .
- كوبلاندى (ج . و) : القنية والاقطاع ، مقال فى « تاريخ العالم » ، الذى
أشرف على نشره السير جون آ . هامرتن ، المجلد الثانى ،
ص ٣ - ٢٢ . القاهرة ١٩٥٧ .
- كوبلاندى (ج . و) و فينوجرادوف (ب) :
الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ، ترجمة دكتور
محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٨ .
- محمد كامل ليلية (دكتور) : النظم السياسية ، القاهرة ١٩٦٣ .
- موس (ه) : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ،
القاهرة ١٩٦٧ .
- نور الدين حاطوم (دكتور) : تاريخ العصر الوسيط فى أوروبا . لبنان ،
١٩٦٧ .
- هنلر : كفاهى . ترجمة لويس الحاج . بيروت ١٩٦٨ .

صليبية الأطفال ١٢١٢م

للدكتور عبد الغنى محمود عبد العاطى
مدرس تاريخ العصور الوسطى بآداب التصورة

(م ١٠ - الندوة)

صليبية الأطفال ٠ ١٢١٢ م ٠ (*)

لاشك ان الحروب الصليبية كانت صداما خطيرا بين الغرب اللاتيني والشرق الاسلامي ، استمر قرنين من الزمان ٠ وكان تأثير هذه الحروب على شعوب الغرب الأوربي يختلف تماما عنه على شعوب الشرق الاسلامي ٠ نند كان المسلمون يعايشون هذا الواقع معايشة يومية ، وكانوا ينظرون الى الهزائم والانتصارات ومعاهدات الهدنة بين الطرفين كأمر طبيعي متكرر الحدوث، مما جعل مفهومهم عن تلك الحروب اقرب الى الحقيقة وأبعد عن شطحات الخيال ٠

اما أحداث الحروب الصليبية ووقعها على شعوب الغرب فقد امتزجت فيها الأسطورة والخيال بالحقيقة ٠ لقد ترك معظم الصليبيين منازلهم وأسرهم وخرجوا للاستيلاء على الأرض المقدسة أو للدفاع عن مستعمراتهم فيها ، وسار الأخ أو الأب بأسلحته في يده ربما ليعود اليهم بعد سنوات ، أو ربما لا يعود ٠ عندئذ جلست الأمهات والأخوات والزوجات في أكواخهن يحكين للأطفال عن الأخطار التي تهدد المدافعين عن الصليب ، وعن الدوافع والأسباب التي أدت الى خروج الرجال الى الشرق ٠ وعندما كان يعود المقاتل الصليبي الى وطنه ، كان يقص على أهل بيته وأهل قريته عن البطولات التي حققها فرسان الصليبيين ، وعن الغنائم والأسلاب التي استولوا عليها ، ويثير خيال سامعيه بالكثير من قصص المغامرات ، وعن الأرض المقدسة ، والمعجزات الألهية التي تحققت ، كما أنه بلا شك كان يحكى الكثير من القصص والروايات عن حياة أعدائهم من المسلمين ، وعن الحياة في بلاد الشرق الأساحرة ٠ اما اذا مات المقاتل الصليبي في الشرق ، عندئذ كان يأمل ولده الصغير أو أخوه في الانتحار

(*) معظم مصادر هذا البحث مأخوذة عن مجموعة ٠ M.G.H. SS. (Monumenta Germanica Historica Scriptores)

في قائمة المحاربين (١) •

ولاشك ان الأطفال والمراهقين كانوا اكثر الفئات تأثرا بهذه الروايات التي ألهمت حماسهم وحركت خيالهم ، وهم بطبيعتهم أقرب الى عملية الاستهواء • فخيال الأطفال يجعلهم يعتقدون أنهم قادرون على أن يأتوا بمعجزات في شتى المجالات ، ربما يعجز آباؤهم الكبار عن أن يأتوا بها • خاصة وان الأطفال والمراهقين يميلون بشدة الى تجسيد الخيال ، وتسيطر عليهم أحلام اليقظة ، ويظنون أن كثيرا من الأعمال الخارقة سهلة وفي متناول أيديهم • بالإضافة الى ما كانوا يعيشون فيه ويسمعون عنه من أساطير وخرافات عما حققه المقاتلون في الشرق ، مما أكد لديهم ما يعتقدونه •

ويجب التأكيد مرة أخرى على أن أهم ما يميز مرحلة الطفولة هو ما أكدته الدراسات النفسية ، وهو أن الطفل يحاول أن يجد ما يجول في خياله ، كأن ينخيل أنه يركب حصانا يطير به ، أو أنه بضربة واحدة من يده يستطيع أن يقتل عشرات الرجال ، أو أن ركلة واحدة من قدمه تهدم أقوى الحصون • وإذا كان خروج حملة صليبية تنتشك غالبيتها من الأطفال لتخليص القدس من المسلمين يعد أمرا غريبا مثيرا للدهشة ، فإنه في نفس الوقت يدعو الى التساؤل والبحث عن الظروف والأسباب التي أدت الى خروج قافلتين من الأطفال من مكانين مختلفين ، وفي نفس الوقت تقريبا • فهل كان خروج هؤلاء الأطفال تعبيرا عن السخط الذي ساد بين العامة في أوروبا نتيجة لفشل القيادات السياسية في أداء واجبها تجاه الحركة الصليبية ؟ أم أنها كانت استجابة لظروف اجتماعية عاشها أولئك الأطفال ؟

الحقيقة لا يمكن الاجابة على هذه الأسئلة الا بعد الرجوع الى الموراء ، وتتبع الحركة الصليبية وابرار ما أصابها من نجاح وفشل • ومن المعروف أن انبانيا أوربان الثاني نجح في أن يحشد عددا كبيرا من المقاتلين من كل الفئات • إذ راح يمني كل طائفة بأن هذه الحملة ستحقق لها من الأمال العراض ما عجزت عن تحقيقه في واقعها الأليم • ومع الانتصارات العسكرية الكبيرة التي حققها الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى والتي نتج عنها تأسيس ثلاث

Reinhold Rohricht, «Der Kinderkreuzzug» Historische (١) Zeitschrift, xxxvi (1876), pp. 2-3.

امارات صليبية فضلا عن مملكة بيت المقدس ، فان هناك كثيرا من الشك في ان تكون قد حققت ما كان يصبو اليه البابا أوربان الثاني . اذ ان الحملة قد حققت أحد أهدافها فقط وهو الاستيلاء على الأرض المقدسة ، ولكنها في نفس الوقت باعدت بين كنيستي روما والقسطنطينية ووسعت بينما شقة الخلاف .

على ان الانجازات السياسية التي حققتها الحملة الصليبية الأولى سرعان ما بدأت تتداعى ، وبدأ المسلمون يستخلصون أراضيهم من قبضة الصليبيين . فبعد استيلاء المسلمين على الرها عام ١١٤٤م ، تحركت أوروبا يدفعها شعور بالعار والرغبة في الانتقام ، وخرجت الحملة الصليبية الثانية وعلى رأسها لويس السابع ملك فرنسا ، وكوثراد الثالث ملك ألمانيا بغية استرداد الرها . وقد انتهت الحملة الصليبية الثانية بالفشل ، على حين بقيت الرها مدينة اسلامية .

وقد يتبادر الى الذهن ان الرها لم تكن تمثل أهمية دينية كبيرة بالنسبة للمغرب الأوربي ، لكنه بعد استرداد صلاح الدين لمدينة بيت المقدس والعديد من المدن الأخرى عقب معركة حطين سنة ١١٨٧م . انطلقت الدعوة الى خروج صليبي جديد في شتى أرجاء الغرب الأوربي ، وتولى الامبراطور فريديك الأول بربروسا قيادة القوات الألمانية ، كما قاد ريتشارد قلب الأسد قوات إنجلترا ، على حين كان فيليب أغسطس يقود قوات فرنسا . وتحرك الى الشرق أيضا عدد كبير من المع نبلاء أوروبا . ولكن سرعان ما تحولت التوقعات الكبيرة التي كانت منتظرة من الحملة الصليبية الثالثة الى يأس واتهامات حادة للزعامة الصليبية . ذلك أن العاميين اللذين استغرقتهم الجهود الأوربية لم تكن لتقارن بالانجازات الهزيلة التي حققتها الحملة ، وبدأت الشكوك تساور البعض حول الالهام الالهى الذى يزعمه الصليبيون ويدعونه (٢) .

وكان الأمل لا يزال باقيا في استخلاص الضريح المقدس من أيدي المسلمين . وقد تبنى هذا المشروع البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) الذى وضع

(٢) يوشع برلور ، عالم الصليبيين ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، محمد خليفة حسن . (القاهرة ، ١٩٨١) ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

للكنييسة وللبابوية برنامجا ضخما ، على رأسه محور آثار حروب صلاح الدين في الشرق (٢) .

ومن ثم فقد بدأت في منتصف ١١٩٨م الدعوة للحملة الصليبية الرابعة . ولكن قادة هذه الحملة بدلا من الاتجاه بها نحو مصر بوصفها مركز المقاومة الحقيقي ضد الصليبيين ، انخرقت الحملة عن هدفها الأساسي فانتجعت ضد القسطنطينية واستولى عليها الصليبيون سنة ١٢٠٤م . وتم تأسيس امبراطورية لاتينية على اشلء الدولة البيزنطية ، وتم اختيار بطيريك كاثوليكي لتولى رئاسة كنييسة القسطنطينية .

ربما رأى البعض ان هذه الحملة قد حققت للبابوية اهم أهدافها وهو اخضاع كنييسة القسطنطينية للكنيسة الأم في روما . ولكن النتائج السلبية كانت اضعف بكثير من هذا الانجاز ، لأن تأييد كل من البابا والقيادات السياسية في أوربا لهذا العمل قد وجه ضربة شديدة الى مفهوم الحركة الصليبية لدى العامة الذين كانوا يتطلعون الى تحرير الضريح المقدس . وكان ذلك ايذانا بفتور الحماسة الصليبية وانضح أيضا ان المصالح الاقتصادية والتجارية أخذت تحتل المكانة الأولى في تفكير المعاصرين . فضلا عن ان قيام امبراطورية لاتينية في القسطنطينية والبلقان قد استهوت الكثيرين من فرسان الصليبيين في بلاد الشام .

وقد أدى هذا بالضرورة الى تزايد السخط بين العامة على القيادات السياسية الأوروبية نتيجة لفشلها في استعادة بيت المقدس بوجه خاص ، وعدم قيامها بواجباتها تجاه الحركة الصليبية بوجه عام . وهكذا كان لابد من نفخ روح جديدة واحياء جديد للحركة الصليبية بطريقة تلهب حماسة الأوروبيين . كان لابد من حدث جديد أو وسيلة لالهاب مشاعرهم مثلما كان خطاب البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت منذ قرن من الزمان . وربما كان هذا التفكير والتخطيط من فعل صغار رجال الدين أو الدعاة الجائلين فظهرت حملة الأبطال الصليبية لتكون بعثا جديدا لخطاب البابا أوربان الثاني ، وفي

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، د ٢ (القاهرة ،

١٩٧١ ، ص ٩٢٩ .

نفس الوقت تكون تعرية للقيادات السياسية والدينية ، واجبارها على العمل مرة أخرى من أجل المسيح والأرض المقدسة والحركة الصليبية .

وإذا كان الفشل السياسي أمرا واردا كسبب لحركة الأطفال الصليبية فإن هناك احتمالات لعدة أسباب أخرى ، ربما كانت كلها أو بعضها هي التي أنتجت هذه الحركة . هذه الأسباب تخرج كلها تقريبا من واقع التدين الشعبي الذي عم الغرب الأوربي في العصور الوسطى . وقد عبر العامة عن تدينهم بصور وأشكال متعددة . من ذلك أن العامة والمعدمين - ذوى الأصول الوضيعة - قد شاركوا في معظم الحملات الصليبية . وكانوا يعدون أنفسهم المختارين من الله ، ربما ظنوا أن المسيح قد عاش فقيرا ، ولذلك فإنه يفضلهم معشر الفقراء عن غيرهم ويخصهم ببركاته المتمثلة في الرؤى والأحلام الدينية - المقدسة - وكانت هذه الرؤى والأحلام تلوح لهم عندما يتعرضون لأزمة من الأزمات ، أو يواجهون موتا ميؤوسا منه . فعندما استبد اليأس بالصليبيين وهم داخل أنطاكية في مقاومة جيش الأمير كربوفا ، وانحطت روحهم المعنوية نتيجة لنفاذ الأقوات وفرار بعض المحاربين ، وبدا أنهم في حاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبيل النجاة ، إذ بأحد الفلاحين الفقراء من الجيش البروفنسالي ، واسمه بطرس بارثولوميو يخبر الكونت ريمون بأن القديس اندرياس ظهر له خمس مرات ، وأمره أن يكشف للكونت عن الموضع الذي اختفت فيه الحربة التي اخترقت جنب المسيح منذ أحد عشر قرنا ، وحدد له المكان في موضع بجنوب كاتدرائية القديس بطرس في أنطاكية (٤) . وتم العثور على الحربة لأن الرؤيا

(٤) عن الرؤيا والعثور على الحربة المقدسة ، انظر .

Raymond of Aguilers, Historia Francorum qui ceperunt

Iherusalem (RHC, Occ., III), pp. 253-255; Anon,

The deeds of the Franks and the Other Pilgrims to

Jerusalem; ed R. Hill (London, 1962), pp. 59-60;

Fulcher of Chartres, A History of the expedition to

Jerusalem 1095-1127, ed. H. Fink (Konxville, 1969),

pp. 99-100. Fulcher of Chartres, A History of the expedition

to Jerusalem 1095-1127, ed. H. Fink (Konxville, 1969),

pp. 99-100.

ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١٠ (بيروت ١٩٦٥) ، ص ١٠٣ .

تحدثت بموقعها بالضبط . وقد أدت هذه الآلية السماوية الى رفع معنويات الجيش الصليبي . كذلك تراءى لأحد القسيسين واسمه سبتيفن أنه شهد المسيح والعذراء ، وسمع من المسيح أن رجال الجيش اذا ذموا على ما ارتكبوه من الآثام ، وعادوا الى الحياة المسيحية الصالحة ، فسوف يسبغ عليهم رعايته وحمايته خلال خمسة أيام (٥) . ثم ظهر القديس أندرياس مرة أخرى ليعطن قرب حدوث معركة مع الترك . وأوصى بالصيام خمسة أيام للتكفير عن الذنوب ، على أن يقوم الجيش بعدها بالهجوم . وكان هناك آخرون ادعوا بأن أحلامهم حفلت بالملائكة والحواريين وأنها تدعم ما رواه البروفنسالي (٦) .

وكان لهذه الرؤى والأحلام فعل السحر في نفوس الصليبيين فانتعشت آمالهم وارتفعت روحهم المعنوية ، وتمكنوا من الانتصار على الجيش الاسلامي . كذلك عندما بدأت المصاعب تراجح الجيش الصليبي امام مدينة بيت المقدس ، فلم يكن هناك ما يلائم هذا الفصل الأخير من ملحمة الحملة الصليبية الأولى أكثر من اشاعة حدوث بعض الرؤى المقدسة واشترك القديس جورج في المعارك (٧) .

ومع ذلك فهما كانت أهوال الحرب بالنسبة للناس العاديين ، فلاشك أن المجاعة والوباء كانت هي المصدر الأساسي لليأس ، فالمرض المؤلم الذي لا ينتظر شفاؤه بأي علاج انساني كان يدفع بجموع المعانين الى الانفجار الهستيري الذي يحركه الأمل في التدخل الالهي . وهناك روايات كثيرة عن

Raymond of Aguilers, *Historia Francorum* (RHC, Occ., (٥)
III), pp. 255-256; Anon, *The deeds of the Franks*,
pp 57-58; S. Runciman, *A History of the Crusades*,
I (New York, 1964), p. 244.

William of Tyre, *A History of deeds done beyond the* (٦)
Sea, I, eng. trans, E.A. Babcock and A.C. Krey
New York, 1943), p. 282.

Anon, *The deeds of the Franks*, 90; H.E Mayer, *The* (٧)
Crusades, eng. trans, Gillingham (Oxford, 1972),
p. 60.

براور ، عالم الصليبيين ، ص ٥٨ ،

هذه الحركات المعبرة عن اليأس الشعبي ، ففي سنة ١١٤٥ تم بناء كنيسة القديس بطرس St. Pierre-sur-Dives في نورماندى بعد عدة سنوات من العمل . واذ توقعت الجماهير حدوث المعجزات فقد توافدت صوب الكنيسة واحاطوا بالذبح يبدعون بدعوات يائسة لأم الرحمة (٨) .

واذ تأخر شفاؤهم ولم يحصلوا في التو على ما كانوا يرغبون فيه مزقوا ثيابهم وانفترشوا الأرض عرايا ناسين كل الخجل رجالا ونساء وأطفالا مع بعضهم البعض . وبعد أن تمددوا هكذا على الأرض اخذوا يزحفون صوب المذبح يصيحون متوسلين مرة أخرى بأمر الرحمة حتى يحصلوا على استجابة لتوبتهم (٩) .

مرة أخرى في اكسفورد بعد سنوات قليلة حدث مشهد مماثل ، ففي سنة ١١٨٠ نقل رفات القديس Frideswide الى مقبرة جديدة وسرت اشاعة عبر البلدة عن حدوث المعجزات . وفي لحظات قليلة حاصرت الكنيسة جموع من المعانين من ستنى أنواع المرض . وكان معظمهم أناس نوى أصول اجتماعية متواضعة جاءوا من المدن والريف المجاور يسعون الى هذا المزار للشفاء . وكانت هذه الجموع تعاني من الشلل والاستسقاء والعمى والجنون والأمراض الجلدية والصداع وآلام وجروح الرأس والمعدة والأطراف . وكانت الكنيسة تمتلئ ليلا ونهارا بالمرضى وأقاربهم الذين تجمعوا حول القبر ، ينامون بجواره ، ويلمسونه ، ويتمسحون في غباره . وكلهم أمل أن تحدث معجزة من السماء تشفى جموع المرضى مما ألم بهم (١٠) .

وهناك أمثلة أخرى من نوع الاختلال العقلي للجماهير التي تنمو عندما يتحول الحماس الديني الى فوضى ، وكان العقلاء دائمي التنبيه الى خطورة ذلك . فقد وجدت في بريطانيا في العقد الخامس من القرن الثاني عشر حالة غريبة بطلها هذا الأمل الأبله Eon de l'Étoile (Eudo de Stella)

R. W. Southern, *Western Society and the Church in the* (٨)

Middle Ages (Penguin 1976), p. 305.

Southern, *Western Society*, pp. 305-306. (٩)

Southern. *Western Society*, p. 306. (١٠)

الذى سمع في الكنيسة احدى التراتيل الدينية التي تقول « عن طريقه هو الذى سوف يأتى ليدين الأحياء والأموات والعالم بنار » ولما كان نص الترتيلة باللغة اللاتينية هو .

«Per Eum qui venturus est judicare vivos et mortuos et seculum per ignem»

فقد اعتقد ان الضمير Eum انما يعود اليه (١١) . ومن ثم فقد نظر Eon الى نفسه باعترابه ابن الله قد اتى ليدين الأحياء والأموات ، واجتذب نحوه اتباعا من الرجال في مثل بلهه وغبائه ، اعتبرهم ملائكته وحوارييه . ولكن سرعان ما انحدر Eon واتباعه الى عصابة من اللصوص نهبوا الكنائس والأديرة وبناتوا يفتنون الملابس الفخمة ويقيمون الولائم العظيمة . وعاشوا حياة يحسدون عليها حتى ان هؤلاء الذين جاءوا لاعتقاله قد بهرتهم هذه الحياة الناعمة وبدلا من القبض عليه ، انضموا الى جماعته (١٢) وفي النهاية تم القبض عليه وأرسل الى مجمع ريمس سنة ١١٤٨م ليمثل امام البابا اجينيوس الثالث Eugenius III . وكان ابون Eon يحمل في يده غصنا من الأشجار ، وأشار الى انه في حالة اتجاه شعبة الغصن نحو السماء فان الله سيهيمن على ثلثي العالم ، بينما يظل الثلث الأخير في يد سلطانة ، وان اتجهت شعبة الغصن نحو الأرض فان الله سيهيمن على ثلث العالم بينما يسيطر هو على الثلثين الباقين . وانفجر كل من في المجلس في الضحك عند سماعهم ذلك . وانتهى امر هذا الدعى بايداعه السجن فلم يلبث ان توفى بعد ذلك بقليل . اما اتباعه فقد عوملوا بقسوة ، وكان مصير الثلاثة الذين أطلق عليهم الحكمة والمعرفة والعدالة وآخرين من ذوى الأسماء الرنانة هو الالتقاء في النار ، لأنهم فضلوا ان يلقوا الموت حرقا على التخلي عن عقيدتهم .

وهناك مثال آخر للهوس الدينى حدث في فرنسا عام ١١٨٢م ، وان

N. P. Zacour, «The Children's Crusade» in Setton, A (١١)

History of the Crusades, II, p. 328.

Zacour, The Children's Crusade, p. 328. (١٢)

Zacour, The Children's Crusade, PP. 328-329. (١٣)

أحد كهنة دير القديس بطرس Saint Pierre بالقرب من كان هذه القوافل وعن المعجزات التي حدثت أثناء تجوالها ، أو التي حدثت أثناء بناء أسوار كنيسة بأنها كانت تتكون من خليط من الناس ، رجالا ونساء وأطفالا . وأن بعض هذه المواقب كانت تتألف من الأطفال (١٨) .

وكان لهؤلاء الأطفال المشيدين (التائبين) تأثير من نوع غريب على جمهور الأتقياء ، لأن واحدا منهم وهو القديس بنزيه Saint Benezet قد أضيف على جنوب فرنسا سمة من التشريف والتبجيل بفضل مواهبه وقداسته وما حققه من معجزات ، وكان هذا القديس قد بدأ منذ كان طفلا صغيرا في بناء كوبرى أفيتو الشهير على نهر الراين . وذهب إليه القساوسة والعلمانيون لرؤيته وسماعه والتبرك به (١٩) .

وإذا أضفنا الى ذلك أن الكنيسة كانت مهتمة بالقضاء على نظرة الألبيجنسيين في جنوب فرنسا (٢٠) ، فانها أطلقت دعواتها ومبشريها للدعوة الى الحرب الصليبية ضد الهرطقة والمارقين وأيضا ضد الموحدين في إسبانيا . وقد لاقت هذه الدعوة استجابة عريضة خصوصا في ألمانيا وشمال فرنسا . وهكذا فان عام ١٢١٢م كان الوقت الذي بلغت فيه الحماسة الدينية ذروتها (٢١) .

وبينما كانت المعتقدات والمفاهيم الدينية تسيطر على عقول العامة كان يتردد بين الأوساط الكنسية والعلمانية على حد سواء ، أن نهاية العالم

Paul Alphandery, «Les Croisades D'Enfants,» Revue de (١٨)
l'histoire des religions, LXXIII (1916), pp. 272-273;

Mayer, The Crusades, p. 203.

Alphandery, Les Croisade d'enfants, p. 273. (١٩)

(٢٠) عن الحملة الألبيجنسية ، انظر ، سعيد عبد الفتاح عاتور ،
أوروبا العصور الوسطى ، ١٤ (القاهرة ١٩٦٤) ص ٢٦١ - ٢٦٦ .

Mayer, The crusades, p. 203; Peter Raedts «La (٢١)

Croisade des enfants a-t-elle eu lieu ?» L'Histoire, xxxvii, Juil-
let/Aout (1982), p. 33. ,

قد حانت ، فقد قال البابا أوربان الثانى فى خطابه الشهير فى كليرمونت ان المسيح الدجال سوف يظهر بين عشية أو ضحاها (٢٢) . وقد سيطرت فكرة نهاية العالم على الغرب المسيحى ، حتى أنه فى الوقت الذى كانت توضع فيه الترتيبات الأخيرة للحملة الصليبية الثالثة ، تم لقاء بين ريتشارد قلب الأسد ، ويواقيم رئيس دير كورازو الذى قام بشرح معنى رؤيا القديس يوحنا ، فأشار الى أن الرؤس السبعة للوحش ليست سوى هيرود ، وقسطنطيوس ، ومحمد ، وميلسموت (الذى يقصد به فيما يبدو عبد المؤمن ، مؤسس مذهب الموحدين) وصلاح الدين ، ثم أخيرا المسيح الدجال ، الذى صرح يواقيم أنه قد جرت فعلا ولادته فى روما منذ خمس عشرة سنة ، وسوف يجلس على الكرسي البابوى . فبادر ريتشارد الى الرد بأن المسيح الدجال ليس فى هذه الحالة ، فيما يبدو ، سوى البابا كليمنت الثالث نفسه (٢٣) . ويتضح من ذلك أن الكنيسة قد أكدت بوجود المسيح الدجال بين المعاصرين وأن خروجه بات وشيكا . وفى عشية عام ١٢١٢م استمر الناس فى الاعلان عن قرب تحقق (رؤيا القديس يوحنا بنهاية العالم) وأن المسيح الدجال قد بلغ الآن سن الرشد وأوسك على الظهور ، ومن ثم فانه ينبغي على المسيحيين الاحتشاد لتخليص الأرض المقدسة لينالوا الشهادة ، ليحيوا بعد ذلك فى مملكة القديسين (٢٤) .

لقد تسرب الهوس والجنون الدينى الى معظم الفئات يذكر احد المعاصرين (من رجال القرن الثالث عشر) أن آلافا من النساء جرين عرايا عبر القرى والمدن لائذات بصمت عميق (٢٥) . وفى مدينة لوتيش Luttich كان يتجمع الكثير من الناس ، ويكثرون من الصياح فى تشنجات هستيرية (٢٦) ، الأمر

-
- Alphandery, les croisade d'enfants, p. 277. (٢٢)
 Runciman, A History of the Crusades, III. p. 41. (٢٣)
 Alphandery, les croisade d'enfants, p. 278. (٢٤)
 Nudae etiam mulieres erica idem tempus nichil (٢٥)
 Loquentes per villas et civitates cucurrerunt.
 Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355.
 Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 3. (٢٦)

الذى حدا بأحد المؤرخين المحدثين الى القول « بأنه كانت هناك دائماً مسة
(مسحة) من الجنون تسيير في الهواء » (٢٧) .

وفي وسط هذا الجو المشحون بالرؤى والأحلام المقدسة والتي ساعد على
انتشارها وتصديقها ، الجهل الذى تعاني منه الغالبية العظمى من سكان الغرب
الأوربي ، وحالات اليأس من الأمراض المستعصية والابوثة ، والاعلان عن قرب
يوم القيامة . هذه الاسباب جعلت الناس تتجه ببصرها نحو السماء في انتظار
انخلاص بحدوث معجزة . ومن ثم فقد انتشر العديد من الدعاة الجائلين الذى
كانوا على درجة كبيرة من النشاط والانتشار خصوصا في فرنسا والمانيا ، وكان
هؤلاء الدعاة يحضون الناس على التوبة لخالص ارواحهم . في نفس الوقت
نم يكفوا مطلقا عن التبشير بالحروب الصليبية، ودعوة العامة والهاب مشاعرهم
بضرورة استعادة بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وذلك بابرار المشاركة
المثيرة للرجال والنساء في الحملات السابقة . فقد كان الكل مهتما بضرورة
التغلب على الفشل الذى أصاب الحركة الصليبية ، وضرورة طرد المسلمين
من الأرض المقدسة (٢٨) .

وإذا كان المبشرون الجائلون يقدمون عطايتهم الى العامة ، فلاشك

Zacour, The children crusade, p. 328.

(٢٧)

(٢٨) في دراسة عن الشعر والتاريخ ، يقول صاحب الدراسة ان القصاصد
والأغاني « لم تكن سوى انعكاس أمين للتفكير الشعبي في القرنين الحادى
عشر والثانى عشر . ولا بد أن نعترف بأن العامل الدينى كان موجودا في الحركة
الصليبية ولكنه كان نابعا من تدين عاطفى يقوم على التعصب المقيت ، ولم
يكن تدينا عقلانيا حقيقيا » . أما الأغاني التى تناولت الدعوة للحروب الصليبية
خاصة بعد استرداد المسلمين لمدينة بيت المقدس عام ١١٨٧م فقد كانت بمثابة
رجع الصدى للصدمة التى أصابت الغرب وبدأت أغنيات وقصائد الحروب
الصليبية تتحدث عن المتخاذلين وبدأت صياغات الترغيب بالغفران وخدمة
الرب الذى عانى على الصليب ، ثم التهديد بسوء العقاب في يوم الحساب الأخير
تتسرب الى هذه القصاصد » .

قاسم عبده قاسم « الشعر والتاريخ ، دراسة تطبيقية على شعر الحركة
الصليبية » المجلة التاريخية ، العدد ٢٩ ، ١٩٨٣ .

أنهم كانوا يتخذون من سيرة المسيح نفسه ومن آباء الكنيسة والشهداء موضوعاً لمواعظهم . ان المسيح الذى ضحى بنفسه من أجل خلاص البشرية قد أتى بالمعجزات وهو لا يزال طفلاً ، وعاش حياته فقيراً ، فمما لا شك فيه أن فكرة لاهية والموت مثل المسيح ، ومن أجل المسيح ، بدأت تسيطر بدورها على عقول العامة (٢٩) .

لقد أثبتت الأحداث أن الأباطرة والملوك وكبار الاتباعيين والجيوش الهائلة قد فشلت في تخليص الأرض المقدسة ، وذلك بسبب كبريائهم ورتائلهم . لقد سقطت القدس وتلك هي رذائل العظماء .

لقد أصبح تحرير القدس والأرض المقدسة في حاجة إلى معجزة . والمعجزة لم تكن لتتقم إلا مع حماسة الأنقياء من الاطفال والفقراء ، لان الاطفال الذين وهبهم الله البراءة والطهارة والعمامة الذين عاشوا في الفقر يستحقون العيش في وئام مع المسيح (٣٠) .

وهكذا كان المناخ مهيباً أمام ستييفن الفرنسى ونيقولا الألمانى لكى يرى كل منهما رؤياه المقدسة لقيادة جيش من الاطفال لتحرير بيت المقدس من قبضة المسلمين .

وتبدأ قصة صليبية الاطفال في ربيع وصيف سنة ١٢١٢م (٣١) .

Alphandery, les croisades d'enfants, pp. 278-279; (٢٩)

Raets, La croisade des enfants, p. 37.

Alphandery, les croisades d'enfants, p. 279; (٣٠)

Mayer, The crusades, p. 204; Raets, la croisade des enfants, p. 37.

(٣١) بالرغم من غرابة هذا الحدث وأهميته إلا أن بعض المؤرخين لم يهتموا بتدوين أحداثه أو التعليق عليها ، واكتفوا بإشارات مقتضبة ، مثل حج الاطفال ، خروج الاطفال ، حملة الاطفال ، تجمع عظيم للاطفال للذهاب للأرض المقدسة . انظر .

Continuatio claustroneoburgensis tertia (MGH, SS., IX),

حيث خرجت جماعات غفيرة من الأطفال تجوب فرنسا والمانيا وإيطاليا ، وكان بعض هؤلاء الأطفال في سن صغيرة جدا • وكانوا يحملون الصليبان والأعلام والشموع والأجراس ويرددون الأناشيد والأغاني التي يقولون فيها أنهم سوف يخلصون الصليب الحقيقي الأسير عند المسلمين الشرقيين • كان بعض هؤلاء الأطفال يعرفون وجهتهم فكانوا يقولون انهم خارجون الى الأرض المقدسة أو خارجون الى الله ، أما الآخرون فكانوا يلتزمون الصمت ، وحينما كان يسألهم سائل عن وجهتهم كانوا يقولون أنهم لا يدرون شيئاً •

ان الفكرة الأولى لهذه الحملة الصليبية تعود الى الطفل سنتيفن وهو أحد الرعاة الصغار من قرية كلوى Cloyes بالقرب من فيندوم Vendome ويحكى عن هذا الطفل أنه ترك قطيعه لكي يتبع أحد المواكب الدينية ، وعند عودته رأى حيواناته المنفرقة تعود اليه وتركع في خشوع • ولم يكن هذا الحدث فريداً من نوعه ، فقد حدث قبل ذلك للقديس ماميس القيسارى Saint Mammes ولعدد آخر غيره (٣٢) • ولكن الجديد في الأمر ، والذي كان مثيراً حقاً ، هو ما رواه سنتيفن نفسه • فقد روى أن المسيح قد تجلى له بشخصه بينما كان ذلك الراعى الصغير يرعى غنمه ، وكان ظهور السيد المسيح في صورة رجل فقير ، وتقبل منه الخبز الذي أعطاه إياه على سبيل الاحسان ، ثم أعطاه المسيح رسالة موجهة الى ملك فرنسا ، وأمره أن يمضى داعياً الى حملة صليبية جديدة (٣٣) •

p. 634; Chronicon El Wacense (MGH, SS., X), p. 37;
Annales Zwifaltenses (MGH, SS., X), p. 58; Ellen-
hardi Argentinensis annales (MGH, SS., XVII),
p. 101; Heinrici Heimburg. Annals (MGH, SS., XVII),
p. 714; Annales Thuringici Breves (MGH, SS., XXIV),
p. 41; Iores Temporum (MGH, SS., XXIV), p. 240.

Alphandery, Les croisade d'enfants, p. 260. (٣٢)

D.C. Munro, «The children's crusade», American His- (٣٣)
torical Review, XIX (1914); p. 518; Alphandery,
les croisade d'enfants, p. 260; Raets, La croisade des
enfants, p. 31, Mayer, The crusades, p. 204.

وما إن أعلن ستيفن رؤياه حتى تجمع حوله عدد لا بأس به من الرعاة في مثل سنة ، وجانبوا مع القرى والمدن المجاورة وهم يغنون بلهجتهم الفرنسية يا الهنأ! أعل من شأن المسيحية ومجدها ، يا الهنارد الينا الصليب الحقيقي (٣٤) . وسرعان ما تجمع جمهور غفير خلف ستيفن الذي كان متوجها لمقابلة الملك فيليب . وقد وصل ستيفن بقافلته الصغيرة الى سان دينيه S. Denis فأثار مشاعر التدين العاطفي في نفوس مشاهديه . وذكرت المصادر ان الرب قد اظهر معجزات كثيرة من خلال ستيفن أمام الجماهير وشهد كثيرون على حدوثها (٣٥) . في نفس الوقت كانت هناك تجمعات كبيرة من الأولاد الذين عاملتهم الجماهير بوقار وتقديس عظيم في كثير من الأماكن نتيجة للاعتقاد بأنهم أيضا قد أظهروا المعجزات . وعلى طول الطريق انضمت اليهم حشود كبيرة من الأطفال بغية السير تحت قيادتهم للانضمام الى الطفل المقدس ستيفن الذي اعترفوا به جميعا سيدا وأميرا لهم (٣٦) . وكانت هذه الجماعات تتكون من الأولاد والبنات وبعض الشباب وأشخاص أكبر سنا . وساروا في مواكب متعاقبة عبر القرى والمدن والقلاع حاملين الرايات والشموع والصليبان وبأيديهم المباخر ، ويتغنون باللهجات المحلية ، وعندما كان يسألهم آباؤهم أو أناس آخرون الى أين هم ذاهبون ؟ اجاب كل واحد منهم كما لو كانت تحركهم روح واحدة « الى الله » (٣٧) .

«Domine Deus, exalta christianitatem. Domine Deus, (٣٤)
redde nobis veram crucem.»

Sigeb Auct. Mortui Maris (MGH, SS., VI), p. 467;

Ex Annalium Rotomagensium Continuationibus (MGH,
SS., XXVI), p. 501.

Alphandery les croisade d'enfants, p. 260; Rohricht, (٣٥)
Der Kinderkreuzzug, p. 4.

Munro, The Children's Crusade, p. 518; Rohricht, Der (٣٦)
Kinderkreuzzug, p. 4.

«Quasi uno edocti spiritu Singuli et universi responderunt : (٣٧)
Ad Deum.»

لاشك أن الرسالة التي حملها ستيفن قد حيرت الملك فيليب أوغسطس الذي كان مشغولا بالعديد من الأمور والمشاكل السياسية ، فرأى أن يستشير أساتذة جامعة باريس في شأن هذا التجمع الهائل من الأطفال . وكان طبيعيا أن يقوم الملك بصرف الطفل ستيفن بعد أن زوده بنصحه بأنه يجب عليه أن يعود إلى منزله وأن ينتبه إلى واجباته وأعماله الرعوية . ثم صدرت الأوامر بعودة الأطفال إلى آبائهم دون تأخير (٣٨) .

لم تثبط الاهانة الملكية همة الغلام ، وبدأ ستيفن في التبشير والدعوة إلى الحملة الصليبية عند مدخل دير القديس دينيه ، وأعلن أنه سوف يقود حملة من الأطفال لانتقاذ العالم المسيحي ، وكان ستيفن قد وهبه الله قوة خارقة في الفصاحة ، تأثر به كبار السن ، وهرع إليه الأطفال ملبيين دعوته ، واذ تحقن أول انتصار له أخذ يطوف بأحاء فرنسا ، يدعو الأطفال ، بل أن عددا كبيرا من الذين آمنوا بدعوته أخذوا يبشرون ويدعون باسمه إلى مشروعه . وجرى الاتفاق على أن يتم التجمع بعد حوالي شهر في فيندوم ، ومنها يستأنفون سيرهم إلى الشرق (٣٩) . غير أن هناك بعض الآراء التي ترى أن هذه الحركة قد انتهت في سان دينيه لأن الأطفال قد اضطروا تحت وطأة الجوع إلى العودة (٤٠) . أو أنه تم الامساك بعدد كبير منهم وجندوا للقتال

Willelmi chronica Andrensis (MGH, SS., XXIV), p. 754;

Ex Annalibus Gemmeticensibus (MGH, SS., XXVI),
p. 510;

Munro, The children's Crusade, P. 518; Zacour, The
Children's Crusade, pp. 330-331.

Alphandery, les croisade d'enfants, p. 261; Mayer, (٣٨)
The crusades, p. 204; Raets, La croisade des en-
fants, p. 31.

Runciman, A History of the crusades, III, p. 140. (٣٩)

Ex annalibus Gemmeticensibus (MGH, XXVI), (٤٠)
p. 510;

Munro, The children's crusade, pp. 518-519.

ضد الألبيجنسيين (٤١) • والرواية الثالثة تقول أن الملك بعد أن استشار أساتذة باريس أصدر أوامره بعودة الأطفال إلى منازلهم (٤٢) •

لاشك أن الملك فيليب قد أصدر أوامره بعودة الأطفال إلى ذويهم ، ولكن هل تم تنفيذ هذا الأمر ؟ هناك رأى يقول انه لم يستجب لأمر الملك بالعودة الا فئة قليلة من الأطفال • ومن ثم فقد بادر بعض رجال الدين وبعض العلمانيين المستعيرين بايقاف هذا المشروع المخوف بالمخاطر ، الا أن الجمهور تصدى لهم ومنعهم بالقوة ، فقد رأت الجماهير ضرورة استكمال مسيرة الأطفال • ووجه انعاما لتهاماتهم الى رجال الدين قائلين لهم اذا كنتم لا تعتقدون في مشروع الأطفال وتريدون اعاقبتهم عن استكمال مسيرتهم ، فان ذلك لن يكون الا بدافع الحسد والغيرة (٤٣) • وقد نتج عن مسانده العامة لحركة الأطفال وقوع بعض الاضطرابات ، ففي قرية روكورت Rocourt قام السكان بنهب أملاك كهنة سان كوينتن وذلك لسد احتياجات الأطفال الصليبيين في هذه المنطقة (٤٤) •

Zacour, The children's Crusade, p. 330. (٤١)

وذلك اعتمادا على قول مؤرخ مورتمير بأن المندوب الروماني قد عين في العام التالي جموعا كبيرة من أجل الصليب لحملة صليبية جديدة •

Sequenti anno contigerunt. Nam Legatus Romanus
Gallie Fines ingressus, copiosam multitudinem
in crucifix nomine cruce Signavit.

Sigeb. Auct. Mortui Maris ((MGH, SS., VI), p. 467.

ولكن ذلك لا يعنى أن الأطفال قد تم تجنيدهم في هذه الحملة •

Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 5; Alphantery, les (٤٢)
croisade d'enfants, p. 261; Munro, The children's
crusade, p. 519.

Alphantery, les croisades d'enfants, p. 261. (٤٣)

Alphantery, les croisades d'enfants, pp.261-262. (٤٤)

ومن المثير للدهشة ، أنه في خلال شهر واحد انضم الى دعوة سان دينيه ثلاثين ألف طفل (٤٥) ، لم يتجاوز الواحد منهم الثانية عشرة من عمره . وبالنظر الى اتساع الحركة وانتشارها نجد أن المؤرخين يشيرون اليها بأنها قد امتدت لتشمل معظم بلاد الغال ، أو أنها كانت في مملكة فرنسا ، وأن الأطفال قد أتوا من مدن وقلاع وقرى وحقول من مقاطعات متعددة من بلاد الغال (٤٦) . وكانوا خليطا متنوعا من الفلاحين السذج والرعاة الذين سمح لهم آبائهم عن طيب خاطر بأن يمشوا في هذه البعثة الكبيرة ، أما الأطفال الذين لم يسمح لهم آبائهم بالرحيل فقد بكوا بكاء مرا (٤٧) . وكان منهم أيضا صبيان انحدروا من أسرانت شريفة، تسلبوا من دورهم ولحقوا بستيفن وأتباعه «الأنبياء الصغار» كما نعتهم المؤرخون ، ومن بينهم أيضا ، فتيات صغيرات ، وبضعة قسيس شبان ، فضلا عن جماعة قليلة من الحجاج ، وبعض الأتقياء من البالغين . ومن المحقق أيضا أن جماعات أخرى لم تنضم اليهم الا لتشارك في الهدايا والصدقات ، كما انضم الى المسيرة أيضا بعض الفاسقين والعاشرات . وقدمت الجماعات متزاحمة الى المدينة يرأس كل منها قائد يحمل العلم الفرنسي

Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., (٤٥)

XXIII), p. 893.

ويبدو أن الأطفال كانوا من الكثرة حتى أن أحد المؤرخين يقول ان الله وحده الذي يعلم عددهم .

Ex annalium Rotomagensium continuationibus (MGH, (٤٦)

SS., XXVI), p. 501.

Sigeb. Auct. Mortui Maris (MGH, SS., VI), p. 467;

Ex annalibus S. Medardi Suessionensibus (MGH, SS.,

XXVI), p. 521;

Ex annalibus Gemmeticensibus (MGH, SS., XXVI),

p. 510;

Ex annalium Rotomagensium continuationibus (MGH,

SS., XXVI), p. 501.

Reineri annales (MGH, SS., XVI), p. 665.

(٤٧)

القديم ذو اللون الأحمر والذي كان من عادة ملوك فرنسا أن يتسملوه من مقدم دير سان ديبنيه عندما يخرجون للقتال • وقد اتخذها ستيفن وزملاؤه رمزا على تصميمهم لاستعادة المدينة المقدسة (٤٨) • ويصف أحد المؤرخين هذا التجمع المذهل للأطفال وعن تقبل الناس لهذه الظاهرة بقوله أنه كان يبدو لمعظم الناس ان الله كان على وشك أن يفعل شيئا عظيما وجديدا من خلال هذه الجموع التلقائية البريئة التي تجمعت مع بعضها (٤٩) • ويقول مؤرخ آخر أنها كانت نخبيرا لأحداث المستقبل ، ويعنى تلك الأحداث التي وقعت في السنة التالية والتبشير للحملة الصليبية الجديدة (٥٠) •

شرعت الحملة في مغادرة فيندوم متجهة الى مرسيليا ، بعد أن باركها اصدقائها من القسس ، وبعد أن تنحى جانبا آخر الآباء الذين اشدت أساهم لفراق أبنائهم • وسار معظم الأطفال راجلين ، أما ستيفن الذي كان يرى فيه الجميع رئيسا وقائدا لهم فقد أعدوا له عربة تفتنوا في زخرفتها وزينتها ، تملوها مظلة لتحميه من الشمس ، ولم ينكر أحد من الأطفال على نبيهم اللهم ان تتوافر له الراحة اثناء سفره ، بل تم اعداد حراس مسلحين لحراسته ، وعاملوه على أنه قديس ، حتى أن أي فرد كان يعتبر نفسه من المحظوظين اذا تمكن من الحصول على شعرة من شعره ، أو خيط من ردايه ، لأنهم اعتبروا هذه الأشياء من المقدسات الدينية القيمة التي ينبغي اقتنائها (٥١) •

كانت الرحلة شاقة ، إذ كان الصيف شديد القيلظ ، واعتمد الأطفال في

Runciman, A History of the crusades, III, p. 140; (٤٨)

Alphandery, les croisades d'enfants, p. 262.

Munro, The children's crusade, p. 519. (٤٩)

Sigeb. Auct. Mortui Maris (MGH, SS., VI), p. 417.; (٥٠)

Munro, The children's crusade, p. 519.

Runciman, A History of the crusades, III, PP. 140 141; (٥١)

Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 5; Munro, The children's Crusade, pp. 519-520.

طعامهم على ما يتصدق به الناس عليهم ، وأضحى الماء شحيحا نادرا ويئس كثير من الأطفال عن امكانية مواصلة الرحلة الساقية ، فتركوا القافلة محاولين العودة الى منازلهم . كما مات عدد كبير من الأطفال على جانبي الطريق . ورغم ذلك فانه كان تجمعا عظيما من عدة آلاف من الأطفال الذين تدفقوا في النهاية على مدينة مرسيليا (٥٢) . ويات الأطفال ليلتهم ، وفي صبحية اليوم التالي احتشدوا على ساحل البحر ليشهدوه وقد انشق امامهم ليعبروه الى الأرض المقدسة ، وهي النبوءة التي تنبأ بها ستيفن الذي اعتقد أن الله سيزوده بمعجزة كالتي منحها لنبيه موسى عليه السلام ، واعتقد أنه سيخرج بانتباعه لتخليص الأرض المقدسة سيرا على الأقدام ، مثلما خرج موسى بنبي اسرائيل عبر البحر الأحمر . ولما لم تحدث المعجزة استبد اليأس بالأطفال ، وتحول بعضهم لمهاجمته وعلا صياحهم بأنه قد خدعهم وأخذوا يعودون من حيث أتوا . ومع ذلك فان عددا كبيرا من الأطفال ومعهم بعض الحجاج والقساوسة ظلوا ينتظرون على شاطئ البحر معتقدين أنه بعد مرور فترة مناسبة ستحدث المعجزة (٥٣) .

وحدث بعد بضعة أيام ، أن تاجرين من تجار مرسيليا أشارت الروايات الى أن اسم احدهما هيو الحديدي Hugo Ferreus والآخر ولیم الخنزير Guilelmus Porcus عرضا على الأطفال أن ينقلهم عبر البحر الى فلسطين دون أن يكلفهم اية نفقات حبا في الرب . ولما وثق الأطفال ومن معهم من حجاج آخرين في العرض الذي قدمه التاجران ، ركبوا سبع سفن كبيرة اقلعت بهم في عرض البحر (٥٤) . أما هؤلاء الأطفال فقد انقطعت أخبارهم ولم يعرف أحد المصير الذي آلوا اليه حتى سنة ١٢٣٠م حين وصل الى فرنسا أحد

Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., (٥٢)
XXIII), p. 893.

Runciman, A History of the crusades, III, 141. (٥٣)

Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., (٥٤)
XXIII), p. 893.

القسيس قادما من الشرق ، أخذ يروى قصة غريبة ، اذ قال انه أحد صغار القسيس الذين سبق أن صحبوا سنتيفن الى مرسيليا . وأنه استنقل معهم السفن التي قدمها التجاران ، ولم تنفض الا بضعة ايام عليهم في البحر ، حتى تعرضوا لطقس سييء ، فتنحطت سفينتان على الصخرة المسماة Reclus في جزيرة سان بينزو (٥٥) جنوب سردينيا ، وغرق كل الركاب ، أما السفن الخمس الأخرى فقد توجهت الى ميناء بوجيه على ساحل الجزائر والى الاسكندرية ، حيث اسواق الرقيق (٥٦) . وقام التجاران المرسيليان ببيع الصبية الى قادة المسلمين وتجار الرقيق . وفد اشترى والى الاسكندرية الجانب الأكبر من الحمولة (٥٧) ، ووفقا لرواية القسيس لازل منهم على قيد الحياة نحو سبعمائة (٥٨) .

على أن بعض هؤلاء الأطفال الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة كانوا أحسن حالا ، لأن أمير مصر وقتذاك وهو الملك الكامل الأيوبي ، كان شديد الشغف باللغات والآداب الغربية ، فاشتراهم وأبقاهم عنده للعمل مترجمون وكتاب ومعلمون ، ولم يحاول أن يحملهم على اعتناق الاسلام ، فأقاموا في القاهرة في أسر مريح هين (٥٩) . ومن هؤلاء الأطفال أيضا اشترى الخليفة الناصر أربعمائة جميعهم من الكهنة ، وثمانين منهم كانوا من القساوسة . وقام الخليفة بعزلهم عن الآخرين ، وعاملهم بكرم على غير ما كان متوقعا ، ذلك لأن هذا الخليفة كان قد تلقى تعليمه في باريس متخفيا في هيئة كاهن (٦٠) .

-
- Ibid, p. 893. (٥٥)
 Ibid, p. 893. (٥٦)
 Ibid, p. 893. (٥٧)
 Ibid, p. 894. (٥٨)
 Runciman, A History of the Crusades, III, p. 144. (٥٩)
 De quibus califas 400 in parte sua emit, amnes clericos, (٦٠)
 quia ita eos ab aliis segregare voluit, inter quos
 erant 80 presbiteri, et honestius Omnes Suoi More

=

ادعى أنه عاد من الشرق ، رغم أن هذه القصة مليئة بالأخطاء الواضحة ، مثل ذلك قوله أن ثمانين من الأطفال كانوا قساوسة ، وأن المسلمين قد عذبوا الأطفال للتخلي عن عقيدتهم المسيحية . ويمكن تعزيز هذا الرأي بأن ما نسبته هذا القسيس الى الخليفة وعن تلقيه العلم في باريس سنة ١١٩٥م متخفيا في زى احد الكهنة أمر يصعب تصديقه ، وإذا كان هذا القسيس قد قضى فترة عبوديته في مصر ، فكيف به اذن يعطى تفاصيل ما حدث في بغداد . وتضيف دانا مونرو بأنه لا أحد من المؤرخين قد أشار الى جماعة الأطفال في أى مكان ما بين باريس ومرسيليا ، كما لا يوجد مؤرخ واحد من جنوب اللوار كتب أية اشارات عن الحركة ، ومن ثم فان المعاصرين كانوا على حق ، وأن الأطفال الفرنسيين قد عادوا الى منازلهم بعد أن طافوا يغنون في مواكبهم لفترة من الوقت (٦٢) . ويضيف زاكور الذى يحاول الاحتياط لنفسه ، ولا يتفى حقيقة وصول الأطفال الصليبيين الى مرسيليا ، ولكنه ينفى فقط أن يكون هؤلاء الأطفال من الفرنسيين جاءوا من باريس وضواحيها ، ويعتمد في ذلك على رواية اثنين من المعاصرين اللذين يقرران أن الصليبيين الذين وصلوا مرسيليا قد جاءوا من الأراضي المنخفضة ومن وادي الراين ، وكانوا من الفرنسيين والألمان (٦٣) .

ولما كان هناك رأى يقول بأن البابا جريجورى التاسع قد شيد في وقت لاحق كنيسة الأبرياء الجدد على جزيرة سان بترى التى تحطمت عليها السفينتين وغرقتا بالأطفال (٦٤) ، فقد اتخذ أحد المؤرخين من اكتشاف الأتريين لاطلال هذه الكنيسة سنة ١٨٦٧م دليلا على صحة الأخبار التى وصلت عن حملة ستيفين . ولكن زاكور يتشكك أيضا أن تكون الاطلال التى اكتشفت هى بالفعل اطلال الكنيسة المذكورة (٦٥) . ولذلك يحاول أن يبحث عن دليل آخر لتأكيد

Munro, The children's Crusade, p. 520; Zacour, The Children's Crusade, p. 337. (٦٢)

Zacour, The children's crusade, p. 337. (٦٣)

Chronica Albrici monachi Trium Fontium (MGH, SS., XXIII), p. 893. (٦٤)

Zacour, The Children's Crusade, pp. 337-338. (٦٥)

وجهة نظره محاولا التشكيك في صحة الرواية التي تتهم التجارين المرسيليين بشحن الأطفال وبيعهم في أسواق الرقيق • ويشير الى أن كلا من هيو الحديدي ووليم الخنزير كانا شخصين معروفين تماما - من المشاهير - وبالنسبة للأول فقد كان قاضيا ونائبا عن الفيسكونت • وبهذه الصفة كان لزاما عليه أن يعالج المشكلة التي فرضتها وصول قافلة الأطفال الصليبيين الى الميناء • أما وليم الخنزير فإنه لم يكن تاجرا مرسليليا ولكنه كان القائد البحري لأسطول مدينة جنوة ، كما أنه خدم الامبراطور فردريك الثاني كقائد لأسطوله (٦٦) ، ثم اضطر الى الفرار من صقلية بعد أن غضب عليه الامبراطور سنة ١٢٢١م [٥

ربما كان Albrici صاحب رواية التجارين على علم بهذه الأحداث ، وكان يعلم أيضا أنه في نفس هذا الوقت تقريبا قبض فردريك الثاني على القرصان المسلم ابن عبس وشنقه هو وأولاده في بالرمو • وقد ربط Albrici بين هذه الحوادث التي لاعلاقة لاحداها بالأخرى لنخرج بقصة التجارين المرسيليين الشريرين اللذين باعا أطفال المسيحيين للمسلمين ، وتآمرهما فيما بعد ضد الامبراطور ، وفي النهاية يواجهان النهاية الحتمية حيث تم شنقهما • ثم يخرج بعد مناقشة ذلك بأنه لا يوجد دليل على أن أحدا منهما قد شنق ، أو أن أيهما منهما كان يعرف الآخر (٦٨) ويستطرد في المناقشة قائلاً بأن رواية Albrici قد تكون على درجة من القوة إذا ما تقبلنا اقتراح رينولد روريش Reinhold Rohricht بأن Albrici قد اختلطت عليه الأسماء ، واستخدم اسم وليم الخنزير Porcus المشهور

Zacour, The children's Crusade, p. 338. (٦٦)

Willelmus Scilicet admiratus cum ipsum capere vellet, (٦٧)

Sicut divine placuit voluntati, manus eius aufugit, et a
liminibus regni coactus indebite Se paravit.

Marchissii Scribae annales (MGH, SS., XVIII), pp. 146-
147; Zacour, The Children's Crusade, p. 338.

Zacour, The Children's Crusade, p. 339. (٦٨)

بدلا من اسم وليم بوسكويرس ، Posqueres المغمور ولذلك تختفى العقبات
التي تعترض قبول هذه الرواية . ولكن زاكور لا يستسلم مقرا بأن هناك من
الأدلة ما يثبت بأن وليم بوسكويرس وهيو الحديدي كانا مشتركين في عام
١١٩٠م في حصار مدينة عكا ، وقد كافأ جاى لوزجنان اهل مرسيليا على
جهودهم بمنحهم الامتيازات التجارية في عكا (٦٩) .

ان زاكور ربما كان متحفا في وجهة نظره ، ولكن في حماسته لتأييدها قد ناقض
نفسه في اول دليل ساقه البنا، فيذكر في البداية أن وليم وهيو شخصان مشهوران ،
أي لوانهما قاما بمثل هذا العمل القبيح ، اذن لعلم معظم المعاصرين بذلك ،
ولكنه يعود بعد ذلك ليؤكد بآتته لا يوجد دليل يثبت أن كلا منهما كان يعرف
الآخر ، وهذا ينفي عنهما صفة الشهرة . ثم انه يقرر أيضا أن هيو كان نائباً
عن الفيسكونت في مرسيليا ، وبهذه الصفة كان لزاما عليه أن يعالج المشكلة
التي أوجدها وصول الأطفال الصليبيين الى الميناء . ومن الواضح انه ليس
هناك ما يمنع هيو حتى وهو بهذه الصفة من التامر ضد الأطفال . انه يحاول
تكذيب رواية تامر التاجرين المرسيبيين لعدم وجود الأدلة الكافية لاثبات
صحتها ، في نفس الوقت فان الأدلة التي ساقها غير كافية لتبرئة ساحة كل
من وليم وهيو من الاتهامات التي الصقت بهما ، ولاسيما وأن استراكمهما في حصار
عكا سنة ١١٩٠م لا يعتبر دليلا على عدم قيامهما بالتامر ضد الأطفال سنة
١٢١٢ م .

وطالما أن كلا من الروائتين في حاجة الى الأدلة والبراهين ، فان ذلك
لا يدفعنا الى رفض قصة صليبية الاطفال الفرنسية كلية ، لأنه كما ثبت
بالفعل كان هناك اطفال من الفرنسيين وصلوا الى ميناء مرسيليا ، وكما تقول
المصادر المعاصرة أنهم كانوا من الفرنسيين والألمان (٧٠) ، فلاشك اذن أنه كان

Zacour, The Children's Crusade, p. 339. (٦٩)

Chronicae regiae Coloniensis Continuatioprime (MGH, (٧٠)

CC., XXIV), pp. 17-18.

هذا بالإضافة الى أن كثيرا من المصادر التي تناولت الحملة الألمانية

=

يغلب عليهم الطابع الفرنسي ، لأن كل الاطفال الألمان تقريبا - كما سيأتي ذكرهم - قد عبروا ألمانيا الى ايطاليا . كما أن هناك من الشواهد ما يؤكد وصول الاطفال الفرنسيين الى شاطئ البحر فيقول أحد المؤرخين أن الاطفال كانوا مسرعين صوب البحر (٧١) ويقول مؤرخ آخر أن الاطفال كانوا سيعبرون البحر للبحث عن الصليب الحقيقي (٧٢) . كما أن متى الباريسي يقرر بأن الجموع التي صاحبت ستيفن قد هلكت اما على الطريق أو في البحر ، ويضيف مؤرخ مجهول بأن الاطفال كانوا يسيرون صوب البحر (٧٣) .

وإذا كان الاعتراض قد بنى أساسا لرفض فكرة قيام بعض التجار بصرف النظر عن اسمائهم ببيع أطفال المسيحيين للمسلمين ، فإن هناك دليلا جديدا يؤكد قيام بعض القراصنة ببيع بعض أطفال الحملة الألمانية ، من الاطفال الفرنسيين والألمان للمسلمين (٧٤) .

كما أنه يصعب تصديق استسلام الراعي الصغير الذي صمم على مقابلة ملك فرنسا - ولم يكن ذلك بالأمر العادي - ثم عدم استسلامه لانصراف الملك عن دعوته وعدم تأييده لها ، وخروجه من لقاء فيليب وهو أكثر حمية

= قد ذكرت بأن الاطفال قد تجمعوا من اقاليم ألمانيا وفرنسا ، لكن دون الإشارة الي توابعهم في ميناء مرسيليا .

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172; *Chronicon Ebersheimense* (MGH, SS., XXIII), p. 450; *Reineri annales* (MGH, SS., XVI), P. 665; *Annales Colonienses maximi* (MGH, SS., XVII), p. 826.

wilhelmi chronica Andrensis (MGH, SS., XXIV), p. 754. (٧١)

Ex annalibus S. Medardi Suessionensibus (MGH, SS., XXVI), p. 521. (٧٢)

Munro, *The Children's Crusade*, p. 519; Alphandery, *Les Croisade d'enfants*, p. 262.

..., et illic aliqui navibus recepti et a piratis divecti, Sar- (٧٤)
Venduntur.

Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p. 450.

وحماسة يدعو الى مشروعه الذي استجاب له حوالى ثلاثين الف من الأطفال فهل بعد هذا النجاح يمكن قبول فكرة أن مشروع ستيفن قد انتهى ببعض الزيارات الطوافيه لبعض المدن والقرى ؟

وطالما أن ستيفن ورفاقه قد ساروا في مواكب متعددة يطوفون فرنسا ، فربما وصلوا في طوافهم الى وادى الراين حيث انضم اليهم بعض الألمان ثم انحدروا منه صوب البحر الى ميناء مرسيليا . وهنا نجد المؤرخة دانا مونرو - أول المشككين في الرواية - تعود فتذكر في تعليقتها على ذلك بأن وصول الأطفال الى ميناء مرسيليا يثير من جديد قصة الأطفال الفرنسيين (٧٥) .

وهكذا فان وصول الأطفال الفرنسيين الى مرسيليا حقيقة مؤكدة ، وربما كانت المبالغة فقط في قصة القسيس العائد ، أو بعض التفاصيل التي تتعلق بمكيدة التاجرين . ولكن كما سبق القول فان ذلك لا يدفعنا الى رفض الرواية كلية .

على أية حال لم تكن صليبية الأطفال الفرنسية هي الحركة الوحيدة التي خرجت من أوروبا في صيف عام ١٢١٢ م ، اذ يبدو أن أبناء دعوة ستيفن للحرب الصليبية قد وصلت المانيا خلال بضعة أسابيع من رحيله من سان دينيه ، فأبى طفل المانى اسمه نيقولا Nicholas من قرية بالقرب من كلوني أن يتفوق عليه ستيفن الفرنسى ، فقام بالتبشير لدعوة مماثلة وادعى أنه ينزل عليه الوحي مثل الأنبياء ، وأنه كان يتلقى الرسالة من ملك من السماء . وأعلن مثلما فعل ستيفن أن بإمكان الأطفال أن يتفوقوا على الكبار ، وأن البحر سوف بنفج أمامهم فيهيء لهم طريقا يجتازونه الى الأرض المقدسة ، وبينما كان لزاما على الأطفال الفرنسيين أن يستخدموا القوة لفتح الأرض المقدسة ، كان على الأطفال الألمان أن يحققوا غرضهم بتحويل الكفار الى المسيحية (٧٦) . وسرعان ما تجمع حوله حشد ضخم من الأطفال تدفقوا

Munro, The children's Crusade, p. 522. (٧٥)

Runciman, A History of the crusades, III, p. 141. (٧٦)

عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩٥٥ - ٩٥٦ .

عليه من القرى والمدن الألمانية في جماعات تتكون من العشرينات والخمسينات
والثلاث (٧٧) مصممين وعازمين على انبثات نجاحهم فيما فشل فيه الكبار (٨٨)،
وذلك بالاستنبلاء على الأرض المقدسة (٧٩) . الم يقل الرب « قاسوا أيها
الأطفال الصغار حتى نأتوا الي ، لأن في هذا مملكة السماء » .

اشتهر نيقولا بما اشتهر به بطرس الناسك من الفصاحة الطبيعية والقدرة
على العثور على تلاميذ فصحاء للمضى في دعوته والتبشير بها في أنحاء بلاد
الراين . ولم تمض بضعة أسابيع حتى تجمع حشد هائل من الأطفال تجهز
للمضى الى ايطاليا ومنها الى ساحل البحر المتوسط والتفوا حول نيقولا القائد
المهم الذي سيقودهم كعبريين جدد الى الأرض الموعودة (٨٠) ليقيم في اورشليم

Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (٧٧)
MGH, SS., XXIV), p. 17.

Reineri annales (MGH, SS., XVI), 665; Chronicae Re- (٧٨)
giae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, SS.,
XXIV), p. 17-18.

Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355; Gesta (٧٩)
Treverorum continuata (MGH, SS., XXIV), pp.
398-399;

Annales Colonienses miximi (MGH, SS., XVIII), p. 826;

Annales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426.

... Se transfretare debere, et Terram Sanctam, Sicut (٨٠)
filii Israel ex Egipto exeuntes terram illiam obti-
nuerunt, ita et ipsi eam sorte possiderent.

Richeri Gesta Sesta Senoniensis Ecclesiae (MGH, SS.,
XXV), p. 301.

او كما يقول مؤرخ آخر أنهم اعلنوا أنهم سيتمكنون من السير فوق
الأمواج دون أن تبطل أقدامهم .

Asserebat se posse sicco vestigio maris undas trans-
vadare..

Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p. 450.

مملكة سلام أبدية (٨١) . ومعظم المصادر التي تحدثت عن قافلة الأطفال الألمانية ، تتحدث عنها كحملة صليبية ، أو كحجاج الى الأرض المقدسة ، ووصفوا الاطفال بأنهم كانوا يحملون الصليبان والكتب المقدسة وكان نيقيولا نفسه يحمل صليبا على شكل حرف Tau اليونانية (٨٢) . وكان الأطفال الأحدث ، والأكثر فقرا هم الغالبية السائدة في هذا الجيش ، ويبدو أنهم كانوا أساسا من الرعاة والمزارعين لأنه طبقا لما سجله المؤرخون من اتصالات أنهم قد تركوا محاربتهم وعرباتهم وقطعان ماتعيتهم ، وسارعوا للانضمام الى المواكب السائرة عبر الاقليم (٨٣) . ومن بين العشرين ألفا الذين انضموا الى نيقيولا كان يوجد بعض النساء والبنات والتعبان والخدم من الجنسين وأبناء بعض النبلاء، كما انضم اليهم عدد من ذوى السمعة السيئة من المنتسدين والعاشرات (٨٤) ، بل ان أحد المؤرخين يذكر أنه كان بينهم بعض الأطفال الرضع (٨٥) . كذلك اندس بينهم بعض اللصوص وقاموا بسرقة النقود التي تبرع بها المؤمنون والأتقياء للأطفال . وقد تم تنفيذ عقوبة الاعدام شنقنا في أحد هؤلاء اللصوص في مدينة كلوني (٨٦) .

تركت حملة الأطفال الألمانية منطقة الراين في صيف ١٢١٢م . وكان

-
- Annales Colonienses maximi (MGH, SS., XVII), p. 826. (٨١)
 Gestorum Treverorum Continuatio IV (XXIV), p. 399. (٨٢)
 Annales Marbacenses (MGH, SS. XVII), p. 172; Reineri
 annales (MGH, SS., XVI), p. 665. (٨٣)
 Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172; An- (٨٤)
 nales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426;
 Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XVII),
 p. 826; Reineri Annales (MGH, SS., XVI), p. 665;
 Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p.
 450; Ogerii Panis Annales (MGH, SS., XVIII),
 p. 131.
 Annales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426. (٨٥)
 Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XII), pp. 826- (٨٦)
 827.

الناس ينظرون بعين الرضى والعطف على هؤلاء الحجاج الصغار ، وينتجعون بتقديم الطعام والنقود لهم ، ولم تجد هذه الحملة الا مقاومة بسيطة من جانب الآباء (٨٧) وبعض رجال الدين (٨٨) ، غير أن هذا لم يتسبب في تأخيرهم أو تثبيط همهم . وكان الطريق الرئيسي للأطفال من وادى الراين مخترقين غرب سويسرا وممرات الألب الى ايطاليا (٨٩) . وقد أشير الى مرور بعض قوافل الأطفال بمدينة سبير Spires (٩٠) في ٢٥ يوليو ، ووصلوا الى بيكانزا (٩١) في ٢٠ أو ٢١ أغسطس ، وفي يوم السبت ٢٥ أغسطس ظهروا أمام أسوار مدينة جنوة (٩٢) . كانت رحلة شاقة للأطفال تكبدوا فيها كثيرا من الضحايا أثناء اجتيازهم الغابات والمناطق الجبلية ، بسبب ما عانوه من التعب والمصاعب وشدة حرارة الطقس ، وندرة المياه وقلة الطعام ، فمات عدد كبير من الأطفال على الطريق ، وانسحب عدد آخر ، عادوا الى منازلهم اما بسبب عدم قدرتهم على تحمل مشاق الطريق

(٨٧) يقول مؤرخ كلونى أن الأطفال رفضوا الاستجابة لدعوة الآباء والأقارب والأصدقاء بالعودة .

Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, SS., XXVI), p. 17.

ومؤرخ آخر يقول : حاول كثير من الآباء منع الأطفال ولكن دون جدوى .
Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355.

ومؤرخ ثالث يقرر أن الأطفال لم يستجيبوا لتوسلات الآباء والأمهات .
Reineri Annales (MGH, SS., XVI), p. 665.

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172. (٨٨)

Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XVII), p. 827. (٨٩)

Annales Spirenses (MGH, SS., XVII), p. 84. (٩٠)

Annales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426; (٩١)

Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, SS., XXIV), p. 18.

Ogerii Panis Annales (MGH, SS., XVIII), p. 131; Munro, (٩٢)

The Children's Crusade, p. 522; Zacour, *The Children's Crusade*, p. 334.

أو بعد أن سلبهم اللصوص اللومبارديون أمتعتهم وتقودهم (٩٣) . وهكذا لم يتبق مع نيقولا عند دخوله مدينة جنوة الأسبعة آلاف تقريبا (٩٤) . أبدت السلطات الجنوبية أول الأمر استعدادها للترحيب بالحجاج الصغار ، غير أنهم بعد مراجعة أنفسهم ارتابوا في أن تكون تلك مكيدة المانية للاستيلاء على المدينة ، ولهذا فلم يسمحوا للحملة إلا بقضاء ليلة واحدة فقط . غير أن كل من أراد الاستقرار بصفة دائمة في جنوة سمح له بذلك (٩٥) . واذ توقع الأطفال أن البحر سوف ينشق أمامهم في صبيحة اليوم التالي ، وافق الأطفال على شروط الجنوبية . وفي الصباح لم ينشق البحر ولم يستجب لصلواتهم مثلما جرى للأطفال الفرنسيين في مرسيليا . واذ اكتشفوا هذه الحقيقة بادر عدد كبير من الأطفال إلى قبول عرض الجنوبيين (٩٦) ، فأضحوا مواطنين جنوبيين بعد أن تخلوا عن مسرورهم ، وزعمت أسرات جنوبية عديدة فيما بعد أنها انحدرت من هذه الهجرة الأجنبية (٩٧) .

ويبدو أن عدم تحقق النبوءة التي بشر بها نيقولا جعل الأطفال ينقسمون إلى جماعات متفرقة أخذت تبحث لنفسها عن وسيلة تنقلهم عبر البحر إلى الأرض المقدسة ، أما الذين انتقلوا إلى ميناء مرسيليا (٩٨) ، أو مدينة فينيام Vienneiam القريبة من الشاطئ فقد تم شحنهم في بعض السفن ، وحملهم القراصنة وباعوهم في أسواق الرقيق الشرقية (٩٩) . كما اتجهت مجموعة أخرى إلى بيزا واستقلوا سفينتين للشحن ، ولم يسمع شيء عن أخبارهم

-
- Annales Colonienses Maximi (MGH, SS., XVII), p. 827. (٩٣)
 Ogerii Panis Annales (MGH, SS., XVIII), p. 131. (٩٤)
 Runciman, A History of the Crusades, III, p. 142; Rohricht, Kinderkreuzzug, p. 7. (٩٥)
 Runciman, A History of the Crusades, III, p. 142. (٩٦)
 Alphandery, Les Croisades d'Enfants, p. 266; Runciman, A History of the Crusades, III, p. 142. (٩٧)
 Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, SS., XXIV), p. 18. (٩٨)
 Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXIII), p. 450. (٩٩)

بعد ذلك (١٠٠) . أما المجموعة الثالثة التي وصلت برنديزي ، فقد اكتشف
 رئيس أساقفة المدينة المكائد التي تدبر ضد الأطفال واستطاع ان يقنعهم
 بالعدول عن القيام برحلتهم (١٠١) ، وربما يكون قد منعهم من ركوب السفن .
 بيد أن الغالبية العظمى من الأطفال بعد أن استبد بهم اليأس قد توجهوا بقيادة
 نيفولا الى روما ، وهناك تم اعفاء الأطفال الصغار والرجال المسنين من الوفاء
 بنذرهم ولكن سمح لهم فقط بتأجيل الوفاء به الى وقت لاحق (١٠٢) . وقد
 بذل البابا انوسنت الثالث قصارى جهده لمنع الأطفال من الابحار خارج ايطاليا
 فأرسل اثنين من الكرادلة الى تريفيز Trevisه لمنع الأطفال من ركوب
 البحر (١٠٣) ، وضرورة العودة الى منازلهم .

وهكذا لم يبق امام الصليبيين الصغار سوى العودة من حيث أتوا .
 فساروا على الطريق عائدين فرادى أو في مجموعات صغيرة صامتين محزونين ،

Richeri Gesta Senoniensis Ecclesiae (MGH, SS., XXV), (١٠٠)
 p. 399.

(١٠١)

يعلق أحد المؤرخين على ما أصاب الأطفال بقوله أنه قد بيع الكثير منهم
 كرتيق في أماكن متعددة .

Continuatio Admuntensis (MGH, SS., IX), p. 592.

Chronicae Regiae Coloniensis Continuatio Prima (MGH, (١٠٢)
 SS., XXIV), p. 18; Annales Marbacenses (MGH,
 SS., XVII), p. 172.

Papa Innocentii, missis cardinalibus, apud Tarvisium (١٠٣)
 Ytaliae repellitur.

Annales Sancti Rudberti Salisburgenses (MGH, SS.,
 IX), p. 780.

عن تجوال الأطفال بين المدن والموانئ الإيطالية . انظر .

Munro, The Children's Crusade, pp. 522-523; Zacour,
 The children's Crusade, p. 334; Rohricht, Der Kin-der
 kreuzzug, p. 7; Alphantery, Les Croisade d'en-
 fants, p. 265.

يجرون أذبال الهزيمة والعار . أما الأهالي الذين زودهم باحتياجاتهم أثناء مسيرتهم المظفرة فقد صموا آذانهم عن توسلاتهم وأغلقوا الأبواب في وجوههم في عودتهم ، بل ان هؤلاء الأطفال صاروا هدفا لسخرية الناس وأضحوكة الجميع ، وبدأوا في عبور جبال الألب ، في شهر أكتوبر أو نوفمبر وهم متعبون ممزقو الثياب ، حفاة الأقدام ، مع قلة ما يتحصلون عليه من الطعام ، فقتل البرد منهم مئات عديدة . وقد استغل القوادون عودة الفتيات الصغيرات فغروا بهن وأوقعوهن في شرك الرذيلة (١٠٤) . ومن عجيب الأمر أن نرى تلك الفتيات اللاتي خرجن وقد امتلأن حماسا دينية منقطعة النظير ، نراهن وقد سقطن هذا السقوط الفاجع . وبدلا من أداء الحج في الأرض المقدسة ، صرن بحملن أطفال العار على صدورهن (١٠٥) .

وصل البعض الى ببيوتهم بالكاد ، وتشنت عدد منهم في كل مناطق ايطاليا حيث اضطروا للعمل لاعالة أنفسهم ، أما بعض أولاد الأشراف والنبلاء فقد استقبلتهم العائلات الايطالية واستقروا معهم وتزوجوا منهم .

أما مصير الطفل نيقولا نفسه فيقال أنه قد أوفى نخره وأبحر الى الأرض المقدسة وأنه شارك في الحملة الصليبية الخامسة وانمترك في القتال أثناء حصار دمياط ، وأخيرا عاد الى وطنه ، وآخرون يقررون أنه مات في ايطاليا .

Chronicon Ebersheimense (MGH, SS., XXVIII), p. 450; (١٠٤)

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172;

Gestorum Trevorum Continuatio IV (MGH, SS.,

XXIV), p. 339; Annales Colonienses Maximi (MGH,

SS., XVII), p. 827; Munro, The Childrens Crusade,

p. 523;

Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 7; Zacour, The Children's Crusade, p. 335.

Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 7.

(١٠٥)

Continuatio Admuntensis (MGH, SS., IX), p. 592.

(١٠٦)

أما أهالي كلوني فقد صدمتهم الأحداث واتهموا والد نيقولا بأنه هو
الذي شجعه على هذا المشروع ، وحكموا عليه بالنشوق (١٠٧) .

وهناك سؤال قد يتبادر الى الأذهان ، ما هو موقف آباء الأطفال
من هذه الحملة ؟ وكيف وافقوا على اشتراك أبنائهم في هذا العمل الجنوني ؟

ويجب أحد المؤرخين على ذلك بقوله يجب الا يخفى عنا ان هؤلاء
لم يتركوا دائماً منازلهم لدموع آبائهم ، أو أنهم تركوا الأمن والدفء حول
مُدفاة الأسرة ، ولكن الحالة السائدة بين فلاحي أوروبا في ذلك الوقت جعلت
الآباء يستريحون من التخلص من أعباء بعض الأفواه غير النافعة ، فالحياة
في شمال أوروبا كانت بالغة الصعوبة ويؤكد كانتور الحالة السيئة التي كان
يعانى منها الغرب الأوربي في بداية القرن الثالث عشر قائلاً أنه يجب الا
يعمينا التحسن النسبي في أحوال الفلاحين الاقتصادية وخصوصاً في فرنسا
وألمانيا ، حيث كان القن في تلك البلاد في طريقه لأن يصبح مزارعاً صغيراً
مستقلاً . فان المزارع ظل عبر سنوات طوال يخلق على كوخه المتداعي شبح
الموت جوعاً (١٠٨) .

ان العامل الاقتصادي اذن كان من أهم أسباب خروج حملة الأطفال ،
وان خروجهم الى الأرض الموعودة كان احياء جديداً لحملة العامة (١٠٩) خرجت

Gestorum Treavorum Continuatio IV (MGH, SS., (١٠٧)
XXIV), p. 339.

(١٠٨) كانتور ، التاريخ الوسيط ج ٢ ، ص ٧٣٧ - ٧٣٨
Raets, La croisade des enfants, p. 32.

(١٠٩) يجب الاحتياط عند وصف حملة الأطفال بأنها احدى حملات العامة
ولكن من حيث السلوك والهدف فان هناك فروقاً واختلافات جوهرية بين
حملات العامة التي خرجت وكلها امل في الاستيلاء على ثروات المسلمين ،
والتي كانت تتصف بالعنف والقسوة والدناءة حتى مع اخوانهم المسيحيين ،
وبين حملة الأطفال المسألة التي كان يعتقد أفرادها في ان لرب سيحقق
معجزاته من خلالهم معشر الأبرياء .

من أوروبا للهروب من الفقر والبؤس وفي نفس الوقت تمرد على النظم الاجتماعية في الغرب الأوربي ، لأنه اذا كان الرب قد اختار الفقراء لنخليص القدس فهذا يعنى أنهم الفئة المقربة من الرب وأن فقرهم لم يعد مصدرا للخجل (١١٠)، انهم لهذا السبب وبالرغم من أن الفقر كان حملا ثقيلًا الا أنه سيتحول بهم الى رسالة عليا وذلك بتحرير القدس المدينة التي مات فيها المسيح وبعث والتي سيعود اليها في أواخر الزمان ليحكم على الأحياء والأموات . ان تحرير المدينة المقدسة بالنسبة لهم هو بداية الزمن الأخير حيث تتحقق وعود الرب وينتهي كل اليأس والعذاب الذي يبسحق الانسانية . ان الرب سيقوم في القدس الالهية مع شعبه وسيمسح كل آلامهم ، ولن يكون هناك موت ولا ألم ولا دموع (١١١) . لقد وعد الرب شعبه ان كل الذين عانوا من الفقر مع المسيح سيكافأون بمستقبل زاهر .

وإذا كان الحلم بالأرض التي تفيض لبنا وعسلا قد أغرى أسلافهم في سنة ١٠٩٦م ، فقد مارس هذا الحلم سحره على أبنائهم . وكان هناك الكثير من الأباء الذين لا يملكون سوى التمنيات الطيبة لأبنائهم ، فقد يجدون الخلاص الذي لن يتوفر لهم في حجرة مهملّة في المدينة أو كوخ ريفي بسيط .

وفي دراسة عما اذا كانت كلمة Pueri اللاتينية التي ذكرت في المصادر التي تناولت حملة الأطفال والتي تترجم بصفة عامة بأطفال أو شبان صغار ، تعنى هذا المعنى الذي يعبر عن مرحلة من العمر أو ما اذا كانت تعنى فئة اجتماعية معينة يميل البعض الى اعتبارها ترمز الى طبقة اجتماعية ، وأنها ترمز الى أى شخص يكون في وضع من التبعية أو الخدمة بل انها يقصد بها الطبقة الكادحة والريفيين المهاجرين وكذلك الأبناء المحرومين من الميراث واضطروا الى العمل لكسب قوتهم (١١٢) . ولكن هذا الرأي مردود عليه بأن معظم من أرخوا لهذه الحملة قد حددوا سن الأطفال المشتركين فيها وذلك عندما

-
- Raets, la Croisade des enfants, p. 37. (١١٠)
 Raets, La Croisade des enfants, pp. 33-34. (١١١)
 Raets, La Croisade des enfants, p. 32. (١١٢)

يذكرون انه اشترك معهم بعض البالغين ، وهذا يعنى ان اكثرهم كان دون البلوغ (١١٣) .

حقيقة لقد انتهت صليبية الأطفال نهاية مؤلة ، تثير العطف والشفقة ولاشك أنها تركت آثارا واضحة على معاصريها وأبلغ دليل على ذلك القول المنسوب للبابا أنوسنت الثالث عندما قال ان هؤلاء الأطفال وضعونا في موقف مخجل ، لأنه بينما نحن مستغرقين في النوم ، فقد اندفعوا لتحرير الأرض المقدسة (١١٤) . غير ان البابا أنوسنت الثالث لم يكن من البساطة بحيث يترك هذا الحدث يمر دون الاستفادة منه ، لأنه في اعقاب ذلك مباشرة في عام ١٢١٣م أرسل مبشرية للدعوة لحملة صليبية جديدة ضد المسلمين لاستعادة بيت المقدس . وظل مندوبه روبرت كورسون ، طوال سنة ١٢١٣م يطونب بأرجاء فرنسا ، والغريب في الأمر ، وما يؤكد ما عرضناه في تمهيد الظروف التي أنتجت حملة الأطفال الصليبية ، ان جموعا بالغة الضخامة من الشيوخ والأطفال والبرصى والمقعدين والنساء ذوات السمعة السيئة احتشدوا سويا

(١١٣) يذكر مؤرخ كلونى أنهم كانوا آلافا كثيرة من الأطفال ما بين سن السادسة وسن الرشد . .

Multa milia puerorum a 6 annis et supra usque ad virilem etatem...

Chronicae Regiae Coloniensis continuatio prima, (MGH SS., XXIV), p. 7.

بينما يذكر مؤرخ آخر ان المشتركين في الحملة كانوا من الأطفال وبعض الحمقى من البالغين .

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172.

وتذكر دانا مونرو ان ثمانية من المصادر قد وصفت المشتركين في الحملة بانهم كانوا من الرجال والنساء والبنات والصبيان .

Munro, The Children's Crusade, p. 521.

Papa auditis hiis rumoribus, ingemiscens ait : Hii pueri nobis in properant, quod ad recuperationem terrae Sanctae eis currentibus nas dormimus.

Annales Stadenses (MGH, SS., XVI), p. 355.

ليشسوا الحرب المقدسة (١١٥) ، ثم بدأت تظهر الرؤى المقدسة ، ففي سنة ١٢١٦م اثناء جذوة الحماس في التبشير والاعداد للحملة الصليبية ، بدأ يتردد ما صدر عن الشعب من رؤيات عن الصليبان السابعة في الهواء ، والتي ذاعت بتفاصيلها ، كما أن البابا انوسنت الثالث نفسه كان معتقدا بأن نبوءة دانيال على وشك أن تتحقق ، بعد أن لاحظ أنه كاد يمضي على رؤية الوحش ، السنوات المحددة بها ، وعددها ستمائة وست وستون سنة ، كما أنه انقضى فعلا على على مولد محمد - عليه السلام - ستة قرون ونصف قرن (١١٦) .

كان هناك فريق من الناس الذين اظهروا تعاطفا واضحا مع الأطفال واشسفقوا عليهم واعتبروا أن هذه الحركة كانت نتيجة للإلهام السماوي (١١٧) أو رسالة من أحد الملائكة (١١٨) أو الى الرؤى المقدسة (١١٩) . أما الفريق الآخر فقد تصورا أن هذه الحملة لم تكن من فعل الله ولكنها كانت من عمل الشيطان (١٢٠) ، وحينما اجتهدوا في وضع تفسيرات للنهاية المؤلمة التي آل اليها مصير الأطفال ، فانهم يتوصلون فقط الى قصص خرافية - من أمثال ذلك ما يحكى أن عجوز الجبل قائد القنطة والسفاحين ، قد اطلق سراح اثنين من رجال الاكليروس كانوا في سجنه بعد أن أمرهم بأن يجمعوا له كل أطفال فرنسا . وقد استطاع هذان الرجلان عن طريق الأعمال السحرية أن يجمعا الأطفال البؤساء الى هذه الحملة الصليبية الخائطة (١٢١) . وثمة

Runciman, A History of the crusades, III, p. 144; Ma- (١١٥)
yar, The crusades, p. 206.

Runciman, A History of the Crusades, III, p. 145. (١١٦)

Annales Marbacenses (MGH, SS., XVII), p. 172. (١١٧)

Gesta Treverorum Continuata (MGH, SS., XXIV),
p. 398.

Annales Placentini Guelfi (MGH, SS., XVIII), p. 426. (١١٨)

Munro, The Children's Crusade, p. 517. (١١٩)

Mayer, The Crusades, p. 205. (١٢٠)

Rohricht, Der Kinderkreuzzug, p. 8; Alphandery, Les (١٢١)
Croisade d'enfants, p.269.

راى يقول : لقد كان ستيفن الفرنسى طفلا لم يشب عن الطوق ولكن حياته كانت تنسم بالخسة والدناءة والرذيلة ، وأن الشيطان قد صمم على اهلاك رفاقه (١٢٢) .

أما أكثر التعليقات اشارة للدهشة تلك التى اراد بها توماس فولر الذى كتب بعد أحداث حملة الأطفال بأربعة قرون يحاول أن يبين أن الشيطان هو الذى كان وراء خروج هذه الحملة لأنه أى الشيطان كان يريد أن ينعش نفسه بدماء الأطفال ليريح معدته الضعيفة المتخمة بقتل الرجال (١٢٣) .

هكذا تحولت صليبية الأطفال من تعبير عن واقع اجتماعى ودينى وسياسى للمغرب المسيحى فى العصور الوسطى ، الى مجموعة من الأساطير تعبر بدورها عن الجو الفكرى والنفسى السائد .

وقبل أن ننهى حديثنا عن هذه الحملة الصليبية يجب الاشارة الى أنه ليست هذه اول مرة يظهر فيها الأطفال فى تاريخ الحروب الصليبية ، فقد دخلوا تاريخ هذه الحركة مع آبائهم ، لأن النداء الذى صدر فى أواخر عام ١٠٩٥م للدعوة للحرب المقدسة ، لم يحدد السن أو الجنس أو الطبقة الاجتماعية وقد اصطحب الفقراء وهم راحلون الى الأرض المقدسة عائلاتهم ، الكبير منهم والصغير على عربات متواضعة . وتردد كتب تاريخ الحروب الصليبية العبارة الشهيرة التى قالها جيوبرت من نوجنت Guibert of Nogent « كان الأطفال يتساءلون كلما رأوا مدينة جميلة فى الطريق : هل هذه هى اورشليم » . حقيقة الأمر لم يكن لغالبيتهم سوى دور سلبي ، فقد ماتت معظم الأسر الفقيرة من الجوع أثناء الطريق ، وبسبب العطش عبر صحارى آسيا الصغرى . وقد هلك أيضا اطفال آخرون أثناء الحملات الصليبية الثانية والثالثة .

Zacour, The children's Crusade, p. 340. (١٢٢)

Thomas Fuller, The History of the Holy Warre Cambridge, 1940), p. 152. (١٢٣)

Alphandery, Les Croisade d'enfants, p. 266. (١٢٤)

ومع ذلك فقد حدث في مرات عديدة أن حمل الأطفال أسلحة بدائية وكونوا مجموعات هاجموا بها أطفال المسلمين . وقد وصف Guibert of Nogent معارك الأطفال تحت أسوار أنطاكية (١٢٥) . كذلك يصف ابن شداه وأبو شامة ، القتال الذي دار بين طفلين من أطفال المسلمين وطفلين من أطفال الصليبيين أمام عكا (١٢٦) .

كما أنه من الأخبار المثيرة حقا عن تاريخ الحركة الصليبية أن البايان أوربان الثاني قد أمر في سنة ١٠٩٩م بوضع اسم Nicolas le Peregrim في عداد القديسين . وكان نقولا هذا أحد دعاة الأطفال القادمين من بلاد اليونان سنة ١٠٩٤م . وقد جاب نقولا كل المزارات الدينية في إيطاليا حاملا معه صليبا على هيئة Tau اليونانية . وتبعته مجموعات من الأطفال كانوا يرنلون معه التسيبجات المقدسة (١٢٧) .

وإذا كانت حملة الأطفال قد برهنت على مدى ما يمكن للهوس الدبني والتعصب والجهل أن يفعله في مجتمع ما ، فإننا لابد أن نقرر أن هذا التيار الديني العاطفي لدى شعوب الغرب الأوربي ، كان هو المطية التي امتطتها الكنسية والعلمانية في العصور الوسطى لتحقيق مآربها السياسية . وبينما فهم الناس في أوربا آنذاك مثل هذه الأمور على أنها وسيلة للخلاص المادي والروحي ، نظرت الكنيسة الى الفكرة الصليبية باعتبارها إحدى أدوات السياسة البابوية ، في الداخل وفي الخارج على حد سواء . ولم تختف هذه الومضات المنهوسة في التاريخ الأوربي الوسيط ، فقد تجلت في سماء المجتمع الأوربي عدة مرات منها ما حدث سنة ١٢٣٧ ، ١٢٥١م ، ١٢٨٤م (١٢٨) .
اعلانا عن روح التدين الهستيري .

Alphandery, Les Croisade d'enfants, p. 267. (١٢٥)

(١٢٦) بهاء الدين ابن شداه ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ، ١٩٦٤) ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ابو شامة ، الروضتين في اخبار الدولتين ، ح ٢ (القاهرة ، ١٢٨٨ هـ) ص ١٤٣ .

Alphandery, Les Croisade d'enfants, pp. 267-268. (١٢٧)

Zacour, The Children's Crusade, pp. 340-341; Rohricht, (١٢٨)

Derkinderkreuzzug, p. 8.

الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية

للككتور قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب الأزقازيق

الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية

الظاهرة التاريخية لا تنتب من فراغ ولا تظهر فجأة من طيات المجهول ، وإنما هي نتاج تفاعل طويل ومستمر ، عبر الزمان ، لمجموعة من العوامل والعلل والأسباب والكييفيات . فإذا ماتم التفاعل ، وباتت الظروف التاريخية مواتية ، تجلت الظاهرة على مسرح التاريخ . وهذا هو ما يجعل مشكلة السببية في التاريخ من أعقد المشكلات التي تواجه المؤرخين . فليس بمقدور أى من المؤرخين أن يرصد كافة الأسباب والدوافع وراء ظاهرة تاريخية ما . ولكن كل مؤرخ يحاول أن يتقصى الأسباب التي تتبدى واضحة له . وهنا يكون محكوما بخلفيته الثقافية وموقفه الفكرى . ولعل هذا يفسر لنا السبب في اختلاف مدارس التفسير التاريخى في عصرنا الحديث . ولأن المؤرخ اليوم مطالب بأن يجيب على السؤال الذى يبدأ بكلمة « لماذا » ، بدلا من أن يحكى لنا « ماذا » حدث ، فانه سوف يسعى بالضرورة وراء الدوافع والأسباب .

والحركة الصليبية مثال جيد للدلالة على صدق هذه المقولة . إذ أوضح المؤرخون اللاتين المعاصرون للحركة الصليبية منذ بدايتها أن هذه الحركة كانت نتاجا لمجموعة عوامل معقدة للغاية . كما أن هذه الحركة نفسها كانت ظاهرة بالغة التعقيد . ومن ثم فإن أية محاولة لشرحها أو تفسيرها في ضوء عامل واحد : مثل الحماسة الدينية ، أو جوع زعماء الصليبيين الى الأرض ، أو الأحوال الاجتماعية والاقتصادية القاهرة التي عانى منها الفلاحون ، أو رغبة التجار في الحصول على الامتيازات التجارية ، أو مآرب البابوية السياسية . . أو غيرها - هذه المحاولة سيكون مآلها الفشل على الرغم من أن كل دافع من هذه الدوافع كان واضحا في الحركة الصليبية بالفعل . ومن ناحية أخرى ، فليس بمقدورنا أن نميز بخط فاصل بين أهداف الزعماء وأهداف العامة الذين أسمتهم المصادر اللاتينية « الحجاج الفقراء » ، لأن كلا من الفريقين قد أظهر من دلائل التدين ومن مظاهر الطمع الدنيوى ما يجعلنا نتخبط في حيرة اذا وضعنا أنفسنا رهن التصور الساذج بأن تصرفات كل فريق من

المشاركين في الحملة الصليبية الأولى كانت تسبب على نهج واحد ، وتمييز بالانساق والانسجام والتوافق . فقد كان الصليبيون هم أبناء الغرب اللاتيني الذين تحمسوا لحمل شارة الصليب بعد خطبة اربان الثاني في كليرمون سنة ١٠٩٥ (١) كما كانوا هم الذين عاثوا فسادا في الطريق صوب القدس ، ونهبوا واحرقوا المدن والقرى المسيحية في المجر والبلقان . وكانوا هم الذين وصمتهم اناكومينا بالجشع وحب المال (٢) . كذلك كانوا هم الذين بدأوا في نهب وحرق مدينة القسطنطينية بالشكل الذي اغضب الامبراطور البيزنطي فأمرهم بعبور المضيق الى آسيا الصغرى (٣) . وكان أولئك الصليبيون هم الذين ألهبتم الحماسة الدينية بعد أن أضناهم الحصار في أنطاكية بسبب ما أشيع بينهم عن العثور على الحربة التي طعن بها المسيح عليه السلام ، كما كانوا هم أصحاب السمعة السيئة في عدم الوفاء بعهود الأمان التي يقطعونها ، وهم الذين أشاعوا عن أنفسهم قصص الرعب وذبح البشر وأكلهم بعد تسليمهم على النيران (٤) . كان الصليبيون هم الذين ارتكبوا أبشع المذابح

Fulcher of Chartres, A history of the expedition to (١)
Jerusalem, 1095-1127, (Edited and translated by
Harold S. Fink, Knoxville 1969), p. 68; Gesta Fran-
corum et Aliorum Hierosolimitanorum, (ed. and
translated by : Rosalind Hill — U.S.A. (1962),
p. 2.

(٢) تقول أناكومينا : « . . . الجنس اللاتيني في كل الأوقات موصوم
بجشع غريب ونهم للثروة والمال . . . » ، أنظر :

The Alexiad of Anna Comnena, (transl. from Greek
by E.R.A. Sewter. Penguin 1979), p. 308.

Gesta, pp. 3-4. (٣)

(٤) ذكر وليم الصوري أنه أثناء حوادث حصار انطاكية أمر بروهيموند
النورماني بختليق بعض الأسرى المسلمين فوق النار ، وأمر رجاله بأن يشيعوا
أنهم سوف يأكلون اجساد من يقبض عليه من الجواسيس . أنظر :
William of Tyre, vol, I, pp. 222-223.

بعد افتتاح مدينة بيت المقدس ، ثم ذهبوا لأداء صلاة الشكر في الصريح المقدس بوجوه تنطق ارهاقا وأيادي تقطر دما .

هذا التناقض في سلوكيات الصليبيين يوازيه تناقض آخر في انتماءاتهم الاجتماعية وافكارهم ودوافعهم . فقد كانوا خليطا غريبا من المغامرين والمتدينين ، من الحجاج واللصوص ، من الجنود وشذاذ الآفاق ، من النبلاء والفلاحين ، من المثاليين والهاربين من العدالة ، من الباحثين عن الخلاص . . . كانوا رجالا ونساء واطفالا وشيوخا من شتى الطبقات والفئات الاجتماعية تحركهم مجموعة متناقضة ومتداخلة من الأهداف والدوافع .

وفي الحركة الصليبية ، كما في الحياة في أوربا العصور الوسطى عموما ، يواجه المؤرخ خليطا مذهلا من التقوى والوحشية قد تحول تناقضاتها الصارخة دون أية محاولة لفهمها . وهي مثل أية ظاهرة تاريخية أخرى ، عبارة عن مجموعة من الأفعال الجزئية لآلاف الأفراد . وإذا كان هناك هدف عام تتحرك هذه الجموع باتجاهه ، فإن عمومية الهدف لاتمنع من أن تكون لدى كل طبقة ودوافعها الخاصة ، بل وأن تكون لكل فرد أهدافه الشخصية . ومن ثم فإن أية محاولة لقولبة الدوافع في الظاهرة التاريخية داخل اطار فكرة مسبقة سيكون مآلها الفشل والاختراق ، فالسببية ، كما ذكرنا ، من أهم وأعقد مشكلات البحث التاريخي . ذلك أن طبيعة الظاهرة التاريخية تجعل الزمن عنصرا أساسيا في تكوينها ، وهو ما يعنى تداخل الماضى في الحاضر بشكل يصعب تحديد مدام من ناحية ، وتغلغل أسباب ودوافع وعطل هذه الظاهرة التاريخية في أعماق الزمن من ناحية أخرى . كذلك فإن الظاهرة التاريخية لاتظهر بين عشية وضحاها ، ويترتب على ذلك ما سبق أن قررناه من استحالة احصاء الدوافع والأسباب وراء الظاهرة التاريخية بشكل جامع شامل .

وفيما يتعلق بالحركة الصليبية تبدو مشكلة السببية أكثر وضوحا بسبب الطبيعة المحيرة المربكة لهذه الظاهرة ، فقد كانت حركة دينية بقدر ما كانت حركة سياسية ، كما كانت حركة اجتماعية اقتصادية مثلما كانت حركة فكرية وعسكرية .

وإذا كنا قد اثسرننا ، الى صعوبة البحث عن الأسباب في الحركة الصليبية وروافدها الأساسية ، فاننا يجب أن نؤشير الى أن الهدف الايديولوجي العام والمعلن شيء ، والأسباب والدوافع الحقيقية شيء آخر . ذلك أنه في فترة الاعداد للحرب عادة ما يكون التركيز على الهدف الايديولوجي بقصد الحصول على التأييد الشعبي العام ، وليست هناك ايديولوجية يمكن أن تجتذب جموع الناس مثل الايديولوجية التي تقوم على أساس ديني ، أي ترتدى مسوح الدين ، على الرغم من أن الدوافع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، بل والأهداف الشخصية ، قد تكون في حقيقتها دوافع أكثر أهمية من الدافع الذي يحظى بمثل هذا الانتشار ، وفي الحركة الصليبية تمت صياغة الايديولوجية على أساس ديني . والحركة الصليبية مثال جيد على الاختلاف بين الهدف الايديولوجي المعلن للحرب ، والدوافع والأسباب الحقيقية التي تعتبر المحرك الفعال لعجلة الحرب لتحويلها الى واقع ملموس . ففي غمّار الحماسة والاثارة والحرارة التي صاحبت خطوات الاعداد للحرب ، منذ خطبة اربان في كليرمون حتى تحرك الجيوش على الطريق الى القدس والأرض المقدسة ، كان التركيز على الدافع الايديولوجي كبيرا (٥) . فقد تحدث اربان

(٥) لدينا عدة روايات عن خطبة اربان في كليرمون ، فقد ذكر فوشيه وى شارتر ان البابا خاطب من تجمعوا لسماعه بقوله : « ايها الأخوة الاعزاء ، لقد جئت أنا اربان الأسقف الأعلى باذن الرب ، وراعى العالم كله ، في هذا الوقت اليكم ياخدتم الرب في هذه المناطق كرسول للعناية الالهية » . وأنه قال « ٠٠٠ الرب ، ولست أنا يهيب بكم كرعية للمسيح ٠٠٠ ان تسارعوا الى استئصال شافة هذا الجنس الشرير من أرضنا » .

Fullcher of Chartres, pp. 62-66.

كذلك ذكر روبير الراهب أنه قال « يا شعب الفرنجة ، يا من جئتم عبر الجبال ، يا من اختارهم الرب واحبهم » .

Robert the Monk, (in Peters, (ed) The First Crusade, pp. 2-5.

انظر أيضا : Guibert of Nogent, (in Riley - Smith (ed.) : The Crusades, pp. 45-49.

في خطبته عن أن الحرب ستكون في سبيل الرب ، ولانقاذ ضريح المسيح .
 وفي الروايات المختلفة التي وصلتنا عن هذه الخطبة ترددت عبارات كثيرة
 من الأناجيل توحى بأن الحرب في سبيل الرب وشعب الرب . كذلك فإن
 لدينا مجموعة من الخطابات التي أرسلها البابا بعد كليرمون الى شتى أنحاء
 الغرب الأوربي تحمل مزيدا من الدعاية للحملة المقترحة باعتبارها حربا
 أمر بها الرب . ولدينا وثيقة عبارة عن خطاب من اربان الثاني الى الصليبيين
 في اقليم الفلاندر ، وهو بتاريخ ديسمبر ١٠٩٥ ، يحمل تعليمات البابا في
 مصطلحات تؤكد على الجانب الديني في الحرب المقترحة (٦) . ولدينا ثلاثة
 خطابات أخرى من سجل اربان الثاني اولها عبارة عن خطاب الى أتباعه
 في بولونا بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٠٩٦ والثاني خطاب موجه الى الرهبان في
 فالومبروسا Vallombrosa تاريخه ٧ أكتوبر ١٠٩٦ ، أما الثالث فتاريخه
 على ما يرجح يرجع الى الفترة ما بين يناير ١٠٩٦ ويوليو ١٠٩٩ ، موجه
 الى بعض الكونتات وفرسانهم حول الحملة المقدسة (٧) . هذه الخطابات
 لم تكن هي الوسيلة الوحيدة للدعاية النهابوية التي تنوعت وسائلها كما
 سنسرى ، ولكن ما يهمنا هنا أن نشير الى أن الحركة الدعائية قد ركزت على
 الجانب الايديولوجي القائم على أسس دينية .

وعندما أخذت عجلة الحرب في الدوران ، بدأت تظهر الأهداف والدوافع
 الحقيقية التي كانت متوارية خلف غبار الضجة الاعلامية للحرب . لقد تمت
 صياغة الايديولوجية الصليبية على أساس ديني واضح ، وبهدف ديني محدد،
 هو تخليص الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين . فهل كان الهدف الديني الذي
 تمت على أساسه هذه الصياغة الايديولوجية هو الدافع الوحيد لهذه السلسلة

(٦) انظر نص هذا الخطاب في :

Peters (ed.), *The First Crusade*, pp. 15-16.

وهناك ترجمة أخرى لنفس الوثيقة باللغة الانجليزية ، انظر :

Riley – Smith (eds.), *The Crusades*, p. 38.

Ibid, pp. 38-40.

(٧)

من الحروب والنحلات التي شغلت رقعة فسيحة من الزمان ؟ وهذا ما سوف
 نحاول دراسته في هذا البحث .

إذا كان بعض المؤرخين يعتبرون أن الحركة الصليبية كانت هي العامل
 الأساسي في التغيير التاريخي في أوروبا منذ القرن الحادي عشر حتى القرن
 الثالث عشر ، فإننا لانستطيع أن نوافق على هذا الرأي . حقيقة أن الحركة
 الصليبية قد لعبت دورا في تطور أوروبا ، ولكن هذا الدور كان محدودا بحيث
 لايمكننا أن نقول انها كانت من العوامل المؤثرة في صياغة الحياة الأوربية
 آنذاك .

وإذا ما تذكرنا أن الحركة الصليبية نفسها كانت نتاجا للتفاعلات التي
 أخذت تجري على أرض الواقع الأوربي منذ القرن الحادي عشر ، وربما قبل
 ذلك بصورة أقل وضوحا ، لأدركنا أن هذه الحركة لم تكن عاملا سببيا قويا
 في تطوير أوروبا . إذ أن تأثير الحركة الصليبية لم يكن كافيا لتغيير اتجاه
 التطور في نظم الحكم والسياسة والاقتصاد والثقافة الأوربية آنذاك ، وهو
 تطور كانت الحركة الصليبية احدى ثماره . بل ان القرن الثالث عشر ،
 شهد بداية اهمال أوروبا للمثال الصليبي بسبب المشكلات الجديدة التي استغرقت
 جهود الأوربيين في مجال الحكم والاقتصاد والفكر . والحركة الصليبية في
 تصورها كانت تعبيراً عن نماذج أساسية من الفكر والسلوك في الغرب الأوربي
 في تلك الآونة فهي تكتشف النقاب عن الناس في أوروبا العصور الوسطى في
 أفضل احوالهم وفي أكثرها سوءا على حد سواء . هذه الحركة كانت بمثابة
 مسرح كبير تجلت فوقه خصائص أهل العصور الوسطى وخصالهم بصورة رائعة .
 وهذا هو السبب في اهتمامنا برصد الدوافع والأسباب التي حركت أولئك
 الناس لشن تلك السلسلة الطويلة من الحروب التي عرفت باسم الحروب
 الصليبية .

هكذا ، إذن ، ينبغي علينا أن نحاول رسم صورة حية للمجتمع الأوربي
 في القرن الحادي عشر ، بحيث نكشف عن القوى الاجتماعية التي كانت تؤلف

هذا المجتمع • لأن الحركة الصليبية بحد ذاتها كانت نقاجا طبيعيا لهذه القوى الفاعلة في المجتمع الأوربي وتعبيرا عن تفاعلاتها •

وكان القرن الحادى عشر في أوربا بداية لفترة استمرت ثلاثة قرون تجلت خلالها سمات الحضارة الأوربية في العصور الوسطى بالقدر الذى جعل المؤرخين يسطلحون على تسمية هذه الفترة باسم العصور الوسطى العالية (أو الناضجة) High Middle Ages (٨) • فقد كانت تلك الفترة هى عصر الجنود والأبطال ورجال الدولة وزعماء الكنيسة • فى تلك الأثناء كان الفلاحون الباحثون عن أراضى أفضل ، والمهاجرون الى المدن الجديدة النامئة ، والتجار المسافرون على الطرق الأوربية وسعراء التروبادور المتقلون بأغانيتهم من قلعة الى أخرى ، والذسك المنسحبون من العالمن بأغوائه وشروره ، والمبشرون الجوالون ، والصليبيون والحجاج المتوجهون الى الارض المقدسة •• كان هؤلاء وأولئك جميعا بمثابة شهادات حية على أن وجه المجتمع الاوربي الغربى قد بدأ بتغيير •

ففى القرنين التاسع والعاشر كانت أوربا فى موقف دفاعى ضد قوى الانسان والطبيعة على السواء • ولكن الأمر تغير فى القرن الحادى عشر • ويمكن اتخاذ سنة ١٠٠٠ ميلادية كمنقطة تحول فى التاريخ الأوربي ، فقد بدأ عصر الزيادة السكانية ، التى تسببت فى اضطراب الحياة الاجتماعية ، سواء فى الريف أو فى المدن النامية ، وبدأت حركة نشطة لاصلاح الأرض المهملة بقصد استزراعها فى شتى انحاء أوربا الغربية • وبينما كان هناك من يحاولون التنمية فى الداخل ، كان هناك من يحاولون السعى وراء حظوظهم خارج الحدود • كان هذا القرن والقرن التالى له ، فترة التقدم والابتكار ، اذ بدأ

Philippe Wolff, The Awakening of Europe (transl. (٨)
from French by Anne Carter, Penguin 1968),
p. 208; Cantor, Med. Hist., pp. 265-70; Hoyt and
Chodorow, Europe in the Middle Ages, pp. 304-
310; Painter, «Western Europe on the Eve o the
Crusades» ; p. 3.

الأوربيون يبنون المدن والكاتدرائيات ، كما بدأوا يكونون الثروات ويقرضون
الشعر (٩) • وفي هذا القرن أيضا خرجت الحروب الصليبية •

وقد كانت الحروب الصليبية جزءا من التوسع والنمو الأوربي في القرن
الحادى عشر ، كما أنها أفادت من الشكل الأولى للتنظيم الذى عرفته أوروبا
آنذاك • وفي غمار هذه الحركة الصليبية عبرت كل قوة من قوى المجتمع الأوربي
عن نفسها بطريقة حيوية للغاية • وإذا كانت الخلفية الايديولوجية التى
خرجت منها هذه الحركة قد شددت كافة القوى فى المجتمع الأوربي اليها ،
فلا حاجة بنا الى القول بأن دوافع هذه القوى للمشاركة فى المشروع الصليبي
لم تكن دينية فقط • وعلى الرغم من كل ما كتبه المؤرخون الأوربيون ، القدامى
منهم والمحدثون ، عن الحج والحرب المقدسة ، فانه سيكون من الخطأ أن نأمل
فى تفسير الحركة الصليبية فى ضوء الدين والنفسية الجماعية فقط • ذلك
أن الأسباب والدوافع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل والدوافع
الفردية الخاصة ، قد ساهمت مع الدافع الدينى (الذى كان أقلها أهمية)
فى دفع قوى المجتمع الأوربي للمساهمة فى الحملة المقترحة • فما هى تلك القوى
الاجتماعية الأساسية فى المجتمع الأوربي عشية الحروب الصليبية ؟

كانت هناك ثلاث طبقات رئيسية فى المجتمع الأوربي آنذاك ، فالنبلاء
(**الذين يشاربون**) ورجال الكنيسة (**الذين يصلون**) كانوا يشكلون ضاغطي
المثلث ، ثم المزارعون من الأحرار والافتنان (**الذين ينتجون**) وكانوا بمثابة
قاعدة هذا المثلث الاقطاعى كما تصوره المعاصرون • ولكن الحقيقة ان النبلاء
ورجال الكنيسة كانوا بمثابة جناحين (عسكرى ودينى) لطبقة واحدة ، على
حين كان الفلاحون هم الطبقة الدنيا • وكان على أبناء هذه الطبقة ان يعولوا
أبناء الطبقة الحاكمة بجناحيها العسكرى والدينى (الكنسى) • وقد رسخ

Maurice Keen, The Pelican History of Medieval Europe (٩)
rope, (Penguin 1982), pp. 84-87; Bishop, The
Penguin Book of the Middle Ages (Penguin
1971), pp. 45-46.

هذا التقسيم الثلاثى بدرجة جعلت المجتمع الاوربي ينكر على سكان المدن الجديدة (Bourg; Burg) اية مكانة قانونية بين طبقاته ، وهو ما جعل البورجوازيين (أى سكان البورج Burg) يتجهون الى شراء هذه الحقوق بأموالهم . وكان هذه الطبقة الجديدة فى المجتمع الأوربي آنذاك تتألف من أفراد جاءوا من خلفية اجتماعية غامضة أو مجهولة . والراجح أن بعضهم كانوا من أبناء السرائح الدنيا من الفرسان الذين لا يملكون أرضاً ، والبعض الآخر من المزارعين الاحرار كما شاع بين الناس فى ذلك الحين أن بعضهم كانوا من الأفتنان الذين استطاعوا شراء حريتهم . وكان هؤلاء البورجوازيون يكسبون عيشهم من صناعة المنسوجات ومن التجارة (١٠) .

ومن الناحية الاقتصادية كان النظام الاقطاعى يفرض نوعاً من التخصص على طبقات المجتمع ، بيد أنه كان تخصصاً من نمط بدائى فنج . فلم تكن الطبقة النبيلة المحاربة تعمل بالانتاج ، على حين لم يكن مطلوباً من الطبقة المنتجة أن تتخلى عن نشاطها الانتاجى لكى تشارك الطبقة النبيلة فى اعباء القتال . ولأن الفلاحين الأفتنان والسرائح الدنيا من المزارعين الاحرار ، وسكان المدن الناشئة ، كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة فى المجتمع الأوربي ، فقد اتاح ذلك وجود قوة عمل كبيرة فى ظل النظام الاقطاعى ، ولكن هذا العمل كان قاصراً على الأرض ونتاجها المباشر . ومن ناحية أخرى ، فإن التجارة وحركة البضائع كانت ما تزال ضعيفة بسبب الرسوم والضرائب الاقطاعية العديدة التى فرضها السادة الاقطاعيون ، ومن ثم لم يكن هناك مكان للتجار فى الريف الاقطاعى ، وهو ما دفع بالتجار الى سكنتى المدن الجديدة . بيد أنه لم يكن ممكناً ضمان الأمن والمكانة الاجتماعية فى المجتمع الاقطاعى سوى فى ظل السلم الاقطاعى

(١٠) عن هذا الموضوع انظر :

Henri Pirenne, *Economic and Social History of Medieval Europe*, (London 1972-9th ed.), pp. 42-49;
Cantor, *Med. Hist.*, pp. 267-268.

الذى يضم الساده الاقطاعيين وأفضالهم (١١) .

كان الطابع الريفي هو الغالب على الحياة الأوربية في القرن الحادى عشر (١٢) ولذلك كانت أحوال المجتمع الأوربى تأثر تماما بأحوال الاقتصاد الزراعى (عماد النظام الاقطاعى) . فقد كانت هناك أزمة في الاقتصاد الزراعى حوالى سنة ٨٥٠ ميلادية ثم أخذت هذه الأزمة تتشد وتتصاعد حتى وصلت ذروتها سنة ١٠٠٠ ميلادية تقريبا (١٣) .

وتمدنا الحوليات والمدونات التاريخية التى ترجع الى مطلع القرن الحادى عشر بأوصاف حية للجماعات التى أسببت مخالبتها في تلك الأنحاء . هذه الجماعات حدثت نتيجة لفشل الانتاج الزراعى في اللحاق بالزيادة السكانية . ويرى مارك بلوك (١٤) أن من السذاجة أن ندعى أننا نفهم الناس في مجتمع ما ، دون أن نعرف أحوالهم الصحية : بيد أننا مضطرين الى الاستقراء والاستنباط في حالة أوروبا العصور الوسطى بسبب افتقارنا الى الأدلة وقصور

(١١) مع القلاقل التى شهدها القرنان التاسع والعاشر في أوروبا ، كانت الحاجة الاجتماعية الملحة هى الحماية وتوفير الأمن الذى لم يكن يستطيع توفيره سوى الأقوياء ، ولكى يقوم الاقرباء بهذه المهمة فقد كانوا بحاجة لمن يعملون لاطعامهم هم ورجالهم . وهكذا لم يعد يربط المجتمع ببعضه الالتزام بالصالح العام ، وإنما التزام كل فرد بالقسم الشخصى الذى قطعه لشخص آخر . وكان سلام المجتمع يتوقف على مدى وفاء أولئك الافراد بما قطعوه على أنفسهم من عهود ، انظر : Keen, Pelican Book, pp. 51-57.

انظر أيضا : G. G. Coulton, The Medieval Scene, (Cambridge 1930), pp. 4-6.

Painter, «Western Europe», p. 9. (١٢)

Mayer, The Crusades, p. 22; Keen, pelican Book, p. 123; (١٣)

Duncolf, «The First Crusade : Clermont to Constantinople», in Setton (ed.), A hist. of the Crusades, pp. 253-255; Bradford, The Sword, pp. 30-31.

Marc Bloch, Feudal Society (The University of Chicago Press 1961), pp. 72-73. (١٤)

وسائل البحث • ولاشك في أن وفيات الأطفال في أوروبا القرن الحادى عشر (وقبل ذلك وبعده) كانت عالية • وبغض النظر عن أخطار الحروب الاقطاعية، كانت الحياة في أوروبا آنذاك قصيرة وكثيية • ومن بين الكثيرين ممن حصدهم الموت في سن مبكرة ، كان عدد كبير يموت بسبب الأوبئة التى غالباً ما كانت تنشب مخالبا في المجتمع الذى لم يكن يملك سلاحا فعالا لمقاومتها • كذلك كانت المجاعة وحشا فتاكا آخر يعصف بالفقراء من أبناء هذا المجتمع • فاذا أضفنا الى هذه الصورة الفاتمة أحداث العنف الناجمة عن الحروب الاقطاعية أدركنا مدى انعدام الأمن في حياة الناس آنذاك • وفي رأى بلوك أن المستوى الصحى المتدنى ، وافتقار المجتمع الى الأمن كان من أهم أسباب القلق العاطفى الذى تميزت به المجتمعات الاقطاعية في أوروبا عشية الحروب الصليبية •

حقيقة أن الأحوال بدأت تتحسن نسبيا بعد القرن العاشر ، وبدأت في القرن الحادى عشر حركة من النمو ومحاولات الخروج من الأزمة ، ولكن الصورة لم تتغير كثيرا • ولنفرض أن لدينا آلة تساعدنا على أن نعود القهقري عبر قرون الصحب والحروب لنلقى نظرة على الريف الأوروبى قرب نهاية القرن الحادى عشر ، فما الذى سنشاهده هناك ؟

إن أول ما يسترعى انتباهنا هو ذلك العدد الكبير من الغابات التى تجرى ازالته في سنى انحاء أوروبا لتوسيع الرقعة الزراعية • فقد كانت الغابات الكثيفة تحيط بالأراضى الزراعية حول القرى في كل مكان ، باستثناء المناطق ذات الكثافة السكانية المرتفعة • وكانت أصوات فئوس الفلاحين وأصوات المناشير المستخدمة في إزالة هذه الغابات بمثابة النغمة الدالة على أن أوروبا قد بدأت مرحلة جديدة من النمو السكانى ، اذ كانت الأشجار تزال لتزرع مكانها المحصولات التى يحتاجها السكان كما أن أخشاب هذه الأشجار كانت تستخدم لبناء المساكن الجديدة في المدن النامية • وعلى حواف الحقول كان الفلاحون يحرقون الأعشاب من وقت لآخر لكي يزرعوا محصولا أو اثنين في الأرض التى خصبها الرماد • وقد شهد القرن الحادى عشر نسبياً في مجال الزراعة ،

سواء من حيث زيادة الرقعة الزراعية ، أو من حيث الأدوات التي يستخدمها
الفلاحون .

وإذا ما أخذنا في اعتبارنا النمو السكاني الذي شهدته أوروبا في ذلك
الحين ، ولاحظنا أيضا أن غالبية السكان كانوا من الفلاحين ، فإننا يجب
الإنبالغ في قيمة هذا التقدم النسبي . فالحقيقة أن هذا التحسن الذي طرأ
في مجال الزراعة لم يؤت ثماره في تحسين أحوال الفلاحين المعيشية ، ففد
كان المستفيدون قلة من الفلاحين الذين يملكون محراثا ويملكون أيضا الثيران
التي تجره . أما الغالبية فلم تتحسن أحوالهم (١٥) .

وعلى العموم ، كانت حياة الفلاحين عابسة وغير آمنة ، فقد خربت
مساحات كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة بسبب الغزوات الجرمانية في
الفترة السابقة ، ثم غزوات الفيكنج والمجريين والمسلمين في القرن العاشر ،
فضلا عن الحروب الاقطاعية التي كانت تهدد بتمزيق أو اصر المجتمع الأوربي .
ومن ناحية أخرى ، كان السادة الاقطاعيون غالبا ما يعارضون محاولة إزالة
الغابات والزراعة مكانها ، لأن هذه الغابات كانت هي المكان الذي يمارسون فيه
رياضة الصيد التي كانت شاغلهم الأساسي في غير أوقات الحرب والقتال .
كما أن القرية التي لم تكن تتمتع بحماية أحد النبلاء الاقطاعيين غالبا
ما كانت تتعرض للسلب والنهب على أيدي العصابات الاقطاعية المتحاربة ،
بل أن القرى كثيرا ما كانت تتعرض للحرق من جراء الغارات الاقطاعية ،
وعلى الرغم من أن الكنيسة قد حاولت أن تلعب دورا في حماية الفلاحين من
خلال حركة السلام . فإن جهودها في هذا المجال لم تأت بالنتائج المرجوة .
اذ أن حركة السلام التي دعت إليها الكنيسة لم تكن تحظى بمساعدة أي

Wolff, *The Awakening of Europe*, pp. 198-202; Can- (١٥)
tor, *Med. Hist.*, pp. 265-270; Painter, «*Western
Europe*», p. 3.

من كبار الأمراء الاقطاعيين مالم تكن لهذا الأمير مصلحة شخصية في اقرار السلام (١٦) .

ومن ناحية أخرى ، كان الناس في ذلك الزمان أقرب الى الطبيعة منا في العصر الحديث ، بمعنى أنهم كانوا تحت رحمتها ، فقد كانت الطبيعة أقل استثناسا ونعومة مما تبدو اليوم . فأرض الريف التي كانت الجرارى والمناطق البور تشكل سطرًا كبيرًا منها ، كانت دليلا على أن تأثير الانسان في الطبيعة ضئيل ومحدود . فالحيوانات المتوحشة ، مثل الدببة والذئاب ، كانت تجوس في هذه المناطق البرية في حرية تامة ، بل انها كانت تتجول بحرية أيضا في الحقول المزروعة حول القرى . ولما كانت تلك هي الحال في الريف الأوربي في تلك الفترة ، فان الصيد البري لم يكن رياضة ترفيهية بقدر ما كان وسيلة أمنية ضرورية لحماية الريف، كما كان الصيد احدى وسائل الحصول على الطعام أيضا . كذلك كان الناس لايزالون يلتقطون ثمار الأشجار البرية ، ويجمعون عسل النحل البري ، مثلما كان الحال في زمن الانسان الأول . وكان الخشب هو المادة الرئيسية المستخدمة في صناعة الأدوات والمدات . وبسبب الافتقار الى وسائل الاضاءة ، كانت ليالى الريف في غرب أوربا أشد ظلمة من ليالى الريف الحالى ، كما كان البرد أشد وطأة حتى بين جدران القلاع (١٧) .

باختصار كانت البدائية سمة أساسية من سمات الحياة الاجتماعية ،

Wood, The Age of Chivalry, pp. 96-7; pp. 96-7; Cowdrey (١٦)

«The Genesis of the Crusade», p. 14; Bryce D. Lyon

(ed.) The High Middle Ages 1000-1300 (U.S.A.

1964), pp. 3-7.

ويورد لنا هذا الكتاب نصا عن مصرع شارل الطيب كونت الفلاندرز ، وهو يحاول اقرار السلام . وعلى الرغم من أن هذه الوثيقة التي كتبها Galbert of Flanders ترجع أحداثها الى ما بين سنة ١١١٩ ، وسنة ١١٢٤م فان قربها من زمن الحملة الأولى يجعلنا نعتمد عليها لتصوير محاولات اقرار السلام .

Coulton, Med. Scene, pp. 23-26.

(١٧)

فقد كان الناس ما يزالون تحت رحمة قوى الطبيعة ، وليست هناك وسيلة لقياس تأثير مثل هذه البيئة على عقول الناس ، ولكن المرجح أنها كانت من أسباب غلظتهم وبلادة حسهم .

كان شطر كبير من سكان الريف الأوربي من الأرقاء ، كما كان الاقننان يشكلون قطاعا هاما من سكان الريف . وكان الاقننان ، الذين يقفون في السلم الاجتماعي بين الأحرار من جانب آخر ، يمثلون شريحة اجتماعية تتزايد أعدادها بإطراد في بعض مناطق أوروبا ، وتتناقص أو تكاد تختفي في بعض المناطق الأخرى . فبسبب عدم اقتصادية نظام الرق في إنجلترا تناقص عدد العبيد وزاد عدد الاقننان ، على حين تزايدت أعداد العبيد في جنوب فرنسا وأسبانيا (١٨) . وبنهاية الربع الثالث من القرن الحادي عشر كان نظام السيادة قد رسخ في كل من فرنسا وإنجلترا وغرب ألمانيا . وفي هذه المناطق ، كان كل رجل يعمل في فلاحة الأرض ، تقريبا ، قد بات ملزما بشكل من أشكال الخدمة أو الإيجار تجاه السادة الاقطاعيين . أما في سكسونيا وبعض مناطق شرق ألمانيا ، فقد كان الفلاحون ما يزالون يعتمدون على الملك بشكل مباشر ، ولكن النظام المعروف باسم نظام السيادة Seigniorial System كان يستشري بسرعة بسبب الفوضى السياسية الناجمة عن النزاع بين الامبراطور الألماني وأمراء سكسونيا المشاغبيين ، ولكن ، حتى في الأماكن التي ساد فيها نظام السيادة الاقطاعي ، كانت هناك اختلافات واضحة في الظروف والأحوال .

(١٨) وينبغي أن نلاحظ أن الكثيرين غالبا ما يتحدثون عن النظام الاقطاعي ، كما لو كان نظاما واحدا في جميع أنحاء أوروبا ولكن الحقيقة أن كل منطقة أفرزت خصائص خاصة بها ، كما أن المدى الزمني للتطور الاقطاعي ، اختلف من منطقة لأخرى ومن ثم ينبغي أن نتوخى الحذر في رصد التطورات التي مرت بها المجتمعات الاقطاعية في الغرب الأوربي وأن ندرك أن ما حدث في المنطقة التي تعرف باسم شمال فرنسا حاليا ، لا يصدق بالضرورة على ما حدث في مناطق أخرى ، أنظر حول هذا الموضوع :

Keen, The Pelican Book, pp. 57-58.

وكذلك ، نورمان كاننور ، التاريخ الوسيط ، ص ٣٣١ - ص ٣٤٤ .

غفى جنوب إنجلترا ، ومعظم مناطق فرنسا ، وفي الألاسكا والولايات ، كانت الغالبية الغالبة من الفلاحين أقتنوا مرتبطين بالأرض دون أن تكون لهم أية حقوق تجاه سادتهم الاقطاعيين . في هذه المناطق كانت العلاقة بين القن وسيدته مثل العلاقة بين الإنسان والطبيعة ، فالسيد بالنسبة للقن يمكن أن يكون عدوا كما يمكن أن يكون صديقا ، ولكنه ضروري لحياة القن في كل الأحوال . وكان مقيدا الى الأرض ، ولم يكن يشتر على أن يغير سادته سوى بأرتكاب جريمة ، أو إهرا غامر بالهرب ، أو شراء حريته بالمال (إذا قبل السيد بيعها) . أما في شرق وشمال إنجلترا ، فقد كان هناك قطاع كبير من الفلاحين ، ربما أكثر من النصف ، أحرارا يؤدون إيجارا وبعض الخدمات المحدودة للسادة كذلك كانت هناك جمهرة كبيرة من الفلاحين الأحرار في بعض مناطق فرنسا . وفي شرق ألمانيا كانت تجرى محاولة لنزع ملكيات الفلاحين الأحرار وتحويلهم الى أقتنان ، ولكن هذه المحاولة بأئت بالفشل (١٩) . ولكن الأمر الواضح في حياة أولئك الفلاحين عموما هو أن البؤس والجهل والخسونة كانت من السمات البارزة في حياتهم ، بغض النظر عن الفروق الضئيلة الناجمة عن اختلاف وضعياتهم القانونية .

كانت مساكن القرويين عبارة عن أكواخ حقيرة من الطين والأغصان والأعشاب ولها فتحات في السقف يخرج منها الدخان المنبعث من مواقدهم ، وتدخل منها مياه الأمطار أحيانا . أما ملابسهم فكانت من جلود الحيوانات أو من صوف الأغنام ومصنوعة بطريقة بدائية رثة ، وكان طعامهم بسيطا ومن النتاج المحلي مثل ملابسهم . وما كان يستحيل الحصول عليه في القرية كان يمكن الحصول عليه من الأسواق الموسمية في أقرب بلدة . ولم يكن الفلاحون آمنين من غائلة الموت جوعا ، إذ أن وسائل النقل كانت مكلفة للغاية كما كانت الطرق وعرة وغير آمنة ، وعلى هذه الطرق كانت النسييران هي القوة المحركة لوسائل النقل والمواصلات ، وهو ما يعنى أن أى نقص في

Coulton, Med. Scene, pp. 23-26; Painter, «Western (١٩) Europe» p. 6; Keen, The Pelican Book, p. 58.

المحصول المطلق . في منطقة ما ، كان يؤدي الى حدوث مجاعة (٢٠) . وعلى الرغم من أن أحد الباحثين يرى أن أحوال أوروبا في القرن الحادي عشر لم تكن على درجة من السوء تضارع ما تصوره الحوليات المعاصرة ، فإنه يعترف بأن المجاعات التي وردت أخبارها في تلك الحوليات كانت محيية ومحدودة (٢١) .

كانت الحرفة الأساسية لمعظم سكان أوروبا في ذلك الحين هي الزراعة الطبيعية الخال . وكانت أساليب الزراعة ما تزال متخلفة وعاجزة عن اللحاق بالزيادة السكانية ، فقد جرت العادة على تقسيم أراضي القرية الى حقلين كبيرين تنتم زراعتها بالتناوب ، فيزرع أحدهما ويترك الآخر لراحته . ثم طرأ تطور جديد حين أخذ الفلاحون يقسمون أراضي القرية الى ثلاثة حقول ويترك الحقل الثالث بلا زراعة بشكل دوري . ومن المهم أن نشير الى أن نظام الحقلين كان معمولا به في فرنسا وإنجلترا جنبا الى جنب مع نظام الحقلين في فترة العصور الوسطى العالية (٢٢) . وكانت الفلاحة ، سواء في أرض السادة ، أو في أراضي الفلاحين الأحرار والأقنان ، تنتم على أسس تعاونية ، ذلك أن حرث الأرض كان يتطلب ثمانية ثيران ، على حين لم يكن الفلاح يمتلك عادة أكثر من ثلاثة ثيران . وبالنسبة لجمع المحصول كان الفلاحون يقسمون انفسهم الى مجموعات تقوم كل منها بجمع المحصول في شريط حقل . وقد فرض هذا نوعاً من التكافل والتعاون في الأعمال الزراعية ، وكانت المحاصيل تقسم بين الفلاحين حسب ملكياتهم . ولاشك في أن هذا النظام كان يسبب بعض المشاكل ، ولكنه كان أفضل من أن يقوم كل فرد بعمله وحيدا (٢٣) .

Coulton, op. cit., p. 33-34 ; Painter, op. cit., pp. 4-6. (٢٠)

Duncalf, «Clermont to Constantinople,» p. 256. (٢١)

Coulton, Med. Scene, pp. 29-30; (٢٢)

Ibid, p. 30. (٢٣)

ولم يطرأ سوى قدر قليل من التحسن على وسائل الزراعة ، كما كان الفلاحون جاهلين تماما بوسائل تقوية التربة وزيادة خصوبتها ، مما أدى الى عدة نتائج سلبية أخرى (٢٤) . وفي ظل النظام الإقطاعي كانت الزراعة تنجم الى التنوع بدلا من التخصص في محصول واحد . ويرجع هذا الى طبيعة نظام الاكتفاء الذاتي للقرية أو للضيعة الإقطاعية التي كادت أن تكون عالما قائما بذاته ، ففيها كانت تتم زراعة كافة المحاصيل التي يحتاجها سكانها ، كما كانت فيها كل الصناعات الصغيرة اللازمة لحياتهم البسيطة . ولم يكن الفلاحون هم أصحاب الحرفة الوحيدة في الريف الأوربي في تلك الفترة . إذ إن لدينا نص يرجع تاريخه الى حوالي سنة ١٠٠٠ ميلادية (٢٥) يرسم لنا صورة واقعية (من وجهة نظر الفلاحين) عن الأعمال التي كانت تمارس في الريف الأوربي ، وعن الطريقة التي كان أصحاب هذه المهن يمارسون بها أعمالهم . فقد كان القن يعمل على المحراث ، ويرعى الأغنام والثيران ، كما كان هناك من يصيدون السمك أو يستخرجون الملح ، فضلا عن الأساكفة والخبازين والتجار المحليين . والنص في شكل حوار بين السيد الإقطاعي وأصحاب هذه الحرف وهو يكشف عن مدى مساق كل مهنة من وجهة نظر أصحابها . ويكشف هذا النص عن أن الحرف اليدوية كانت موجودة في الريف الأوربي الى جانب بعض حرف الخدمات وان كان تأثيرها في المجتمع الريفي محدودا بدرجة كبيرة .

Wolf, The Awakening of Europe, p. 199. (٢٤)

Roy C. Cave and Herbert H. Coulson (eds.), A Source Book for Medieval Economic History (Billo and Tannen, New York 1965), pp. 46-48. (٢٥)

ويرى كولتون أنه كان لابد أن يكون بالقرية حداد متطوع ، فإذا لم يتطوع أحد يرغم السيد أحد الفلاحين على القيام بهذا العمل الذي كان ضروريا للجماعة ، كما كان لابد من وجود نجار بالقرية . أما الحائك فلم يكن وجوده شائعا في القرى ، كما لم تكن بالقرية أية حوانيت ، أنظر :

Coulton, op. cit., pp. 31-32.

ومن حيث المستوى الثقافى، كان الفلاحون ، بصفة عامة ، افضاظا وبدائيين خشنين ، كما كان الجهل هو السمة الغالبة عليهم . وكانت هذه « الكتلة الخرساء » فى مجتمع أوروبا الغربية آنذاك محل احتقار الطبقات الأخرى فى المجتمع . هذا الجهل وهذه البدائية التى تميز بها الريف الأوروبى فى العصور الوسطى كان نتيجة طبيعية لحياة العزلة التى عاشتها القرية الأوربية فى تلك الآونة . ويلزمنا قدر كبير من القدرة على التخيل حتى نستطيع أن نتمثل حقيقة العزلة والتفوق فى الريف الأوروبى فى العصور الوسطى . فقد كان متوسط سكان القرية اربعمائة نسمة ، منهم على أكثر تقدير مائتين وخمسين من البالغين . وكان سكان القرية جميعا يعيشون حياتهم كلها فى القرية التى نادرا ما كانوا يغادرونها ونادرا ما كان يفد إليها أحد من خارجها . ١٠٠٠ أى أنهم كانوا يعيشون حياتهم ، من المهد الى اللحد ، بين عدد من الناس يعرفونهم بالاسم ويحدثونهم يوميا (٢٦) . وفى ظنى أن هذا مؤشر كاف لأن يجعلنا نتصور مدى ضيق أفق أولئك الفلاحين ، وكيف كان يمكن أن تؤثر فيهم أية دعاية باسم الدين .

وبالنسبة لغالبية سكان أوروبا الغربية عشية الحروب الصليبية كانت القرية هى الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل والدينية أيضا . فتد كان القروى يجد متعته وتسلينه فى أعياد القرية ، كما كان تسييس القرية يقوم بالطقوس الدينية لهم . لقد كانت للكنيسة أهمية كبرى فى حياة الفلاحين ، إذ كانت الكنيسة هى النافذة التى يطل منها الفلاحون على العالم ، لأنها كانت وسيلتهم للثقافة والحضارة . فعلى مدى قرون عديدة كان رجال الكنيسة ، هم فقط ، الذين يعرفون القراءة والكتابة فى أوروبا العصور الوسطى . وكان القسيس هو الذى يقدم لرعاياه فى القرية قدرا ضئيلا من المعلومات عن عالم الفكر ، وبما أنه هو نفسه كان عاريا من العلم ، فان معلوماته كانت ضحلة بالضرورة .

Wolff, The awakening of Europe, p. 202; Coulton, The (٢٦)
Medieval Scene, pp. 33-34.

كان طبيعياً أن يحتكر الكنسيون التعاليم الدينية ، بيد أن نشاطهم الفعلى فى القرية كان أقل كثيراً من وجودهم . فقد كان من النادر أن يقوم القساوسة النشيطون بتلقين رعاياهم القرويين تعاليم الانجيل سواء بالكلمة أو بالقدوة . وكانت حوائط الكنيسة ، بما عليها من صور ورسوم بمثابة الانجيل بالنسبة للفقير . الذى لم يكن يعرف القراءة والكتابة أو حتى يقدر على امتلاء نسخة من الكتاب المقدس (٢٧) .

وغالباً ما نتردد عبارة « عصر الايمان » لوصف تلك الفترة فى تاريخ أوروبا . واذا كنت هذه العبارة تعنى أن مفهوم الناس عن العالم كان مثقلاً بالعناصر الغيبية ، وأن هذا المفهوم والتصور الذى رسمه الناس آنذاك لمصير الانسان كان انعكاساً للفكر المسيحى الغربى بما فيه من عناصر لاهوتية وأخرى غيبية وأخرى - اذا كانت هذه العبارة تعنى ذلك ، فانها تكون عبارة صحيحة تماماً لوصف تلك الفترة من تاريخ الغرب الأوروبى على حد تعبير مارك بلوك (٢٨) . لقد كانت الكاثوليكية عشية الحروب الصليبية أبعد ما تكون عن تحديد نظامها العقيدى بشكل كامل ، كما أن المفاهيم الكاثوليكية لم تكن قد رسخت تماماً بين عامة الناس . كان قساوسة الأبرشيات لا يصلحون لوظائفهم سواء من الناحية الاخلاقية . فقد كان تعيينهم يتم ارتجالاً ، ولا يتلقون التدريب الكافى للقيام بمهامهم ، وغالباً ما كانوا يتلقون دروساً غير منتظمة على يد قسيس ذى حظ من التعليم قليل . ونادراً ما كانوا يقومون بمهامهم فى الريف حيث كانت غالبية المسيحيين الكاثوليك .

كانت الحياة الدينية فى الريف تتغذى على العديد من المعتقدات والممارسات التى كانت من تراث السحر القديم ، ومن نتاج الحياة الأوربية التى كانت ماتزاً حافلة بالأساطير ، وكان لهذه تأثير كبير على العقيدة

Painter, «Western Europe», p. 6; Colton, Te Med. (٢٧)
Scene, pp. 37-39.

Marc Block, Feudal Society, p. 80. (٢٨)

الرسومية • فقد كان الناس مايزالون يرون في السماء العاصفة جيوش الأشباح تمر بهم : جيوش الموتى كما كان يقول العامة ، و جيوش الشياطين الشريرة كما كان يقول المتعلمون ، الذين لم ينكروا أبداً مثل هذه الرؤى ، وإنما كانوا يبحثون عن تفسير لها • لقد كان الدين آنذاك مزيجاً من الخرافة وطقوس عبادة الطبيعة • وكان القرويون يجمعون ما بين التقوى والاعتقاد في الخرافات ، فقد كان الريف يعج بالعيون الخفية والأشجار صانعة المعجزات ، كما تان سكان هذا الريف يجلون العديد من القديسين الذين لم تعترف الكنيسة بهم أبداً (٢٩) •

ومن ناحية أخرى ، فإننا يمكن أن نفسر الاستجابة الشعبية الهائلة للدعوة التي أطلقها البابا اربان الثانى في كليرمون سنة ١٠٩٥ في ضوء الجور النفسى والفكرى الذى كان سائداً في الغرب الأوروبى في القرن الحادى عشر • فقد كان الجهل مايزال يسيطر رداءه على المجتمع الريفى الطابع في غرب أوروبا كما أسلفنا القول • ولا يمكن أن نتوقع في عصر تسوده الخرافات والرؤوس ملتبهة بالحماسة الدينية العاطفية أن ترد الظواهر الطبيعية الى أسبابها الحقيقية ، وليس الى التدخل الالهى ، وإنما ينبغى أن نتوقع أن يخترع رجال الكنيسة المعجزات التي يخدمون بها البسطاء • وكثر الحديث عن النجوم التي تنساقط من السماء مثلما يتساقط البرد ، وعن الاضواء الشمالية الباهرة التي كانت تسطع بزورها فوق خط السماء بشكل خارق ••• وراجت حكايات عن الشهب الملتهبة بمساراتها فوق رؤوس الناس وشاعت أخبار الأطفال الذين يولدون باطراف مضاعفة ، والأطفال الذين تكلموا عقب ولادتهم • كما تناقل الناس الروايات عن الرعاة الذين رأوا مدينة تتألق في كبد السماء وهم يرعون قطعانهم ليلاً • ونسمع عن قسيس يشاهد وهو في الطريق سيفاً ضخماً معلقاً في السماء ، تحمله الريح ، وقلس آخر يرى في وضوح النهار معركة بين فارسين في السماء ، يضرب أحدهما الآخر بصليب كبير بحيث ينتصر عليه •••• كانت

Painter «Western Europe», pp. 6-7; Marc Bloch, Feudal Society, pp. 80-81.

أبناء الطبقة الاقطاعية الى البحث عن أرض جديدة في الخارج ، فقد كانت الأرض هي مصدر الثروة والسلطة . لقد كانت نفس الحرافز التي قادت فرسان الغرب الاوربي للبحث عن حياة جديدة في الارض التي انزعت من السلاف في ألمانيا ، ومن المسلمين في إسبانيا وصقلية هي التي حفزتهم الى المسير صوب الأرض المقدسة . وكان من السهل اقناع الناس في غرب بلاد الغال بترك بلادهم التي ابتليت بالحروب الاقطاعية احيانا ، وبالمجاعات والابوئة احيانا أخرى (٣٢) . كما ان القصص التي يرويها الكتاب المقدس عن خصوبة الأرض المقدسة ، شجعت أبناء هذه الطبقة على الانخراط في سلك الحملة الصليبية .

كذلك ، فان غروب شمس القرن الحادي عشر جاء في وقت كانت فيه حدود الدوقيات والكونتيات في الغرب الأوربي قد ثبتت ، وقام بينها نمط بدائي من التوازن السياسي . وهو ما يعنى ان فرصة الاقطاعيين للغزو داخل أرض الوطن قد بائت ضئيلة بالفعل ، كانت فرنسا ، على نحو خاص ، تعاني من حالة « الجوع الى الأرض » التي كانت هي النغم المميز في الحياة الاقطاعية آنذاك . وكان الفرسان الذين يدفعهم « الجوع الى الأرض » يدخلون في علاقة تبعية مع سيد أو اثنين من السادة الاقطاعيين حتى يمكنهم الحصول على المزيد من الاقطاعات . فاذا نشبت الحرب بين السيديين يضطر الفارس الى الاختيار بينهما ، فيقاتل الى جانب من يرجح انتصاره حتى يتخلص من وطرته (٣٣) . ففي فرنسا ، كان حق وراثة الاقطاع قاصرا على الابن الاكبر فقط لضمان عدم تفتت الملكية الزراعية في الأسرة بالقدر الذي يضعف من قوتها وسلطانها القائم على ملكية الارض . وفي جنوب فرنسا على وجه خاص وجدت انماط من الملكية المشتركة داخل العائلات الاقطاعية عرفت باسم *Fraternitia, frércêhe* وهو شكل من اشكال الملكية المشاعية بين الأخوة أو افراد الأسرة ككل ، ولكن الابن الاكبر هو الذي يتولى ادارة الأرض والاشراف

Cowdrey, «The Genesis of the Crusades», p. 13; (٣٢)

Keen, The Pelican Book, p. 123.

(٣٣) كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص ٣٤١ - ص ٣٤٣ ،

Mayer, The Crusades, p. 22.

عليها • وبذلك يتعرض الاخوة الأصغر للضغوط الاجتماعية ، وكان عليهم أن يختاروا بين الانخراط في السلك الكنسي ، أو الانضمام لمنظمة عسكرية رهبانية • أو يخضمون الى جموع الفرسان الذين لا يملكون اقطاعا ، وكانت فرصة مثل أولئك الفرسان تنحصر في الزواج من احدى الوارثات ، وهى فرصة ضئيلة بطبيعة الحال ، أو في الانضمام الى عصابات البارونات للموص (٣٤) •

ومن ناحية أخرى ، فإن النظام الاقطاعى كان قائماً على القوة العسكرية وكانت القوة هى العامل المحرك في هذا المجتمع وفي ظل النظام الذى انبثق عن المؤسسات العسكرية والذى ظل يحمل قدرا كبيرا من بصماتها ، كان لكل بارونية ، وكونتية ، ودوقية ومملكة جيشها الخاص • ولكن النظام الاقطاعى فشل في اقرار السلم لأنه قائم على افتراض أنه ستكون هناك حالة حرب دائمة • وقد فشلت محاولات الكنيسة في أن تفرض السلام على هذا المجتمع • على الرغم من بعض مظاهر النجاح الجزئى في هذا الصدد • إذ كان القتال هو الوظيفة الرئيسية للرجل الارستقراطى في ظل النظام الاقطاعى • فقد كان يتم اعداده منذ صباه على حياة القتال الحقيقى • وكانت مهنة الفارس الرئيسية المحببة الى قلبه هى القتال • فاذا كان من البارونات ، فانه يقاتل لكي يحتفظ بسيطرته على افضاله ، ولكي يستولى على ما يمكنه الاستيلاء عليه من جيرانه • واذا كان فارسا صاحب اقطاع ، فانه كان يتبع سيده الى القتال لأن هذا كان واجبه ، ولانه كان يطمح في الحصول على جزء من الغنائم • اما الفارس الذى لا يملك ارضا فقد كان يحارب ليكسب عيشه ، اذ كانت الحرب نشاطا اقتصاديا مربحا في ذلك الزمان • بل ان سيدنى بينتر (٣٥) يرى ان الحرب بالنسبة للفرسان رياضة كانت محببة ولم

• Cowdrey, «The Genesis of the Crusades», p. 13. (٣٤)

Sidney Painter, A History of The Middle Ages 284-1500 (٣٥)
(New York 1954), p. 118; «Western Europe» p. 14;
Keen, The Pelican Book, p. 57; Bishop, The Penguin
Book, p. 86.

تكن تزيد في خطورتها عن رياضة كرة القدم في عصرنا الحالي . ويقول ان ملابس الفارس المدرعة كانت تكفل له الحماية الكاملة من اسلحة المشاة ، كما كانت تقويه ضربات سيوف الفرسان وطعنات رماحهم ، فضلا عن أنه لم يكن هناك فارس يرغب في قتل فارس آخر لأن الجثة لم تكن تساوى نبيئا . واذ قتل الفارس جاره وجد وريثه يواصل الصراع محله ، ولكنه اذا أسره ، استطاع أن يحصل على ضيعة غنية ، أو قلعة حصينة كدفية للأسير .

لقد كانت الحرب هي مهنة الطبقة العليا ، كما كانت متعة الرجال من أبناء هذه الطبقة ، اذ كانت أوقات السلم تمر كئيبية رتيبة داخل جدران القلاع العابسة ، فلم يكن لدى أبناء هذه الطبقة أية مشاغل ثقافية أو بدائش غير الصيد . لقد كانت المعركة هي قمة حياة الفارس ، وكثيرا ما كانت هي النهاية التي تنتهي بها هذه الحياة (٣٦) . وباختصار كان الفارس العادي حتى نهاية القرن الحادي عشر متوحشا همجيا متعظنا للدماء . (وقد ظلت هذه الصفات من مميزاتة الأساسية طوال القرن الثاني عشر الأقل (٣٧) . بيد أنه في الوقت نفسه كان متدينا على طريقتة الخاصة ، اذ كان يتقبل تعاليم الكنيسة دونما مناقشة ، كما كان حريصا على خلاص روحه ، وله قسيسه الخاص الذي يقوم بعمل الطقوس له ، ويستمع الى اعترافاته (ومن المثير للانتباه أنه كان على استعداد لأن يعرض نفسه لاشد الاخطار في سبيل الايدى باعترافاته هذه لتفسير مستقل) . ولكن الفارس الاقطاعي ، من ناحية أخرى ، لم يكن يفهم المسيحية فهما جيدا . وقلائل هم الذين كانوا يفهمون الدين من بين نبلاء ذلك الزمان ، ولكن من كانوا يلتزمون بتعاليمه منهم كانوا اقل عددا . لقد كان فرسان الغرب الأوربي ، على الأجملة ، لا يفهمون من الدين سوى انه حيازة الذخائر المقدسة ، أو الهبات التي كانوا يغدقونها بسخاء على

Bishop, The Penguin Book, pp. 86-ff.; Cowdrey, «The (٣٦) Genesis», pp. 14-15.

(٣٧) حول هذا الموضوع انظر : قالسم عبده قاسم « صورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية » المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع والعشرون ، ١٩٨٠ ، ص ٩ - ص ٣٧ .

الأديرة والكنائس تكفيرا عن ذنوبهم • إذ كان التكفير عن الذنوب أيسر لهم
من الالتزام بالفضيلة (٣٨) •

وإذا أخذنا في اعتبارنا طبيعة التنشئة الاجتماعية للفرسان من جهة •
وحقيقة تدينهم القاصر من جهة أخرى ، أدركنا أن أولئك النبلاء قد وجدوا
أنفسهم في وضع غير مريح بسبب الضغوط التي كانت تمارسها الكنيسة لفرض
حركة السلام • لقد كان النبلاء ، شأنهم شأن رجال الدين والفلاحين ، يؤمنون
بالمسيحية ولكن على طريقتهم كما أسلفنا القول • إذ كان الدين يكسب حياتهم
معناها ، لأنهم لم يكونوا ليقدرّون على تحمل الصراعات الرهيبة التي كانت
تمر بها حياتهم اليومية لو لم يكن هناك وعد بحياة أخرى أفضل بعد الموت •
حقيقة أن النبلاء كانوا قد نشأوا على الحرب ورضعوا تقاليد القتل ولكنهم
كانوا يريدون الخلاص لأرواحهم أيضا • ومن ثم فإنهم رأوا في حركة السلام
كارثة حلت بهم • ذلك أن قبولها كان يعنى ، في التحليل الأخير ، إنكار
الأسس التي يقوم عليها وجودهم كطبقة محاربة ، على حين كان التفكير
لحركة السلام يعنى المخاطرة بفقدان الخلود مع الرب ، وهو الأمل الذي كان
الجميع يتحركون في إطاره • وبدا الأمر وكأنه لغز مستحيل أمام أبناء هذه
الطبقة • فلم تكن غالبيتهم الغالبة لترضى عن هذا الدور الاجتماعى الذى خصهم
به النظام الاقطاعى بديلا • ومن ثم جاءت فكرة الحملة الصليبية فرصة ذهبية
بالنسبة لهم ، فهى ترضى ميولهم العسكرية وتعطشهم للقتال ، كما انها
تحظى بمباركة الكنيسة وتتم تحت راية الصليب •

وهناك الكثير الذى يمكن قوله عن تأثير النظام الاقطاعى على الكنيسة
في العصور الوسطى • وبهذا نأتى الى « الذين يتعبدون » • فقد كان للسياسة
التي اتبعها كارولنجيون أثرها من حيث صبغة الكنيسة بالصبغة الاقطاعية
الى حد ما • إذ كان شارل مارتل يجبر الكنيسة على أن تمنح اقطاعات من

Painter, A hist. of the Middle Ages, pp. 19-20; Western (٣٨)
Europe», pp. 14-15; Wood, The Age of Charvally,
p. 100.

أراضيها للفرسان بشرط أن يصبحوا أوصالا له *Vassi dominici* وبعد شارل لم يعد الملوك الكارولنجيون يصادرون أملاك الكنائس ، ولكنهم كانوا يجبرون الكنائس على منح الاقطاعات لأوصالهم . وجاء وقت صار فيه بعض الأساقفة ومقدمي الأديرة أوصالا للتاج الكارولنجي ، ثم استخدموا بعض أراضيهم كاقطاعات يمنحونها لأوصالهم مثلما فعل الأمراء العلمانيون . واذ تورطت الكنيسة في العلاقات الاقطاعية على هذا النحو ، صارت المناصب الكنيسة تمثل اغراء للأفراد الذين لا يميلون الى العمل الروحي ، واكنهم يرون في الكنيسة وسيلة يتوسلون بها للحصول على السلطة والثروة (٣٩) .

ومنذ القرن العاشر تنبه بعض المتدينين الى هذا الوضع ومحاذيره . وعلى امل ان يتحسن النظام المديرى قام الدوق رليم ، أمير اكويتانيا ، بتأسيس دير كلونى سنة ٩١٠م وكان ممنوعا على هذا المدير أن يمتلك ارضا بمقتضى الخدمة الاقطاعية اذ كان على كل من يهب ارضا لدير كلونى أن يهبها دون قيد او شرط ، وانما في مقابل أداء الرهبان الصلوات لخلص روحه فقط . وبحلول القرن الحادى عشر كانت هناك عدة أديرة تابعة لدير كلونى وتنهج نهجه الذى كان صيغة معدلة من النظام البندكتى ، وسرعان ما صار للأديرة الكلونية نفوذ ضخم . وفي القرن العاشر قادت الأديرة الكلونية حركة احياء ضخمة ، بهدف تحرير الكنيسة من قيود العلاقات الاقطاعية ، وبعث الحياة المديرية من مرقدما الذى نامت فيه طويلا بعد ترهل النظام البندكتى . وفي القرن الحادى عشر وصلت الحركة الكلونية الى ألمانيا حيث تعاطف معها الحكام الألمان من ملوك اسرة اوتو ، مثل كونراد الثانى (١٠٢٤ - ١٠٣٩ م) ، وهنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦م) الذى كان يتصرف باعتباره راعيا وحاميا للحركة الكلونية في بلاده (٤٠) .

Brian Tierney and Sidney Painter, *Western Europe in the Middle Ages 300-1475*, pp. 135-138. (٣٩)

كانتور ، التاريخ الوسيط ، ص ٣٣٧ ، ص ٣٣٨ ،
(٤١) المرجع نفسه ، ص ٢٧٢ - ص ٢٧٣ ،

Bradford, *The Saga of the Crusades*, pp. 15-16.

وفي القرن الحادى عشر بدأت حركة اصلاحية واسعة تستهدف القضاء على كثير من المساوىء التى استشرت فى اوصال الكنيسة الكاثوليكية . ومن اهمها السيمونية (اى بيع الوظائف الدينية) وتدخل الحكام العلمانيين فى تعيين رجال الكنيسة . كانت هذه الحركة الاصلاحية ، التى يطلق عليها بعض المؤرخين المحدثين « الثورة الجريجورية » (٤١) تستهدف اصلاح الكنيسة والعالم . وبينما كان اصلاح الكنيسة يعنى فى المحل الاول ان تكون الكنيسة ملكا للأساقفة ، أى ان تتحرر من سيطرة العلمانيين ، كان اصلاح العالم يعنى اخماد الحروب الاقطاعية التى باتت سمة من سمات مجتمع غرب أوروبا . وكانت حركة السلام التى تهدف الى انهاء الحروب الاقطاعية من اهم الأسباب العملية لحركة الاصلاح نفسها . هذه الحركة الاصلاحية ، فى شقها الأول الذى يهدف الى تحرير الكنيسة من السيطرة العلمانية ، أفرزت نزاعا مريرا بين البابوية والامبراطورية الالمانية ، واندلعت شرارة هذا الصراع بين جريجورى السابع وهنرى الرابع لكى تستمر على مدى سنوات طوال . وكان لهذا الصراع أثره فى توجه البابوية بدعوته الى المجتمع الفرنسى على نحو خاص كما سنرى .

هذه هى القوى الاجتماعية فى الغرب الأوروبى عشية الحروب الصليبية ، وهى قوى تحدد الدور الاجتماعى لكل منها . لقد وصف أسقف فرنسى المجتمع المعاصر بقوله : « بيت الرب ذو جوانب ثلاثة ، فالبعض يصلى فيه ، والبعض يحارب فيه ، والبعض يعمل فيه » (٤٨) . وهكذا كان العالم المسيحى

(٤٤) نسبة الى جريجورى السابع أبرز أقطاب هذه الحركة الاصلاحية والذى تنسب اليه مجموعة النقاط التى تحدد سمو السلطة البابوية على الامبراطورية ، ولدينا مجموعة وثائق حول هذا الموضوع ، أنظر :

Pope Nicholas II, Decree on Papal Elections (1095) *Dic-tatus Papae* (1075); Letter of the Synod of Worms to Gregory VII (January 1076); Deposition of Henry IV By Gregory VII (February 1076) in Lyon (ed.), *The High Middle Ages*, pp. 87-102.

Bishop, *The Penguin Book of the Middle Ages*, p. 167. (٤٢)

في العصور الوسطى مقسماً بشكل حاد لأقسام ثلاثة هي : الفلاحون ، والنبلاء ، والقساوسة (إذ كان سكان المدن الناشئة ما يزالون عديمي الأهمية في ذلك المجتمع) . وكان المبشرون يحبون أن يشبهوا المجتمع بالجسد الانساني ، فيشبهون القساوسة بالرأس والعيون ، والنبلاء بالذراعين واليدين ، والعامه بالارجل والاقدام . وباعتبار أن القساوسة هم رأس المجتمع وعينه ، فقد زعموا لانفسهم حق توجيه المجتمع وحكمه . ولكن « الذين يحاربون » لم يسلموا لهم بهذه الحقوق المزعومة ، ومن ثم حدث تفاعل كبير بين هاتين القوتين . وقد وصل هذا التفاعل الى مداه في القرن الحادى عشر بحيث أفرز الحركة الصليبية . إذ كان هذا القرن بداية لفترة النمو والتقدم المنشيط في أوروبا . وكان الفضل في هذا للتداخل والتفاعل بين المؤسستين الكبيرتين في المجتمع الأوربي آنذاك ، أعنى الاقطاع والكنيسة (٤٣) لان تداخلهما أدى الى قوة المجتمع ونضجه ، دون أن يعوق ذلك التطور الذاتى لكل منهما . فالحركة الصليبية ، في جانب منها على الأقل ، كانت افرزا للاقطاع والكنيسة وتفاعلها سويا .

ففي منتصف القرن الحادى عشر بدأت فترة من أخطر فترات التاريخ الأوربي ، إذ أن السنوات الثمانين التي تمتد منذ منتصف هذا القرن حتى نهاية العقد الثالث من القرن الثانى عشر ، كانت هي الفترة التي شهدت حركة الاصلاح الدينى (الجريجورى) ، كما كانت هي فترة النمو التجارى ، ونمو المدن . كانت المجتمعات الحضريه قد ازدهرت من جديد في الشمال الايطالى ، وبدأت تنمو في الأقاليم البعيدة عن البحر المتوسط . وازدهرت المدن التجارية الايطالية بفضل تجارتها مع القسطنطينية . وفي الوقت نفسه بدأت جنوا وبيزا تمارسان نشاطهما التجارى مع موانئ البحر المتوسط مثل مرسيليا وبرشلونة ، وتاربون . كما بدأت الهجمات على أساطيل المسلمين وموانئهم

Painter, «Western Europe on the Eve of the Crusades» (٤٣)

p. 29,

في كورسيكا وسردينيا ، بل وأق تونس (٤٤) .

أخذ الناس يتبادلون النقود على نطاق أوسع من ذي قبل . وثمة دليل على أن الحجاج والصليبيين كانوا يحوزون النقود عن طريق الاقتراض أو ببيع أملاكهم - كما أن الثابت أن الكنيسة كانت ترهن وتشتري أملاك الصليبيين الذين كانوا بحاجة الى المال من أجل الرحلة الطويلة . ومن المؤكد أن لندن كانت مدينة كبيرة تسكنها عائلات ثرية عند نهاية القرن الحادى . وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد ظلت الحضارة الغربية في ذلك الحين حضارة قوامها الطابع الريفى بافرازاته الفكرية والاجتماعية والسياسية .

وإذ رسمنا الملامح العامة للمجتمع الذى أفرز الحركة الصليبية ، وحددنا القوى الاجتماعية الفاعلة في هذا المجتمع ، يبقى أن نحاول رصد الدوافع والأسباب التى حفزت كلا من هذه القوى للمشاركة في الحركة الصليبية . بيد أننا يجب أن نلاحظ أن إيديولوجية الحرب المقدسة كانت قد باتت راسخة في وجدان الغرب الأوربي بحيث لم يكن هناك ، وقت خروج الحملة ، من يبحث عن المبرر الاخلاقي لشن هذه الحرب . « فالحرب المقدسة » كانت غطاء مناسباً لكل المشاركين في هذه الحركة ولكن هذا الغطاء لم يكن يعنى أن أهدافهم كانت واحدة أو أن فهمهم للإيديولوجية الصليبية كان واحداً . بل إن العكس تماماً هو الذى حدث ، فقد كان الفهم الشعبي « الذين يعملون »

Painter, «Western Europe on the Eve of the Crusade», (٤٤)
pp. 9-10; Cantor, Med. Hist., pp. 271-272.

ومن المهم كذلك أن نشير الى أن هذه الفترة شهدت الانتعاشا للحرف اليدوية بشكل مطرد ، فقد زاد عدد الحرفيين الذين كانوا يقدمون لجماهير المدن النامية حاجاتهم من الكساء والأثاث وغيره . وكان أولئك الحرفيون هم بناة المساكن الجديدة وصناع الأثاث الضرورى لبيوت ذلك الزمان .
انظر :

Wolff, The awakening of Europe, p. 202; Sylvia Thrupp
«Medieval Industry 1000-1500» in the Fontana
Economic History, pp. 221-273.

مناقضا تماما لفهم كل من الكنيسة والنبلاء لهذه الايديولوجية . كذلك فهم النبلاء الايديولوجية الصليبية على نحو مخالف لفهم رجال الكنيسة لهذه الايديولوجية . وقد ادى هذا ، بطبيعة الحال الى اختلاف أهداف كل من القوى الاجتماعية التي ساهمت في هذه الحركة .

كانت الدعوة الى الحروب الصليبية دعوة تناسب العصر تماما . فقد كان المجتمع الاقطاعي المشبع بالفخر ، والتعصب ضد غير المسيحيين ، والراغب في الخلاص من خلال أعمال توافق اخلاقياته mores العلمانية - كان هذا المجتمع مستعدا لأن يستجيب للدعوة التي يمكن تفسيرها في ضوء مصطلحات الخدمة الاقطاعية ، والتنافس الاقطاعي . ولكن المشكلة تمثلت في كيفية عبور الفجوة التي تفصل بين المثل والقيم التي تلهم كبار الكنسيين وتلك التي تحرك العلمانيين . وقد ناضل البابوات والدعاة البابويون لبناء جسر من الفهم المشترك فوق هذه الفجوة ، ولكنهم فشلوا في بنائها (٤٥) . فحين طرحت الكنيسة الايديولوجية الصليبية كان تهدف الى شيء ، ولكن العلمانيين فهموا شيئا آخر .

لقد كانت الحروب الصليبية تجديدا تاريخيا كبيرا في الغرب الأوربي . فقد كانت هي اول حرب يخوضها الغرب تحت راية ايديولوجية معينة . وكان طبيعيا ان تفسد الايديولوجية وتزيّف بمرور الوقت على حد تعبير بيشوب (٤٦) . ولكن تظل الحقيقة أن اعتناق القوى الاجتماعية المختلفة لهذه الايديولوجية كان تعبيرا عن صراع هذه القوى ضد بعضها البعض من ناحية ، كما كان تعبيرا عن التفاعلات الناجمة عن هذا الصراع نفسه من ناحية أخرى . وكانت الحركة الصليبية افرزا للتفاعل بين الكنيسة والنظام الاقطاعي كما سبق القول ، ومن ثم فانها كانت تسعى الى تحقيق اهداف هاتين المؤسستين الحاكميتين في المجتمع الغربي . والكنيسة تجسدها البابوية ، على حين تجسد الطبقة المحاربة والطبقة الزارعة النظام الاقطاعي . وحين

Riley — Smith The Crusades, p. 10. (٤٥)

The Penguin Book of the Middle Ages, p. 104. (٤٦)

خرجت الحركة الصليبية الى حيز الوجود شاركت في دفع عجلتها قوى اخرى مثل النورمان في جنوب ايطاليا وصقلية والجمهوريات التجارية الايطالية ، مما حقق لهذه الحركة صبغتها العالمية المسيحية . ولنحاول رصد الدوافع التي حفزت كلا من هذه القوى التي ادارت عجلة الحروب الصليبية .

وفيما يتعلق برأس المجتمع وعينه ، أي الكنيسة ، فاننا لانشك كثيرا في ان البابا اربان الثاني قد أوضح ان تحرير القدس هو هدف الدعوة التي وجهها الى سامعيه في كليرمون في نوفمبر 1095 م . وعلى الرغم من ان الخطبة التي القاها اربان لم تصلنا في نصها الأصلي ، فانه يبدو ان تحرير القدس كان هو محور خطبة البابا . بيد ان تحديد الهدف البابوي انطلاقاً من هذه الخلفية الدعائية لا يحسم القضية المتعلقة بدوافع البابا وأهدافه من وراء مشروع الحملة المقدسة . حقيقة ان محور الخطبة كان هو تحرير القدس ، ولكن الأهداف والدوافع البابوية الحقيقية كانت تتجاوز الهدف الذي جعله اربان الثاني محورا لخطبته في كليرمون نحو أهداف أكثر علمانية .

وإذا كنا قد أشرنا من قبل الى ان تحديد الأسباب والدوافع وراء الظاهرة التاريخية أمر صعب بوجه عام ، فان الأمر يصبح أكثر صعوبة حين يندعم الدليل الوثائقي أو ينحصر وجوده في شكل شذرات متفرقات . وهذا هو الحال فيما يتعلق بدوافع البابوية في الحركة الصليبية . ذلك ان البعض يعتقد ان السبب كان هو الرغبة في تأمين الحج الى بيت المقدس ، على حين يرى فريق آخر ان الرغبة في نجدة مسيحيي الشرق كانت هي السبب ، ويرى فريق ثالث ان حرب اربان الثاني كانت بهدف توجيه طاقة أوروبا الزائدة في فترة النمو الى خارج القارة لتأمين حركة السلام ، كذلك يعتقد البعض ان البابا كان يريد تأسيس دولة اقطاعية في فلسطين تحت سيطرة البابوية ، ويظن البعض الآخر ان الهدف الحقيقي كان هو زيادة نفوذ البابوية وهيبتها . وهناك أيضا من يرى ان الهدف كان هو توحيد كنيسة الشرق الاثوذكسية والغرب الكاثوليكية تحت الزعامة البابوية .

ويجدر بنا قبل أن نحاول مناقشة كل دافع من هذه الدوافع أن نعرض لأهم الفقرات التي وردت في روايات المؤرخين المعاصرين عن خطبة اربان الثاني في كليرمون . حقيقة أن كل مؤرخ من المؤرخين اللاتين المعاصرين قد أورد لنا النص الذي تصور أن البابا كان ينبغي أن يقوله ، وهو ما أدى إلى خلافات أساسية في الصياغة والأسلوب ، ولكن هناك اتفاقاً على بعض الأمور بين هذه الروايات بالقدر الذي يجعلنا نشعر أنها قد وردت بالفعل في خطاب اربان ، ومن ثم فهي تعبر عن بعض دوافع البابوية . فقد جاء في رواية فوشيه الشارترى (٤٧) ، الذي يعتبر كتابه من المصادر الثلاثة الأساسية في تاريخ الحملة الأولى ، أن البابا قد ذكر سامعيه بوعودهم التي قطعوها على أنفسهم بحفظ الإسلام ، ومراعاة حقوق الكنيسة ، وقال لهم أيضاً : « ٠٠٠ ما يزال ينتظركم عمل جديد ظهر بتوجيه رباني ، وهو عمل عاجل وملح يربط بينكم وبين الرب ، ومن خلاله يمكنكم أن تكشفوا عن نواياكم الطيبة . اذ يجب أن تبادروا بتقديم المساعدة لاختكم القاطنين في الشرق ، أولئك الذين يحتاجون لمساعدتكم التي الحوا في طلبها كثيراً . لأن التترك ٠٠٠ قد هاجمهم كما يعلم الكثيرون منكم ٠٠٠ فاذا تركتموهم يتمادون أكثر من ذلك ، فستكون الهزيمة الكاملة من نصيب شعب الرب من المؤمنين » .

كذلك فإن روبير الراهب الذي كتب في الربيع الأول من القرن الثاني عشر ، والذي يحتمل أنه كان من شهود كليرمون . (٤٨) يتحدث عن الموضوع نفسه بعبارات مشابهة ، اذ يقول ان البابا ذكر سامعيه بأن المسلمين غزوا أملاك المسيحيين في الشرق ، واخذوا بعضهم أسرى ، كما قضاوا على بعضهم

Fulcher of Chartres, pp. 62-63. (٤٧)

Roberti Monachi, Historia Hierosolymitana, in RHC, (٤٨)

Occ., III, pp. 727-30.

انظر نص الترجمة الانجليزية لخطبة اربان في رواية روبير الراهب : Peters (ed.), The First Crusade, pp. 2-5 ; Riley-Smith (ed.), The Crusades, pp. 42-45.

بالتعذيب ، وانهم دمروا الكنائس أو حولوها الى مساجد . ثم أخذ البابا يداعب مشاعر الفخر والزهو حين ذكر الفرنجة بتقواهم وبأمجاد أسلافهم أمثال شارلمان ولويس وغيره ، تم قال لهم : « ٠٠٠ هذه الأرض التي تقطنونها تحيط بها البحار وقمم الجبال ، وهي تضيق عن استيعاب أعدادكم الكبيرة كما أنها بلاد ليست موفورة الثراء إذ أنها لاتنتج إلا ما يكفي زراعتها بالكاد ، وبما أنكم تقتلون بعضكم بعضا ، بحيث تهلكون من جراء الأذى المتبادل ، فلتنبتوا الكراهية من بينكم ، ولتخدموا منازعاتكم ، ولتوقفوا حروبكم ، ولتخلوا عن كافة مظاهر الشقاق والخلاف . سيروا على طريق الضريح المقدس ، وحرروا هذه الأرض من الجنس الشرير ، وكونوا أنتم سادتها . فهذه الأرض التي يقول الكتاب المقدس أنها ٠٠ « تفيض باللبن والعسل » فد منحها الرب ملكا للمؤمنين ٠٠٠

ورواية بلديريك ، كبير أساقفة دول ، الذي كان حاضرا في كليرمون والذي يركز على أخوة المسيحيين في الشرق والغرب (٤٩) ، تقول أن البابا ذكر لجمهور السامعين ان الأسف والحزن العميق سوف ينتابهم حين يسمعون عن الأذى والاضطهاد والعذاب الذي يتعرض له المسيحيون في القدس وانطاكية ، وغيرهما من مدن الشرق ، ثم يحدثهم عن مدينة القدس التي عانى فيها المسيح من أجل شعبه ، ودفن فيها ، تم يقول : « ٠٠٠ اسمعوا واعوا ، أنتم يا من تتحلون بشارة الفروسية ، ويملؤكم الغرور والكبرياء ، فتهاجمون اخوانكم ، وتمزقون بعضكم بعضا . ليست هذه هي الجنديّة الحقيقية في سبيل المسيح الذي يدعو الى حماية رعاياه ٠٠٠ اذا كنتم تنشدون خلاص أرواحكم ، فلنطرحوا جانبا هذه الفروسية ، ولتنتدموا في جسارة كفرسان المسيح حقا ، وتندفعوا بأقصى ما يمكنكم من سرعة للدفاع عن الكنيسة الشرقية ٠٠٠

RHC, Occ., IV, 12-16.

(٤٩)

انظر نص الترجمة الانجليزية في :
Peters, Op. Cit., pp. 6-10 ; Riley-Smith, Op. Cit., pp. 49-53.

اننا نقول هذا أيها الأخوة ، فعسى ان تكفوا أياديكم الفاتلة عن تدمير
أخوانكم • فلتجعلوا من أنفسكم خصوما للامميين في سبيل مصلحة اخوانكم
في الدين • وفي ظل زعامة يسوع المسيح ، فائدنا ، يمكننا ان تناضلوا في
سبيل قدسكم ، في خط قتال مسيحي ، اشد قوة ، بل وبنجاح أكثر من نجاح
أبناء يعقوب في الزمن القديم - ناضلوا في سبيل هزيمة الأتراك وطردهم •••
انه لأمر جميل ان تموتوا في سبيل المسيح وفي المدينة التي مات فيها من
اجلنا ••• كما أن املك العدو ستكون لكم ، عندما تستولون على كنوزهم
وتعودون الى ذويكم منتصرين • اذا ما خضبتكم دماؤكم ، فان المجد الأبدى
سيكون من نصيبكم ••••• «

كذلك فان جيوربت مقدم دير نوجنت Guiber of Nogent (٥٠) ،
الذى يحتمل انه كان بين الحاضرين في كليرمون ، قد اورد لنا رواية أخرى
عن خطبة اربان الثانى بدأها بالحديث عن فضل القدس وكيف ان البابا
فكر الحاضرين بأن المكابيين في الزمن القديم قد حاربوا من أجل المعبد ،
فاستحقوا الثناء ، وتبواوا أعلى مراتب التقوى • ومن ثم « ••• فان من
حقكم أيضا يا جنود المسيح ان تدافعوا عن حرية بلادكم بالسلاح • واذا
كنتم ترون ان مسكن الحواريين المقدسين وغيرهم من القديسين يستحق
مثل هذا العناء ، فلماذا تتقاعسون عن انقاذ الصليب والدم والمقبرة ؟ •••
لقد خضتم غمار حروب كثيرة غير عادلة ••• وسببتم لبعضكم البعض
الأذى والدمار ، لا لسبب سوى الفخر واللباهاة مما جعلكم تستحقون الموت
الأبدى واللعة الأكيدة ، ونحن نقدم لكم الآن حربا فيها ثواب الاستشهاد
المجيد الذى سوف يستحق الثناء ، الآن والى ابد الأبد ••• فكروا فيمن
يقومون بالحج عبر البحر ، وحتى لو كانوا من الأثرياء ، فتأملوا ما يدفعونه

Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos, RHC, (٥٠)
Occ., IV, pp. 137-40.

انظر الترجمة الانجليزية في :

Peters, op. cit., pp. 10-15 ; Riley-Smith, op. cit., pp. 45-49.

من ضرائب وما يتعرضون له من عنف ، لأنهم مضطرون لدفع الضرائب والاتاوات حتى يسمح لهم بالدخول من كل بوابة من بوابات المدينة ،

هذه هي الروايات الأربع الأساسية للخطبة التي القها اريان الثاني في كليرمون . (٥١) ومن خلالها نلاحظ أن ثمة اتفاقا على أن هدف الحملة التي اقترحها البابا كان نبيت المقدس ، لتحريرها ولرفع آلام المعاناة والاضطهاد عن المسيحيين في الشرق ، وتأمين طريق الحج . فكل من فرشيه الشارنترى ، وروبير الراهب ، وبلدريك الدولي ، وجيوبرت النوجنتي يتفقون على هذه الأهداف ، كما أنهم جميعا يتحدثون عن وجوب اقرار السلام في الداخل وتوجيه الجهود العسكرية ضد المسلمين في الشرق . فضلا عن الوعد بالغفران ، ذكر روبر الراهب أن أرض فلسطين « التي تفيض باللبن والعسل ، سنكون ملكا للمشاركين في هذه الحملة ، على حين ذكر بلدريك الدولي أن « املاك العدو سوف تكون لكم » .

هكذا ، اذن ، نستطيع أن نقرر أنه يمكن تفسير موقف البابوية في ضوء هذه الأهداف جميعا . كما يمكننا من استقراء الظروف التاريخية أن نحدد أهدافا أخرى . لقد استغلت البابوية الحركة الصليبية كأداة من أدوات السياسة الخارجية لمستهدفت من ورائها تحقيق عدة أهداف ، منها ما هو معلن واضح كما ثبتت من قراءة خطبة اريان في رواياتها المختلفة ، ومنها ما يمكن فهمه من استقراء الظروف التاريخية .

ومن المؤكد أننا يمكن أن نقول ان الحملة الصليبية ، كإيديولوجية ، « فعلة كنسية » Un fait ecclésiastique مثلما يقول بعض المؤرخين (٥٢) .

(٥١) أفضل مناقشة لخطبة اريان الثاني بكليرمون هي تلك التي قامت بها « دانا مونرو » اعتمادا على روايات المؤرخين المعاصرين ، أنظر : D.C. Munro, «The Speech of Pope Urban II at Clermont» American Historical Review, II (1905), pp. 231-242.

Bradford, The Sword, p. 31.

(٥٢)

ولكننا سنلاحظ أنها قد صارت أمرا واقعا ، وحسم أمرها بفضل الدافسح
الدينيوية . لقد كان اربان الثانى يرى أن الحملة الصليبية يمكن أن تحقق
أهدافا أربعة فضلا عن هدفها المعلن وهو توحيد العالم المسيحى بعد المنازعات
المريرة التى سببت انقسامه حول الإصلاح الجريجورى ، وثانيا ، أن هذه
الحملة ستزيد من هيبة البابوية فى وقت كان فيه أنصار الامبراطور الألماني موجودين
فى كل مكان حتى فى روما نفسها . وثالث هذه الأهداف ان هذه الحملة ستنتهى
الانشقاق بين كنيسة الشرق والغرب . أما الهدف الرابع من هذه الحملة
فيمكن النظر اليه من خلال الحقيقة القائلة بأن اربان نفسه كان فرنسيا ، فقد
كان يعلم تماما أن الامبراطور الألماني لن يشارك ، وأن الحاكم الانجلو -
نورمانى (وليم روفوس) لن يشارك أيضا ، كما أشرنا من قبل ، وكان لابد
ان يعتمد على جيوش الامارات الاقطاعية الفرنسية بشكل اساسى .

وإذا كانت دوافع البابوية (التى كانت تمثيلا وتجسيدا للذين يصلون)
وأهدافها من وراء الدعوة الى الحملة الصليبية مختلفة ومتداخلة على هذا النحو،
وإذا كانت الدوافع الدينيوية واضحة ، بهذه الصورة ، فان دوافع أولئك الذين
أخذوا شارة الصليب من العلمانيين كانت على نفس الدرجة من التنوع والاختلاط
سواء كان هؤلاء من الفرسان (الذين يحاربون) أو من عامة الناس والفلاحين
(الذين يعملون) .

ولا شك فى أن كثيرين من فرسان لغرب الأوربي ، عشية الحروب الصليبية
كانوا يتحرقون شوقا لقتال المسلمين ، كما كانت جوانحهم تضطرم بالحماسة
الجارفة والشوق المحموم لانتزاع الأرض المقدسة من المسلمين . ونتيجة للجو
الساخن الذى خلقته الدعاية المسعورة ، التى أذكت البابوية نيرانها ضد
المسلمين ، كانت نفوس غالبية الفرسان تمور بالرغبة فى قتل المسلمين الذين
أشاع دعاة البابوية والبشرون الجوالون أنهم يدمرون الكنائس ويقتلون
المسيحيين فى الشرق ، وأنهم يسببون كثيرا من الضيق والأذى للحجاج
المسيحيين المسافرين الى الأراضى المقدسة . لقد لجأت البابوية الى كل الحيل

الدعائية في صياغة الايديولوجية الصليبية ، فقد لجأت الى الكذب وتزوير الوثائق ، والمبالغة ، وترويح قصص الأحلام المقدسة والرؤى الاعجازية . وساهمت الظروف التاريخية في غرب أوروبا آنذاك في نضج هذه الايديولوجية والواقع أن المؤرخين اللاتين ، والمؤرخين السريان والأرمن قد حرصوا على الترويح لمثل هذه الأمور . فقد ذكر متى الرهاوى أن كبار قادة بلاد الفرنجة قد ساروا بكل ما في وسعهم من قوة وقدرة لكي ينتقموا من المسلمين « ٠٠٠ ولكي يستعيدوا المدينة المقدسة أورشليم من أيدي الكفار ، وليرفعوا أيدي المسلمين عن المقبرة المقدسة التي يرتقد فيها المسيح ٠٠ » (٥٤) كما أن ميخائيل السورياتي يقول في هذا الصدد « ٠٠٠ حين تعرض كثيرون لهذا الأذى ، أخذت الحماسة بصدور الملوك والكرونتات وخرجوا من روما ٠ » (٥٥) وبغض النظر عن ابتعاد هذه الأقوال عن الحقيقة كما أوضحنا في الصفحات السابقة ، فإنها كانت أخبارا شائعة في المجتمع الأوربي بالقدر الذي جعل الكثيرين من الناس في الغرب (ومنهم الفرسان بطبيعة الحال) يأخذونها مأخذ الجد . ومن هنا كان الشعور العدائي المتصاعد ضد المسلمين في أوساط الفرسان اللاتين آنذاك واحدا من أهم دوافع هؤلاء للاشتراك في حملة اربان الثاني .

ومن المهم أن نوضح أن هذا الشعور العدائي كان ناجما عن عدم معرفة الغرب بحقيقة المسلمين ، إذ كانت رؤية الغرب الكاثوليكي للمسلمين مستمدة من قصص الرعب التي أشاعها عنهم رجال الكنيسة ، ومن الأفكار التي روجت لها الأساطير التي ساهمت في صياغة الايديولوجية الصليبية ، مثل اسطورة حج شارلمان الى فلسطين ، وحروبه وانتصاراته هناك ضد المسلمين (٥٦) ،

Matt. d'Edessa, RHC., Arm., I, p. 25 (٥٤)

Michel le Syrien, tom. III, p. 182. (٥٥)

(٥٦) انظر تحليل كونت ريان لهذه الاسطورة في :

AOL, tom. I, pp. 9-22.

ومن الملاحم التي شاعت في أغنيات المآثر *Chansons de geste* التي تتحدث عن بطولات الفرسان المسيحيين ضد المسلمين مثل أنشودة رولان ، (٥٧) فضلا عن روايات الحجاج القادمين من الشرق والتي حملت طابع المبالغة (رغبة في اكتساب ثقة المجتمع واحترامه) . وما كان المبشرون الجوالون والدعاة الكنسيون يروجونه بين الناس . والدليل على ذلك أن الوحشية التي كان الفرسان القادمون عبر جبال البرانس لمساعدة المسيحيين الأسباب يظهرونها ، كانت تتناقض بشكل واضح مع تصرفات الفرسان المسيحيين أنفسهم ، فقد كان أميراً أشبيلية المسلم ، مثلاً ، حليفاً لأفونسو السادس Alfonso VI أمير قشتالة (ت ١١٠٨ م) ، كما أن السيد القنبيطور Cid Campeador ، الذي جعلته الأساطير محارباً مسيحياً مثالياً ضد المسلمين ، لم يكن في حقيقة أمره سوى جندي مرتزق يبيع سيفه لمن يدفع من المسلمين والمسيحيين على حد سواء . (٥٨)

على أية حال ، فإن أهدافاً ومطامع دنيوية عديدة كانت وراء مشاركة أبناء هذه الطبقة في أخذ شارة الصليب . ولاشك في أن البعض قد أخذوا شارة الصليب على أمل أن ينالوا الغفران عن خطاياهم ويدخلوا بذلك في رحمة الرب . بيد أن البعض الآخر ، لاسيما من كبار الأمراء الاقطاعيين الفرنسيين كانوا يتحرقون شوقاً للمغامرة في الخارج بعد أن باتت فرصة الغزو والتوسع

وعن هذا الموضوع أيضاً انظر :

Thomas Bulfinch, *The Age of Chivalry and legends of Charlemagne, or, Romance of the Middle Ages*, (New American library, New York 1962).

(٥٧) عن هذا الموضوع انظر : جوزيف نسيم يوسف « أنشودة رولان : قيمتها التاريخية ، وما أثير حولها من حول ونقاش » في : ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط (تحرير قاسم عبده قاسم ورافت عبد الحميد ، المجلس الأول ١٩٨٢ ، دار المعارف) ، ص ٧٥ - ص ١٠٤ .
(٥٨) الطاهر أحمد مكي ، ملحمة السيد - دراسة مقارنة (دار المعارف ، ط ٠ ثانية) ص ٧٩ - ص ١٤٢ .

ضئيلة داخل الوطن • فضلا عن ذلك فان ارتفاع معدل الزيادة السكانية كان يعنى ان هناك عددا متزايدا من الفرسان الذين لايملكون ارضا في فرنسا على استعداد لأن يدلوا بدلهم في حملة تتيح لهم الحصول على الضياع والأماك في فلسطين • (٥٩) وقد لعب البابا على اوتار هذا الأمل بشحن صريح في خطبته في كليرمون • ولاشك ان الأطماع الدنيوية قد حركت ابناء هذه الطبقة ، فقد داعبت خيال من يملكون صورة الضياع الجديدة التي يمكنهم اضافتها لأماكهم في الوطن لتزيد من ثراء عائلاتهم ، وترتقى بهم درجات في السلم الاقطاعي • اما الذين لا يملكون ، فقد كانت صورة الضياع التي يمكنهم امتلاكها في « الشرق العجيب » بحيث تعوضهم عن جوعهم الى الأرض والذي عانوا منه كثيرا في الوطن - كانت هذه الصورة تلهب مشاعرهم فعلا • وهكذا نخلص الى ان هدفا أساسيا من اهداف طبقة الفرسان كان هو امتلاك الأرض التي كانت مصدر الثروة والسلطة في ذلك الزمان •

ومن ناحية أخرى ، كان كثيرون من فرسان الغرب الأوربي في القرن الحادى عشر فريسة للتلق والاضطراب من جراء قيود حركة السلام • وكان واضحا أن أولئك الفرسان سوف يستجيبون لأية دعوة ترجعها البابوية لشن حرب ضد المسلمين في الشرق ، اذ كان ذلك يكفل لهم السنار الدينى المناسب لارضاء نزعاتهم العدوانية • ومن هذه الطائفة كان ريمون أمير تولوز الذى كان يئن تحت وطأة الاحساس بتضاؤل فرصة المغامرة في الوطن ، وجودفرى دوق اللورين الأدنى • وقد شاعت قصص وأساطير كثيرة حول انضمام جودفرى للحملة ، ولكن الحقيقة أن هذا الأمير المغامر كان قد دمر الأديرة في المناطق المجاورة لأمالكه في بوايون ، وكانت أمه ايدا Ida المتدينة هي التي فرضت عليه أن يقدم بعض الهبات للكنائس لتحسين سمعته قبل الرحيل في الحملة الصليبية • أما هو ، فقد قرر الرحيل عندما سرت الحماسة الصليبية

Cantor, Med. Hist., p. 320 ; Bishop, The Penguin (٥٩)
Book, p. 105.

في كل مكان ، وعندما رأى جيرانه من النبلاء يستعدون للرحيل . (٦٠)

كذلك كان بعض الفرسان الذين شاركوا في الحملة يطعمون في استعادة الهيبة التي خسروها في أوطانهم من خلال انتصار عسكري يجرزونه في الحرب المقدسة بـفلسطين . ومن هؤلاء كان دوق نورمانديا الذي كان هو الابن الأكبر لوليم الفاتح . أما الكونت سنيفن حاكم بلوا Stephen of Blois فقد شارك في الحملة الأولى لأن زوجته الطموح ، ابنة وليم الفاتح ، قد دفعتته الى ذلك رغبة منها في الا يتخلف زوجها اللاهي العايب عن المشاركة في أعظم أمجاد العصر : أي الحملة المقدسة المتجهة الى الشرق . كذلك وجد البعض في المشاركة في الحملة الى الشرق فرصة للهروب من العدالة . ويقول ونيم الصوري . (٦١) ان البعض قد انضموا للآخرين حتى لا يتركوا أصدقائهم والبعض افضحوا للحملة حتى لا يظن الناس أنهم كسالى ، وآخرون لأسباب رعناء فقط ، أو هربا من دائنيهم

وكانت هناك اعتبارات عملية أخرى حظيت باهتمام النبلاء ، فقد أكد البابا على أن أملاك وعائلات المحاربين من أفراد جيش المسيح militia Christi ستكون معفاة من السلطة العلمانية مؤقتا ، وستوضع تحت حماية القانون الكنسي . وأعلن البابا كذلك أن أي عنف ضد جنود يسوع المسيح ستكون عقوبته الحرمان . وفي مقابل ذلك كان الفرسان ملتزمين تجاه الكنيسة بالوفاء بنذرهم بالمشاركة في الحملة الى الشرق . ومن ناحية أخرى ، كان هذا يعني مزيدا من السيطرة الكنسية على حساب السلطة العلمانية ، إذ ان وضع أملاك الفرسان تحت حماية الكنيسة كان يؤدي الى حرمان الحكام العلمانيين من الخدمات الاقطاعية التي كان هؤلاء الفرسان يؤدونها لهم بمقتضى

Duncalf, «Clermont to Constantinople», pp. 266-269. (٦٠)

جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى (دار المعارف ١٩٦٣ ، ٧٠٧) ص ١٥٣ - ص ١٥٦ .
William of Tyre, vol. I, p. 93.

القانون الاقطاعي ولفترة غير محدودة * (٦٢)

وإذا كانت المثالية والرغبة في الغفران ، أو الجوع الى الأرض ، أو حب المغامرة * . وما الى ذلك من أسباب هي الدوافع التي حركت « الذين يحاربون » للمساهمة في الحملة الجائوية ، فان الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية القاهرة والمحبة في غرب أوروبا آنذاك هي التي جعلت الكثيرين من « الذين يعملون في عامة الناس من الفلاحين وسكان المدن ، يهاجرون الى الشرق في ظل الكنيسة ورعايتها * . ولأن احلام المهوورين في المجتمع الأوربي آنذاك لم تكن تتحقق سوى في القليل النادر ، فانهم كانوا يعتقدون أنهم لن يخسروا شيئاً بذهابهم الى الشرق ، اذ لم يكن ينتظرهم في الوطن سوى الموت جوعاً أو قهراً تحت سيطرة سادتهم الاقطاعيين * . ولكنهم كانوا يأملون في أن تتحسن ظروفهم المعيشية في الأرض « التي تفيض باللبن والعسل » ، بغض النظر عن الوعد الذي بذله البابا بالخلاص في الحياة الأخرى * (٦٣)

إن اختلاف دوافع الطبقة المتهورة في المجتمع الاقطاعي في غرب أوروبا عن دوافع كل من الفرسان ورجال الكنيسة ، على الرغم من أنهم جميعاً تحركوا في اطار الايديولوجية الصليبية ليؤكد أن الايديولوجية تستخدم في مرحلة التجهيز للحرب لكي تحرك المجتمع كله صوب هدف وعلى أساس فكري وأخلاقي واحد * . وعندما تبدأ عجلة الحرب في الدوران تكشف كل طبقة عن اهدافها الخاصة التي تختلف بالضرورة مع اهداف الطبقات الأخرى ، وربما

Duncalf, «The councils», p. 247-249 ; Boase, Kingdoms (٦٢) and strongholds ; p. 16 ; Michaud, Histoire de Croisades, tom. I, pp. 9-10 ; Bradford, The Sword, p. 31.
Boase, Kingdoms and strongholds, pp. 16-17 ; Bradford (٦٣) ford, The Sword, p. 15 ; Bishop, The Penguin Book, p. 105 ; Cantor, Med. Hist., p. 322.

انظر أيضاً : يوشع براور ، عالم الصليبيين (ترجمة وتقديم وتعليق قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن - دار المعارف ١٩٨١ م) ص ٤٤ - ص ٤٥ *

تتناقض معها • فبينما سعت الطبقة العليا في المجتمع الاقطاعي الأوربي (الكنسيون والفرسان) الى تحقيق مزيد من السلطة والسيطرة والقوة من خلال هذه الايديولوجية التي أفرزت الحركة الصليبية ، كان هدف العامه من المزارعين والأثنيان وسكان المدن الفقراء هو التحرر من ريقبة السيطرة الاقطاعية والكنسية في مجتمع عرف التخصص في الوظائف الاجتماعية للطبقات بشكل يقضى على أمل أبناء الطبقة المقهورة في التحرر ، ومن ثم جاءت فكرة الحرب المقدسة لتحرير قبر المسيح فرصة هائلة لتحرير المقهورين ، إذ لم يكن من الخطأ أن يحرق قبر المخلص قوم يرسفون في أغلال القنية •

ويرى جروسية أن الحملة الشعبية قد خرجت ضد أهداف الكنيسة (٦٤) من الذهاب (٦٥) • ولكن الحافز على الرحيل كأن أقوى من أن تعوقه هذه يتصور أن يخرج أبناء الطبقة المنتجة لكي يشاركون في هذه الحرب • وعندما أدرك أن جماهير العامة والفلاحين ستكون عقبة في سبيل الحملة بذل الجهد لمنعهم من الذهاب (٦٥) • ولكن الحافز على الرحيل كان أقوى من أن تعوقه هذه الاجراءات إذ كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية في الغرب الأوربي آنذاك في صالح الحركة الصليبية • ولكن دوافع الفلاحين العامة كانت تتناقض تماما مع أهداف الكنيسة والنبلاء ، إذ رأى « الذين يعملون » في الحركة فرصة هروبية من اسار الطبقة الاقطاعية ومن المجاعات والأوبئة التي كان الغرب يعاني منها في القرن الحادي عشر •

كانت جماهير الفلاحين الذين يلتفتون حول المبشرين الشعبيين غارقة في غياهب الجهل والغباء ، كما كانت جموعهم واقعة تحت وطأة العجز واليأس من الظروف المعيشية السائدة ، ففي سنة ١٠٩٥ م نفسها حدثت مجاعة رهيبة شملت معظم أنحاء الغرب الأوربي وقد وصف سيجيبير الجامبأوى Sigebert de Gembloux هذه السنة بأنها « ٠٠٠ سنة مصائب ، تفشت فيها المجاعة

Grousset, Histoire des Croisade, I, p. 11.

(٦٤)

(٦٥) انظر نصوص خطابات اربان الثاني في هذا الشأن في :

Riley-Smith (ed.), The Crusades, pp. 37-40; Cf. Duncalf, «Clermont to Constantinople», pp. 253-255.

في كل مكان ، واخذ الفقراء يهاجمون الأغنياء لكي يسرقوهم وأخذوا يشعلون النار في ممتلكاتهم ٠٠٠ « (٦٦) لقد كانت الأرض عاجزة عن ان تعول سكانها ، ولم يكن ممكنا الابقاء على جماهير الفلاحين فوق الحقول الشحيحة . وهذا هو ما يمكن ان نفسر به خروج الأعداد الغفيرة وراء المبشرين من امثال بطرس الناسك والثر الفلوس ٠٠٠ وغيرهم فيما عرف باسم الحملة الشعبية أو حملة الفلاحين .

لقد كان العصر هو عصر التبشير الشعبي . ولكن عددا كبيرا من الذين شاركوا في الحملة الشعبية (وفي حملة الفرسان ايضا) لم يكونوا يقدرون على التمييز بين اورشليم السماوية واورشليم الأرضية . ومن ثم كانت الصورة الغيبية عن القدس السماوية التي تختلط بواقع القدس الأرضية تؤثر تأثيرا عميقا في وجدانهم ، اذ كانوا يظنون انهم ماضون الى الأرض التي لا يوجد بها فقراء Pauperes ، والتي رسمها سفر الرؤيا ، على حين كانت رحلتهم الحقيقية تسعى صوب القدس الحقيقية على ارض فلسطين ، هذه الصورة الأخروية التي اختلطت بالواقع المادي في عقول جماهير الصليبيين كانت في حقيقة امرها نتاج تراث طويل في الفكر الاجتماعي المسيحي . لقد كانت دعوة اربان الثاني تعنى بالنسبة لمن شاركوا في الحملة الشعبية شيئا لم يكن البابا نفسه يفهمه على حد تعبير نورمان كانفور (٦٧) ، فقد كانوا يتوقون الى التحرر من نير الاحباط والفقر للذين خيما على حياتهم النعسة ، واكتشفوا في عبارات نغمات أخروية خلاصية كانت ابعد ماتكون عن نظرة البابا الدنيوية . كان ثمة اعتقاد شائع بأن العالم يقترب من نهايته ، وأن الحياة الدنيا التي خلقها الرب ، والتي تحولت الى مكان للمنازعات بين قوى الشر والظلام ، سوف تنتهي بالدمار . وستكون علامة دمارها انفجار الصراع

Bradford, The Sword, p. 30-31 ; Boase, Kingdoms (٦٦)
and strongholds, pp. 16-17.

Cantor, Med. Hist., pp. 322-323.

(٦٧)

النهائى بين الشر والخير ، وسوف يذهب الشيطان الى الجحيم ومعه كل الذين اختاروا حزبه ، على حين يذهب الأبرياء والعادلون للتمتع بحياة خالدة ومجيدة مع الرب • (٦٨) لقد ربط الفقراء أنفسهم بأولئك الأبرياء العادلين ، وشاع بينهم أن نهاية العالم القريبة سوف تنقلهم الى أورشليم السماء حيث يستمتعون بالنعيم الخالد • هذا التراث هو الذى جعل القدس السماوية تختلط بالقدس الأرضية فى أحلام المفهورين من أبناء الغرب الأوروبى وهو تراث كان يمثل ركيزة الفكر الغربى الشعبى فى القرن الحادى عشر ، أى عشية الحروب الصليبية • (٦٩)

هكذا ، نصل الى صورة حقيقية ، قدر المستطاع ، للدوافع والأهداف التى حفزت قوى المجتمع الأوروبى فى القرن الحادى عشر للمشاركة فى حملة اربان الثانى • وفى تصورنا أننا نستطيع أن نقرر أن الحسم فى مصير الحركة الصليبية كان من نصيب العوامل الدنيوية على الرغم من أن الايديولوجية التى تحرك الجميع فى اطارها قد نسجت على أساس دينى ، وحددت هدفا دينيا مثيرا هو تحرير الأرض التى خطا يسوع المسيح فوق ترابها • لقد كانت دوافع القوى الاجتماعية فى الغرب الأوروبى للمشاركة فى هذه الحرب خليطا من الدوافع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية انصهرت جميعا فى بوتقة الايديولوجية التى افرزت الحركة الصليبية •

والحقيقة أن كثيرين من الناس فى الغرب مايزالون ينظرون الى الحروب الصليبية نظرة رومانسية ، لأن مشهدها يجسد العقيدة وهى تسير للقتال بأسلحتها المشرعة تتلاق تحت الشمس ، كما أن الجيش الصليبي نفسه يبدو فى عيونهم جيشا من الرجال النبلاء الذين هذبهم تقاليد الفروسية على

L'An mille, pp. vii-ixi; Mayer, The Crusades, pp. 12-13; (٦٨)

Runciman, Ashit. of the Crusades, vol. I, p. 115.

Alphandéry, la Chétienté, pp. 23-24 ; Bishop, The (٦٩)

Penguin Book, p. 105 ; Bloch, Feudal Society, pp. 81-85.

الرغم من ميولهم الحربية وحبهم للقتال • (٧٠) ولكن الحقيقة أن الصورة الفعلية للحروب الصليبية تحمل كثيرا من الملامح القاتمة • وقصة الحروب الصليبية حافلة بمشاهد الطمع والخسة ، وصور الخزي والعار ، فقد كان الصليبيون قوما همجيين متوحشين ، حتى بمقاييس ذلك الزمان ، لا يراعون عهدا ولايصونون وعدهم في كثير من الأحيان • بل ان العلاقات بين الصليبيين انفسهم كانت غاصة بالحقد والخلافات • وعلى الرغم من أنه كان يفترض أن الصليبيين هم جند الرب المحاربون في خدمته ، فالواقع أنهم قد صدروا أقطابهم وحروبهم الاقطاعية الى الأرض التي شهدت خطوات المسيح •

ان الحوادث والأفكار المعقدة المتشابكة التي أدت الى ميلاد الحركة الصليبية في رحم الايديولوجية التي حركت كافة القوى الاجتماعية ، وتفسيرات المؤرخين لأسباب ونتائج هذه الظاهرة التاريخية تقدم للمتهمين بدراسة المجتمع الانساني نموذجا فريدا عن مدى مايمكن أن ينتج عن حركة القوى الاجتماعية من استجابات • ففي أوروبا الغربية أواخر القرن الحادي عشر ، كانت دعوة اربان الثاني تطرح أمام المجتمع الذي فرقه الانقسام هدفا عاما يمكن لكل قوة من القوى الفاعلة في هذا المجتمع أن تعبر عن نفسها من خلاله • وحين تحرك المجتمع صوب هذا الهدف العام ، كشفت كل قوة من القوى الاجتماعية عن فهمها الخاص المايديولوجية التي تحركت في اطرافها •

Wood, The Age of Chivalry, pp. 94-95 ; Cantor, Med. (٧٠)
Hist., p. 317.

الفنح النورمانى لانجلترا :

ملحمة فريدة فى ناربخ انجلترا ونورمانديا فى العصور الوسطى

للدكتور محمد محمد الشبخ
أسناذ ناربخ العصور الوسطى
بآداب الاسكندرية

الفتح النورمانى لانجلترا

ملحمة فريدة في تاريخ انجلترا ونورمانديا في العصور الوسطى

تعرضت الجزيرة البريطانية للغزو الجرمانى في النصف الثانى للقرن الخامس الميلادى ، قامت به مجموعة من القبائل الجرمانية المتحالفة هي : الانجليز والسكسون والجوت (١) ، وساعد على نجاح ذلك الغزو ما حدث من قيام الامبراطورية الرومانية بسحب آخر فرقها وحميتها قرب منتصف ذلك القرن سنة ٤٤٢ م (٢) ، وترتب على هذه الموجة العاتية من الغزو أن تفتقرت اللغة اللاتينية ، وتراجعت الديانة المسيحية ، وتأخرت المدن الكبيرة ، ومحيت النظم الرومانية وقضى على ما كان لروما من دلائل السيطرة والسلطان في تلك البلاد (٣) .

ولكن على الرغم من ذلك ظلت الجزيرة البريطانية تحتفظ بعناصر سكانها القدامى ، فقد بقى الايبيريون السمر والكلتيون الجبليون والكلتيون البريتون . كل هؤلاء وأولئك لم تذهب بهم الرياح أو تجهز عليهم الكارثة ، بل ظلوا يمثلون عنصرا من عناصر سكان الجزيرة البريطانية . (٤)

(١) Davis : «The British Isles from the earliest times to

the Middle ages» in B. H. VII, p. 3497.

Katz : The Decline of Rome and the rise of Med. Europe. (٢)

p. 92, Lot : The End of the Ancient world, p. 203.

Camb. Med. Hist. V. 1, p. 388.

Trevelyan : Hist of England, part I, p. 33. (٣)

(٤) فشير : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ج ١. ص ٣٨, (مترجم)

ويتجلى الظلام عن بريطانيا في نهاية القرن السادس الميلادي (٥٩٧م) عند قدوم القديس أوغسطين ، فتبدو وقد تغيرت معالمها فصارت جرمانية وثنية وتغير اسمها فأصبح انجلترا بدلا من بريطانيا وحل مجتمع جرمانى بدائى محل مجتمع كلتى وغدت اللغة جرمانية خالصة والاله المعبود اسمه أودين والزراعة هى عصب الحياة فيه (١٥) .

ولما كانت غزوات الجرمان لبريطانيا قد تمت تحت قيادة نفر من رؤساء القبائل وزعماء العشائر ، فقد غدا أولئك الزعماء ملوكا متوجين بعد الاستقرار ، واتخذ كل مملكة قائمة بذاتها ، وأسفر ذلك عن قيام ممالك قبلية مختلفة سميت بالممالك السبع **Heptarchy** ، وهى الممالك التى أقامتها العناصر الثلاثة المشتركة فى الغزو ، فقد أقام الجوت مملكة واحدة وكون السكسون ثلاث ممالك أخرى واختص الانجليز بالثلاث الباقية (٦) .

ولقد اندلعت الحروب الطاحنة بين تلك الممالك ، واهتم ملوكها بإثارة البغضاء وشن الحروب فيما بينهم . وسمت همة بعضهم لنيل الزعامة فى تلك الدويلات الجرمانية وتصفية أملاك جيرانهم واحتواء ممالكهم (٧) . فاذا أنزل أحدهم الهزيمة بالأخر احتوى أرضه وأضافها الى مملكته والزمه بدفع اتاوة معينة واذا استنطاق أحد هؤلاء الملوك الحاق الهزائم بكل أئداده ومنافسيه حصل على سيادة انجلترا كلها (٨) .

ولقد عقدت الزعامة لمملكة وسكس **Wessex** فى مطلع القرن التاسع

Davis : op cit. pp. 3504-5. (٥)

Royer : Concise Hist. of Britain, pp. 8-9.

Rayner : op. cit. pp. 10-11. (٦)

(٧) فشر : نفسه ص ٣٩ ٤٠ ، ديفز : أوربا العصور الوسطى ص ٣٢
(ترجمة د . حمدى) .

(٨) ديفز : نفسه ص ٣٢ ، فشر : نفسه ص ٣٩ - ٤٠

الميلادى (٩) ٠ منذ عهد الملك اجبرت Elgbert (٨٠٢ - ٨٣٩ م) ، الذى يعتبر أول ملك يحكم كل إنجلترا ، وحين تولى الملك الفريد العظيم (٨٧١ - ٨٩٩ م) حفيد اجبرت ، كانت إنجلترا مهددة من غزوات الدانبيين أو الفيكنج وهى الغزوات التى كادت تقضى على ما كان لانجلترا فى ذلك الوقت من هدوء واستقرار (١٠) ، وعلى الرغم من عظم وطأة الدانبيين الا أن الفريد العظيم استطاع أن ينفذ مملكته من خطرهم ويمنعهم من الاستيلاء على الجزيرة برمتها (١١) ، اذ انزل بهم الهزائم سبع مرات ، والحق بهم هزيمة بحرية كبيرة قرب أواخر القرن التاسع (٨٩٦م) ، ومن أجل ذلك ونظرا لعنايته الشديدة بالبحرية الانجليزية التى صار لها شأن عظيم فيما بعد ، لا يعتبر الفريد العظيم مؤسس البحرية الانجليزية ٠ (١٢)

وإذا كان لألفريد العظيم من فضل فلأنه نجح لأول مرة فى جمع الممالك الانجليزية على هدف واحد من خلال مقاومته العنيفة للدانبيين فنجح فيما فشلت فيه الكنيسة من توحيد الانجليز وجمعهم على هدف واحد ، فضلا عن اصلاحاته التعليمية والكنسية التى اضافت كثيرا الى الناحية لقومية (١٣) ، ولهذا عد عهده بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ الأمة الانجليزية قاطبة ، وعند وفاته فى نهاية القرن التاسع تجرأ خلفاؤه وأخذوا يستردون البلاد من الدانبيين جزءا جزءا ، وكلما تقدموا صوب الشمال وحرروا جزءا أقاموا فيه معقلا تحول بمرور الوقت الى مدينة مسيطرة حتى انتهى الأمر بتوحيد إنجلترا

Davis : «The British Isles» B. H. VII, p. 5307. (٩)

Schjoth : «Great days of the Northmen,» B.H. VII, (١٠)
p. 3354.

Cantor : Med. Hist. p. 325. (١١)

Trevelyan : op. cit., p. 71.

Painter : A Hist. of the Middle ages., p. 92. (١٢)

Southern : The making of the middle ages, p. 167, p. 18. (١٣)

Rayner : op. cit., p. 16.

Davis and Arthur : «The British Isles» B.H. VII, p. 3837.

كلها تحت حكم ملك واحد هو الملك ادجار Edgar (٩٥٩ - ٩٧٥) ، الذي يمكن وصفه بأنه كان بحق ملكا لانجلترا . (١٤)

وفي النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي بدأ النظام الانتقالي يقوى في كيان المجتمع الانجليزي في الوقت الذي تولى فيه ملوك ضعاف ، لم يكن بوسعهم السيطرة على النبلاء من جهة والتصدي للدانينيين من جهة أخرى (١٥) ، فكلما وصلت موجة جديدة سنة ٩٨٠ م تخاذل حكام انجلترا ، وابدوا الاستعداد لدفع الأموال للدانينيين ليرحلوا من البلاد ، ثم ما لبثت انجلترا ان تعرضت لموجة جديدة عاتية من موجات الفيكنج قدمت هذه المرة في شكل غزو اسكندنافوي يمثل الأمة الاسكندنافية المترابطة (١٦) . فأسفرت هذه الموجة عن هروب الملك الانجليزي اثليرد Ethlerd الى نورمانديا وقيام كانوت ابن ملك الدانينيين على عرش انجلترا سنة ١٠١٦ (١٧) . وظل كانوت في حكم انجلترا الى سنة ١٠٣٥ ، واتخذ لندن عاصمة تجارية لامبراطوريته ، ولم يعد عرش انجلترا الى البيت المالك القديم الا في سنة ١٠٤٢ م حين نجح ادوارد الثالث « المعترف » ١٠٤٢ - ١٠٦٦ م وهو ينتمي الى بيت الفريد العظيم في استرداد عرشه بعد فترة قضاها في المنفى لدى قريبه دوق نورمانديا (١٨) . وبعد وفاته تذرع وليم دوق نورمانديا ببعض الحجج والذرائع للاستيلاء على انجلترا لتحدث معركة هاستنجز Hastings أو تلك اللحمة الفريدة في تاريخ القطارين الأوروبيين في العصور الوسطى . (١٩)

Trevelyan : op. cit. p. 81.	(١٤)
Rayner : op. cit p. 18.	
Cantor : Med. Hist. p. 207.	(١٥)
Schjoth : op. cit. p. 3556.	(١٦)
Trevelyan : op. cit., pp. 98-9.	(١٧)
Haskins : op. cit., p. 74.	(١٨)
Davis and Arthur : op. cit., p. 3840.	(١٩)
Schjoth : op. cit., p. 3552.	
Haskins : The Normans in European Hist. p. 75.	

هذا ما حدث في انجلترا قبل الغزو النورمانى لها سنة ١٠٦٦ ، أما فرنسا فالمعروف أن امبراطورية شارلمان قسمت بين أحفاده أبناء لويس النقى الى ثلاثة أقسام (٢٠) ، بمقتضى اتفاقية فردان سنة ٨٤٣ نال لويس الجرمانى الجزء الشرقى منها ، كما حاز لوثر الجزء الأوسط وحظى شارل الأصلع بالجزء الغربى وأدت معاهدة فردان الى نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لمستقبل التاريخ الأوروبى فى العصور الوسطى (٢١) . غير أن اختفاء هؤلاء الملوك ابتداء من الربع الأخير من القرن التاسع حمل فى طياته بذور ضعف هذه الامبراطورية وبداية تداعيتها خاصة بعد أن اندلع الصراع رهيبا بين أفراد البيت الكارولنجى . وهدد الفيكنج سواحلها واخترقوا تلك السواحل عبر مصبات أنهارها وضربت البلاد فى فوضى واضمحلال . (٢٢)

وفى مطلع القرن العاشر الميلادى كان يحكم فرنسا شارل البسيط أحد ورثة البيت الكارولنجى ، لكن الظروف فى فرنسا لم تكن مواتية لكى تضمن لهذا الشباب حياة هادئة ، فقد كانت هجمات النورمان تؤرق الفرنسيين وتقتض مضاجعهم ، لاسيما فى الجزء الغربى والشمالى من البلاد (٢٣) ، ولهذا حبن استأنف النورمان غزوهم لفرنسا فى أوائل القرن العاشر ، تصدى لهم الملك الجديد وكبار النبلاء ، فى همة وعزيمة وحماسة طاغية ، حتى نجح الفرنسيون فى الحاق هزيمة كبيرة بالنورمان تحت أسوار شارتر فى ذلك الوقت تراجعوا

Snyder : Documents of German Hist. p. 29. (٢٠)

See : «Annales Bertiniani» in «Monumenta Germania (٢١)

Historica Scriptorum» Ed. by Georg H. Pertz.

and others, Hanover and Berlin 1826-1905.

1, p. 440 - in Documents of German Hist. p. 29.

See : «The Anals of Fulda M.Y.H. Scriptorum 1, p. 40. (٢٢)

Davis : A Hist : of Med., Europe p. 174.

Hoyt and chodrow : Europe in the Middle Ages,
p. 185.

Camb. Med. Hist. V. III, p. 322. (٢٣)

انى الوراى وقبل زعيمهم روللو توقيع معاهدة صلح مع شارل البسيط عرفت بمعاهدة سان كلير على نهر الهابت فى يوليو سنة ٩١١ م (٢٤) وتعتبر هذه المعاهدة ابرز أحداث تاريخ النورمان بهذه البلاد ، ونقطة البداية فى تأسيس المملكة النورمانية بغالة ، كما جاءت سنة ٩١١ م - على قول المؤرخ هاسكينز Haskins - فى منتصف قرن وربع من الغزو والاستقرار النورمانى فى اقليم نورمانديا . (٢٥)

فلقد رأى الملك الفرنجى شارل البسيط - بعد سلسلة من المغامرات النورمانية بغالة - أن يمنح روللو بمقتضى هذه المعاهدة الجزء الشرقى الذى عرف فيما بعد باسم نورمانديا كإقطاع له ولرجالہ نظير ارتباط هذا بالتبعية له وحلفه يمين الولاء (٢٦) ، واعتناقه المسيحية هو وقومه ، وكان استقرار روللو Rollo وأتباعه فى نورمانيا بداية عهد جديد للشعب الاسكندناوى فى ذلك الاقليم . (٢٧)

وطبقا لذلك لم يجر فى البداية اندماج بين هذه المستعمرة الجديدة ، وما يحيط بها لأن رجال الشمال ظلوا يتدفقون عليها ويحولون بينها وبين الخوبان فيما حولها ويعطونها الفرصة لتأكيد ذاتيتها وابرز سماتها بعيدا عن جاراتها ، وهكذا أخذت نورمانديا تشكل ببطء كيانها كبلد افرنجى وكمستعمرة نورمانية لتبدو كدوقية شبه مستقلة تلعب دورها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر (٢٨) . وتحول روللو الى المسيحية وتبعه قومه ، وأبتداء من

Cantor op. cit., p. 254. (٢٤)

Oman : The Dark ages p. 501.

Haskins : op. cit., pp. 26-7. (٢٥)

Schjoth : «Great days of the Northmen» B.H. VII, (٢٦)
p. 3550.

Hallam : View of the State of Europe during the middle (٢٧)
Ages, p. 16.

Haskins : op. cit., p. 45. (٢٨)

سنة ٩١١ م أصبح النورمان في زمرة مسيحي البلاد الغربية ، وجرى تعميم روللو نفسه وتبعه قومه . (٢٩)

ولقد جرى اعتبار معاهدة سان كلير عملا أملاه العقل وسداد الرأي لأنها وضعت حدا للاغارات النورمانية ، وأعدت السلام الى ربوع البلاد والهدوء الى منطقة السين ، وأمدت فرنسا بدماء جديدة سرعان ما أخذت تندمج في فرنسا ، لتلعب دورها في الحقبة التالية لاسيما وأن روللو تنصر في العام التالي لهذه المعاهدة (٩١٢ م) ، وجرى تعميده وفقا للمسيحية الكاثوليكية وتسمى باسم روبرت (٣٠) . وكان ابنة وليم طويل السيف Long Sword طرازا أكثر رسوخا في المسيحية والفرنجية . (٣١)

وفي أواخر القرن العاشر ٩٨٧ ، انتهى البيت الكارولنجي في فرنسا ودفن الحكم الى أسرة جديدة هي أسرة كابيه في فرنسا وهي الأسرة التي ظلت تحكم فرنسا ردحا طويلا من الزمن (٣٢) . في الوقت الذي جرت فيه الأمور في القسم الشرقي من الامبراطورية الكارولنجية في اتجاه آخر ، حيث نهضت الأسرة السكسونية في ألمانيا بتأسيس الامبراطورية الألمانية وما عرف بعد ذلك بالامبراطورية الرومانية المقدسة ، التي ورثت جانبا كبيرا من امبراطورية شارلمان ودولة الفرنجة في العصور الوسطى . (٣٣)

وبدداية القرن الحادى عشر ، وبعد أن توقفت الهجرة الاسكندنافية استطاعت نورمانديا أن تعتمد على نفسها ، ووقفت على أقدامها منفردة .

Camb. Med. Hist. V. III, pp. 315-20.	(٢٩)
Schjoth : op. cit., p. 3550.	(٣٠)
Haskins : op. cit., pp. 45-6.	(٣١)
Camb. Med. Hist. V. III, p. 80.	(٣٢)
See : Epistolae Gerbert. Ed. J. Havet 1889, p. 231	(٣٣)
chronicon Novaliciene-trans. Davis.	
in C.M.H. 3, pp. 213-14.	

ولم يمض قرن واحد على بداية الاستقرار بنورمانديا حتى كان النورمان قد تكيفوا مع البيئة المجاورة واندمجوا الى حد بعيد فيها ، (٣٤) بل حاز دوق نورمانديا منزلة سامية بالنسبة لغيره من أفضال ملك فرنسا ، (٣٥) وعنى بدايات ذلك القرن أيضا أصبح النورمان فرنسيين في لغتهم وفي قوانينهم ، لكنهم كانوا معتزين كثيرا باستقلالهم الداخلي ، وعلى استعداد ليحاربوا الفرنسيين اذا تعرض ذلك الاستقلال للخطر . (٣٦)

وطبقا لهذا المفهوم اعتبر النورمان دولتهم عضوا في مجموعة الدول الداخلة في طاعة ملك باريس ، مع تمتعها بالاستقلال الداخلي والحكم الذاتي ، وكانت لغة حديثهم هي الفرنسية ، ولغة كتابتهم هي اللاتينية ، واسلوب ثقافتهم القانونية هو اسلوب المحكمة الفرنسية العليا باستثناء بعض المصطلحات الفنية في قانونهم ، التي كانت لها اصول اسكندنافية (٣٧) . فقد اسنفر النورمان بنورمانديا واتخذوا من روان عاصمة لهم وبدأوا في الاندماج في البيئة المجاورة كل ذلك دون أن يفقدوا حماسهم للقتال وحبهم للمغامرة (٣٨) ، وطبقوا القانون الفرنجي وتحولوا الى الحديث بالفرنسية ، ولعل ذلك هو الذي جعل الدوق الثاني من اوراق نورمانديا وليم الأول (طويل السيف) يضطر الى ارسال ابنه الى بايو ليتعلم اللغة الاسكندنافية لانها لم تكن لغة حديث في روان عاصمة نورمانديا . (٣٩)

وتنتجلى هذه الفترة المبكرة من تاريخ النورمان ومملكة نورمانديا او دوقية نورمانديا بظهور الدوق الرابع من ادواقتها وهوريتشارد الطيب Richard the Good وابنه روبرت الذي عرف بروبرت العظيم ، وهو الدوق الخامس من ادواقتها ،

Haskins : op. cit. p. 40.	(٣٤)
Cantor : op. cit., p. 254.	(٣٥)
Pollock, Maitland : Hist. of English law. p. 66.	(٣٦)
Haskins : op. cit., p. 66.	(٣٧)
Schjoth : op. cit. p. 3550.	(٣٨)
Haskins : op cit., p. 49.	(٣٩)

والذى قدر له أن يموت وهو عائد من الأراضى المدمنة بعد قيامه بالحج
اذ توفى فى آسيا الصغرى سنة ١٠٣٥ م ، وكان روبرت هذا والدا لدوق
نورمانديا الشهير وليم العظيم ، الذى عرف فيما بعد بوليم الفاتح (١٠٣٥ -
١٠٨٧ م) (٤٠)

والواقع أن وليم - دوق نورمانديا السادس - كان أشهر أدواق تلك
الامارة على الاطلاق لما تحققت على يديه من أعمال كان أبرزها إقامة امبراطورية
نورمانية مدت سيطرتها الى انجلترا (٤١) ، وشغل وليم فى سنه حيااته
الأولى بنضاله مع انفصاله الاقطاعيين وجيرانه فى غالة ، وما حدث من أمور
بينه وبين ملك فرنسا . وبانتهاء هذه المشكلات بدأت نورمانديا تنعم بفترة
سلام وازدهار حقيقى فى ظل دوقها الشاب وليم العظيم (٤٤)

والواقع أنه ليس هناك جدال من الناحية القانونية أن دوق نورمانديا
كان فصلا اقطاعيا للملك الفرنسى ، تحكم وتربطه به التزامات الصداقة
والخدمة الناجبة من أداء دوق نورمانديا يمين الولاء للملك الفرنسى (٤٣)
حقيقة كئيرا ما انتهكت مثل هذه الصلات الاقطاعية فى مجتمع القرن الحادى
عشر والثانى عشر ان لم تكن قد نزعتم تماما ، لكننا نقابل فى هذه الحالة
بتناقضات خطيرة بين ما هو نظرى وما هو واقع فعلى (٤٤) ، فموقع نورمانديا
فى وادى نهر السين وقربها من الدولة الملكية قد أوجد فرصا لاتنتهى للاحتكاك
ولقد تجنب الطرفان فى أول الأمر وأدة نحو قرن من الزمان توتر العلاقات
وتدهورها فعقدت معاهدة صداقة ومحالفة تستند الى المصالح المشتركة

-
- Ibid. pp. 52-3. (٤٠)
Schjoth : op. cit., pp. 3550-3. (٤١)
Ibid. p. 3550. (٤٢)
Fliche : L'Europe Occidentale, pp. 72-7. (٤٣)
Full Rechin : «Chroniques des Comtes d'Anjou» (٤٤)
pp. 63-4.

بينها (٤٥) . غير أن هذه العلاقات الطيبة ما لبثت أن تبدلت قرب منتصف القرن الحادى عشر ، ولا بد وأن نمو قوة وتأثير نورمانديا فى المنطقة يعطى تفسيراً كافياً لهذا التغيير ، ولذلك عضد الملك هنرى الثورة الداخلىة ضد النورمان سنة ١٠٥٣ ، كما حاول القيام بغزو شامل لنورمانديا فى نفس السنة ، بينما أحرق وخرب ودمر ونهب ما صادفه فى طريقة فى قلب الممتلكات النورماندية سنة ١٠٥٨ ، لكن لجوء النورمان الى التزيت وحسن توقيت الهجمات المضادة قد بدد جهود الملك ، لكن وليم رفض أن يقوم بهجوم مباشر ضد مليكه ، الذى ظل يعامله من قبله باحترام شخصى بوصفه لورده الاقطاعى (٤٦) ، وحتى بعد أن أصبح وليم نفسه ملكاً ظل فى أغلب الظن يقدم الخدمة الحربية التى كان يؤديها للملك وهو دوق ، وعلى كل حال غدت مسألة الخضوع والتبعية مسألة شكلية الى حد بعيد حينذاك لأن وضع وليم وهو دوق كان أكثر قوة من ملك فرنسا نفسه (٤٧) ، وقد ظل العداء بين ملوك فرنسا وبين النورمان الى أن وجد هؤلاء متنفساً فى انجلترا يرضى ويشبع حبهم للمغامرة والتوسع فحفت حدة العداء بين الطرفين الى حد كبير . (٤٨)

ونتيجة لذلك فان توسع نورمانديا كان ولا بد أن ينتجه نحو انجلترا بسبب التقارب من البلدين وبسبب الموقع الجغرافى ، والاستقرار الاسكندناوى فى كلا البلدين والمشروعات التجارية لتجار روان ، وتشير الدلائل الى أن وليم العظيم كان قد بدأ يهتم بشئون انجلترا منذ سنة ١٠٥٠ م وتطلع الى حيازة التاج الانجليزى منذ ذلك الوقت (٤٩) ، وكان زواج الملك الانجليزى اثيلرد Ethelred من Emma أخت الدوق ريتشارد الطيب سنة ١٠٠٢ ،

Mahrenholtz : «France through the middle ages» B.H. (٤٥)

VII, p. 2764.

Haskins : op. cit., p. 65.

(٤٦)

Ibid. p. 65.

(٤٧)

Mahrenholtz : op. cit., p. 3771.

(٤٨)

Cantor : op. cit., p. 257.

(٤٩)

وهو دوق نورمانديا الرابع ثمرة من ثمرات التقارب . بين البلدين (٥٠) ، وجه هذا الزواج السياسي ليقوى الرابطة الأسرية بين البلدين الأمر الذي ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية ، ودخول إنجلترا في السياسة النورماندية في ذلك الوقت ، فقد تربى ابنهما ادوارد المعترف The Confessor في البلاط النورماني حتى أصبحت عاداته وعواطفه نورمانية أكثر منها انجليزية (٥١) . وجاء اعتلاؤه العرش الانجليزي سنة ١٠٤٢ م بداية لازدياد التأثير النورماني في إنجلترا في الدولة والكنيسة الأمر الذي اعتبره فريمان - صاحب الاتجاهات المناهضة للجانب - البداية الحقيقية للغزو النورماني لانجلترا (٥٢) ، وخاصة وإن المعترف توفي دون أن يعقب ففتح بذلك الباب أمام الأطماع النورمانية في إنجلترا .

وكان هناك بعد وفاة ادوارد المعترف اثنان يطالبان بالعرش الانجليزي أحدهما هو هارولد بن جودوين godwin أكثر ارلات إنجلترا قوة (٥٣) . والثاني هو وليم دوق نورمانديا . وكان هارولد قد أحجم عن تقديم أي مطلب بوراثنة العرش قبيل وفاة ادوارد حتى يبدو أنه حصل على تأييد الملك قبل وفاته ، فضلا عن أنه جمع إلى جانب ذلك بين قوة البأس والظهور بمظهر الرجل الأول أو القائد الأول في المملكة . (٥٤)

أما وليم دوق نورمانديا فبوصفه ابن خال الملك المتوفى ، فقد تطامح إلى عرش إنجلترا ، ودعم مطالبه بالاستشهاد بنص مبكر لادوارد أو تصريح نسبه إلى ادوارد بأنه الوريث الشرعي الوحيد لعرش إنجلترا (٥٥) . كما استشهد بقسم أويمين قال إنه استخلصه من هارولد ، ليس من المعروف

-
- Davis and Arthur : op. cit., p. 3846. (٥٠)
 Trevelyan : op. cit., p. 107. (٥١)
 Freeman : Norman conquest. II, p. 166. (٥٢)
 Trevelyan : op. cit., p. 111. (٥٣)
 Haskins : op. cit., p. 75. (٥٤)
 Davis and Arthur : «England before the Norman conquest» B. H. VII, p. 3646. (٥٥)

تماما مدى صحة هذا الادعاء ، وما اذا كان هذا القسم قد حدث خلال زيارة قام بها هارولد الى نورمانديا قبل ذلك بنحو عامين او ثلاثة أعوام (٥٦) ، ولكن مع ذلك فقد مكن هذا الادعاء وليم من التظاهر بأنه ليس الا مدافعا عن حقوقه وعن عهد نكته هارولد . ولقد منحته هذه المناورة ميزات كثيرة فبدأ وكأنه يدافع عن قضية عادلة ، وشجعه على طلب معونة البابا اسكندر الثانى الذى رفعت اليه القضية برمتها . (٥٧) فى الوقت الذى لم يحفل فيه هارولد فى انجلترا بذلك كله ، بل جرى اختياره ملكا بواسطة مجلس الوتان Witan او مجلس الحكماء ، وبدأ له ذلك اجراء قانونيا يعبر ويعكس ما يلقاه من تأييد كبير . (٥٨)

ويثير احد المؤرخين المحدثين (٥٩)، قضية هامة فى علاجه لهذه النقطة بالذات فيذهب الى انه لا يجب أن نقع فى خطأ تاريخى بالاعتقاد بأن هارولد كان بطلا قوميا او حتى مرشحا لحزب قومى ، اذ لم يكن ثمة شىء يعنى القومية فى القرن الحادى عشر بالمعنى المعروف فى العصر الحديث لأن هذه الكلمة لاتعنى تسيئا بالنسبة لانجلترا فى ذلك الوقت بسبب تفتتها وتجزئتها ، وما حدث فيها من خراب ودمار على يد الدانيين ، وما جرى فيها من نزعة انفصالية داخلية (٦٠) ، فضلا عن أن مفهوم « الاجنبى » وتصور ما يمكن أن يكون اجنبيا لم يكن واضح المعالم فى اذهان المعاصرين ولازال عهد الملك كانوت Cnut الذى حكم انجلترا على الرغم من انه كان ابن ملك الدانيين يؤكد أن انجلترا لم تكن تخشى أن يتولى عرشها ملك مولود فى الخارج (٦١) . حقيقة كانت المنافسة بين هارولد - نصف الدانى - ووليم

Haskins : op. cit., p. 74. (٥٦)

Cantor : op. cit., pp. 337-8. (٥٧)

Haskins : op. cit., p. 74.

Davis and Arthur : op. cit., p. 3846. (٥٨)

Haskins : op. cit., p. 74. (٥٩)

Ibid. p. 74. (٦٠)

Ibid. pp. 74-5. (٦١)

النورمانى تجرى كما لو كانت بسبب التعصب للقومية الا انها لم ترق مطلقا الى مرتبة الكفاح القومى او النضال القومى . (٦٢)

وكان وليم قد قضى الفترة بين وفاة اسوارد المعترف وتتويج هارولد في يناير سنة ١٠٦٦ الى عبور القتال الانجليزى في سبتمبر سنة ١٠٦٦ في الاستعدادات لغزو انجلترا (٦٣) ، واذ كانت هذه الحملة ضخمة لايمكن ان ينهض بها التزامات الخدمة الحربية من أقصال وليم الاقطاعيين ، فقد لجأ هذا الى استثارة حماسة النورمان وحبهم للمغامرة وبراعتهم . في استخدام الأسلحة ووعدهم بالأراضى الواسعة والغنم الكثيرة ، ولم يجد غضاضة في قبول فرسان من أجزاء أخرى من فرنسا من بريتانى وفلاندرز وبواتو Poitou ومغامرين من اسبانيا البعيدة ومن صقلية . (٦٤)

وبعد ذلك واجهت وليم مشكلة نقل هؤلاء المحاربين الى انجلترا ، وذلك لأن نورمانديا لم يكن لها أسطول بحرى يمكن أن يفي بهذا الغرض ، ولم يكن من السهل بناء سبعمائة سفينة في ستة أشهر ، ولهذا فقد لجأ وليم الى أقصاله وأقاربه لحل هذه المتسكلة فتعهد هؤلاء بامداده بهذا العدد من السفن ولهذا لم تأت نهاية شهر أغسطس سنة ١٠٦٦ الا وكانت الحملة جاهزة للمضى وعند سانت فاليريء Saint Valéry تجمع الأسطول للعبور النهائى الى الجزيرة البريطانية . (٦٥)

وفي اواخر شهر سبتمبر سنة ١٠٦٦ نزل النورمان على الساحل الانجليزى عند بفنسى Pevensey وساروا الى هاستنجز Hastings (٦٦) حيث التقوا في ١٥ اكتوبر بفرق هارولد التى كانت منتعشة بالنصر الذى

Ibid. pp. 74-5. (٦٢)

Trevelyn : op. cit., pp. 114-7. (٦٣)

Haskins : op. cit., p. 75. (٦٤)

Ibid. p. 75, Rayner : op. cit., pp. 24-5. (٦٥)

Schjoth : op. cit., p. 3552. (٦٦)

أحرزته قبيل (٦٧) هذه الأحداث على النرويجيين في الشمال عند قنطرة Stamford bridge التي كانت تمثل حينذاك تلا محصنا جيدا يبعد عن هاستنجز والى الداخل نحو ثمانية أميال على طريق لندن : لتجرى بين النورمان وفرق هارولد معركة من أهم المعارك ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لتاريخ القاطنين إنجلترا ونورمانديا . (٦٨)

ويجمع المؤرخون الذين تناولوا معركة هاستنجز على أن هذه المعركة كانت من أهم معارك العصور الوسطى وأكثرها وضوحا لأنها معروفة تماما للمؤرخين وقيل أن تعرف معركة بهذا القدر الذي عرفت به معركة هاستنجز ، (٦٩) وذلك لوجود عدد كبير من الكتابات النظرية التي كتبها المؤرخون الاخباريون اللاتين عنها ، فضلا عن المراثي المعاصرة لجاي أوف امينز Guy of Amiens وبودرى أوف بورجيل Baudri of Bougueil وشعر رومان دي رومان Roman de Rouy الحفيف لماستر واك Master : Wace فضلا عن الرسوم الواضحة الجميلة والفريدة ممثلة في الوحات بايو The Bayeux Tapestry وهذا الأثر الشهير يتكون من لفة من القماش طولها مائتين وثلاثين قدما وعرضها عشرين بوصة مرسومة بالألوان لسلسلة من تسع وسبعين منظرا او مشهدا تقص تاريخ الفتح النورمانى لانجلترا ، منذ رحيل هارولد في رحلته المشقومة حتى الهزيمة النهائية للجيش الانجليزى في ساحة القتال في هاستنجز ، وهذه المشاهد اشير اليها بعناوين مختصرة اختيرت بعناية وقسمت بتفصيل حقيقى له أهمية كبيرة بالنسبة لحياة العصر الثقافية والفكرية . (٧١)

Davis and Arthur : op. cit., p. 3840. (٦٧)

Haskins : op. cit., p. 75.

Edward A. Freeman : op. cit. p. 164-7. (٦٨)

Stenton : Anglo Saxon England, pp. 576-80. (٦٩)

Haskins : op. cit. p. 76.

Haskins : op. cit., p. 76. (٧٠)

Ibid. p. 76. (٧١)

وقد حفظ الأثر الهام في الكندراثية ، ثم نقل الى المتحف الوطني في بايو ويذهب الدارسون لهذا الاثر النادر بأنه لاشك ينتمي الى القرن الحادى عشر استنادا الى ما يظهر فيه من أنواع السلاح ومن العادات التى تنتمى الى ذلك القرن ، فضلا عن قرائن مادية أخرى معاصرة للحوادث التى تصفها وتصورها • (٧٢)

ويرقى الأدب المعاصر للمعركة ليوأزى أهميتها التاريخية ، اذ توجد أهم المدونات الكلاسيكية في المجلد الثالث من مؤلف فريمان العظيم : **Freeman** *History of the Norman Conquest* حيث سردت القصة بمزج نادر بين التفصيل الخفيف والقصر الرشيق ينكرنا - كما يقال - معركة من الألياذة أو بساجا من الساجات الاسكندناوية (٧٣) ، لكن يؤخذ على سرد فريمان لقصة هاستنجز أنه أضفى عليها قدرا كبيرا من الجمال والفخامة وشحذ فيها قدرا كبيرا من الحماسة حملتها كما هو متوقع فيما وراء شواهد المصادر التاريخية ، ولهذا فكثير من الأمور الجوهرية في تلك المعركة لا يمكن قبولها كسند تاريخى (٧٤) • فقد انبرى باحث متعمق في التاريخ الأنجلو - نورمانى وهو راوند **Horace Round** J. ينفذ كثيرا من نظرياتها الخريبة التى ظن فريمان انها كانت عصب التكتيكات الانجليزية ، وأثبت راوند ضعفها ، كما هاجم كل من سباتز **Wilhelm Spatz.** واستاذ البركىنى الشهير **Hans Delburck** علاج فريمان للموضوع ككل بتحليل يمثل وجهة النظر العلمية للتاريخ الحربى • (٧٥)

ولعل خير ما قيل في نقد هذه الروايات عن هاستنجز أن الجندى الانجليزى والفارس النورمانى كانا عاجزين عن استيعاب النظام والاتحاد

Ibid. p. 76.

(٧٢)

Corpus Poeticum Boreale, 1, p. 281.

(٧٣)

وانظر مقتطفات من الساجات في كتابه **Haskins** المذكور ابتداء من ص ٣٩ ، وانظر أيضا كتاب **Prevelyan** في كتابه المذكور ص ٧٥

Haskins : op. cit., p. 77.

(٧٤)

Haskins : op. cit., pp. 77-8.

(٧٥)

Rayner : op. cit., pp. 24-5.

الذى تتطلبه اية استراتيجية حقيقية ، كما كانا عاجزين عن تشكيل الحائط الدفاعى وتنفيذ الهروب الخداعى او التظاهرى . ولذا فان ما يمكن استنتاجه من تلك المعركة أن قتال العصور الوسطى كان أكثر فردية من قتال الجيوش القديمة والجيوش الحديثة ، وكان يفتقر الى اتباع المرونة والمناورة في الظروف المختلفة . (٧٦)

كما نقد الدارسون أيضا هذه الروايات لمبالغتها في اعداد الجيوش التى قادها كل من وليم وهارولد لعدم التروى التام للمؤرخين الاخباريين في معالجة مثل هذه المعارك في العصور الوسطى ، وأوضحوا مدى هذه المبالغات في اعداد الجند في ضوء قيود الحرب ومجالها والنقل والامدادات وغير ذلك (٧٧) . وكانت الروايات القديمة قد ذهبت الى أن وليم قد قاد جيشا مكونا من نحو خمسين أو ستين ألف فارس ، كما بالغوا في اعداد جند هارولد أيضا وأنبتت الدراسات الحديثة أن جيش وليم لم يزد عن عشر هذا العدد أى خمسة أو ستة آلاف فارس على حين لم يزد جيش هارولد عن ذلك أيضا ان لم يقل عنه ، استنادا الى أن مكان اللقاء بين الجيشين يتسع لأكثر من اثنى عشر ألف محارب في تشكيل متقارب جدا في تل هاستنجز (٧٨) .

وبصرف النظر عن كل ما حدث من جدال حول معركة ، هاستنجز ، فان خطوطها الرئيسية بدت واضحة المعالم تماما ، فقد احتلت فرق هارولد تلا محصنا تماما يبعد الى الداخل عن هاستنجز نحو ثمانية أميال على طريق

Haskins op. cit., p. 78. (٧٦)

Trevelyan : op. cit., pp. 114-7.

Rayner : op. cit., pp. 245.

Oman : England before the Conquest, p. 641. (٧٧)

Roud : Feudal England, p. 266, pp. 289-92.

Trevelyan : op. cit., p. 115.

Haskins : op. cit., p. 78. (٧٨)

لندن (٧٩) ووقف في المعركة الكارلات المهرة Housecarles يحميهم حائط متين من دروعهم ، ندعمهم الفرق الأخرى المسلحة تسليحا جيدا لاسيما الثيقات hegns ومن ورائهم وبجانبهم وقف المجندون من أبناء الريف مسلحين بالرمح والهراوات الحجرية وأسلحة الفلاحين ، لكن كان لديهم قليل من رماة السهام ، ولم يكن لديهم فرسان على الاطلاق اذ لم يكن الانجليز حتى ذلك الوقت تعد تعلموا أن يحاربوا وهم ركوب على الخيل أى أنهم لم يدخلوا في جيوشهم نظام الفرسان (٨٠) ، ولهذا فقد اتخذوا من سفح التل مكانا للحماية من هجمات خيالة النورمان فبدأ وكان التكتيكات الانجليزية قد سهلت قيام دفاع متين • (٨١)

أما عن الخطوط النورمانية فتكونت أولا من رماة السهام ، ثم من مشاة الجنود المسلحين بأسلحة ثقيلة ، ثم أخيرا الفرسان المدرعين ، ويقوم تجمعهم المركزي حول وليم والعلم الذى تفتاه من البابا (٨٢) ، وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين رجح أن عدد جنود وليم لم يكن يزيد عن ستة آلاف جندي الا أن البعض الآخر ذهب الى القول بأنهم ربما كانوا في نحو اثني عشر ألف جندي نصفهم على الاقل من الفرسان • (٨٣)

ولقد بدأت المعركة بهجوم تمهيدى قام به رماة السهام والمنساة في الجيش النورمانى ضد الانجليز ، ثم تقدم الفرسان يسبقهم معنى يدعى تيلافر Taillefer وصف بالثشجاعة والاقدام ، وكان يتغنى بغناء جميل قاذفا سيفه في الهواء ومتلقفا إياه منشدا :

-
- Schjoth : op. cit., p. 3552. (٧٩)
 Davis and Arthur : op. cit., p. 3840.
 Haskins : op. cit. p. 75.
 Cantor : op. cit. p. 336. (٨٠)
 Haskins : op. cit., p. 80. (٨١)
 Ibid. p. 80. (٨٢)
 Davis and Arthur : op. cit., p. 3845.

من رولان ومن شارلمان

أولفسر وكل الاقصال

الذين ماتوا في الحرب عند رونشفال (٨٤) *

وعلى الرغم من كل هذا الحماس ، فقد تراجع الفرسان النورمان أمام شدة القتال من قبل الانجليز وراحوا ينسحبون يتبعهم الانجليز ، غير أنهم عندما رأوا وليم خاسر الراس وقد خلع خوذته ليعرف ، التألم شملهم مرة أخرى وعادوا الى التجمع من جديد . (٨٥) وحيث ان الكتلة الانجليزية كانت تقف صامدة خلفاً حائطها المدرع ، فلم يكن هناك سبيل الى اختراقها وكسر هذا الحائط سوى بخدعة الهروب المصطنع او التظاهر بالانهزام ، حيث يعود النورمان بسرعة ليحيطوا بجموع الانجليز ويجزئوهم الى جماعات صغيرة. يلتفتون حولها ، في الوقت الذي احدثت سهام النورمان الثغرات في الحراس الانجليز House carles ، ونفذ من هذه الثغرات فرسان النورمان تجاه حرس الملك المسلحين بفتوس الحرب ، ولم يلبث أن اشتد وطيس القتال ، وأظلمت الدنيا فوق سماء المعركة وتكاثر القتلى . (٨٦)

وانجلي ذلك كله عن جرح هارولد جرحا قاتلا بسهم من السهام ، وأنقل حرسه ، وتفرقت جموعه « وهنا قتل هارولد واستدار الانجليز ليهربوا » وهذه العبارة آخر عنوان في لوحات بايو أو التابستري ، وأخذ النورمان في سلب ما يمكن سلبه من القتلى من سلاح وعتاد ، وأخذوا يسوقون خيل الفرسان من المجندين . وهكذا على حد تعبير الروايات القديمة « قررت معركة واحدة

Oman : op. cit. p. 641.

(٨٣)

Roud : op. cit., p. 265.

Haskins : op.cit. , p. 79.

(٨٤)

Ibid. p, 79.

٢٨٥)

Trevelyan : op . cit., p. 117.

(٨٦)

Haskins : op. cit., p. 80.

Rayner : op. cit., p. 25.

مصير إنجلترا وسطرت قدرها ، • (٨٧)

وبعد انتهاء المعركة كان على وليم أن يتم فتحه لهذه البلاد بأخضاع
أكستر Exter ، وأن يقضى على مقاومة نورثمبرلاند بعد سلبها ونهبها .
واخضاع بقية الارلات الانجليز حتى يستقيم له الأمر ، والواقع أن هذه الأمور
لم تشغل الا حيزاً ضئيلاً من فكر وليم ، فقد أنجزها بسهولة اتماماً للفتح وانقرا
للأوضاع فكتب بذلك صفحة جديدة في تاريخ تلك البلاد • (٨٨)

غير أن الأهم من ذلك والذي كان يشغل بال وليم فعلا هو عملية تنويجه
ملكاً على إنجلترا ليحتل مكان هارولد بأسرع ما يمكن تقليباً لما قد ينشأ
من معارضة لهذا التنويج • والواقع أن وليم لم يضع وقتاً طويلاً قبل أن يتم
هذا العمل ، ففي يوم عيد الميلاد سنة ١٠٦٦ م توج وليم في لندن ملكاً على
إنجلترا (٨٩) حتى ليشير مؤرخ محدث الى أن هذه الرواية الاخبارية التي
تختص بنبا تنويج وليم ملكاً وبأحداث السنوات الأخيرة ، انما تنتمي الى
التاريخ الانجليزى أكثر مما تنتمي الى التاريخ النورمانى ، أى أن هذا الفتح
قد أصبح يخص التاريخ الانجليزى أكثر من كونه يرتبط بالتاريخ
النورمانى • (٩٠)

وإذا كانت النتائج التي ترتبت على هذا الفتح بالغة الأهمية بالنسبة
للمهزومين الانجليز ، فإن أهميتها بالنسبة للمنتصرين النورمان كانت أبعد
أثراً ، فقد كانت فرصة مواتية لتوسع النورمان في كل مجالات الحياة في الجزيرة
البريطانية ، وللمحاربين النورمان كانت انطلاقة لاكمال اخضاع بقية الجيوب
المعارضة والسيطرة على بقية البلاد (٩١) • ولرجل الدولة والمنظم كانت

-
- Haskins : op. cit., p. 80. (٨٧)
Davis and Arthur : op. cit., p. 3846. (٨٨)
Haskins : op. cit., pp. 80-1. (٨٩)
Stenton : op. cit., p. 589. (٩٠)
Haskins : op. cit., p. 81.
Stenton : op. cit., p. 617. (٩١)

معرضة لاعادة ترتيب وتنظيم الحكومة المحلية ، وللأسقف ورجل الدين فرصة أيضا لترتيب استقيته الجديدة وجعلها تسايير وتواكب وتنتالتم مع عمل الكنيسة في القارة الأوروبية ، وللهبان كانت فرصة أيضا ليؤسسوا أديرة جديدة ويديروا الأراضي الواسعة التي غدت تابعة لأديرتهم فيما وراء القنائل . (٩٢)

ولقد اقتفى رجل المدينة والتاجر النورمانى أثر الجيوش النورمانية في المستعمرة الجديدة في لندن ، وفي تجارة الموانى وفي مقاطعات الحدود الغربية ، ولعل ذلك يعد نتيحة أخرى من نتائج الفتح النورمانى لانجلترا ، ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للشئون الاقتصادية والمالية تضاف الى بقية النتائج السياسية والدينية والاجتماعية ، تأكيدا لما سبق قوله من أن انتصار النورمان كان فرصة مواتية لتوسع النورمان في مختلف جوانب الحياة في الجزيرة البريطانية . (٩٣)

ومن البديهي أن يحدث التغيير في المستعمرة الجديدة بهوء وبشكل مبسط جدا ، ويتركز حول وضع أشخاص جدد مكان آخرين لتنتقل السلطات الى الغزاة في يسر وسهولة (٩٤) ، فقد وضع رئيس أساقفة نورمانى في كانتبرى مكان رئيس الأساقفة القديم Stigand ، ثم الانتشار فوق الرقعة الانجليزية انتشارا يكاد يشمل كل خريطة تلك البلاد ، ويعبر عن الوضع الجديد باعتبار انجلترا بلدا نورمانيا ، حتى ليذهب بعض المؤرخين المحدثين الى أن ذلك لم يكن سوى عملا لاعادة الاصلاح والتنظيم الذى تطلب كل مواهب النورمان في اعمال البناء . (٩٥)

واصطبغت جهود النورمان حينئذ بحماسة بالغة في كل مناحى الحياة في مستعمرتهم الجديدة ، وانعكس ذلك بصفة خاصة في الأدب النورمانى الذى

Ibid. p. 634.

(٩٢)

Haskins : op. cit., p. 81.

(٩٣)

Rayner : op. cit., p. 32.

(٩٤)

Trevelyan : op. cit., j. 103.

Hoskins : op. cit., p. 81.

(٩٥)

عبر بصدق عن عظمة الانجازات النورمانية ومجد الامبراطورية الجديدة ، واعتبر النورمان انجلترا ملحقة بنورمانديا وتابعة لدولتهم قبل أن يفيقوا على حقيقة جديدة جاءت عكس تصوراتهم وقلبت الرضع تماما فأصبحت نورمانديا تابعة للتاج البريطاني . (٩٦)

أما أهم نتائج هذا الفتح بالنسبة لانجلترا ، فان الغزو النورمانى قد حمل على استمرار السياسة الانجليزية والثقافة والمدنية الانجليزية برغم كل شيء ، وحول انجلترا جهة الجنوب وزج بها دفعة واحدة في التيار الرئيسى للشئون الأوروبية (٩٧) ، والمشكلات السياسية لأوروبا والشئون الكنسية والمؤثرات الثقافية والفكرية بعد أن كاد الغزو الدانى يفصل بينها وبين القارة ويشدها بعيدا الى الشمال . (٩٨)

لكن الاتحاد مع نورمانديا قد حول انجلترا الى الجنوب وجعلها جزءا من فرنسا ، فتلقت لغة فرنسا وأدبها وفنونها أيضا ، وأصبح قانونها الى حد بعيد قانونا فرنجيا ، وغدت مؤسساتها أكثر رسوخا في النظم القطاعية مع أن الاتصال بينها وبين فرنسا جرى خلال نورمانديا ، وحمل اليها التأثير الفرنسى في أشكال نورمانية (٩٩) ، خاصة في المجالات التى برز فيها النورمان أو تفوقوا ، لاسيما في مجال الحكومة والنظم الاقتصادية والاجتماعية ، اذ تطابق القطاع الانجليزى والقطاع النورمانى الذى تميز فيه البارونات بالضعف في ظل القوة المركزية الأقوى . ليس بخلف أن الملكية النورمانية القرية هى التى حولت الدولة الانجلو - سكسونية المفككة الى الأمة الانجليزية ، فلم تتحول انجلترا الى دولة أوروبية الا بعد أن دفعت الثمن بجعلها بلدا نورمانيا . (١٠٠)

-
- Ibid. pp. 81-82. (٩٦)
 Haskins : op. cit., p. 82. (٩٧)
 Trevelyan : op. cit., p. 102. (٩٨)
 Haskins : op. cit., p. 82. (٩٩)
 Haskins : op. cit., p. 82. (١٠٠)
 Royner : op. cit., p. 34.

وإذا القينا نظرة أخيرة على هذا الانجاز ، يتضح ان الفتح النورمانى لانجلترا يعتبر بحق العمل المنتويجى للتاريخ النورمانى . حقيقة كان ذلك النجاح راجعا فى أغلبه لحسن الحظ ولعدم وجود الأسطول الانجليزى ولتوفيق السياسة الفرنسية ، وللاخطاء التى وقع فيها الانجليز . ولكن لابد أن يؤخذ فى الاعتبار قوة وحسن تنظيم نورمانديا وسخصية قائدها وليم ، الذى كان دبلوماسيا ماهرا ومحاربا فذا وقائدا موهوبا ورجل دولة من الطراز الأول (١١١) .

فبفضل مواهبه العظيمة وحسن تنظيمه استطاع بعد الفتح أن يحول « هزيمة الانجليز الى بداية صنع الامة الانجليزية العظيمة » ، وهو انجاز قل أن يدانيه فيه أحد ، وموهبة سياسية رفعت الى مصاف الرجال العظام فى التاريخ . ولقد شاركه فى مواهبه وقدرته السياسية بارونات النورمان اذ تعاون الجميع فى بناء الدولة فى انجلترا ، وأمدتهم هذه التجربة الجديدة بحقل خصب لمزاولة قدراتهم السياسية ، ومهارتهم العظيمة فى الحكم وهى القدرات التى كانت قد ظهرت قبل ذلك بجلاء فى نورمانديا . (١٠٤)

وبفتح انجلترا على يد وليم العظيم الذى أخذ لقب وليم الفاتح بدأ عهد جديد فى تاريخ النورمان ، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ نورمانديا مثلما بدأت مرحلة هامة خطيرة فى تاريخ انجلترا . وبدأ النورمان يؤسسون امبراطورية عظيمة توسعت فيما حولها فضمت انجلترا وأنجو وبدأت حقبة هامة فى تاريخ هذا الشعب فى العصور الوسطى .

Travelyan : op. cit., p. 102.

(١٠١)

Rayner : op. cit., p. 34.

Haskins : op. cit., p. 82.

(١٠٢)

Freeman : op. cit., p. 166.

(١٠٣)

Schjoth : op. cit., p. 3552.

(١٠٤)

المصادر والمراجع

- «Annales Bertiniani» in «Monumenta Germania Historica Scriptorum», Ed. by Georg H. Pertz and others. Hanover and Berlin 1826-1905.
- Annals of Fulda — M. G. H. Scriptorum, in Hist. of Medieval Europe, by Davis.
- Corpus Poeticum Boreale - in Haskins : The Normans in European Hist. (New York 1959).
- Epistolae Gerbert Ed. J. Havet 1889, Chronicon Novaliciense (trans. Davis in C.M.H.).
- The Book of History :
Davis : «The British Isles from the earliest times to the Middle Ages» V. VII.
Davis and Arther : «The British Isles» V. VII.
Mahrenholtz : «France through the middle Ages» V. VII.
Schjoth : «Great days of the Northmen» V. VII.
MSchjoth « Great days of the Northmen» V. VII.
- Camb. Med. Hist. 8 Vols. (cambridge 1924).
- Cantor : Medieval History. (New York 1964 Sec. Printing.)
- Davis : A History of Medieval Europe (London 1970).
- Fliche : L'Europe Occidentale de 888 à 1125 (Paris 1930).
— Le règne de Philippe 1er roi de France. (Paris 1912)!

- Freeman :
 - History of the Norman Conquest (Oxford 1870-79).
 - Series of «Twelve English Statesmen (London 1888).
- Hallam :
 - View of the State of Europe during the middle Ages.
- Haskins :
 - The Norman in European History (New York 1959).
- Katz :
 - The Decline of Rome and the rise of Med. Europe (New York 1955).
- Oman :
 - The Dark ages 479-918 (London 1962).
 - England before the Conquest.
- Painter :
 - A History of the Middle Ages from 284 to 1500 (1952).
- Pollock, Maitland :
 - Hist. of English law.
- Rayner :
 - Concise Hist. of Britain (London 1939).
- Snyder :
 - Documents of the German Hist. (New York 1975).
- Southern :
 - The making of the middle ages (London 1967) .
- Stenton :
 - Anglo-Saxon England sed. Ed.

- Heroes of the Nations» (1908).
- Trevelyan :
 - Hist. of England Part 1.
(London 1926).

المراجع العربية

- فشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة زيادة والعرينى والعدوى)
- ديفر : أوروبا في العصور الوسطى (ترجمة د . عبد الحميد حمدى)
- محمد الشيخ : — الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى
دار الكتب الجامعية الاسكندرية سنة ١٩٧٥
- دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس
مؤسسة الثقافة الجامعة الاسكندرية سنة ١٩٨١
- سعداوى : تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة الوسطى
دار النهضة العربية — القاهرة سنة ١٩٦٨
- د . سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى
الطبعة السادسة ١٩٧٥

الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين

للدكتور / محمد عبد الحميد عيسى
كلية التربية - جامعة عين شمس

الحضارة الأندلسية : مرحلة التكوين

« التاريخ صانع الانسان ، والبشر صناع التاريخ » بهذه العبارة الخالدة استهول المؤرخ الاسباني ذائع الصيت ، كلاوديو سانشييت البرنثوس كتابه القيم « اسبانيا لغز تاريخي » (١) لينطلق منها الى دراسة العوامل المتبادلة بين الانسان والبيئة في صنع التاريخ ، وليبين لنا ان اسبانيا التي نعيش اليوم ما زالت وستظل لغزا ما لم نعتمد في دراستها على كل تاريخها ، وخاصة تاريخ تلك القرون الثمانية التي عاشتها في ظلال الاسلام. حينما وفي صراع معه اغلب الوقت ، لأنها - أي اسبانيا - بعظمتها وجلالها وبما فيها من عيوب ونقائص وليدة ذلك الصراع المستمر خلال الأعوام الثمانمائة (٢)

وليس ذلك موضوع دراستي ، لكنني أردت ذلك للانتارة التي ذلك اللغز التاريخي أو على وجه التحديد التي اسبانيا الاسلامية ، الاندلس التي أراها وبحق لغزا تاريخيا محيرا ، الهم حملة الاقلام كثيرا ، وسيظل يمدهم دائما بوحيه وأبراره مما يجعل الكتابة في هذا المجال سحرا لايقاوم رغم تقادم الزمان ومضى الأيام .

لقد ارتفع الاندلس حضاريا ، في العصور الوسطى الى درجة رفيعة المستوى والتي مكانة سامقة اعترف بها الاصدقاء والاعداء على حد سواء ، فهي اندلس التاريخ وهي الاندلس المفقود وهي الاندلس الموعود ، وهي كما قال فيها ابن خفاجة :

يا أهل اندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأسجار
ما جنة الخلد الا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا بسقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

ويقول آخر :

ان للجنة في الأندلس مجتلى حسن ورياً نفس
فسنا صبحتها من شغب ودجى ظلمتها من لفس
فاذا ماهبت الريح صبا صحت : وأشوقى الى الأندلس (٣)

وهي أيضاً في نظر المؤرخين الاسعيان : هذا الاندلس ، مركز وفنار
اشرق ذات يوم ، وكانت اشراقته مطمح الأطماع ، ومحط الابصار النهمة الجامعة الى
العلم ، في أى فرع من فروع المعرفة ، آه كم كانت تلك الفترة زاهبة
ومفلسة « (٤) .

ولا اهدف الى حصر ما قيل في هذه الحقبة التاريخية ، لأن ذلك ليس
سراً بنى هو أمر شائع في كافة الكتابات المتعلقة بهذا العصر ، انما السر
الحقيقى هو ذلك التنازع والخلاف في تحديد الأسباب والعوامل التى أدت
الى قيام هذه الحضارة ، وليس ذلك بالأمر الشاذ ، فالحضارة الاندلسية
يما سطرته على جبين التاريخ سواء في مجال الكم أو الكيف جديدة بأن تثير
الخلاف بين المؤرخين وأن تبعث على الجدل والنقاش الدائمين ، وذلك ايضا
أحد أسرار عظمتها الخالدة .

يضاف الى ذلك ان النهاية الاسوية التى أحاطت بهذه الحضارة قد
سكبت المزيد من الزيت على نار الآراء المشتعلة ، وفتحت صنادير عدة من
الدراسات والأبحاث التى نتناولها .

انصبت جهود الباحثين والدارسين في مجال الحضارة الاندلسية على
أبراز أصولها ، ودرجة تطورها وكذلك علاقتها بالثقافة والحضارة القوطية
والرومانية ، مدى صلتها بالثقافة الشرقية ، دورها التائيرى على الحضارة
الأوربية في العصور الوسطى ومدى التائير فيما بعد على النهضة الأوربية
الحديثة . وفى كل مجال من هذه المجالات تباينت آراء العلماء واختلفت ،
وحاول كل منهم تاييد وجهة نظره التى يحببها ؛ فالمنششرون وعامة ،
والاسعيان منهم خاصة ، يحاولون اضمفاء دور هام للأحوال الثقافية والحضارية

السائدة في إسبانيا القوطية ، كما يحاولون اسناد دور أساسي في هذه الحضارة إلى العوامل البيئية الإسبانية الى حد التطرف الذي يقلل ان لم ينكر دور العرب المسلمين في صنع هذه الحضارة .

ويزداد الحديث في إسبانيا يوما بعد الآخر عن أهمية الفترة السابقة أي عصر الرومان والقوط في بناء الحضارة الإسلامية في الاندلس ، ويؤكد ذلك - على سبيل المثال - الدكتور سلفادور غوميث نولغاليس - دون الاعتماد على وثائق واضحة - فيقول خلال حديثه عن الفلسفة في إسبانيا الإسلامية « ليس سهلا على الاطلاق الاشارة الى وثائق تاريخية المدلاة على هذا التأثير بالنسبة للفلسفة الإسبانية الإسلامية ، وذلك لسببين واضحين هما : الاهتمام المتزايد لعدد كبير من المؤرخين العرب باخفاء ما في أصولهم وكتاباتهم مما يرجع لإسبانيا قبل الإسلام وذلك بغرض عدم اثاره الشك حول معتقداتهم وأفكارهم ومن هنا فان اجتهادهم في الصمت عن كل ما هو إسباني أصلا في كتاباتهم ومعتقداتهم يعتبر شيئا بديهيًا » .

أما الصعوبة الثانية فانها تأتي من أن الكثير من المصادر الثقافية الإسلامية تتحدث عن إسبانيا ، لا عن الطريق المباشر للإسبان ، ولكن عن طريق مصادر شرقية استطاعت أن تنقل هذه الأفكار في مضمون نقافي مختلف عن الإسباني ، بمعنى انه أصبح من الصعب جدا - على سبيل المثال - التقريق بين ما خلفه الرومان في الحضارة الإسلامية عن طريق بيزنطة أو عن طريق المستعمرات الرومانية الموجودة في إسبانيا . (٥)

ويواصل نولغاليس عرض أفكاره قائلا : اذا كان قد سمح بالقول بأن حضارة إسبانيا الإسلامية تتمتع بصفات خاصة ، وشخصية مستقلة فعلينا أن نحلل الى أي مدى تأثرت هذه الشخصية بالعوامل البيئية المحضة أو بالناخ الذي ربطها بالاناس ذوى سجايا مختلفة « ويذهب في هذا الى الاستشهاد بما قاله سانشييت البرنوس في كتابه « إسبانيا قبل الإسلام - إسبانيا الإسلامية » والذي عرض فيه أعداد العرب الذين قدموا الى شبه الجزيرة

الايبيرية في بداية الأمر حتى يصل الى قول المؤرخ الاسباني P. Perez بأنه « لم يدخل في التركيب الاجتماعي للمسلمين الاسبان من العناصر العربية الاصلية الا جرعات متناهية الصغر » (٦) ثم يواصل البروفيسور نوغالييس حديثه الى أن يختتمه بعبارة سانثيث البرنوس القائلة : نتيجة لهذا كله فمن المفروض أن التأثير العربي في العادات والتقاليد كان سلبيًا خلال عشرات وعشرات السنين في بلد كإسبانيا ذات الأصل والحياة والثقافة الغربية « (٧)

والطريق طويل بين المؤرخين الاسبان في درجة وضع المسلمين الاسبان ضمن إطار الحضارة الاسبانية ، الى ان يصل الأمر الى تبني علامتهم الكبير خوليان ريبيرا J.R. فكرة الأصل الاسباني للمسلمي اسبانيا ، فهو يرى : ان العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح ، انما دخلوا - كما هو معروف - على هيئة جنود ، ولم ينتقلوا اليها كأسر ، وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البيوت وينجبوا النسل ، وكانت الاسبانيات الجانب الآخر في تكوين نسل الأسر ، وانجاب ذلك النسل ، وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربي ولي أمر الاندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير - ما أقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالاسبانيات ، وليس من المبالغة القول بأنه قد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الاسرة الاموية في الاندلس كانوا أبناء لغير عربيات ، واذا كان الولد - في الحقيقة - ابنًا لأبيه كما هو ابن لأمه ، واذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه ، كما يأخذها عن أسرة أبيه ، اذا كان ذلك ، امكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا في الجنس الاسباني حتى لم يعد للأفراد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربي تمتزج بدمه الاسباني الذي يكاد يكون خالصا « (٨) ويتصدى المؤرخون والكتاب العرب للدفاع عن عروبة الاندلس ، وعن نسبة الحضارة الاندلسية الى الحضارة العربية ، وحتى لا تفقد هذه الحضارة درة ثمينة ولؤلؤة نادرة وعقدا فريدا مثلما هي الحضارة الاندلسية فينبغي الدكتور احمد هيكل للرد على خوليان ريبيرا مفتندا نظريته في معظم اجزائها التي ، وان كانت تعتز بالاندلسيين وتحاول كسبهم الى التراث الاسباني .

الا اننا لا نستطيع أن نجد الاندلسيين من عروبتهم ، ولا نستطيع ان نسلم
 بالتجربة التي أجراها على الاسرة الاموية وحاول من خلالها ان يثبت ذوبان
 الدم العربي في الدم الاسباني ، وذلك لأننا لا نتصور ان كل الذين جاءوا الى
 الاندلس من الرجال قد تركوا نساءهم في المشرق ولأننا لا نتصور ان الوفود
 الى الاندلس كان من نصيب الرجال دون النساء ، ولأننا أيضا لا نتصور ان
 كل عربي في الاندلس كان يتجب دائما من اسبانية جديدة ، وان نتأجهم
 دائما كان من رجال يتزوجون بدورهم من اسبانيات *

ثم ينطلق الدكتور هيكل الى اثبات انه اذا كان الاندلسيون من حيث
 الأصل شعبنا تجرى فيه دماء عربية ، ودماء اسبانية ، وان كانوا مولدين
 جنسا ، فهم عرب في قوميتهم ، وانهم عرب في عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل
 جوانب حضارتهم ، ويختتم قائلا : وليس لنا الا ان نشكر للمستشرق الاسباني
 ومن جاره اعجابهم بابناء عمنا الاندلسيين ومحاولة الصاقهم بهم وضمهم
 وتراثهم الى ما للاسبان من تراث *

أما عن تأثير حضارة ما قبل الاسلام في اسبانيا الاسلامية فيتصدى
 لها الدكتور الطاهر مكي بعنف شديد فيقول في مقالة له عن الحضارة الأندلسية:

لم يجد المسلمون في البلاد المفتوحة حضارة متكاملة ، وانما بقايا
 حضارة غاربية ، تعيش منعزلة منزوية ، وعناصر متعددة ، كل واحد منها
 يخشى الآخر ويستعبد القوى منها الضعيف ، ثم يواصل حديثه عن التركيب
 السكاني البلاد ، ذكرا العصر القوطي وما يمكن ان تجد فيه من تفاوت بين
 طبقات الحكام والمحكومين الى أن يصل الى قوله : هذا العصر القوطي بكل
 اعوامه لم يخلّف وراءه حضارة متميزة في أي جانب ، لا نعرف له ثقافة ولا كتابة ولا
 ادبا ، والمكتبات قليلة ، ولدينا عنها اشارات شاحبة ، ويتحدث عنها الباحثون
 افتراضا ، لم يصلنا منها شيء ويظن أنها كانت ملحقة بالاديرة * (١٠)

ولست في مجال عرض باقى الآراء التي وصلت الى حد دراسة الأدب
 الأندلسي كجزء من الأدب العباسي امعانا في دمج الحضارة الاندلسية ضمن

الحضارة الشرقية ، ولنعد بعد أن أخذنا القول بعيدا الى حضارتنا هذه التي على الرغم من كل ما يقال عن عوامل تأثيرها بالشرق الاسلامي ، أو اعتمادها على الثقافة الرومانية القوطية أو جمعها بين هذين المصدرين ، الا أنها قد فرضت نفسها على التاريخ كحضارة أندلسية ليست شرقية ولا غربية، وإنما انتشرت بثباتها الخاصة ، واكتست ملامحها المستقلة التي تميزها عن الحضارات المعاصرة لها أو التي استمدت أصولها منها .

ولا شك أن هذه الحضارة ترجع الى عناصر انسانية متباينة من ناحية الأصل العرقي ، كما أنها من ابداع ماعات انسانية تختلف فيما بينها من الناحية الثقافية والدينية ، وهي بذلك تطرح علينا سؤالاً هاماً جدا عن المعنى الذي يقصد به القرون « الحضارة الاندلسية » .

هل هي الحضارة التي تطورت على أرض الأندلس – أرض الاندلس فقط – بصرف النظر عن الأصل العرقي أو الوطن الأصلي لمن ابداع أو من ساهم في بناء هذه الحضارة؟ وفي هذه الحالة ، هل نستثنى من ذلك ، تلك الجهود التي بذلها الاندلسيون على أرض غير أندلسية أثناء رحلاتهم ، أو في المناطق التي اتخذوها موطنا لاقامتهم ، ومن ثم نخرج كتابات الحميدى ، وأبي بكر الطرطوسي وأثير الدين بن حيان وغيرهم ممن كتبوا بعيدا عن أرض الأندلس . ومن ناحية أخرى هل الحضارة الأندلسية ، نتاج ابداع الأندلسيين سواء في داخل أرض الأندلس أم خارجها؟ وفي هذه الحالة فإننا نتوقف أمام صعوبة تحديد الأندلسي ، وهل هو المولود على أرض الأندلس ، أم من اتخذها موطنا وداراً ، من دخلها مع الفتح أو بعده ، من هاجر اليها عبر القرون الطويلة من أمثال زرياب وأبي علي القالي ، وصاعد الأبدى وغيرهم ، وهم ولا شك من اعلام هذه الحضارة وعمدها ونجومها البارزة .

نقطة أخرى – غاية في الاهمية – هل نقصر القول في الحضارة الاندلسية على نتاج المسلمين هناك أم يمتد التعرف ليشمل جهود أبناء اللاتين المسيحية واليهودية والذين ادوا ضمن اطار هذه الحضارة دورا رائعا ومجهدا لا ينكر .

ان ذلك كله هو الذى يعطى الحضارة الاندلسية طعما خاصا ومذاقا متميزا عن ما عاصرها من الحضارات ، كما أنه يعطيها نكهة خاصة عن الحضارة الاسلامية فى المشرق لأنها حضارة ساهمت فى تكوينها اجناس متباينة من البشر ، و اجواء مختلفة من الطبيعة ولذلك فان ظلها يمتد ليشمل كل ما ابدعته قرائح الاندلسيين على ارض الأندلس أو خارج هذه الأرض ، كما أنه يتسع ليضم أفئدة من قدموا الى الأندلس مع الفتح أو بعده أو من هاجروا الى هناك بعد أن حرّموا مناخ الابداع فى بلادهم الأصلية ووجدوا فى الأندلس الأرض والمناخ اللذين اطلقنا ملكاتهم وخلقنا أسماءهم فى تاريخ الحضارة الانسانية ويتسع أيضا ليضم بين جوانحه ما كتبه أبناء الديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والاسلام .

اعتاد المؤرخون والكتاب على تقسيم الحضارة الأندلسية الى فترات زمنية تتناسب والفترات التى ينقسم اليها التاريخ السياسى للأندلس وكتبت بعض المؤلفات عن الحضارة الاندلسية فى عصر معين ، أنظر مثلا كتاب الدكتور حسن على حسن « الحضارة الاسلامية فى المغرب والاندلس : عصر المرابطين والموحدين » . (١)

وأميل الى تقسيمها الى ثلاث فترات رئيسية دون أن يعنى ذلك الفصل بين هذه الفترات اللهم الا بغرض الدراسة لا أكثر .

١ - فترة التكوين : وهى الممتدة تاريخيا من عام ٩٥ هـ الى ١٨٠ هـ
٧١٤ - ٧٩٦ م .

٢ - فترة النمو والتطور : من ١٨٠ هـ الى ٣٠٠ هـ ٧٩٦ - ٩١٢ م .

٣ - فترة النضج والازدهار : وهى ما بعد عام ٣٠٠ هـ ٩١٢ م .

فترة التكوين : تبدأ بعودة القائد موسى بن نصير وطارق بن زياد الى بلاد المشرق وتولى عبد العزيز بن موسى أمور الأندلس فى عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م ، وتستمر حتى نهاية عصر الأمير هشام بن

عبد الرحمن الداخل ، المتوفى سنة ١٨٠ هـ ٧٩٦ م وهي فترة
شغل تاريخها السياسي كثير من الحروب والغزوات سوا
لاستكمال فتح الاندلس ، أو في محاولات فتح جنوب فرنسا، كما
أنها حفلت بالثورات الداخلية والصراع بين القبائل العربية
والإبرية .

وشهدت هذه الفترة كذلك من الناحية السياسية ، استقلال الاندلس عن
جسم الدولة الإسلامية حين تمكن عبد الرحمن الداخل في عام ١٢٨ هـ ٧٥٦ م
من الاستيلاء على قرطبة وقضائه جل فترة حكمه في صراع مع العناصر المناوئة ،
وفي تثبيت عرش بنى أمية في الاندلس ويمكن تبين ذلك كله بتفصيل والسع
في التاريخ السياسي لهذه الحقبة التاريخية .

ومع ذلك فإن هذه الفترة هي التي شهدت وضع البذور الأولى للحضارة
الإسلامية في الاندلس ، حيث أن الجيوش التي دخلت إلى الاندلس ، وإن كانت
في غالبيتها من الأبربر - إلا أنها كانت مصحوبة بجموع كبيرة من العرب، وخاصة
الجيوش التي عبرت مع موسى بن نصير ، ويقدرها المؤرخون بثمانية عشر ألفاً
من العرب وكان هؤلاء العرب يحملون معهم على الأقل - غير ثقافة البيئة العربية
ثقافتهم الدينية من حفظ القرآن الكريم أو بعض سورته وأجزائه ، وحفظ بعض
الأحاديث النبوية ، وكذلك بعض ما كان يجري في بلادهم الأصلية من أشعار
أو أحاديث أدبية ، وفي هذا المجال فأننى أود الإشارة إلى نقطة أساسية
بالنسبة لثقافة العرب القادمين إلى الاندلس ، وتتمثل هذه النقطة في أن الجيوش
التي وصلت إلى هناك ، إنما هي من الجيل الإسلامي الرابع ، وأقصد بذلك
أن الفتح الإسلامي لاندلس قد تم خلال الأعوام العشرة الأخيرة من القرن
الأول الهجري ، أي ما يزيد على قرن من الزمان منذ ظهور الديانة الإسلامية
وما يقرب من حوالي ٧٥ عاماً من الاستقرار في بلاد الشام ومصر وأرض
الرافدين ، ولا شك أن الأجيال التي دخلت الاندلس هي التي تربت ونمت
في أحضان تلك الأجواء الثقافية النامية في تلك البلاد . ومن ناحية أخرى ،
فإن الفترة السياسية كانت تشهد نوعاً من الاستقرار في عهد الخلفيتين

عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وشهدت تبعا لذلك نوعامن الأزدعار الثقافى فى المشرق ، وقد يساعدنا على تصور الحالة الثقافية التى جاء بها العرب الى اسبانيا مع الفتح مباشرة أو بعده .

من ناحية أخرى ، يتفق المؤرخون على أن الجيوش الإسلامية التى توجهت لفتح الشمال الأفريقى ، وبعد ذلك الأندلس ، كانت مصحوبة بمجموعة من الصحابة والتابعين . وإذا لم يكن مؤكدا وصول بعض الصحابة الى الأندلس إلا أنه من المؤكد عبور بعض التابعين الأختلف المؤرخون فى أعدادهم وأسمائهم ، وينقش الحميدى عن عبد الملك بن حبيب من « ١٧٩ هـ - ٨٥٣/٧٩٦ م » ملاحظة يقول فيها : ودخل الأندلس من التابعين « سوى من لا يعرف نحو من عشرين رجلا ، بهؤلاء وغيرهم الى مرسى بن نصير (١٢) وعبارة ابن حبيب « سوى من لا يعرف » تبين أن هناك غيرهم قد دخلوا الى الأندلس وربما جاء بعض التابعين بعد الفتح بغرض المشاركة فى الجهاد .

ولقد كانت المهمة الأساسية لهؤلاء التابعين هى نشر الدين الإسلامى واللغة العربية بين المسلمين الجدد ، وفى تلك الأراضى التى افتتحها المسلمون ومن هنا فانه من الممكن القول - دون مبالغة - ان الحياة الفكرية فى الأندلس قد بدأت بعد أعوام قليلة من الفتح ، وان « اتسمت بطابع القلة والبمباطة وتركزت فى تعلم اللغة العربية والدين الإسلامى » (١٣) . ومع بدايات القرن الثانى الهجرى ، لأنامن الميلادى ، شهدت منطقة شمال إفريقيا والأندلس ، ثورة البربر ضد العرب مما حدا بالخلفاء الأمويين الى ارسال جيوش عربية كثيفة الى هذه المناطق لخماد هذه الثورة ، وعبرت منها الى الأندلس قوات كثيرة العدد منها الطلعة المعروفة تاريخيا باسم طلعة باج القشبرى ، وكان جلها من عرب الشام وتمكنت هذه القوات من خماد نورة البربر فى الأندلس وساهمت فى تكثيف الوجود العربى هناك ومن تم سرعة تعريب هذه المنطقة .

كما أن هذه الفترة - من ناحية أخرى قد شهدت فى بلاد المشرق الإسلامى ازدياد ثورات الخوارج والشيعة ، واحتدم الصراع بين الدولة والخارجيين

عليها ، وفي ظل هذه الظروف ، ربما كانت البلاد المغرب والاندلس ملجأ أقل خطراً ، فلجأ اليها بعنق الفارين من وجه الدولة ، يحملون معهم آراءهم وأفكارهم الدينية وانتقلت هذه الافكار ، بطبيعة الحال ، الى الاندلس لتلعب دورها في الصراع الدائر هناك ، ولتساهم في نفس الوقت في توليد الافكار ، وتصارع الآراء الذي يشكل الاساس - دائماً - لبناء الحياة الفكرية والتطور الثقافي .
(أنظر فجر الاندلس ص ١٤٨ وما بعدها) .

والى جانب هذه العوامل التي نعتقد أنها جذبت الكثيرين من العرب وغيرهم الى اسبانيا ، فاننا نضيف الى ذلك طبيعة وجغرافية الاندلس ، بموقعها ومناخها ، والتي لقيت قبولا كبيرا من العرب حتى انهم سبوهوا في كتاباتهم وأسماهم ببلادهم الأصلية وأطلقوا على المدن الاندلسية أسماء مدنهم الشامية ويقول عنها أبو عبيد الله البكري : الاندلس شامية في طبيعتها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها هندية في عطرها وذكائها ، أهرازية في عظم جباتيها صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها . (١٤)

ومن هنا فاننى أتفق مع تصور الاستاذ الدكتور حسين مؤنس في أن الاندلس قد جذبت اليها أعدادا هائلة غير معروفة من العرب ، نستطيع أن نلمسها في صيحاتهم المؤوية في أرجاء الاندلس ، وثوراتهم التي لا تكاد تنقطع كما نتبين ذلك في السرعة الكبيرة التي تم بها انتشار الاسلام في الاندلس ، وتحويل الغالبية العظمى من سكانه الى الدين الجديد .

ويمثل انتشار الاسلام واللغة العربية في الاندلس خطوة هامة في مجال قيام حضارة أندلسية ، وتجمع كل المصادر التاريخية على سرعة هذه العملية بصورة لافتة للنظر بحيث نجد أنه حين حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز اخلاء الاندلس من المسلمين خوفا عليهم أو « خشية تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن القوطية (١٥) أو « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين » على ما يقول صاحب الأخبار المجموعة (١٦) رد عليه السمح بن مالك يعرفه بقوه الاسلام وكثرة مدينتهم ، وشرف معاقبتهم ، وذلك في عام مائة من الهجرة ٧١٩ ميلادية أي بعد خمس سنوات فقط من انتهاء عملية الفتح ، وعودة القائدين موسى

وطارق الى المشرق • وتعليل ذلك يرجع في المقام الأول - حسب آراء المؤرخين - الى قضاء الاسلام على الأوضاع السيئة التي سادت على العصر القوطي بحيث لم تعد هناك طبقة متحكمة متمثلة في الأسر الحاكمة والنبلاء ، وزال سلطان الكنيسة ونفوذ رجالها ، وانتهت عبودية الأرض ، وأسرع العبيد لكي يتحرروا من العبودية الى اعتناق هذه الديانة من جهة أخرى فان بعض الولاة اعتبروا نشر الاسلام مهمتهم الأساسية ، ومثالنا على ذلك الولي عقبة بن الحجاج السلولى الذى كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة في تكاية المشركين ، وكان اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الاسلام حيناً ويرغبه فيه ويبصره بفضل ، ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفا رجل (١٧) ، ولقد كانت السياسة التى اتبعتها الولاة مع السكان الأصليين ، والقائمة على تركهم أحراراً في معتقداتهم ذات أثر كبير في تأليف قلوبهم ، ودعوتهم بطريقة غير مباشرة الى اعتناق الاسلام ، ويعترف بذلك المؤرخ الاسبانى « التاميرا » Altamera حيث يقول « بأن العرب لم يحترموا فقط ، بصورة مؤكدة العقائد الدينية ، وانما احترموا أيضا الحياة الخاصة للشعوب التى خضعت لهم » •

ثم جواصل قائلاً في نفس الصفحة : « لقد وصلت غالبية الشعب الاسبانى تحت الحكم الاسلامى ، حياتها العادية بما كان لها من كونهات وقصة وشماسة وحافظوا على كنائسهم ، وباختصار تسديد ، حافظوا على كل استقلالهم المادى ، ولم يأخذ منهم الأمراء والحكام الجدد ، الا الجزية الشرعية المفروضة » • (١٨)

في المجال التشريعى :

لا شك أن هذه العلوم هي أول ما تردد على أرض اسبانيا ، لأن أقوان التابعين وأعمالهم ، وآراهم في توزيع الغنائم والاسلاب هي المصادر الأولى للعلوم التشريعية على أرض الاندلس • وبعد مضى فترة الفتح فلا شك في استمرارية هذه القواعد أو الآراء وسريانها على عصر الولاة أنى أن نلتقى بالقضاة الأوائل الذين حفظت المصادر التاريخية أسماءهم من أمثال مهدى ابن مسلم ، وعنزة بن فلاح ، وخالد بن يزيد التجيبى ومعاوية ابن صالح الحضرمى • أما الأول من هؤلاء فقد وضع نصاً نظرياً فقهيّاً سننسير اليه عند الحديث عن النثر - يقرر فيه مجموعة من القواعد التشريعية الهامة ،

والتي يجب أن تنسود في مجال الفقه والتشريع . أما معاوية بن صالح ، فلقد تمتنع بشهرة واسعة ، وخاصة في الشرق في علم الحديث ، وهو أحد الأوائل الذين نشروا هذا العلم على أرض الأندلس .

تبنت الأندلس في مجال التشريع المذهب الأوزاعي وهو مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي المولود عام ٨٨ هـ ٧٠٧ م وقضى معظم حياته في بلاد الشام وتوفي عام ١٥٧ هـ / ٧٧٧ م ودفن في بيروت .

كان الأوزاعي من أبرز الفقهاء الذين ظهروا بالشام وكان يرى اتباع السلف ، ولا يبدي برأيه الا في حالة عدم وجود نص ، وكان يعتمد على أقوال السابقين حيث يقول : أصبر نفسك على السنن ، وقف حيث وقف القوم ، وقتل بما قالوا وكف عما كفوا ، واسلك مسجلك لسلفك الصالح فإنه يسعك ما يسعهم (١٩) .

وأول من أدخل هذا المذهب الى الأندلس هو صعصعة بن سلام المتوفى عام ١٨٠ هـ وهو فقيه من أصحاب الأوزاعي ، وكانت الفتيا دائرة عليه أيام الامير عبد الرحمن بن معاوية (٢٠) ، لكن الدكتور محمود على مكي يرى ان أول من أدخل المذهب الأوزاعي الى الأندلس هو قاضي الليبزة أسعد بن عبد الرحمن السبئي المتوفى حدود سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م (٢١)

عاش هذا المذهب في الأندلس فترة طويلة ، وعلى الرغم من أنه اعتباراً من عهد الامير هشام الرضى والحكم الأول فان المذهب المالكي كان قد بدأ يأخذ طريقه الى الحياة التشريعية في الأندلس الا أن المذهب الأوزاعي ظل محتفظاً ببعض الأوفياء له من أمثال : زهير بن مالك البلوى ، المتوفى ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م والذي « كان فقيهاً على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بني أمية » (٢٢) .

ومع دخول الأمويين واستقرار الأمور لهم في الأندلس ازداد انسياب العلوم الشرقية الى الأندلس ، ومنها بطبيعة الحال المزيد من العلوم التشريعية ، ورحل الأندلسيين الى الشرق وتعلموا على مالك بن انس بالمدينة ، وعادوا معهم كتابه المشهور « الموطأ » وبدأوا في نشر مذهبه في الأندلس ابتداء من عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وأوائل من مضوا هذا العقب ، الغازي بن قيس ، المتوفى ١٩٩ هـ / ٨١٥ م ، وزبيد بن عبد الرحمن المعروف بشبظون ،

المترقى ٢٠٤ هـ / ٨١٩ وعيسى بن دينار قاضى طيطة النوفى ٢١٠ هـ / ٨٢٥ .
وأخيراً تلك الشخصية البارزة يحيى بن يحيى الليثى المتوفى ٢٣٤ هـ / ٨٤٨م
ويقول ابن فرحون عن عيسى بن دينار ويحيى الليثى : وبه ويحيى انتشر
علم مالك بالاندلس ، ورجعت الفتيا الى رأيه « (٢٣) » .

في المجال الأدبي :

تكمن الصعوبة حقيقة في تحديد بدايات النشاط الأدبي على أرض
الاندلس سواء في مجال الشعر أو في مجال النثر ، ويرجع ذلك الى اختلاف الآراء
في هوية الاندلس ، كما سبق ان أوضحنا ، والى أن القائلين شعرا أو نثرا
خلال هذه الحقبة انما طرأوا على الاندلس ، ولهم أصولهم الشرقية الواضحة ،
وتم يجد الباحثون فروقا أصولية تميزهم عن الأدب العربي عامة ، ولا يمنح
ذلك بطبيعة الحال من دراسة ما وجد فعلا على أرض الاندلس في تلك الفترة
الباكرة ، لأن ذلك (الموجود) أيا كان الرأى في هويته وأصوله فهو موجود
على أرض الاندلس ، وهو الأساسى لما كان بعد ذلك من أدب ، لا ينسب اطلاقا
في كونه ادبا اندلسيا .

والحقيقة التي نبدأ بها تناول هذا الموضوع هي ندرة الشواهد الأدبية
أو بعبارة أدق عدم وصول شواهد أدبية كافية الى أيامنا هذه ، وقد يرجع
ذلك الى عاملين :

أولهما : الحالة السياسية للفترة وما اعتراها من صراعات وحروب
متواصلة .

وثانيهما : الإيغال في اليعد تاريخيا ، حيث نتناول بالدراسة فترة تبتعد
عنا بما يقرب من اثنى عشر قرنا من الأزمان .

ولنا ان نتصور أنه كما صاحب جيوش الفتح الاسلامى عدد من علماء
الدين ، فانها ولا شك قد ضمت جوانحها بعض الأدباء من الشعراء أو القصاصين
أو النسابيين ، أو بعض حملة نصيب من الثقافة المسائدة حينذاك في بلاد
الحجاز والشام ومصر ، وكأن هذا القدر من الثقافة - ولو كان قليلا - الأساسى
الذى تطورت عليه فيما بعد ثقافة الاندلس .

وكذلك لا شك في أنه قد ورد إلى الأندلس بعد الفتح واستقرار الأمر بعض ممن كانوا يقرضون الشعر ، وحفظت لنا المصادر نتفا قليلة من أشعارهم ، ومن هؤلاء الشاعر أبو الخطار حسام بن ضرار ، وجاء إلى الأندلس واليا في سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م على عهد هشام بن عبد الملك . وكان الصراع في الأندلس محنت ما بين القيسية واليهودية وكان هشام يميل إلى القيسية ، فلما اشتدت عليه الأزمات شاور العباس بن الوليد فنصحه بالعودة إلى تأييد اليمانية وقال له « يا أمير المؤمنين ليس يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله فأصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه القحطانية » (٢٤) ينسب بذلك إلى نصر اليمانية للأمويين في معركة مرج راهط .

وفي نفس الوقت جاءته رسالة أبي الخطار بقصيدة شعرية يقول فيها :

أفأتم بنى مروان قيسا دمانا
 وفي الله ان لم تنصفوا حكم عدل
 كأنكم لم تشهدوا مرج راهط
 ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
 رقيفاكم حر الوغى بصدورنا
 وليست لكم خيل تعد ولا رجل
 فلما رأيتم راقد الحرب خبا
 وطاب لكم منها المشارب والأكل
 تغافلتم عنا كان لم يكن لنا
 بلاء وأنتم ما علمت لها فعل
 فلا تجزعوا ان عضت الحرب مرة
 وزلت عن المرقاة بالقدم والنعل (٢٥)

ومن أجل ذلك ، ولى هشام حنظلة بن صفوان الكلابي على افريقية ،
وأمره أن يولى ابن عمه أبا الخطار على الأندلس ، وقدمها - كما قدمنا -
سنة ١٢٥ م ، ومن الطبيعي أن هذا الأمير الشاعر قد قرض الشعر على أرض
الأندلس واستشهد به في ادارته للبلاد أو في صراعه مع الخارجين على
سلطته .

والدليل على ذلك أن الحميدى قد نسب له ابياتا أخرى يقول فيها :

فليت ابن جواس يخبر اننى-

سعت سعى امرىء غير غافل

قتلت به تسعين تحسب أنهم

جذوع نخل نخيل صرعت بالمسائل

ولو كانت الموتى تباع اشتريته

بكفى وما استثنيت منها اناملى (٢٦)

وقال الدكتور أحمد هيكل بأنه لقب « بعنزة الأندلس » (٢٧) .

وممن طرأ على الأندلس من الشعراء في هذه الفترة أيضا أبو الأجرى
جعونة بن الصمة ، الذى عرف بهجائه للصميل بن حارم زعيم القيسية
وأحد زعماء الأندلس المعروفين ، ثم رحل بعد ذلك الى مدحه ، ولم يحتفظ
المصادر التاريخية بالكثير من شعر هذا الرجل ، ويقول عنه الحميدى نقلا عن
ابن حزم : وإذا ذكرنا أبا الأجرى جعونة بن الصمة لم نبار به الا جريرا
والفردق لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على أوائل
مذاهب العرب ، لا على طريق المحدثين ، وينقل اليينا من شعره :

ولقد أرانى من هواى بمنزل عمال ورأسى ذو غدائر أفرع

والعيش أغيد ساقط أفنائه والماء أطيبه لنا والارتع . (٢٨)

وكان لهذا الشاعر سمعه في بلاد المشرق حتى يقال ان أبا نواس سأل
عنه عباس بن ناصح الاندلسي ، وطلب أن يسمع شيئاً من شعر جعونة
وذلك حين التقيا معا في العراق (٢٩٩) .

اللي جانب ذلك هناك بعض الأبيات التي قيلت في الصراع الذي كان
يجرى هناك ، ومنها مثلاً ما أوردته المصادر حين الحديث عن الصميل بن حاتم
وأثناء حصاره في سمرقسطه ، أرسل في طلب النجدة فقام إليه بعض العرب
ومعهم عبد الله بن خالد وعبيد الله ابن عثمان وهما رأس الأموية في الاندلس ،
فلما بلغوا وادي طليطلة بلغهم ان الحصار أشد وأضر بالصميل ، فقدموا
رسولاً من قبلهم وقالوا له : ادخل في جملة المحاربين للرسول ، فاذا قربت منه ،
ارم بهذه الأحجار ، وفي كثر واحد منها بيتان وهما :

الا أبئسر بالسلامة يا جدار
أتاك الغوث وانقطع الحصار
أتتك بنات أعوج ملجمات
عليها الأكرمون وهم نزار (٣٠)

اما الصميل نفسه ، فتحفظ لنا المصادر ببيت من الشعر قاله حين رأى
ماله ينتهب على يد الطائفين بعد انتصار عبد الرحمن الداخل وهو :

الا أن مالي عند طى وديعة
ولا بد يوماً أن ترد الودائع (٣١)

وذكر على أدهم البيت مضيفاً لايه :
سلوا عنا عن فعل رمحي ومنصلي

فان سكتوا اثنت على الوقائع (٣٢)

وإذا كانت المصادر مجدبة فيما احتفظت به من أخبار شعراء الفترة فليس
ذلك مما يدفع الى القول بعدم وجود هؤلاء الشعراء أو خلو الفترة من قرض

الابيات وذلك لان الظروف المضطربة والصراع القبلي ، والتنافس والتناجز والانارة عوامل مشجعة للناس على الصياغة والنظم ، فاذا اضفنا الى ذلك طبيعة الأرض الجديدة المغايرة لما عرفه العرب ، واثر ذلك في تفجير ينابيع الشعر لأمكن لنا أن نتصور البداية التي ارتقى عليها بعد ذلك لشعر الأندلسي .

وتأتى الفترة التالية ، والتي نتسم بوصول أفواج جديدة من العرب الى الأندلس مع ظروف سقوط لدولة الأموية في الشرق ووصول عبد الرحمن الداخل الى قرطبة سنة ١٣٨ / ٧٥٥ م ، وتزداد الشواهد الأدبية ، وتكثر الأبيات الواردة في المصادر .

ومن أهم شعراء هذه الفترة ، الأمير عبد الرحمن الداخل نفسه ، والذي كان شاعرا مجيدا ، وناثرا بليغا ، ولم يكن من الغريب أن يأتى شعر الداخل مصورا لجونب حياته المنقلبة والمتباينة ، فتظم في العربية والحنين كما انه نظم في الفخر والحماسة وأر بشعره ولكناحه الفذ من أجل اقامة دولة أموية في الأندلس خلفا لتلك التي بادت في دمشق . واقرأ للداخل هذه الأبيات الرقيقة في لحنين الى الأهل :

أيها الراكب الميمم أرضي

أقر من بعضى السلام لبعضى

أن جسمي كما تراه بأرض

وفؤادي ومالكيه بأرض

قدر البين بيننا فافترقنا

وطوى البين عن جفوني غمضى

قد قضى لله بالفراق علينا

فمضى باجتماعنا سوف يقضى (٣٣)

وهو الذى صاغ تلك العلاقة الفريدة بين نخلة زرعها العرب فى أرض الأندلس فجاجت يتيمة نوعها هناك غريبة ، وبين حالته فأنشد قائلا :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تنهات بأرض الغرب عن باد النخل

فقلت : شديهي في التغرب والنوى
وطول التنائي عن بنى وعن اهلى

نشأت بأرض انت فيها غريبة
فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلى (٣٤)

ولعبد الرحمن الداخلى اشعار اخرى مدونة فى المصادر التاريخية ، منها
ماقاله حين كتب اليه بعض من وفد عليه من قرئش يستنصره فيما يجربه
عليه ، ويسأل الزيادة ، ويستطيل عليه بدالة القرابة . وكتب عبد الرحمن
قائلا :

شنان من قام ذا امتعاض
منتضى الشفرتين تصلا
فجاب فقرا وشق بحرا
سماهيا لجة ومحلا
فبزم ملكها وشاد عزا
ومنبرا للخطاب وفصلا (٣٥)

وهذاك من ينسب اليه هذه الأبيات مع اختلاف فى الكلمات حين ذكروا له
تفاخرا ما كان من الغمر بن يزيد مع عبد الله بن على بن عبد لله العباسى (٣٦)

وذات يوم كان عبد الرحمن خارجا الى الثغر فى بعض غزواته ، فوقعت
غرائيق (طيور مائية بيضاء اللون ، طويلة السيقان ، لها فتازع ذهبية اللون)
فى جانب عسكره ، وأتاه بعض من كان يعرف كلفه بالصيد يعلمه بوقوعها ،
ويشهيها بها ، ويحضه على الصطيادها ، فأطرق عنه قليلا ثم جاوبه :

دعنى وصيد وقلع الثغرائق
 فان همى فى اصطيفاد المارق
 فى نفق كان او فى حالق
 اذا التظت هواجر الطرائق
 النخ (٣٧)

وحين قتل صديقه حيوة بن ملامس الحضرمى ، وكان اثيرا لديه قال
 يرثيه :

فلا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها

اذا غاب عنها حيوة بن ملامس

أخو السيف قارى الضيف حقايراهما

عليه ونافى الضيم عن كل بائس (٣٨)

ولم يكن الداخلى بالشاعر الأموى الوحيد ، لأننا نرى قريبه عبد الملك
 بن عمر الروانى ، تنسب اليه أبياتا شبيهة بأبيات الداخلى التى قالها فى
 النخلة سواء من حيث المعنى أو أسلوب البناء ، ومطلع هذه الأبيات :

يبانخل انت فريدة مثلى

فى الأرض نائية عن الأهل

تبكى وهل تبكى مكممة

عجمالم تجبل على جيلى

.....

..... (٣٩)

ومن شعراء هذه الفترة أيضا عاصم بن زيد العبادي المعروف باسم « ابو المخشي » وكان والده ممن وفدوا على الاندلس في فترة الولاة ، ونزل منطقة البيرة ونشأ أبو المخشي في المنطقة ، وقرض الشعر حتى أصبح من المع شعراء عصره ، بل وصل الى كونه شاعر الدولة المروانية في الاندلس .

واشعار هذا الرجل التي وصلت اليها قليلة ، وتزوى المصادر ميته لعبد الرحمن الداخل ومدحه له ، وكذلك انحيازه لسليمان بن عبد الرحمن مما عرضه لغضب هشام بن عبد الرحمن ، وكان بين الأخوين بعض التنافس ، ويقال بأن هشام تمكن من لشاعر فقطع طرف لسانه وسمل عينيه ، وكانت تجربة قاسية صاغها الشاعر أبياتا حارة مؤنرة ، حركت قلب عبد الرحمن الشاعر لوالدته وأغضبه على ابنه هشام ، ويقال ان الأمير هشام نفسه قد ندم على فعله وحاول تفريغ الشاعر ما أمكن .

ويرى مؤرخو الأدب أن ابا المخشي يمثل الشعر الاندلسي في فترة التأسيس اصدق تمثيل ، فهو يمثله في ظهور بعض السمات الأندلسية الخاصة من تجديد في الموضوعات ، ومحاولة التجويد ، كما أنه يمثله في مسيرته البدوية المحافظة المقلدة لشعار عرب ما قبل الاسلام . ويستدلون بأبياته التي حاول فيها معالجة تجربته الجديدة في فقدان البصر ، ومن أجل ماقاله هذا الرجل :

وهم ضافتي في جرف ليال

كلا موجهما عندي كبير

فبتنا والقلوب معلقات

وأجنحة الرياح بنا تطير

وله أبيات أخرى ذكرها وحللها الدكتور أحمد هيكل في كتابه عن « الأدب الأندلسي » (٤٠) ، وأورد له الدكتور محمود على مكي ترجمة كاملة ومعظم ما حفظ من أشعاره في رسالته عن المؤثرات الشرقية في الثقافة الأندلسية (٤١) ولن استطرده أكثر من ذلك في ذكر شعراء هذه الحقبة والذين كثر عددهم ليتضمن أمراء البيت الأموي من أمثال الأمير هشام وابنه الحكم الأول ، وليضم أيضا بعض الأشخاص المعروفة من أمثال عباس بن ناصح الجزيري ، والشاعر أبو الحسين وابنته حسانة التميمية ، ويكفي ذلك للدلالة على أن أسس الانطلاقة الشعرية قد توطدت وأن راحة الفؤاد قد بدأت مسيرتها لتقتسى للشعر الأندلسي مجاريه ضمن واحات الشعر العربي .

أما النثر فإن طبيعة الأمور تحتم وجود ثروة نثرية كبيرة على الرغم من ندرة ما وصل إلينا من نصوص نثرية ، ونعتمد في قولنا بوجود ثروة نثرية ، على أساسين واضحين أولهما الحاجة الملحة إلى استخدام الكلمة الحسنة ، والأسلوب الواضح في مجال الدعوة إلى الإسلام ، وإقامة الشعائر الدينية وخاصة الصلاة الجامعة أيام الأعياد والجمع ، أما الأساس الثاني ، فهو الحاجة الماسة إلى استعمال الكلمة لها للحدث على الحروب الأهلية أو شجبتها ، كما أن الكتابة كانت حاجة ملحة في هذه الفترة تتطلبها ظروف الفتح والحكم والإدارة ، كما تتطلبها مناسبات رسمية وأخرى شخصية مثل كتابة العهود ، أو وضع شروط الصلح أو توجيه بعض المكاتبات .

وأول نثر عربي ابتدعه خيال المؤرخين ليرتبط بأرض الأندلس يتمثل في تلك الخطبة الرائعة التي نسبت إلى طارق بن زياد ، والتي ألفها لأشعار حماسية جنوده قبيل اللقاء الحاسم في معركة وادي لكة ، وتتلون تلك الخطبة في صيغتها التي وصلت إلينا ، عن عبارات ذات صبغة عربية فصحى ، ولكلماتها رنين قوي ، وأفكارها أفكار حربية ، تنسج الجنود على النصر وتحذروهم الهزيمة . لكن هذا النص الأدبي رغم أنه يرتبط ارتباطا وثيقا بأرض الأندلس ،

لا يمكن تضمينه هذه الدراسة وذلك للشك الكبير في صحته تاريخيا ، وعدم وجود أدلة قوية على نسبته لطارق بن زياد ، وأيضا لأن قائله ، وان كان قد قاد عملية الفتح إلا أنه عاد الى المشرق بعد ذلك ، وظل هناك حتى نهاية حياته ، وهناك أيضا بعض النصوص المنسوبة الى موسى بن نصير والى مغيث الرومي ، لكن تلك النصوص مثلها مثل نص طارق بن زياد تتعرض لكثير من النقد ويعتقد انها كتبت بعد عصرهم ونسبت اليهم .

ومن النصوص النثرية الأولى التي وصلت الينا ، صيغة الكتاب الذي قدمه عبد العزيز بن موسى بن نصير الى تدمير حاكم منطقة مرسية ، وتحدد فيها نوع المعاملة التي يجب أن تسود بين الفريقين ، ويبدأ الكتاب بالصيغة التالية :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد العزيز الى تدمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عن ملكه ولا أحد من النصاري عن املاكه ، وأنهم لا يقتلون ، ولا يبسون اولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم . . . الخ » (٤٢) .

أما النص الآخر الذي تتجلى فيه روعة الأسلوب مع وضوح الفكرة فهو المنسوب الى صياغة القاضي مهدي بن مسلم قاضي عقبة بن الحجاج السلوي والذي تولى الاندلس في سنة ١١٦ هجرية وظل بها حوالي ٥ سنوات ، الى أن استشهد في جهاده في أرض خاله ، والرسالة من صياغة القاضي ، والذي طنب منه واليه لحجاج كتابة العهد فكتب رسالة ذات مستوى لغوي سليم ، موضحا بها بعض النقاط الهامة في « المساواة بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظة استماعه ، وأن يفهم من كل أحد حجته وما يدلي به ويستأني كل عيبي اللسان ، ناقصي الأبيان ، فان استقصاء الحجج ما يكون لحق الله تعالى عابه قاضيا ، وللواجب فيه راعيا ، فقد يكون النحة بحجته وأبلغ في منطقته ، وأسرع في بلوغ المطلب ، والطف حيلة في المذهب وأذكي ذكاء ، وأحضر جوابا من بعض ، وان كان غير الصواب مرماه ، وبخلاف الحق منها » (٤٣) .

وكذلك احتفظت لنا المدونات بجزء من رسالة يوسف الفهرى آخر ولاية الاندلس والتي وجهها الى عبد الرحمن الداخل حين نزل بأرض الاندلس يعرض عليه بعض الشروط لكي يتجنب الحرب ، ولكن فشلت هذه الرسالة في احلال الصلح بين الطرفين وذلك بسبب غرور كاتبها خالد بن يزيد ، ويروى لنا صاحب كتاب أخبار مجموعة ، أن خالدا حمل كتاب يوسف الى عبد الرحمن وكان « ادبيا عاقلا ، الا أنه زل ، وكان هو مملى الكتاب فان له العجب والنفخ ، وقد بما ما أهلك دين الرجال ودنياهم ، فقال : يا ابا عثمان : لتعرقن ابطك قبل أن تحير فيه جوابا » . فغضب أبو عثمان وسبه ، وفتشت الوساطة واخذ خالد بن يزيد أسيرا (٤٤) .

ومن كتاب هذه الفترة لدينا أسماء خالد بن يزيد ، وأميرة بن يزيد وكانا من كتاب يوسف بن دبدب الرحمن الفهرى ، ثم انتقلا بعد ذلك الى خدمة عبد الرحمن الداخل .

وتصف الكتابات الأدبية نثر هذه الفترة الأولى من تاريخ الأدب الاندلسي بأنه كان يحمل الخصائص الفنية للنثر الأشرقي ، كما أنه نثر يميل الى الایجاز ، ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ، ثم هو لا يعرف تلك المقدمات الطويلة أو الألقاب المتعددة مثلما هو الحال في العصور التالية .

وكما كان وصول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس علامة بارزة في تطور الشعر فهو كذلك أيضا في مجال النثر ، لأن الامير كان شاعرا جيدا وناثرا مفلقا مفعما . ومما ينسب اليه قوله حين قتل المغيرة ولد أخيه الوليد :

يا عجبى الا من هؤلاء القوم ، سعيينا فيما يضجعهم في مهساد الأمن
والنعمة ، وخاطرنا بحياتنا ، حتى اذا بلغا منه الى مطلوبنا ، ويسر الله تعالى
به حتى آمنوا وردت عليهم أخلاق النعم ، هزوا أعطافهم ، وشمخوا بأنفاهم ،
وسموا الى العظمى ، فنازعوننا فيما منحه الله تعالى (٤٥) .

ولقد احتفظت لنا المصادر بالكثير من النصوص النثرية المتعلقة بعبد

الرحمن الداخل ، ومنها خطبة قالها بعد انتصاره في معركة المصارة سنة ١٣٨ هـ ورسالة منه الى سليمان الاعرابي ، حاكم برشلونه الذي أعلن العصيان ، وتحالف مع شارلمان .

ولم تقتصر الحياة الفكرية في الاندلس خلال ذلك التاريخ البعيد على تلك الشواهد الأدبية شعرا أو نثرا ، وإنما بدأت العلوم الإسلامية التي كانت قد نضجت في الشرق في الانسياب نحو الاندلس ، فبدأت قلية تشق طريقها بثبات الى هناك الى أن حفرت مجرى واسعا انتقلت خلاله معظم هذه العلوم والآداب لتعيش على أرض الأندلس ، ولتصبغ هناك بطبيعة الأرض وسجايا الناس ولتتحول الى جزء لا يتجزأ من الحضارة الاندلسية .

ومن أوائل من حماوا العلم الى الاندلس نجد زيادا بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٩٩ هـ « وهو أول من أدخل الاندلس فقه مالك بن أنس ، وكانوا يقبلون ذلك على المذهب الأوزاعي » (٤٦) وهو « أول من دخل الاندلس بالفقه والحلال والحرام ، وهو أول من أظهر سنة تحويل الأودية في الاستسقاء » (٤٧) .

وفي أيام عبد الرحمن بن معاوية دخل الغازي بن قيس الاندلس بالموطأ عن مالك بن أنس رحمه الله ، وبقرائة نافع بن أبي نعيم . وفي أيامه دخل أبو موسى الهواري عالم الاندلس ، وكان قد جمع علم العرب الى علم الدين ، وكانت رحتهما من الشرق الى الاندلس بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية الاندلس ، ودخل الاندلس قبل دخول الامام عبد الرحمن بن معاوية ، وكان من جلة أهل العلم ، ورواة الحديث ، وكانت له مكانة عظيمة ، لدرجة ان سئل محمد بن وضاح : هل جمع أهل الاندلس علم معاوية بن صالح ؟ فاجاب بالنفي فقيئ له : وما متعكم من ذلك ؟ قال : قدم بلدا لم يكن أهله يومئذ أهل علم فقيئ له أضعتم والله علما عظيما (٤٩) .

وانتهت الى الى الاندلس أمهات الكتب في النحو منذ أواخر القرن الثاني فدخل جودي بن عثمان العبسي المتوفى سنة ١٩٨ كتاب الكسائي ، وكان قد رحل الى الشرق ، وأخذ عن الرياشي والفراء والكسائي (٥٠) .

كذلك بدأ استخدام علم التنجيم في هذه الفترة الباكرة من تاريخ الأندلس حيث أن هشام بن عبد الرحمن الداخل حينما تولى بعث في طلب الضبي المنجم بالجزيرة فقال له لست أشك أنك قد عنيت بأمرى إذ بلغك ، فناشدتك الله الا أخبرتنى بما ظهر لك ، فقال له الضبي : ناشدتك الله اعفيتنى من هذا فأعفاه فلما كان بعد أيام كشف عنه ، فقتل له خاطر بعث فبعث فيه وقال له : ان الذى أسألك ، لست الله أصدق به على الحقيقة ولكن أريد أن أسمعك ولئنى أو ردت على ما يعمنى لا اعاقبك ولاكسونك ولأحبونك ، وأكافئك كما كنت أكافئك على أن تور على ما يسرنى ، فقال له الضبي : ما بين السنة والسبعة ، فأطرق عنه ساعة ، ثم رفع رأسه اليه فقال له : يا ضبي والله أو أنها سجدة في سبيل الله لهانت (٥١) .

المجال التربوى والتعليمى :

لا شك ان عملية التطور الثقافى والفكرى التى اشرفنا اليها قد مضت في طريقها معتمدة على انتشار اللغة العربية والاسلام ، وتعمقهما في نفوس أهل الأندلس ، كما انها قد صاحبها نشاط تربوى وتعليمى يحسن بنا ان نشير اليه باعتباره مظهرا هاما من الحضارة الاندلسية كما انه الاساس الراسخ الذى بنيت عليه هذه الحضارة .

بدأت الحياة التعليمية في الاندلس بعد الفتح مباشرة ، وتمثلت في بداية الأمر تعليم اللغة والدين الاسلامى ، وقام بهذه المهمة مجموعة من العنماء الدينيين الذين رافقوا الجيوش الاسلامية في عبورها الى ارض شبه الجزيرة الايبيرية او من هاجر الى هناك بعد الفتح .

انتهى التعليم - كما هو طبيعى ومنطقى - في بداية الأمر الى الكبار سواء من سكان الأرض الاسبانية أو من البربر حديثى العهد بالاسلام ، وهو أمر كان يحرص عليه الذين اهتموا بتعلم لغة الفاتحين من أجل مصاحهم الخاصة أو ممن اعتنقوا الاسلام ، وحاولوا معرفة لغة دينهم .

وفي نفس الوقت فإنه لم تنقضى مدة طويلة حتى بدأت في الظهور أجيال جديدة من أبناء الفاتحين وزوجاتهم الاسبانيات ، ومع هذه الاجيال تجلت الحاجة الى تعليم الاطفال اللغة العربية والقرآن الكريم .

ولدينا من البيانات التاريخية ماثبت وجود الكتب في الاندلس على عهد الولاة حيث يحكى ان الصحيل بن حاتم قد مر يوما بمعلم يعلم الصبيان وهو يقرأ «وتلك الايام بدلواها بين الناس» ودار بينه وبين المعلم جدل غريب ، يمكن ان نفسره بأكثر من معنى . (٥٢) ، كما ان الزبيدي في كتابه طبقات النحويين، ينقل لنا نصا قيما عن الغازي بن شيبس ، المتوفى سنة ١٩٩ هـ ٨١٤م . يمكن لما ان نستنتج منه أنه في أيام دخول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس كان الغازي يمارس التأديب ، بل ان هذه المهنة كانت شائعة ، ويمارسها عدد كبير من الناس وان هؤلاء كانوا يشعرون بأنهم يمارسون حرفة معينة ، يجب ان يتقاضوا في مقابلها اتعابا ، وينتجعون للدماع عنها (٥٣) .

وما من شك في ان عدد الذين تعلموا خلال هذه الحقبة كان كبيرا وبعض هؤلاء هم الذين اتيح لهم على عهد عبد الرحمن الداخل القيام بالرحلة الى الشرق ، وعادوا - كما أشرنا - حاملين معهم مزيدا من الثقافة الى الاندلس مما دفع بهذه الحضارة خطرات على طريق التطور والارتقاء .

في مجال الأهران :

مما يلفت النظر في دراسة هذا الجانب من جوانب الحضارة الاندلسية عدم قيام المسلمين هناك بتأسيس مدن خاصة بهم رغم أهمية هذا العمل في الاستقرار في البلد الجديد وتحويله الى العربية لغة والاسلام دينا ، وتفسر ذلك تفسيراً علمياً يتطلب دراسة مستقلة عن دور المدينة الاسلامية في تعريب الاوطان الجديدة ونشر الاسلام بها ، وخاصة ان الامثلة السابقة لا تحدد لنا بالضبط لماذا تم بناء هذه المدن ، ففي العراق ، وهو بلد كثيف السكان تم بناء البصرة والكوفة ، أما بلاد الشام فلم تبني بها مدن جديدة ، ومصر حظيت ببناء الفسطاط ، وافريقية بالقيروان أولا ثم تونس بعد ذلك .

وجاء بناء المدن في الاندلس فيما بعد في فترة الازدهار الحضارى وتمش
في اقامة اماكن خاصة للخلفاء مثل الزهراء والزهرة ، أو اقامة مدن بحرية مثل
مدينة المريية .

أما اول مظاهر العمران التي قام بها المسلمون هناك فتمثل في انشاء
المساجد حيث تجمع المصادر التاريخية على أن أول شيء أقامه موسى بن نصير
هو مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء التي يقول عنها الادريسي : انها أول
مدينة افتتحت في ذلك الوقت وبها على باب البحر مسجد « مسجد الرايات »
ويقال انه هناك اجتمعت رايات القوم للرأى « (٥٤)

كما ان حنش بن عبد الله الصنعاني - أحد التابعين الذين لاخلاف
حول دخولهم الاندلس مع الفتح - قد قام بتأسيس عدة مساجد هناك ،
فيذكر الحميدى حين يترجم له أنه : غزا الاندلس مع موسى بن نصير وله بها
آثار ، ويقال : ان جامع مدينة سرقسطة من نغور الاندلس من بنائه ، وانه
أول من اختطه . (٥٥) وبشير الدكتور عبد الرحمن على الحجى نقلا عن
المصادر الاندلسية الى تأسيس حنش الصنعاني ، بالتعاون مع غيره مساجد
مدن : ألبيرة وقرطبة وسرقسطة وربما غيرها . (٥٦)

وإذا كانت هذه المساجد قد اقيمت خلال مرحلة الفتح نفسها ، فانها
استمرت بعد ذلك طوال التاريخ الاندلسي ، فاهتم الولاة والامراء والافراد بها
ومثالنا على ذلك قيام عبد العزيز بن موسى بن نصير أول وال في الاندلس ،
وزعم انه لم يحكم الا عدة شهور ، ببناء مسجد بأشبيلية أمام داره ، وهو
المسجد الذى قتل فيه حين خرج لامامة المسلمين . (٥٧)

وما يقوله « النباهي » عن معاوية بن صالح أنه « من القضاة المتقدمين
خرج من الشام الى الاندلس فوصلها سنة ١٢٣ هجرية ، فاستوطن مدينة
مالقة ، وبنى بأسفل قصبتها مسجدا هو منسوب حتى الآن له . (٥٨)

وإذا لم تكن متوفرة لدينا المعلومات الفنية عن مساجد هذه الفترة البعيدة من التاريخ الأندلسي ، إلا ان ارادة الله لم تشأ ان تحرمها من الخلود حين هيا لها عبد الرحمن الداخل لكي يبدأ في بناء مسجد قرطبة الجامع ، والذي أصبح فيما بعد مفخرة في البناء المدنى في الأندلس ، وكان ومازال درة غالية في مجال فن البناء الاسلامي والحضارة الأندلسية خاصة والاسلامية عامة .

بدأ عبد الرحمن بقاء هذا المسجد في عام ١٧٠ هـ (٧٨٦م) ، وجلب اليه الاعمدة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد ، وتوفى قبل اتمامه ، واكمله ابنه هشام ، وزاد فيه أمراء بنو أمية وخلفاؤهم من بعد حتى غدا أعظم مساجد الأندلس وبلغ ما أنفقه عليه عبد الرحمن الداخل وحده زهاء ثمانين ألف دينار » (٥٩)

واتجه اهتمام المسلمين ايضا الى تحسين المرافق القائمة ، فقد تنبه الوالى السمع بن مالك الخولانى الى تهدم قنطرة قرطبة بعد أن استتسار الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى أمر بتجديد بنائها من صخر سور المدينة ، وأن يبني سور المدينة باللبن اذ لا يجد له صخرا ، فوضع - أى السمع - بدا فبنى القنطرة فى سنة احدى ومائة (٦٠) ، وعدت هذه القنطرة والمسجد الجامع من أهم معالم مدينة قرطبة ، وإذا كان هذان البناءان من وضع فترة التأسيس الحضارى ، فان المدينة لم تضيف اليها بعد ذلك الا الزهراء وتميزها بالعلم حيث يقول الشاعر عن هذه المدينة الخالدة :

بأربع فاقت الابصار قرطبة

منهن قنطرة النوادى وجامعها

هاتان ثننان والزهراء الثالثة

والعلم أفضل شىء وهورابعها (٦١)

وشهد عصر عبد الرحمن الداخل اهتماما بالمدينة ، وركزا اهتمامه على

قرطبة التي حاول أن يجعل منها صورة لمدينة دمشق حيث مجد أجداده .

« فحسبها وزينها بالفضات الفخمة والرياض اليبانة ، وكان أهل ما أنشأ بها على عهد منية الرصافة التي أنشأها في شمال غربي قرطبة وأنشأ بها قصرا تحيط به الحدائق ، وجلب اليه مختلف الغروس والبذور والنوى من الشام وأفريقية وأسماها الرصافة تخليدا لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بالسام ، واتخذها مقاما ومنزلها ومقرا للامارة ، وكانت حدائق الرصافة أما لحدائق الاندلس ، ومنها انتشرت بالاندلس غروس الشام وأفريقية . »

وفي سنة ١٥٠ هـ بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة الكبير واستمر العمل فيه مدى اعوام ، كما أنشأ في قرطبة وباقي مدن الاندلس مساجد محلية عديدة « (٦٢)

وهكذا وضعت الأسس التي تطور عليها فن المعمار في الاندلس لكي يثمر لنا بعد ذلك عقودا من الاعمال الفنية المعمارية الخالدة والتي انتظمتها كتب تراث المسلمين الفني والمعماري . (٦٣)

شهدت هذه الفترة أيضا من مرحلة تكوين الحضارة الاندلسية جوانب أخرى حضارية لا يتسع المقام هنا لذكرها والحديث عنها ، وذلك بسبب ضيق المساحة ، ومن هذه الجوانب النظام القضائي والتنظيم الإداري ، الى جانب مسلك المسلمين في المجال الاقتصادي .

هوامش الدراسة :

- Sanchez Albornoz : (١)
Espana un enigma Historico, P.II.I. p. 21.
- Sanchez allbornoz : (٢)
Historia de Espana Musulmana. 1 : 20
- (٣) جودت الركابى : فى الأدب الأندلسى ، ط ٤ ، ص ١٣٠ - ١٣١ ،
القاهرة ١٩٧٥ م .
- Conzalez prats; Antonio : (٤)
Altura en Las ciencias Médicas en el Rienu de Al-Andalus,
p. 20 Barcelona 1906.
- Gomez Nogales : La Filozofia Musulmana, p. 9. (٥)
(٦) نفس المصدر ص ١٣٠
(٧) نفس المصدر ص ١٣١
(٨) أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ، ط ٢٨ ، ص ٣٥
(٩) نفس المصدر ص ٣٦ - ٣٧ .
- (١٠) الطاهر مكى : حضارة الاسلام فى الأندلس ، عدد خاص من مجلة
الهلل يونية سنة ١٩٧٦ ص ٩٣ .
- (١١) حسن على حسن : الحضارة الاسلامية فى الغرب والأندلس على
عصر المرهدين ، القاهرة ١٩٨٠
- (١٢) انظر فى ذلك كتابى عن « تاريخ التعليم فى الأندلس » ص ٧١ -
٧٣ ، دار الفكر العربى ١٩٨٢
- (١٣) أحمد هيكل : المصدر المذكور ص ٦١
(١٤) انظر كتابى المذكور سابقا ص ٧٤
(١٥) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٣٨ ، طبعة الابيارى ،
القاهرة .
- (١٦) مجهول المؤلف : أخبار مجموعة ، ص ٣٠ ، طبعة الابيارى .
دار الكتاب المصرى القاهرة ١٩٨٢ م .

- (١٧) الخشنى : قضاة قرطية ص ٩٠ ، طبعة الهيئة العامة للكتاب
بالقاهرة .
- (١٨) Altamera Ho de Espana 4 de la civilization Espanola,
p. 229 30 Edician., Barcelona 1913.
- (١٩) خليل داود الزرو : الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني
من الهجرة ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٠٤
- (٢٠) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٢٧ .
- (٢١) محمود على مكى :
- Euzayos Sobre las aportaciones orientales
en la Espania musulmana.
- رسالة دكتوراه منشورة باللغة الاسبانية بمجلة المعهد المصرى للدراسات
الاسلامية بمدريد في عديها التاسع والعاشر ؛ والحادى عتسر والثانى عشر .
ص ١٣٠
- (٢٢) ابن الفرض : علماء الأندلس ص ١٨١ ، والحميدى ص ٢٠٥ ،
وانظر أسماء أخرى أوردها كتابى فى « تاريخ التعليم فى الأندلس ، ص ٧٥ .
- (٢٣) ابن فرحون : لأديباج المذهب فى تاريخ اعيان المذهب ، د ٣
ص ٦٥ - ٦٦ .
- (٢٤) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٤٢
- (٢٥) نفس المصدر ص ٤٢ - ٤٣ ، وأوردها الحميدى باختلاف بسيط
ص ١٨٨ - ١٨٩ .
- (٢٦) الحميدى : المصدر المذكور ص ١٨٩ .
- (٢٧) أحمد هيكل : المصدر المذكور ص ٦٢ .
- (٢٨) الحميدى : المصدر المذكور ص ١٧٧ - ١٧٨ .
- (٢٩) أحمد هيكل : المصدر المذكور ص ٦٢
- (٣٠) ابن عذارى : البيان المغرب د ٢ ص ٤٣
- (٣١) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٥١
- (٣٢) على أدهم : صقر قريش ص ٧٤ .

- (٣٣) ابن عذارى : البيان المغرب د ٢ ص ٤٣ ، جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ص ٨٣
- (٣٤) ابن عذارى : المصدر المذكور د ٢ ص ٦٠
- (٣٥) أخبار مجموعة ص ١٠٦ . ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب د ٢ ص ٥٩ .
- (٣٦) على أدهم : صقر قريش ، المقتطف ١٩٣٨ .
- (٣٧) أخبار مجموعة ص ١٠٧ .
- (٣٨) على أدهم : الكتاب المشار اليه ص ١١٥ .
- (٣٩) جودت الركابي : المصدر المذكور ص ٨٣ ، على أدهم : الكتاب المشار اليه ص ١١٣
- (٤٠) احمد هيكال : المصدر المذكور ص ٩٨ - ١٠٢ .
- (٤١) محمود مكي : الرسالة المنار اليها ص ١٤٠ - ١٤٢ .
- (٤٢) عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الأندلسي ص ٨٠
- حسين منس : فجر الأندلس ص ١١٤ - ١١٥ .
- (٤٣) الخشنى : قضاة قرطبة ص ٩ - ١١ ، حسين مؤنس : المصدر المذكور ص ٦٤٦ - ٦٤٨ .
- (٤٤) أخبار مجموعة ص ٧٥ - ٧٦ .
- (٤٥) المقرئ : نفع الطيب د ٢ ص ٧٢ - ٧٣ ، طبعة احسان عباس .
- (٤٦) الحميدى : المصدر المذكور ص ٢٠٢ .
- (٤٧) الخشنى : قضاة الأندلس ص ٢٧ .
- (٤٨) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٥٦ .
- (٤٩) ابن الفرضى : علماء الأندلس د ٢ ص ١٣٨ - ١٤٠ .
- (٥٠) لطفى عبد البديع : الاسلام في اسبانيا ص ٧٣ .
- (٥١) ابن القوطية : المصدر المذكور ص ٦١
- (٥٢) انظر كتابي المشار اليه ص ٢١٩ .
- (٥٣) المصدر السابق ص ٢١٩ .

- (٥٤) الادريسي : نزهة المشتاق ص ١٧٧ . الحجى : المصدر السابق ص ١٤٦ .
- (٥٥) الحميدى : المصدر السابق ص ١٨٩ - ١٩٠ ، ابن الفرضى :
عاماء الأندلس ج ١ ص ١٢٧ .
- (٥٦) الحجى : المصدر المذكور ص ١٤٦ .
- (٥٧) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . التعليق رقم (١)
ص ٢٣ .
- (٥٨) النباهى : قضاة الأندلس ص ٤٣ .
- (٥٩) عنان : دولة الاسلام فى الأندلس ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
- (٦٠) أخبار مجموعة ص ٣٠ - ٣١ .
- (٦١) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ص ٣١٠ .
- (٦٢) عنان : المصدر المذكور ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
- (٦٣) انظر فى ذلك كل من كتاب الدكتور عبد العزيز سالم « تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس » وكتاب الأستاذ محمد عبد الله عنان « الآثار الاسلامية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » .

**قوانين الملكية الزراعية في الامبراطورية البيزنطية
في القرن العاشر الميلادي : دراسة تحليلية**

للدكتور وسام عبد العزيز فرج
مدرس تاريخ العصور الوسطى
بآداب المنصورة

قوانين الملكية الزراعية في الامبراطورية البيزنطية في القرن العاشر الميلادي : دراسة تحليلية

يتفق معظم المؤرخين المحدثين في مجال الدراسات البيزنطية ان السبب في اصدار العديد من التشريعات التي تتناول الملكية الزراعية في القرن العاشر الميلادي ، كان يرجع الى حالة الاضطراب التي سادت اقاليم الامبراطورية البيزنطية . فالنسبة لأوستروجورسكي Ostrogorsky كانت أطماع طبقة كبار الملاك الاثرياء في الاقاليم هي السبب الرئيسي في ظهور ما يعرف بـ «مشكلة الارض» في القرن العاشر الميلادي . وحين قام هؤلاء الأغنياء (dynatoi) بشراء اراضى صغار المزارعين الاحرار الفقراء (Ptôchoi او Penêtes) زادوا في فقرهم وقضوا على حريتهم (١) .

اما المؤرخ الفرنسي لاميرل Lemerle فقد رأى أن اسباب الصراع بين الطبقتين لا ترجع الى اختلافها الاقتصادي بقدر اختلافها في المركز الاجتماعى . فبالنسبة له كانت طبقة dynatoi هم الأثوياء ، وطبقة Penêtes هم الضعفاء . (٢)

(١) لرأى أوستروجورسكى في « مشكلة الارض » تلخيص في مؤلفه العام « تاريخ الدولة البيزنطية » . Ostrogorsky, State, 269-87. كذلك تناول أوستروجورسكى « مشكلة الارض » في بحثين آخرين هما : Ostrogorsky, *Quelques Problèmes ; Ostrogorsky, Agrarian Conditions*, 205-22.

(٢) من أهم كتابات لاميرل Lemerle في هذا المجال بحثه الشهير المطول في مشكلة الارض » :

Lemerle, *Esquisse*, 32-74, 254-84.

Syuzymov, *Le Village*, 65-74. للمزيد حول هذا الموضوع انظر :

ورغم اختلاف اوستروجورسكى و لاميرل في ترجمة Penêtes ،
 Ptôchoi ، dynatoi ، فقد اتفق المؤرخان على أن هناك أدلة واضحة
 تشير الى وجود صراع بين مصالح هاتين الطبقتين ، وأن طبقة صغار
 المزارعين الأحرار تعرضت في القرن العاشر الميلادي لخطر الفناء بسبب جشع كبار
 الملاك وقيامهم بامتلاك اراضيهم بمختلف الوسائل الشرعية وغير الشرعية .
 والسؤال الذي يفرض نفسه هنا لماذا تعرضت طبقة صغار المزارعين الأحرار
 لهذا الخطر في القرن العاشر الميلادي بالذات ؟ ولماذا أصدر اباطرة القرن العاشر
 الميلادي تشريعات استهدفت حماية مجتمعات صغار المزارعين من جشع
 الأثوياء ؟

من المعروف أن استقرار المجتمع البيزنطي كان يعتمد على جماعات
 الفلاحين الأحرار من صغار المزارعين الذين تعاملوا مع الحكومة المركزية مباشرة .
 وكانت القوة العسكرية والمالية للدولة البيزنطية تعتمد على ابناء هذه الطبقة
 الذين كانوا يدفعون الضرائب للحكومة المركزية بالتضامن ، كما كانوا يؤدون
 الخدمة العسكرية بالانخراط في جند النيمات التي تتولى الدفاع عن الأقاليم .
 وطالما عاشت طبقة صغار المزارعين الأحرار آمنة ، توفرت لدفاعات الامبراطورية
 في الأقاليم القوة متمثلة في جند النيمات من ابناء هذه الطبقة ، وتوفرت لخزانة
 الامبراطورية السيولة النقدية متمثلة في الضرائب الزراعية التي يدفعها ابناء
 هذه الطبقة بالتضامن . (٣)

ويرى الباحث أن هناك ثلاثة عوامل أدت الى تعرض طبقة صغار المزارعين
 الضعفاء لجشع كبار الملاك الأثوياء في القرن العاشر الميلادي بالذات ، وبذلك
 الصورة الخطيرة التي اضطرت الاباطرة للتدخل لحماية الضعفاء :

العامل الأول : التوسع البيزنطي في القرن العاشر الميلادي ، والاتجاه
 الشرقي لهذا التوسع :

‘Ostrogorsky, *Agrarian Conditions*, 216.

(٣)

يلاحظ أن تاريخ بداية التسريعات التي صدرت في القرن العاشر الميلادي من أجل حماية مجتمعات صغار المزارعين الاحرار من جنس كبار الملوك ، كانت تعاصر تقريبا بداية الهجوم البيزنطي في اتجاه الشرق ؛ ولم يكن هذا من قدييل الصدفة . فمن المعروف ان الجيش البيزنطي بدأ هجومه الكبير على ثغور دار الاسلام في سنة ٩٢٦ م . ولقد استمر هذا الهجوم بشكل متقطع لمدة قرن من الزمان تقريبا ، تقدمت خلالها حدود الامبراطورية الشرقية مزيدا الى لشرق . وكان هذا التوسع البيزنطي في اتجاه الشرق من عمل طبقة الارستقراطية العسكرية وهي الطبقة التي انجبت يوحنا كوركواز John Kourkouas ويوحنا تزييمسكيس John Tzimiskes ونقفور فوقاس Nikephoros Phokas وغيرهم من قادة الجيش البيزنطي . (٤) وفي البداية كان الاتجاه شرقا يستهدف تأمين آسيا للصغرى من اغارات المسلمين ، ولكن حين أدى النجاح الى المزيد من التقدم وحين تم تحقيق النصر ، أصبح الاتجاه لشراء الارض الزراعية مجالا مأمونا للاستثمار ، وعلى الفور اتجه الاقوياء لشراء المزيد من الارض . ويرى بعض المؤرخين أن السبب في اتجاه الاقوياء للاستثمار في مجال الأرض الزراعية يرجع الى أنه كان مجال الاستثمار الوحيد المتاح أمامهم ، لأن مجالات الاستثمار في التجارة والصناعة كانت بالنسبة لهم مقيدة . (٥)

ان الامبراطور الذي بدأ سياسة التوسع شرقا هو الامبراطور رومانوس الأول ليكابينوس Romanos I Lekapenos وكان هذا الامبراطور من أصل بسيط مما جعله متعاطفا مع الفقراء . كذلك كان رومانوس من أبناء منطقة الحدود ، فلقبه ليكابينوس ، ربما يشير الى أن اسرته جاءت من قرية لاكاب Lakape التي تقع الى الجنوب الشرقي من قلعة زبطرة Sozêpetra الواقعة على أحد روافد نهر الفرات . فاذا كانت لاكاب هي في الحقيقة موطن اسرة رومانوس الأول ، فان هذا يعنى ان رومانوس جاء من قرية استولى عليها

(٤) وسام : دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، ج ١ ، الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٩ .

Toynbee, Constantine Porphyrogenitus, 54.

(٥)

البيزنطيون من المسلمين في حياة رومانوس نفسه . وان هذا ليوضح اسباب اهتمام رومانوس باستغلال ضعف الخلافة العباسية كي يتوسع شرقا .

على أية حال فان قيام رومانوس بتبني هذه السياسة الخاصة بالتوسع في اتجاه الشرق ، مهما كانت دوافعها ، قد عملت بدون قصد لصالح الأقوياء في الصراع الاقتصادي والاجتماعي الذي وقع داخل الامبراطورية البيزنطية .

العامل الثاني : المجاعة التي اصابته الدولة البيزنطية في سنة ٩٢٧ /

٩٢٨ م : لقد عملت الطبيعة أيضا لصالح الأقوياء حين حل بالامبراطورية شتاء قاس في سنة ٩٢٧ / ٩٢٨ م . (٦) فقد تسبب المناخ في حدوث مجاعة ، وارتفعت نسبة الوفيات . وتتفق المصادر البيزنطية في مدح الامبراطور رومانوس ليكابينوس على الاجراءات التي اتخذها لمواجهة هذه المحنة . (٧) فمن اجل تخفيف آلام ضحايا تلك المجاعة في القسطنطينية ، أمر الامبراطور بتوفير لمن لا مأوى له ، كما وزع الأموال على المحتاجين وجعل كنائس العاصمة تساهم في ذلك . ولكن المجاعة لم تقتصر على المدن بل اصابته الريف أيضا ، وكان لدى فقراء الريف اراض اضطروا لبيعها . وانتهز الأقوياء فرصة المصاعب التي واجهت صغار المزارعين وأقبلوا على شراء الأرض . وتوضح التشريعات التي صدرت بعد ذلك ان بيع الاراضي في الريف أصبح نقطة تحول كبيرة وترتبت عليه عواقب وخيمة بسبب تلك المجاعة التي نجمت عن شتاء ٩٢٧ / ٩٢٨ م . وكما تقول اثنناحية القانون رقم (٥) الذي أصدره الامبراطور رومانوس ليكابينوس سنة ٩٣٤ م :

« وحين رأى الأقوياء ان الفقراء مطحونون بسبب المجاعة ، اقبلوا على

(٦) وطبقا لما ورد في القانون رقم (٥) الصادر في سبتمبر سنة ٩٣٤ م ، يتضح ان تاريخ بداية المجاعة يقع في السنة التي تبدأ بأول سبتمبر ٩٢٧ م وتنتهي بب ٣١ من أغسطس سنة ٩٢٨ م . انظر : J. G-R, III, 247-48. (٧) انظر : George. Mon. Cont., 908-9; Ileo Grammaticus, 318-20; Theoph. Cont. 417-18; Pseudo-Symeon, 743-4.

شراء اراضيهم بابخس الأثمان مقابل قطع من العملة او بعض الدقيق او سلع أخرى ، وهكذا استغل الاقوياء المصاعب التي واجهت الفقراء » (٨)

العامل الثالث : بعض التشريعات التي أصدرها الامبراطور ليو السادس
(٨٨٦ - ٩١٢ م) :

لاشك أن الطريق انفتح امام طبقة الأقيوياء بسبب بعض التشريعات التي صدرت في عصر الامبراطور ليو السادس والتي كانت بصفة عامة لصالح الاقوياء . فالمعروف أنه قبل صدور تشريعات ليو هذه كانت سياسة الحكومة البيزنطية تقوم على حماية الملكية الزراعية لمجتمعات صغار المزارعين الأحرار . وكان القانون ينص على نقطتين هامتين من أجل هذا الهدف . الأولى : حد القاتون وتريد حرية الفلاح في بيع أرضه وذلك بأن أعطى الحق في الموافقة على البيع أو رفضه للمزارعين الآخرين في مجتمع ذلك الفلاح سواء على المستوى الفردي أو الجماعي . وكان الغرض من هذا الاحتفاظ بمجتمعات صغار المزارعين التي كانت تشكل مصدرا مضمونا للضرائب الزراعية ومصدرا للجنود في حالة الاراضي العسكرية من ناحية ، والحيلولة دون وقوع هذه الاراضي في يد ملاك جدد من طبقات أخرى قد تجد الدولة صعوبة في الحصول على الضرائب منهم كما قد تجد صعوبة في تجنيد الجنود من بين صفوفهم من ناحية أخرى . (٩) فملاك جدد من طبقات أخرى قد يكونوا متمتعين بامتيازات نص عليها القانون (كما هو الحال في حالة الاديرة مثلا) ، أو قد يكونوا متمتعين بامتيازات أخرى بسبب قوة نفوذهم التي تجعلهم قادرين على التهرب من جباة الضرائب في الواقع العملي .

أما النقطة الثانية التي نص عليها القانون في الماضي من أجل حماية صغار المزارعين الاحرار ، فهي السماح للموظفين العموميين في الدولة - خلال فترة شغلهم لوظائفهم - بعقد أية صفقات بيع أو شراء أو أية أعمال تجارية تعود

J. G-R. III, 247.

(٨)

Toynbee, Constantine Porphyrogenitus 147.

(٩)

عليهم بالربح . فموظفو الدولة البيزنطية كانوا ممنوعين بقوة القانون أثناء شغلهم لوظائفهم من شراء أية أراض زراعية أو قطعان من الماشية ، كما كانوا ممنوعين من القيام بأية انشاءات معمارية بدون موافقة صريحة من الامبراطور . كذلك كان الموظفون ممنوعين من قبول الهدايا طالما ان هذه الهدايا والمنح لا تتأكد كتابة من قبل مانحها بعد انقضاء فترة تسجل الموظف لوظيفته أو حتى بعد انقضاء خمس سنوات أخرى . (١٠)

كان هذا هو القانون السارى قبل عهد الامبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢ م) من أجل حماية صغار المزارعين الاحرار . ولكن الامبراطور ليو السادس قام بالغاء هذا التشريع . ففى قانونه رقم (٨٤) قام الامبراطور بالغاء القيود المفروضة على موظفى الدولة العموميين . فبالنسبة للموظفين المقيمين فى العاصمة تم الغاء القيد المفروض عليهم والذى ينص على عدم السماح لهم بعقد أية صفقات بيع او شراء ، على اساس ان أى طرف قد يتعرض للضرر فى العاصمة يستطيع رفع شكواه بسهولة الى الامبراطور نفسه . اما بالنسبة لموظفى الدولة المقيمين فى الأقاليم ، فقد قرر ليو السادس ان قائد الثيم من درجة الاستراتيجوس *Stratiotes* يظل خاضعا للقيود السابقة ، أى يمنع من عقد أية صفقات بيع أو شراء . أما بالنسبة للموظفين والضباط التابعين لقائد الثيم والذين يقلون عنه فى المرتبة ، أو الدرجة ، فان لهم الحرية فى عقد أى بيع أى شراء للأرض الزراعية أو لقطعان الماشية أو غيرها ، بشرط موافقة قائد الثيم الذى له سلطة مراجعة أى عملية بيع أو شراء يكون أحد الموظفين أو الضباط طرفا فيها . كذلك كانت لقائد الثيم سلطة فصل الموظف أو الضابط التابع له . (١١)

وفى قانونه رقم (١١٤) وضع الامبراطور ليو السادس نهاية لحق مجتمعات

(١٠) يرجع هذا القانون الى عصر الامبراطور جستنيان ، انظر :

Leo VI, *Les Nouvelles*, 282, n. 4.

Leo VI, *Les Nouvelles*, 282-83; Toynbee, *Constantine* (١١)

Porphyrogenitus, 147-48.

صغار المزارعين الاحرار في الموافقة على البيع أو رفضه بالنسبة لأى عقار زراعى . يقوم أحد صغار المزارعين بعرضه للبيع . فقد أعطى هذا القانون الفلاح الذى يملك قطعة صغيرة من الارض الزراعية والتي قام بدفع ضرائبها بانتظام ، حرية غير مقيدة في بيع أرضه . كذلك قرر ليو السادس أن الفترة التي يكون فيها من حق جيران البائع شراء الارض الزراعية واستردادها من مشتريها بالثمن الذى دفعه المشتري (حق الشفعة) ، يجب أن تحدد بفترة الستة اشهر الأولى من السنة الاولى من تاريخ حدوث البيع . (١٢)

ولقد دافع ليو السادس عن هذا القيد الخطير الذى فرضه على الحق التاريخي الخاص بالموافقة على عملية البيع أو رفضها ، على أساس أن هذا الحق قد يساء استعماله . فجيران من يريد البيع قد يسيئون استعمال حقهم في الاعتراض ويرفضون بالتالى عملية من أجل تأخير البيع حتى يجبروا البائع على أن يبيع لهم بثمن بخس . وأن هذا صحيح الى حد بعيد ، ولكن الباحث يميل الى الاعتقاد أن الامبراطور بادعاء تأمين سعر مناسب لأرض من يريد البيع ، كان في حقيقة الأمر مهتما بمصلحة الرجل القوي والغنى الذى قد يكون في منافسة مع مجتمع القرية من أجل الحصول على أرض البائع . (١٣)

على أية حال ، أدت تشريعات ليو السادس سابقة الذكر الى فتح الطريق أمام الاقوياء وكبار الملاك واستطاعت هذه الطبقة القوية التسلل الى مجتمعات صغار المزارعين الاحرار وعملت على القضاء عليها . كذلك أدت انتصارات الجيوش البيزنطية على الجبهة الشرقية ضد المسلمين الى أن أصبح الاستثمار في مجال الارض الزراعية والرعية آمنا بعد زوال خطر الاغارات الاسلامية . وأخيرا أدت شدة قسوة تثناء سنة ٩٢٧ م / سنة ٩٢٨ م والمجاعة التي اعقبته الى وقوع أضرار جسيمة في مجتمعات صغار المزارعين . فالمجاعة سببت تناقضا اجتماعيا خطيرا في الاقاليم ، وكانت الأحوال غاية في السوء ، لدرجة أن

Leo VI, *Les Nouvelles*, 376.

(١٢)

Toynbee, *Constantine Porphyrogenitus*, 148.

Mitard, *Le Pouvoir Impérial*, 217-23.

وانظر ايضا :

صغار المزارعين اضطروا الى بيع اراضيهم بأقل من نصف قيمتها . وهكذا أصبح التهديد من جانب طبقة الأتقياء خطيرا على مجتمعات صغار المزارعين الأحرار . واضطرت الحكومة المركزية لاصدار تشريعات استهدفت حماية صغار المزارعين الأحرار وملكياتهم من جشع كبار الملاك والهيئات الدينية .

ان النصوص التي وصلت الى ايدينا هي نصوص لخمس عشرة وثيقة تتناول مشكلة الارض وملكيته ، ومحاولات الحكومة البيزنطية حماية طبقة صغار المزارعين الأحرار في الأقاليم . ومن هذه الوثائق ثلاث عشرة وثيقة أصدرها الإمبراطور ، وان كانت واحدة منها عبارة عن قرار صاغه أحد موظفي الادارة الإمبراطورية في عهد الإمبراطور رومانوس الثاني Romanos II لعلاج حالة وقعت في أحد الثيمات وقام قاضي الثيم بعرضها على الإمبراطور طلبا للرأى . أما الوثيقتان الأخرتان فهما عبارة عن شهادتين صادرتين من قبل الحكومة البيزنطية . وان أقدم هذه الوثائق هي تلك الوثيقة المؤرخة بسنة ٩٢٢ م ، أما أحدثها فهي الوثيقة المؤرخة بعام ٩٩٦ م . كذلك تمدنا نصوص الوثائق بمضمون المرسوم الصادر سنة ١٠٠٣ م / سنة ١٠٠٤ م (١٤)

(١٤) نشرت هذه الوثائق الخمس عشرة أول الأمر في المجموعة المعروفة Jus Graecoromanum, ed. K.E. Zachariae von Lingenthal, باسم : 7 Vols. (Leipzig, 1857), in III, 220-318.

ثم اعيد نشرها مرة أخرى بعد ذلك في المجموعة المعروفة باسم : Jus Graecoromanum, edd. J. and P. Zepos, vols. (Athens, 1931), in I, 193-270.

والجديد بالذكر ان سفورونوس N. G. Svoronos الاستاذ بجامعة باريس (Ecole Pratique des Hautes Etudes) يعمل حاليا على نشر هذه الوثائق مع التقديم لها بدراسة تحليلية .

وللمزيد عن هذه التشريعات التي صدرت في القرن العاشر الميلادي انظر : Testaud, Puissants ; Ferradou, Monastères; Gaignerot, De bénéfices.

وعلى الرغم من أن هذه المؤلفات الثلاثة قديمة الا أن النتائج التي تم

أكثر من هذا ، ففي مقدمة قانون باسيل الثاني رقم ٢٩ والصادر في أول يناير سنة ٩٩٦ م ما يشير الى أن القانون الأول للامبراطور رومانوس ليكابينوس قد صدر في سنة ٨٢٨ / ٩٢٩ م (١٩)

على أية حال ، اذا كان ما ورد في قرار رومانوس الثاني الذي صاغه الموظف الامبراطوري ثيودور ديكابوليت في التشريع رقم (١٥) ، وما ورد في افتتاحية تشريع باسيل الثاني رقم (٢٩) صحيحا ، فان هذا يعني أن القانون رقم (٥) الصادر في سبتمبر سنة ٩٣٤ م باسم الأباطرة : رومانوس ليكابينوس قسطنطين السابع وستيفن Stephen وقسطنطين (ولد رومانوس ليكابينوس) لا يمكن أن يكون هو القانون الأول . فتاريخ أول التشريعات التي تناولت الملكية الزراعية في القرن العاشر الميلادي يجب أن يكون سنة ٩٢٩ م ، فهذا التاريخ هو التاريخ الممكن والافضل للقانون رقم (٢) الذي صدر باسم الأباطرة : رومانوس ليكابينوس قسطنطين السابع ، وكريستوفر Christopher (ابن رومانوس ليكابينوس) . فهو ممكن لان كريستوفر كان امبراطورا مشاركا ربما من مايو سنة ٩٢١ م وحتى اغسطس سنة ٩٣١ م (وهو تاريخ وفاته) . وهو التاريخ الافضل لان سنة ٩٢٩ م سنة قريبة لوقت حدوث المجاعة في عام سنة ٩٢٧ م / بشكل واضح جعل المجستير ثيودور ديكابوليت يذكر قوله السابق بأن سلسلة التشريعات التي تناولت ملكية الأرض في القرن العاشر الميلادي بدأت منذ تاريخ المجاعة . وأن سنة ٩٢٩ م هي تاريخ محتمل أيضا لسبب آخر ، فمن غير المرجح أن ينتظر الامبراطور رومانوس ليكابينوس مدة ست سنوات من ربيع سنة ٩٢٨ م حتى خريف سنة ٩٣٤ م قبل أن يتخذ أى اجراء يتصدى فيه للمشكلة التي تنتصر كل شيء في وقت المجاعة نفسها . وعلى هذا ، فان القانون رقم (٢) المؤرخ بسنة ٩٢٢ م صحيح في مضمونه ولكن تأريخه بعام ٩٢٢ م خطأ والصحيح تأريخه بعام ٩٢٩ م (٢٠)

لقد ابتدأ الامبراطور رومانوس ليكابينوس التشريعات التي تناولت الملكية الزراعية في القرن العاشر الميلادي باصداره لهذا القانون رقم (٢) والذي

J. G-R. III, 306.

(١٩)

JG-R., III, 234-41.

(٢٠) انظر نص هذا التشريع في :

صدر باسم الإباطرة رومانوس ليكابينوس ، قسطنطين السابع ، وكريستوفر . وكان هدف هذا القانون - الذى رجحنا تاريخ صدوره فى سنة ٩٢٩ م - هو التخلص من التناقص الموجود بين قانونين أولهما يقضى بأن الفلاح يجب الا يعاقب أو توضع أمامه العقبات من قبل أقرابه أو شركائه اذا قرر أن يبيع أرضه لاي فرد يختار . والقانون الآخر الذى يمنع الفلاح من بيع أرضه لاي فرد باستثناء مواطنين من قريته .

ولقد أكد هذا القانون على نقاط ثلاث : (١) حق الشفعة لصغار المزارعين فى حالة بيع أراضى صغار مزارعين آخرين . (٢) تقطع الارض الممنوحة للجنود والمعروفة باسم Stratiotika Ktemata أراض ممنوع التصرف فيها . (٣) العمل على ابعاد كبار الملاك بعيدا عن مجتمعات القرى التى لا يمتلكون فيها أراضى بالفعل .

ولقد أعطى هذا القانون افضلية لخمس مجموعات من طبقة صغار المزارعين الشراء أراضى مزارعين من نفس طبقتهم ، وهم بالترتيب : أولا ، الأقارب الذين تتداخل أراضيتهم مع أرض من يريد البيع ، أو أولئك المتضامنين مع من يريد البيع فى دفع ضرائب جماعية . ثانيا ، الشركاء الذين تربطهم بهن يريد البيع روابط مشابهة . ثالثا ، الأشخاص الذين تتداخل مصالحهم فقط دون أن تربطهم أية روابط قرابة بمن يريد البيع . رابعا ، الأشخاص غير البعيدين عن يريد البيع ويمكن تحديدهم بأنهم أولئك الأشخاص المسجلين فى قائمة جابى الضرائب الواحد . خامسا ، الأفراد الذين يشتركون مع من يريد البيع فى جزء من ملكيته .

والجدير بالذكر أنه اذا أراد واحد أو اكثر ممن ينتمون لهذه المجموعات الخمس أن يشتري الارض المعروضة للبيع ، فعليه أن يدفع خلال ثلاثين يوما الثمن العادل أو ما يعرضه من يريد الشراء بحسن نية . فاذا لم يقدم أحد ممن ينتمون لهذه المجموعات الخمس على شراء الارض المعروضة للبيع فانه

يمكن في هذه الحالة أن يتقدم أحد كبار الملاك لشراؤها بشرط أن يكون مالكا
لعقار زراعى في نفس مجتمع القرية بالفعل .

ولقد نص القانون أيضا على أن الاراضى العسكرية *Stratitika Ktemata* (٢١)
منسوع التصرف فيها ، وأن الأراضى التى انتقلت ملكيتها
خلال فترة الثلاثين عاما التى سبقت اصدار القانون أو اذا انتقلت ملكية
أرض عسكرية في المستقبل فانها يجب أن تعود الى صاحبها الأول دون رد
المبلغ الذى تم دفعه عند الشراء ودون أى تعويض .

كذلك حرم القانون على كبار الملاك (الاقوياء) قبول أى منح أو عطايا
في شكل أرض زراعية من الفقراء (الضعفاء) الا اذا ربطتهم صلة قرابة
واضحة .

يمكن القول أن الامبراطور رومانوس ليكابينوس قد مس المسائل الحيوية ،
فقد حاول الاحتفاظ بمجتمع القرية الحر (وهو المصدر الرئيسى للضرائب)
كما حاول الاحتفاظ بالاراضى العسكرية في حوزة الجند وأسرههم حتى تتوفر

(٢١) يظهر اصطلاح *Stratitika Ktemata* في نصوص التشريعات

التى تناولت الملكية الزراعية في القرن العاشر الميلادى ، فقد ورد في القانون
رقم (٢) الذى أصدره الامبراطور رومانوس ليكابينوس سنة ٩٢٩ م (كما
سبق أن رجحنا) ، كما يظهر بوضوح في القسم الاول من القانون رقم (٧)
الذى أصدره الامبراطور قسطنطين السابع والذى لا يحمل تاريخا محددًا وان
كنا نرجح صدوره في أواخر عهد قسطنطين السابع . انظر :
J G-R., III, 237, 241, 261-6.

والجدير بالذكر أن *Stratiotes* هو مالك قطعة من الارض العسكرية،
وعليه الالتزام بتقديم جندى مقاتل تحت السلاح . ويجب أن
يكون الا *stratiotes* أى مالك العقار الزراعى هو نفسه الجندى المقاتل ،
فاذا تعذر ذلك فعليه أن يمول نفقات الاحتفاظ بجندى آخر من أفراد أسرته ،
انظر :

Ahrweiler, *Recherches*, 13; Antoniadis-Bibicou, *Études*, p. 101.

لكل أسرة مورد كافيا لتغطية نفقات جندي مقاتل تحت السلاح (وهو أساس جند الثيمات) • ويلاحظ أن كل التشريعات التي صدرت بعد ذلك في القرن العاشر الميلادي قد تناولت بالتكرار والتعديل هذه المسائل الحيوية •

على أية حال ، بعد صدور القانون الأول الذي تناول ملكية الأرض في القرن العاشر الميلادي والذي رجحنا صدوره في السنة التي تلت مجاعة سنة ٩٢٧ / ٩٢٨ م مباشرة ، سرعان ما أضيف اليه تشريع آخر • ويمثل هذا التشريع الجديد في القانون رقم (٥) الصادر في سبتمبر سنة ٩٣٤ م ، (٢٢) والذي صدر باسم الأباطرة : رومانوس ليكابينوس ، قسطنطين السابع ، وستيفن Stephen وقسطنطين (ولدى رومانوس ليكابينوس) • (٢٣)

ولقد نصت مقدمة هذا القانون الجديد على أن الهدف من إصداره هو تصحيح انتهاكات ومخالفات معينة وقعت حديثا ، فضلا عن ذلك وضع علاج شامل ودائم للمشاكل المتعلقة بالأرض وملكيته ، والعمل على سد الثغرات الموجودة في التشريعات السابقة • كما نص القانون على أن كل مالك لأرض زراعية له الحرية كاملة في التصرف في أرضه • فإذا حدث نقل جزئي أو شامل للملكية الزراعية ، أو إذا أعان أحد صغار المزارعين عن رغبتة في بيع أرضه ، فيصبح لسكان نفس القرية التي تقع فيها الأرض المعروضة للبيع أو لسكان القرى المجاورة حق شراء تلك الأرض • ويحرم على فئات معينة التسلسل إلى مجتمع المزارعين الأحرار أو مجتمع القرية تحت أي ادعاء • والفئات المنفصلة

(٢٢) انظر نص هذا القانون في : J G-R., III, 242-52.

(٢٣) تم تعيين ولدى الامبراطور رومانوس ليكابينوس امبراطورين مشاركين في حياة والدهم ، تماما كما حدث مع كريستوفر Christopher من قبل • للمزيد عن الظروف التي تم فيها تعيين كلا من ستيفن Stephen وقسطنطين امبراطورين مشاركين وتاريخ هذا الحدث ، انظر :

George, Mon. Cint., 902; Leo Grammaticus, 314;

Theoph. Cont., 409; Pseudo-Symeon, 739.

من دخول مجتمعات المزارعين الأحرار هي : البطارقة Patrikioi أو كز من يحمل لقب ماجستير Magistroi ، والموظفون المدنيون : وقواد الثيمات وغيرهم من القادة العسكريين والموظفين المدنيين في الثيمات ، وأعضاء مجلس الشيوخ Senators ، وكل من نُسغل في الماضي أو بتسغل في الحاضرة مناصب رسمية في الثيمات ، المطارنة ورؤساء الاساقفة والاساقفة ومقدمي الأديرة وغيرهم من كبار رجال الدين ، وكل الذين يتولون ادارة العقارات التابعة للكنيسة أو التاج سواء بصفتهم الرسمية أو الشخصية . (٢٤)

لاشك ان هذه الفئات التي عددها القانون هي الفئات التي كانت تمتلك المال والنفوذ والتي كانت تكون طبقة الأثرياء dynatoi .

وكما يتضح من القانون فان أى فرد من طبقة الأثرياء ، الذين حدد القانون فئاتهم بوضوح ، يقوم بالاستيلاء أو بشراء اراض مملوكة لصغار المزارعين الأحرار ، أو يستولى على قرية مملوكة لمجتمع صغار المزارعين الأحرار (مستغلا محنة المجاعة وما صاحبها وتلاها من مصاعب) فان عليه أن يعيد الأرض الى مالكيها الاصلى الذى عليه بالطبع أن يرد المبلغ الذى قبضه من المتسرى . فاذا كان هذا المالك الاصلى فقيرا ، فإنه يمنح فترة سماح مدتها ثلاث سنوات لتدبير المال الذى يجب رده لان اشترى منه الارض . ويلاحظ أنه في هذه الحالة يكون خروج المتسرى من الأرض بعد ثلاث سنوات أيضا .

ولكن اذا كان المبلغ الذى تم دفعه عند الشراء منخفضا بشكل واضح أو اذا كان يقل عن نصف الثمن الحقيقي للأرض ، ففي هذه الحالة تعود الأرض الى صاحبها الاصلى دون أى رد للمال الذى تم دفعه عند الشراء ودون دفع اية تعويضات أيضا .

(٢٤) عن قائمة الفئات الممنوعة من التسلل الى مجتمعات المزارعين الأحرار، انظر القسم الاول من القانون رقم (٥) في : J G-R., III, 246.

وإذا قام أى فرد من طبقة الأقرىاء فى المستقبل بمخالفة هذا القانون فإن عليه أن يرد ما استولى عليه دون أن يسترد ما دفعه من مال عند الشسراء ودون أية تعويضات . وإذا ثبت أن المخالفين لهذا القانون فى المستقبل من بين الفئات التى سبق تحديدها ، فإن عليهم أن يدفعوا للخرانة الامبراطورية غرامة اضافية تعادل قيمة الأرض .

والقد ختم الامبراطور رومانوس ليكابينوس قانونه بالكلمات التالية : « اننا لم نترك شيئاً دون أن نفعله من أجل تحرير الاتاليم والقسرى والمدن من العدو . لقد بذلنا قصارى جهدنا وحاولنا بكل قوتنا أن نحسن رعايانا من هجمات الاعداء فى الخارج . والآن وبعد أن حققنا تلك الانتصارات العظيمة ووضعنا نهاية لاعتداءات الاعداء فى الخارج فماذا نحن فاعلون تجاه عدونا فى الداخل ؟ وهن يجوز الا نتصدى له بكل عنف ؟ » (٢٥)

على أية حال ، فى ضوء التفصيلات الواردة فى هذا القانون ، فإن الباحث يجد نفسه مدفوعاً الى الاعتقاد بأن المجاعة لابد وأن تكون قد مبيت تناقضاً اجتماعياً خطيراً فى الاتاليم . فالأحوال كانت على درجة كبيرة من السوء حتى أن صغار المزارعين اضطروا لبيع أراضيهم بأقل من نصف قيمتها . وحتى أولئك الذين باعوا بأثمان معقولة أى بأكثر من نصف قيمتها الحقيقية ، فقد أصبح عليهم بموجب هذا القانون أن يعيدوا تلك الأموال الى المشتري الاصلى خلال ثلاث سنوات . ومن المحتمل أن العديد من الفلاحين لم يستطيعوا الرجاء بالمبلغ فى الفترة المحددة . ومن المحتمل أن هذا القانون الثانى مثله مثل القانون الأول (الذى أصدره رومانوس ليكابينوس والذى رجحنا تاريخه بعدم ٩٢٩ م) لم يطبق بنفس التشدد الذى نجده فى نص القانون . وعلى هذا فإن مساحات ضخمة من الأرض التى استولى عليها الأقرىاء خلال فترة المجاعة التى أصابت بيزنطة فى سنة ٩٢٧ م / ٩٢٨ م لابد وأن تكون قد بقيت فى حيازة الأقرىاء . (٢٦)

J. G-R., III, 252.

(٢٥)

Ostrogorsky, Agrarian Conditions, 206.

(٢٦)

وان الدليل على ان هذا القانون الثانى الذى أصدره الامبراطور رومانوس ليكابينوس لم ينفذ بشكل دقيق ، هو قيام الامبراطور قسطنطين السابع (٢٧) باصدار قانون آخر هو القانون رقم (٦) الصادر فى مارس ٩٤٧ م . (٢٨) ولقد قدم قسطنطين قانونه بمقدمة تضمنت فقرة انتقدت جشع وأطماع الأتقوياء dynatoi ، قال فيها :

« لقد نما الى علم جلالتنا أن الأتقوياء فى ثيمى تراشيا Thrakesion والأناضول قد نظروا بازدياد الى القانون الامبراطورى ٠٠٠ ولم يتوقفوا عن التغلغل والنسئل الى القرى عن طريق الشراء والمنح والعطايا والميراث ، وعن طريق تلك الادعاءات تسببوا فى هجرة الكثيرين الذين هجروا ممتلكاتهم ، وهؤلاء هم الفقراء ضحايا طغيان الأتقوياء » . (٢٩)

ولقد استنارد قسطنطين السابع فى شرح الأسباب التى دفعته الى إصدار ذلك القانون ٠ ولم يكتف الامبراطور بآتهام طبقة الأتقوياء بنهمة عدم تنفيذ التشريعات السابقة واصرارهم على مخالفة القانون ، بل تطرق أيضا الى

(٢٧) أصدر الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩ م) قانونه فى سنة ٩٤٧م بعد ان أصبح امبراطورا منفردا ٠ والمعروف ان قسطنطين السابع لم يكن راضيا عن حرمانه من السلطة الحقيقية فى تصريح سئون الامبراطورية وهى السلطة التى تمتع بها رومانوس ليكابينوس وأولاده طوال الفترة الممتدة من ٩٢٠ م وحتى سنة ٩٤٤ م ٠ وعندما قام على والدهم وعزله بالفعل فى نهاية سنة ٩٤٤ ، تحرك الامبراطور قسطنطين السابع بتشجيع من زوجته هلين (ابنة رومانوس ليكابينوس) وقام بدوره بعزل ستيفن وقسطنطين شقيقى زوجته ٠ وبهذه الضربة الموفقة أصبح قسطنطين السابع امبراطورا منفردا بعد ان ظل محتجبا عن السلطة الفعلية قرابة ستة وعشرين عاما ٠ عن مؤامرة ستيفن وشقيقه ضد ابيهم رومانوس ، وعن استرداد قسطنطين السابع لسلطانه كاملا انظر :

Kedrenos, II, 324; Zonaras, III, 481.

J. G-R., III, 252-53.

(٢٨) انظر نص القانون فى :

J G-R. ,III, 252-56.

(٢٩)

أن القضاة أصبحوا الآن واقعين تحت ضغوط عنيفة كي يصدرُوا أحكاماً في حالات تتعلق بملكية الأرض الزراعية • وبناء على ذلك ، قرر قسطنطين السابع أن الأراضي التي استولى عليها الأقوياء منذ عام المجاعة (٩٢٧ / ٩٢٨ م) وحتى سنة ٩٤٥ م - وهي السنة التي أصبح فيها قسطنطين السابع امبراطوراً منفرداً - يجب أن تعود إلى أصحابها الأصليين • فإذا كان صاحب الأرض الأصلي (المزارع الصغير الحر) قد باع قطعة صغيرة من الأرض الزراعية التي لا تزيد قيمتها عن خمسين نوميسما إلى أحد الأقوياء الاغنياء فيجب على هذا المزارع أن يسترد أرضه دون أن يرد المبلغ الذي تم دفعه ثمناً لهذه الأرض ، ودون دفع أية تعويضات • أما إذا كان صاحب الأرض الأصلي ليس فقيراً إلى هذه الدرجة ، فعليه أن يسترد أرضه بعد أن يعيد المال الذي قبضه ثمناً لهذه الأرض في فترة لا تتجاوز ثلاث سنوات •

أما إذا كان المزارع الحر ضحية لاستعمال القوة لاجباره على بيع أرضه ، فله أن يسترد أرضه دون أن يرد المبلغ الذي دفعه ثمناً لهذه الأرض ، ودون دفع أية تعويضات ، حتى وإن كان المشتري لا ينتمي لطبقة الأقوياء •

كذلك قرر قسطنطين السابع أن حق الشفعة الخاص بالمزارعين الأحرار في حالة بيع أراضي مزارعين أحرار آخرين ، كما شرع رومانوس ليكابيتوس ، قد اتسع مفهومه الآن ليشمل أيضاً حالات بيع أراضي تحض طبقة الأقوياء (٣٠) وفي قانون آخر أصدره الامبراطور قسطنطين السابع ، وهو القانون رقم (٧) غير المؤرخ بتاريخ محدد ، تناول الامبراطور بصفة خاصة الأراضي العسكرية • (٣١)

(٣٠) انظر النص الكامل لهذا القانون في : JG — R.,III, 252—56

(٣١) من المعروف أن القانون رقم (٧) هذا ، قام بصياغته أحد موظفي

الادارة الامبراطورية وهو المدعو ثيودور ديكابوليت Theodoros Dekapolites

ومن المرجح أن هذا القانون قد صدر قرب نهاية عهد الامبراطور قسطنطين

السابع ، لان هذا الموظف ثيودور ديكابوليت هو الذي صاغ بعد ذلك القرار في

الحالات التي طلب فيها احقضاة الثيمات الرأي • وكان القرار الذي صاغه ثيودور

هذا هو القانون الذي يحمل رقم (١٥) والذي صدر في عهد ابن قسطنطين

=

وجدير بالذكر ان مقدمة القانون رقم (٧) ، الصادر في عهد الامبراطور قسطنطين السابع والذى صاغه ثيودور ديكابوليت ، تسجل ان لوضاع الجنود في التميمات قد تدهورت . وربما لهذا السبب اهتم هذا القانون بالاراضى العسكرية Stratotika Ktemata (٣٢) .

ويلاحظ ان الامبراطور قسطنطين السابع في قانونه رقم (٧) قد اعطى قود القانون (للمرة الأولى) لعرف غير مكتوب كان يمنع ملاك الاراضى العسكرية من بيع قطع الأرض المنوحة لهم من أجل توفير نفقات جندي مقاتل تحت السلاح . (٣٣) ولقد حدد الامبراطور في هذا القانون قيمة قطعة الأرض التى تشكل الحد الأدنى لما هو ممنوع التصرف فيه . فحدد القيمة بأربعة ارطال من الذهب كحد أدنى لتوفير نفقات فارس مقاتل ، ولتوفير نفقات البحار العامل في أساطيل التميمات البحرية الثلاثة (٣٤) . ولكنه حددها برطلين فقط لتوفير نفقات البحار العامل في الاسطول الامبراطورى لانه في هذه الحالة الاخيرة يستكمل البحار المال اللازم لنفقاته من دخل نقدي ثابت تدفعه له الخزانة الامبراطورية . (٣٥)

ولقد نص القانون على ان تسجيل الأرض العسكرية في قوائم التسجيل يعنى أنها أصبحت أرضا ممنوع التصرف فيها حتى ولو كانت قيمتها تفوق الحد الأدنى الذى يجب ان يحتفظ به الجندي لتوفير نفقاته من سلاح وملبس وماكل . . . الخ .

انسابع وخليفته على العرش رومانوس الثانى (٩٥٩ - ٩٦٣ م) . ويلاحظ ان كلا القانونين رقم (٧) ، ورقم (١٥) يتناولان الحالة السيئة التى أصبح عليها جنود التميمات ، انظر :

Toynbee, Constantine Porphyrogenitus, 155.

(٣٢) انظر نص هذا القانون رقم (٧) في : J G-R., III, 261-66.

(٣٣) Lemerle, Esquisse, 266; 47, n. 2.

(٣٤) أساطيل التميمات البحرية الثلاثة هي اساطيل : ثيم كيجراهايونوت Cybrahaeote ، ثيم البحر الايجى Aigaion Pelagos ، ثيم ساموس Samos

J G-R., III, 262.

(٣٥)

أما بالنسبة للأراضي العسكرية التي تزيد قيمتها عن الحد الأدنى الممنوع التصرف فيه والتي لم يتم تسجيلها ، فيمكن نقل ملكيتها بشروط • فمثلا إذا كانت قيمة الجزء المسجل من أرض من يريد البيع تقل عن الحد الأدنى الممنوع التصرف فيه ، فعلى من يشتري الجزء غير المسجل أن يكمل قيمة الجزء الممنوع التصرف فيه من أرض البائع حتى يصل الى الحد الأدنى وذلك بأن يضيف اليه المساحة الضرورية •

أما إذا كانت الأرض العسكرية غير مسجلة بالكامل ، ففي هذه الحالة يحرم على المالك أن يبيع أحسن أجزاء أرضه التي تساوي قيمتها أربعة أطنان من الذهب •

كذلك نص القانون على أنه ليس من حق أي فرد أن يشتري الارض العسكرية ، فلا يجوز لأولئك المنتهين لطبقة الاقوياء شراء الاراضي العسكرية وأن المخالفين لهذه القاعدة سوف يفقدون أية أرض عسكرية قاموا بشراؤها دون ان يستردوا ما تم دفعه ثمنا لها •

كذلك حدد هذا القانون أن ملكية الأراضي العسكرية تصبح حقا مشروعاً في حالة مرور فترة أربعين عاماً على امتلاكها دون أن يقوم عليها نزاع •

كما تضمن القانون المخالفات التي تدين قواد الثيمات والعقوبات المفروضة في هذا الصدد • ومن أمثلة تلك المخالفات قيام قواد الثيمات بأخذ رشاوى مقابل ترك جنودهم بعيداً عن الخدمة العسكرية • وانتهاك قواد الثيمات لحق الجند في المعاملة الحسنة وذلك بمعاملتهم مثل الاقنان ، وقيامهم بالاستيلاء على أراضيهم العسكرية المخصصة للانفاق عليهم • الخ • (٣٦)

وكما سبق أن أوضحنا ، يلاحظ أن القانون الأول الذي أصدره الامبراطور قسطنطين السابع (القانون رقم (٦) الصادر في مارس ٩٤٧ م) كان موجهاً على وجه الخصوص للتمييز تراقيا والاناضول • ففي هذين التيمين كانت تمنح الضياع والممتلكات الكبيرة لعائلات اقطاعية مثل عائلات : سكليروس Skleros

ارجيروس Argiros موزل Musele ، بورترزيس Bourtzis

بوتانياتس Botaniates وغيرها • وعلى هذا فيجب الا نندعش حين نسمع عن وقوع مخالفات كبيرة للتشريعات الخاصة بملكية الأرض في هذين التيمين ولم تكن مخالفات وانتهاكات القانون قاصرة على هذين التيمين فقد اصدر الامبراطور قسطنطين السابع مرسوما يقضى بأن كل التشريعات يجب ان تطبق على كل التيمات • (٣٧)

ومن الواضح ان الاجراءات القانونية لم تكن كافية لكبح جماح الاقوياء والحد من اطماعهم • ومن هنا كانت الحاجة الى اعادة اصدار وتكرار القوانين • ويلاحظ ان قسطنطين السابع قد ذكر في قانونه القضاء المرتشعين وهم تلك الفئة من الناس التي وقعت على عاتقها مهمة تطبيق القوانين الامبراطورية • لقد كان شيئا جميلا ان تصدر القوانين ولكن اذا كان تطبيقها بهذا الفساد الذى اشار له قسطنطين فان تلك القوانين كان مقدرها لها الفشل بالتأكيد • وبالإضافة الى كل ما سبق يلاحظ انه مع سقوط أسرة ليكابينوس ، اضطر قسطنطين السابع الى الاعتماد على عائلة فوقاس Phokas القوية التي كانت عدوا لعدوا لرومانوس ليكابينوس • لذلك فالباحث لا يندعش حين يعلم ان العديد من نصوص قوانين قسطنطين السابع لم تنفذ ابدا • ويجب الا ننسى ان الضغط الذى مارسه الأقوياء على الحكومة المركزية وعلى ممثليها كان أكبر من ان يسمح بتنفيذ القانون حرفيا •

على اية حال ، قام خليفة قسطنطين السابع ، ابنه الامبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩ - ٩٦٣ م) بالسير على نفس السياسة الخاصة بملكية الزراعية ، فقد اصدر قانونين خلال فترة حكمه القصيرة جدد فيهما القيود التي وضعها اسلافه لمواجهة مطامع كبار الملاك • وكان أحد هذين القانونين هو ذلك التشريع الذى صاغه الموظف الامبراطورى ثيودور ديكابوليت والذى يحمل رقم (١٥) والذى يتناول علاج حالة وقعت في أحد التيمات وقام قاضى التيم بعرضها على الامبراطور طلبا للرأى • (٣٨) أما التشريع الآخر فهو القانون رقم (١٦)

J G-R., III, 253.

(٣٧)

J G-R., III, 282-84.

(٣٨)

الذى امر الامبراطور رومانوس الثانى باصداره فى مارس سنة ٩٦٢ م (٣٩) • والمعروف أن هذا القانون كان موجها أساسا للسلطات فى تيم تراقيا الذى كان مسرحا لمخالفات محلية خطيرة • ويبدو أن طبقة الاقرباء كانت سريعة فى استيلائها على أراضى صغار المزارعين الأحرار فى هذا التيم ، بسبب هذه الأوضاع المتدهورة قام الامبراطور قسطنطين السابع من قبل باصدار قانونه رقم (٦) فى سنة ٩٤٧ م (٤٠) •

لاشك أن التشريعات التى أصدرها كل من رومانوس ليكابينوس ، قسطنطين السابع ، ورومانوس الثانى بخصوص الارض وملكيتهما تتميز بسمة تظهر بوضوح فى نصوص تلك القوانين الستة التى أصدرها • لقد كان الهدف الاساسى لهذه التشريعات هو :

أولا : العمل على مساعدة صغار المزارعين الأحرار لاسترداد أراضيهم التى انتقلت ملكيتها الى من ينتمون لطبقة الاقرباء ، وخصوصا تلك الارضى التى تدخل فى نطاق الاراضى العسكرية • وذلك كي يحتفظ المزارع الحر بقيمة

J G-R., III, 285-87.

(٣٩)

(٤٠) كان تيم تراقيا فى غرب آسيا الصغرى خصبا شهد ازدهارا زراعيا فى الماضى ، الا أنه تعرض منذ منتصف القرن السابع الميلادى للتدمير بسبب الهجوم البحرى الذى أمر به الخليفة الاموى معاوية بن ابي سفيان فى الفترة من ٦٤٩ – ٦٦٨ م • كذلك تعرض هذا الاقليم للتخريب بعد ذلك بسبب اغارات مسلمى اسبانيا المستقرين فى جزيرة كريت منذ سنة ٨٢٨ م • وفى سنة ٩٤٧م كان تيم تراقيا لا يزال معرضا لمثل تلك الهجمات ، والمعروف ان الحملة التى ارسلها الامبراطور قسطنطين السابع لاسترداد جزيرة كريت سنة ٩٤٩ قد فشلت • واخيرا استطاع نقفور فوقاس فى حملة سنة ٩٦٠م – ٩٦١ م فتح مدينة كانديا Candia (فى مارس ٩٦١م) وطرد المسلمين من الجزيرة الذى ضمها للكيان الامبراطورى • ويرى الباحث انه يمكن أن نفترض حدوث اندفاع سريع لشراء الارض فى تيم تراقيا بمجرد أن أصبح هذا التيم ذو الارض الخصبة مأمونا للاستثمار بعد أن استردته بيزنطة •
عن استرداد بيزنطة لجزيرة كريت انظر .

Theoph. Cont., 473-81. and 480-81.

الحد الأدنى التي تم تقديرها للاحتفاظ بجندى مقاتل تحت السلاح ، والعمل على منع نقل ملكية مثل تلك الاراضي في المستقبل .

ثانيا : العمل على تجنب الحاق المزيد من المصاعب والأضرار بأولئك الاشخاص الذين اشتروا اراض بوسائل شرعية والذين أصبح عليهم الآن أن يعيدوها الى ملاكها الأصليين ، وخاصة في تلك الحالات التي يكون فيها هؤلاء المشتريين الجدد انفسهم من غير الأثرياء .

ولكن ما أن انتهى عهد رومانوس الثاني حتى تغيرت سياسة الحكومة البيزنطية الرسمية بشكل جذري ولعدد من السنوات التالية ، فقد اغتصب التاج اثنان من طبقة الأثوياء هما نقفور فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) و بوحنا تزيمسكس (٩٦٩ - ٩٧٦ م) ، وكان اغتصاب نقفور فوقاس للعرش هو أول انتصار للارستقراطية العسكرية في صراعها مع الحكومة المركزية . لقد كان نقفور أعظم أبناء أسرة فوقاس التي تعد بحق من اعظم أسر الارستقراطية العسكرية في آسيا الصغرى . فهذه الأسرة التي سيطرت على الجيش لفترة طويلة ، كانت تملك الضياع الشاسعة في قبدوقيا . (٤١)

وعلى هذا كان من الطبيعي أن يقوم أبناء هذه الطبقة بوضع الاجراءات التشريعية في خدمة مصالحها بمجرد الاستيلاء على السلطة السياسية . ويلاحظ أن القوانين ، التي أصدرها نقفور فوقاس ، تناولت مشكلة الارض بطريقة تتناقض مع الاتجاه الذي سار عليه المشرعون السابقون . فهذه القوانين التي أصدرها نقفور فوقاس كانت مختلفة تماما في اهدافها ولغتها وروحها .

لقد كان نقفور فوقاس مهتما بحماية الفقراء من جشع الأثوياء . ولم يكن في وسع نقفور أن يكون غير مهتم بأحوال جند الثيمات ، لأن هؤلاء الجند كانوا هم العنصر الرئيسي في جيش الامبراطورية البيزنطية . وكان الامبراطور نقفور فوقاس نفسه جنديا محترفا كرس حياته للجيش ، وكان طموحا في استخدام الجيش لاعادة فتح الأقاليم التي استولى عليها العرب في القرن

(٤١) كانت أسرة فوقاس تملك ضياعا شاسعة في ثيمي قبدوقيا

Kedronus, II, 494.

والاناضول في آسيا الصغرى ، انظر :

السابع الميلادي • و في نفس الوقت كان لدى نقفور (على خلاف من سبقوه) اهتمام آخر لم يكن من السهل عليه أن يوفق بينه وبين اهتمامه بجند الثيمات من أبناء طبقة المزارعين الأحرار • لقد كان نقفور متما باسترضاء أبناء طبقته من الأثوياء أو على الأقل استرضاء الجناح العسكري من هذه الطبقة التي وضعت على العرش الامبراطوري • كذلك كان لدى نقفور اهتمامان آخران ، لقد هاجم بعنف الجند الارمن في الجيش البيزنطي بسبب عدم استقرارهم وقيامهم بالنقل من مكان الى آخر ، (٤٢) كما هاجم الأثوياء من رجال الكنيسة • وان هذا التشنج في اهتمامات الامبراطور بين أهداف مختلفة هر السمة العامة تميز تلك القوانين الخمسة الخاصة بملكية الأرض التي أصدرها نقفور فوقاس • (٤٣)

وإذا التقينا نظرة سريعة على التسريعات التي صدرت في عهد نقفور فوقاس لوجدنا أن القانون رقم (١٩) الصادر في سنة ٩٦٣ م قد عمئ على الحد من قوة ونفوذ فئة من فئات الأثوياء الا وهم رجال الدين ومؤسساتهم الديرية والكنسية • فقد حرم الامبراطور وقف أية أوقاف جديدة على الأديرة أو الكنائس والمؤسسات التابعة لها ، كما منع اقامة أية منشآت كنسية جديدة • وأوضح الامبراطور في هذا القانون أن من يريد أن يهب أرضا لأديرة أو كنيسة أو كنيسة يمكنه ان يحقق رغبته الدينية باصلاح مان اديرة او كنائس. آيلة للسقوط وموجودة بالفعل • (٤٤)

لاشك أن دوافع نقفور فوقاس في منع وتحريم أية هبات من الأرض يمنحها أفراد في المستقبل للأديرة والكنائس لم تكن دوافع استثنائية بل كانت دوافع مالية • فسياسة نقفور القائمة على الفتح والتوسع كانت مرتفعة التكلفة اذا قورنت بذلك السياسة التي اتبعتها الحكومة البيزنطية قبل أن يأخذ رومانوس الاول بسياسة الهجوم سنة ٩٢٦ م ، والتي تغلب عليها صفة

(٤٢) تناول الجزء الأعظم من قانون نقفور فوقاس رقم (١٨) غير المؤرخ انتهاكات الأرمن واجراءات الامبراطور بخصوصها ، انظر :

J G-R., III, 289-91.

Toynbee, **Constantine Pophryrogenitus**, 161. (٤٣)

J G-R., III, 292-6. (٤٤) انظر نص القانون في :

الدفاع وتجنب المواجهة • وكانت استراتيجية بيزنطة الدفاعية هذه قليلة التكلفة في المال والرجال • ولكن الوضع كان مختلفا في ظل سياسة الفتح والتوسع ، لقد كان نقفور فوقاس في حاجة شديدة الى المال وكان المصدر الأساس لليرادات العامة للحكومة هو الضرائب على الاراضى الزراعية والرعية • لذلك كان الامبراطور مهتما بأن تكون هذه الاراضى الزراعية منتجة • والمعروف أن الاراضى الممنوحة للمؤسسات الدينية كانت معفاة من الضرائب وكان هذا يحرم من الدولة من إيرادات كانت الحكومة في أئند الحاجة اليها الآن من أجل الانفاق العسكرى • ولما كانت هذه الاراضى المملوكة للمؤسسات الدينية أو لك التى تدار من قبلها تصبح ممنوع التصرف فيها بمجرد الحصول عليها ، لذلك حاول نقفور فوقاس في قانونه رقم (١٩) الصادر سنة ٩٦٤ م أن يمنع أية زيادة في ملكية المؤسسات الديرية والكنسية •

وفي القانون رقم (٢٠) الصادر سنة ٩٦٧ م تظهر الخوايا التى أضممرها نقفور فوقاس وطبقة الأقباء بالنسبة لطبقة صغار المزارعين الأحرار • (٤٥) فقد بدأ القانون بالعباراة التالية : « ان الأب العادل هو الذى يعطى اهتماما متساويا لأطفاله • (٤٦) ورغم أن نقفور قد أظهر اهتماما بجنده من المزارعين الأحرار حين أكد في هذا القانون على القيود المتعارف عليها ضد الأقباء حماية لصغار المزارعين ، إلا أنه سرعان ما عاد وأعلن أنه كى يحافظ على « الاهتمام المتساوى بكل أطفاله » فقد قرر أن حق التسفعة الممنوح لصغار المزارعين في حالة بيع اراضى مملوكة لأفراد ينتمون لطبقة الأقباء قد أصبح ملغيا من تاريخ صدور هذا القانون وأصبح بالنالى على الأقباء أن يشتروا اراضى مملوكة لابناء طبقتهم • وان كل الاراضى التى سبق ان اشتراها صغار المزارعون من ابناء طبقة الأقباء بموجب حق التسفعة يجب أن تعود الى اصحابها دون أى تعويض •

كذلك الغى نقفور فوقاس في قانونه رقم (٢٠) أيضا تشريعا آخر كان الامبراطور قسطنطين السابع قد حده • ففى القانون رقم (٧) الذى اصدره الامبراطور قسطنطين السابع والذى لم يحدد بتاريخه ، نص القانون أن الاراضى

J G-R., III, 296-99.

(٤٥) انظر نص القانون في :

J G-R., III, 296.

(٤٦)

التي انتقلت ملكيتها من الفقراء الى الاغنياء (الأقوياء) تصبح من حق الاغنياء اذا كان قد مضى على نفل ملكيتها أربعون عاما من تاريخ صدور القانون فاذا افترضنا أن القانون رقم (٧) هذا قد صدر في سنة ٩٥٩ م وهي آخر سنة في عهد الامبراطور قسطنطين السابع ، فان هذا يعنى أن قسطنطين السابع كان حريصا على الغاء كل عمليات بيع اراضى صغار المزارعين الاحرار التي تمت بعد سنة ٩١٩ م . والمعروف أن سنة ٩١٩ م تسبق عام المجاعة سنة ٩٢٧م ٩٢٨ م بحوالى ثمان أو تسع سنوات . والمعروف أيضا أن هذه المجاعة هي التي اعطت للاغنياء (الاقوياء) الفرصة لشراء اراضى صغار المزارعين بأبخس الاثمان وفي ظل ظروف القهر . (٤٧)

لقد وجد نقفور فوماس في تسريع قسطنطين السابع هذا مغالاة واضرار بمصلحة الاقوياء . لهذا نص القسم الثانى من قانونه رقم (٢٠) الصادر في سنة ٩٦٧ م على الغاء شرط الأربعين عاما . وأعطى نقفور صلاحية وشرعية لعمليات بيع اراضى صغار المزارعين التي تمت قبيل عام المجاعة مباشرة . اما اراضى صغار المزارعين التي انتقلت ملكيتها الى الاغنياء منذ وقوع المجاعة سنة ٩٢٧ م / ٩٢٨ م فيجب ان تعود الى اصحابها الاصليين .

وفي القانون رقم (١٨) غير المؤرخ بتاريخ تناول الامبراطور نقفور فوماس الاراضى العسكرية . فقد نص هذا القانون على انه اذا لم يترك مالك الارض العسكرية وريثا يريد الاستمرار في القيام بالتزامات هذا الميراث ، فيجب منح هذه الارض لشخص آخر ليتعهد بالالتزامات المرتبطة بها والخاصة بالخدمة العسكرية . كذلك وضع نقفور شرطا جديدا من أجل الاحتفاظ بالجزء الذى يتشكل الحد الأدنى الضرورى لمواجهة نفقات والتزامات الاحتفاظ بجندى مقاتل . فقد نص القانون على أن الجندى الذى يدان لارتكابه جريمة قتل يجب ان ينال عقوبة الموت ، أما أسرة المجنى عليه فيمكن تعويضها من الممتلكات المنقولة التابعة للجانى . ولكن يجب الا يتم التعويض من ارض الجانى المخصصة لمواجهة نفقات الاحتفاظ بجندى مقاتل . فهذه الأرض العسكرية يجب الاحتفاظ بها دون أى نقص . فاذا لم يترك الجانى اى ملكية منقولة ، فعلى

(٤٧) انظر نص القانون رقم (٩٧) في : J G-R., III, 261-66.

مرتفعة بشكل غير عادى ، وكان على الفارس أن يتحملها بنفسه . (٥٠)

وفى القانون رقم (٢١) غير المؤرخ بتاريخ محدد قدم نقفور فوقاس تنازلا آخر لابناء طبقتته من الأثوياء . ويصح من هذا القانون مدى النزاء الذى بلغه الأثوياء منذ أن أصبح مجال الاستثمار الزراعى آمنا ومرحبا بعد تأمين آسيا الصغرى من خطر العرب المسلمين . ويعترف نقفور فى هذا القانون أن تشريعات اسلافه من أجل حماية ممتلكات صغار المزارعين لم تنفذ بشكل دقيق . فقد انتهك أصحاب الممتلكات الزراعية الضخمة القانون واستولوا بطرق غير مشروعة على اراض مملوكة لمجتمعات صغار المزارعين الأحرار بن وحرسوا على طلب المزيد . وأصبح هؤلاء الاغنياء يملكون ابا عن جد ضياعا فى اراضى تلك المجتمعات القروية ، وقاموا ببناء منازل كبيرة ذات قيمة مرتفعة بتكلفة كبيرة فوق تلك الاراضى التى استولوا عليها بطرق غير شرعية . وينص قانون نقفور رقم (٢١) أن هؤلاء المخالفين يمكنهم لاحتفاظ بتلك المنازل الفاخرة كما يمكنهم الاحتفاظ بملكية الاراضى التى تقع فيها هذه المنازل فى مقابل زهيد الا وهو : اما دفع قيمة الارض مضاعفة ، أو اعطاء صاحبها الاصلى ارضا ذات جودة مضاعفة وذات مساحة مضاعفة أيضا فى مقابل ذلك . (٥١)

على أية حال يلاحظ على التشريعات التى أصدرها الامبراطور نقفور فوقاس انها كانت دفاعية تجاه الفقراء وكلها معانى الاسترضاء تجاه الأغنياء . فمقدمة القانون رقم (٢٠) مثلا تبدأ بذكر تأكيد الديانة المسيحية على واجب الحكام التصرف بعدل . وفى فقرتين أخريتين يدعى الامبراطور أنه عادل تجاه جميع الاطراف . كما يدعى أيضا ، انه لا يلغى التشريعات السابقة بل يحتفظ بتلك السمات العادلة فيها وبذلك السمات التى تقابل حاجة دائمة لامؤننة . ان هذا الادعاء المتكرر بانه يتصرف بالعدل يبدو أجوفا ، لأن ادعاء اعطاء وزن متساو لمصالح كل من الاغنياء والفقراء الأثوياء والضعفاء هو محاولة

(٥٠) عن تشكيلات الفرسان الثقيلة وتسليمها انظر :

وسام : دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، ج ١ ، الاسكندرية ١٩٨٢ ، من ص ٢٨١ - ٢٨٨
J G-R., III, 299.
(٥١)

مقتنعة للاحتفاظ بالتوازن مائلا لصالح طبقة الاغنياء والاقوياء . لقد عمل نقفور فوقاس على تهدئة واسترضاء الاغنياء بتقديم الأدلة الكافية التي تثبت ان اسلافه عملوا على اغلاق كل الطرق التي تزيد الثراء ، وانهم عملوا على نشر المشقة في حالة بيع اراضي الاغنياء . لقد ألغى نقفور هذا النص ، وكل ما يعوق زيادة ثراء الاثرياء .

والجدير بالذكر أن الامبراطور يوحنا تزييمسكس (٩٦٩ - ٩٧٦ م) الذي أعقب نقفور فوقاس على العرش ، كان أيضا عضوا بارزا في الجناح العسكري لطبقة الأثرياء فهو ينتمي لاحدى أسر الارستقراطية العسكرية في آسيا الصغرى . ولهذا فقد احتفظ يوحنا بنفس الاجراءات التتسريعية ادخلها نقفور فوقاس .

ويمكن القول أن الجهود التتسريعية التي قامت بها الأسرة المقدونية لتوقف الاضمحلال الذى اصاب اوضاع الملكية الزراعية في الامبراطورية والنسب استهدفت بالتأكيد حماية طبقة صغار المزارعين الاحرار ، قد أصيبت بنكسة لأول مرة بسبب كبار الملاك في الاقاليم . ولم تكن أفضل تلك القوانين التي اصدروها سوى محاولة متواضعة لكبح جماح الاثرياء بدليل استمرار ظهور القوانين الخاصة بالارض الزراعية ، ولكن حين وصلت عائلتنا فوقاس وتزييمسكس الى العرش الامبراطوري ضاعت تلك الجهود المتواضعة نهائيا . وان روح تلك التتسريعات التي صدرت في عهد نقفور فوقاس عملت على تشجيع الاثرياء على الاستثمار الزراعي في الاقاليم على حساب مجتمعات وقرى صغار المزارعين الاحرار .

لقد احتاج الأمر بلا شك ليد الامبراطور باسيل الثانى القوية كي تعيد تصحيح الأمور . والمعروف أن باسيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) لم يكن له اى رأى في تشريعات نقفور فوقاس الذى اغتصب حقه العرش منذ وفاة والده رومانوس الثانى سنة ٩٦٣ م . على اية حال استطاع باسيل الثانى في سنة ٩٦٦ أن يسترد تاجه بعد وفاه يوحنا تزييمسكس وأصبح امبراطورا كامل السلطان . الا أن الامبراطور النسب كما أن يفقد عرشه مرة أخرى على اثنين من ابناء نفس طبقة الارستقراطية العسكرية الا وهما : برداس فوقاس

(ابن أخ نقفور فوقاس) ، وبرداس سكليروس (زوج أخت يوحنا تزييمسكس) واجتاز باسيل محنة الحروب الاهلية واكتسب الخبرة من التجارب المريرة التي التي واجهها . (٥٢) ولكنه قرر التصدي بالتشريع لطبقة الأثوياء الذين اغتصبوا حقه في العرش الامبراطوري طوال الفتره من ٩٦٣ - ٩٧٦ م ثم حاولوا اغتصاب هذا الحق مرة اخرى في الفتره من ٩٧٦ - ٩٨٩ م .

أصدر الامبراطور باسيل الثاني ثلاثة قوانين تناولت الملكية الزراعية بشكل أو بآخر خلال فترة حكمه التي طالت قرابة الخمسين عاما .

ففي قانونه رقم (٢٦) الصادر في ٤ ابريل سنة ٩٨٨ م ألغى باسيل الثاني القانون رقم (١٩) الذي أصدره نقفور فوقاس سنة ٩٦٤ والذي عمل على الحد من قوة ونفوذ رجال الدين ومؤسساتهم الدينية الديرية والكنسية وكان الالغاء بأمر رجعي من تاريخ اصداره . (٥٣) وانه لمن المتخير للدهشة ان الكنيسة لم تحصل على الغاء لقانون نقفور فوقاس رقم (١٩) قبل ذلك . ولكن يلاحظ انه في ٤ ابريل سنة ٩٨٨ م كان باسيل الثاني واقعا تحت رحمة الكنيسة . ففي ذلك الوقت كان القيصر البلغاري صمويل سيدا لتسبه جزيرة البلقان ، كما كانت قوات الثائر برداس فوقاس تحتل خريسوبولس Khrysopolis وأبيدوس Abydos . وكان باسيل ينتظر بقلق وصول الجند المرتزقة الروس الذين أرسلهم اليه فلاديمير Vladimir أمير كيف Kiev . وفي مثل تلك الظروف كان على باسيل أن يعقد السلام مع الكنيسة بأى تمن . (٥٤) ولكن مع بداية سنة ٩٩٦ م كان موقف الامبراطور قويا بما فيه الكفاية

(٥٢) انظر : وسام : الامبراطور باسيل الثاني « سفاح البلغار » (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) : العوامل التي اثرت على السياسة في عصره ، مقال في ندوة التاريخ الاسلامي والوسيط ، المجلد الاول (١٩٨٢) ص ١٦٩ وما بعدها .

(٥٣) انظر نص القانون في : J G-R., III, 303-4.

(٥٤) عن احوال الامبراطورية في تلك الفترة الحرجة انظر :

وسام : دراسات في تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٠٦ - ٣١٠ .

وكان باسيل قادرا على اثبات ذلك • جاء قانونه رقم (٢٩) الصادر في أول يناير سنة ٩٩٦ م الذي يعتبر بلا شك أعنف هجوم على طبقة الأثرياء يصدر من امبراطور بيزنطي • وفي هذا القانون نصوص ضد الأثرياء العلمانيين والأثرياء من رجال الدين • (٥٥)

ويمكن تلخيص العناصر الرئيسية التي تضمنها هذا القانون كالآتي :

أولا : تجاهل باسيل الثاني ما ورد في قانون نفقور فوقاس رقم (٢٠) الصادر سنة ٩٦٧ م بخصوص الغاء شرط مرور اربعين عاما على انتقال ملكية قطعة ارض من الفقراء الى الأثرياء • واكد باسيل أن شرط مرور أربعين عاما على انتقال الملكية الزراعية ضروري قبل أن تصبح حقا للثني حسب قانون قسطنطين السابع • واكد باسيل الثاني ان ملكية أية قطعة ارض زراعية من قبل أحد كبار الملاك لن يعترف بها اذا لم يتمكن المالك من اثبات ان حصوله على الارض قد تم قبل عام المجاعة • كما نص على ان الاثبات يجب أن يكون بوثيقة ملكية رسمية يظهر فيها التاريخ بوضوح • اما بالنسبة لحالات انتقال ملكية اراضي تابعة للتاج الى الأثرياء فقد ألغى فترة الاربعين عاما ، واشترط على كل من يدعى حقا في مثل تلك الاراضي أن يثبت حقه بوثيقة مكتوبة •

كذلك نص القانون على أن انتقال ملكية أي ارض زراعية كانت مملوكة لأحد صغار المزارعين الاحرار في عام المجاعة او بعد تاريخ صدور قانون رومانوس ليكابينوس رقم (٢) لاكتسب شرعية مهما مضى عليها من زمن بل يجب ان تعود الى المزارع الصغير الحر دون أي تعويض لأن قانون رومانوس ليكابينوس قضى بعدم انتقال ملكية اراضي صغار المزارعين الى افراد من طبقة الاثرياء • ويبدو أن انتقال ملكية قطعة ارض من احد صغار المزارعين الاحرار الى احد كبار الملاك واكتساب هذا النقل للملكية سرعية بسبب مرور اربعين عاما ، قد أصبح تقليدا وأمرأ معترفا به ، ولكن باسيل الثاني قضى على هذا التقليد • وفي هذا المجال يذكر الامبراطور باسيل الآتي :

JG-R., III, 306-318.

(٥٥) انظر نص القانون رقم (٢٩) في :

« اذا قام أحد الاقوياء (الاغنياء) بنقل ملكية قطعة ارض في مجتمع قرية ما الى ملكيته الشخصية ، واذا قام وراثته بوراثته ملكية هذه الارض ٠٠ واذا رفض الورثة رد الأرض الى المزارع الذي طلب استرجاع ارضه بسبب انقضاء فترة طويلة من الزمن على انتقال الملكية ، فليكن واضحا للجميع انه مهما كان الوقت الذي مضى منذ انتقال ملكية هذه القطعة من الارض فان من حق المزارع ان يطالب بأرضه ويستردها ٠ والا لم نقم بسن هذا القانون ، فاننا نعطي بهذا المخائف القانون الفرصة ليقول : بما أنني نجحت في نقل ملكية هذه الارض وبما أن الفلاح غير قادر على المطالبة بحقه ، واذا نجح ابني أيضا ومضى من الوقت الكثير فاننا نستطيع الاحتفاظ بالارض التي امتلناها ولن يستطيع أحد المطالبة بها ٠ وعلى هذا فمن مصلحتي مخالفة القانون وانتهاك حقوق ملكية الاضعيف ٠٠٠ ، وان هذا الأسلوب واضح في حالة عائلتي مالينوس Maleinos وفوةاس Phokas ٠ فالبطريق قسطنطين مالينوس وابنه ايستاثيوس Eustathius اتبعوا هذا الأسلوب وعاشوا فترة ازدهار لم تتوقف قرن من الزمان تقريبا ٠ كذلك تتبع أبناء عائلة فوقاس نفس الأسلوب وعاشوا فترة ازدهار أطول لأن الجد الأول والجد التالي والأب ومن بعدهم الأولاد على التوالي استولوا على الاراضي بهذه الطريقة حتى الوقت الحاضر ٠ فهل يجوز بعد كل هذا ان نتكلم المدة الزمنية التي استمتعوا بها كامتياز لهم ؟ » (٥٦)

ويستطرد باسئيل الثاني في قانونه مسيرا الى أن طبقة كبار الملاك استولت بأساليب غير شرعية على اراضي صغار المزارعين تم توارث الابناء هذه الاراضي واعتقد الجميع ان مرور أربعين عاما كحد ادنى على نقل الملكية قد اعطاهم الشرعية ٠ ونص القانون على حرمان الولاد كبار الملاك من مثل ذلك الميراث وادى هذا الى حرمان عائلات عديدة من ضياعها الثمينة مما أصابها بالفقر فاختلفت ولم نعد نسمع عنها ٠ (٥٧)

J G-R., III, 308-9.

(٥٦)

(٥٧) المعروف ان الامبراطور باسئيل الثاني أمم الممتلكات الزراعية الخاصة بحوالي احدى عشرة عائلة تنتمي لطبقة الاقوياء هي : عائلة موزل Mousel (JG-R., III, 309) ؛ البراكيموميخوس باسئيل (III, 554) ؛ عائلة مالينوس Maleinos (Zonaras, (Kedrenos, II, 422)

ثانيا : ميز القانون رقم (٢٩) الذي أصدره باسيل الثاني بين صلاحية وشريعة صك الملكية المهورر بالخاتم الامبراطوري Khrysoboulls من ناحية ، وبين وصف حدود قطعة الارض الزراعية الملحقة والمضافة لصك الملكية . فقد لاحظ الامبراطور اثناء مروره في اقاليم الامبراطورية اثناء حملاته العسكرية حالات عديدة قام فيها كبار الملاك بوضع أيديهم على اراض كان بعضها في حيازة المزارعين الفقراء والبعض الآخر كان تابعا لاملاك التاج عن طريق التزوير في صكوك الملكية الزراعية . وقد اخذ هذا التزوير شكل اضافات تصف حدود العقار الزراعي اضيفت الى صكوك الملكية . ولاشك أن الموظفين الذين صاغوا هذه الاضافات كانوا متواطئين مع كبار الملاك . الا أن قانون باسيل الثاني لم يترك مجالا للشك بالنسبة لصلاحية مثل الاضافات ، فقد الغى القانون كل صلاحية لها ، ونص على أن وصف حدود أى قطعة أرض تضاف الى صك الملكية تصبح لاغية ولاقيمة لها الا اذا ثبت أنها مسجلة في سجلات الادارة الامبراطورية . (٥٨)

ثالثا : تصدى باسيل الثاني في قانونه أيضا لفئة اخرى من فئات الاثوياء ألا وهم رجال الدين في محاولة لوقف تعدياتهم على ممتلكات التزويين فالموضوع هو كنيسة القرية . لقد كان من المألوف في القرية أن يقوم أحد المزارعين ببناء كنيسة صغيرة على أرضه ، ثم يرتدى زي الراهبان ويحيا حياة دينية . وكان من المعتاد أن يقوم هذا المزارع بعد ذلك بمنح أرضه لهذه الكنيسة . وفي كثير من الأحيان ينضم اليه آخرون من نفس القرية فيشاركونه حياته الدينية ثم يقومون مثله بمنح اراضيهم لكنيسة القرية . ولكن عند وفاة المزارع الذي شيد الكنيسة في البداية ، تتقدم الأسقفية التي تتسع كنيسة القرية في متطفتها وتطالب بملكية المبنى والأراضي الزراعية

عائلة فوقاس Phokas وعائلة سكليروس Skleros (Psellos, Chron. I, 18)
عائلة Philokales (JG-R., III, 310) ؛ عائلة مالاكنوس Malakenos
(Kedrenos, II, 451) ؛ عائلة بول بوبز Paul Bobs (Kedrenos, II, 451)
عائلة نيكوليتزاس Nikoulitzas (Kedrends, II, 474) عائلة فاتاتزيس
Vatatzes (Kedrenos, II, 452) عائلة جلاباس Glabas.
(Kedrenos, II, 452)

JG-R., III, 311. (٥٨)

القابضة له على أساس أنه مؤسسة دينية وتدخل في اطار قوانين الكنيسة . وهكذا كانت الكنيسة ورجال الدين ، وهم فئة من فئات الاقوياء ، قادرين على التسلسل والانتزاع داخل مجتمعات صغار المزارعين الأحرار رغم أنهم لا يملكون أرضا زراعية فيها . ويذكر الامبراطور في قانونه أن هذه العادة امنتشرت في كل الثيمات وأدت في بعض الحالات الى اختفاء قرى بأكملها . ولقد نص الامبراطور في قانونه على أن هذه الكنائس الصغيرة في القرى لا يمكن اعتبارها مؤسسات دينية تابعة للأسقفيات والكنيسة الأم في العاصمة ، بل تعتبر ملكية ممنوع التصرف فيها للقرى أو لمجتمعات المزارعين في هذه القرى . وحرم القانون على الكنيسة الأم أن تضع يدها عليها . (٥٩)

رابعا : تناول البند الرابع من هذا القانون حقوق الخزنة الامبراطورية . ونص القانون على أنه لا يوجد حد زمني تتوقف بعده الادارة المالية عن المطالبة بحقوقها واسترداد كل ملكية زراعية تنتقل حيازتها بطريقة غير مشروعة الى الأقوياء . ووضح القانون أن مطالب وحقوق الخزنة الامبراطورية يمكن أن تكون بأثر رجعي يعود الى الوراء الى زمن الامبراطور اغسطس . كذلك اذا قام موظفو الادارة المالية والخزنة الامبراطورية بأى عمل يخالف مصلحة الحكومة المركزية ، فإن أى إنجازات من هذا القبيل تفقد صلاحيتها . ولقد اعترف الامبراطور بأن موظفي الادارة المالية لم يكونوا جميعا على مستوى المسؤولية بل ان ثلثه منهم هي التي قامت بتنفيذ الاوامر والقوانين الامبراطورية - بدقة . (٦٠)

لا نملك أن نانون باسيل الثاني رقم (٢٩) كان يمثل تغيرا جذريا ولكن في سنة ١٠٠٣/١٠٠٤م أتبع الامبراطور قانونه بمرسوم آخر أكثر قوة ونشدها ضد طبقة الاقوياء . فقد قرر باسيل أن الأغنياء فقط عليهم أن يتحملوا المسؤولية الجماعية في دفع الضرائب التي يتم تقديرها على كل منطقة ، أما الفقراء من دافعي الضرائب فقد اعتفاهم هذا المرسوم من كل مسؤولية في المستقبل . (٦١) ورغم تشدد هذا المرسوم ، الا أنه كان عادلا ويتناسب تماما

JG-R., III, 312-14.

(٥٩)

J G-R., III, 315-16.

(٦٠)

Kedrenos, II, 456; Cf. Zonaras, III, 561.

(٦١)

مع الظروف السائدة في الريف • قد وضع الامبراطور مسؤولية دفع الضرائب الجماعية على عاتق اولئك الذين يستطيعون الدفع ، مما اعطى للمزارعين الفقراء المطحونين فترة إعفاء طويلة •

لقد كان هدف هذا المرسوم رفع المعاناة عن المزارعين الفقراء ، الا انه لم يوضع أبدا موضع لتنفيذ • وقد يكون صحيحا أن نفترض أن هذا المرسوم الذي هدد مصالح الاقوياء بشكل مباشر ، قد أدى الى حدوث تواطؤ بين كبار الملاك ، والقضاة ، وجباة الضرائب للحيلولة دون تنفيذ هدف الامبراطور • وأن مثل هذا التحالف كان أقوى من ارادة باسيل الثاني وعنفه الذي اشتهر به والجدير بالذكر أن هذا المرسوم استمر بعد حياة باسيل الثاني لمدة ثلاث سنوات فقط ، كان فيها حبرا على ورق ، فقد قرر شقيق باسيل وأخوه قسطنطين الثامن ، الذي اعتقه على العرش ، الغاء هذا المرسوم • وتم هذا الالغاء بالفعل في عهد الامبراطور رومانوس الثالث ارجيروس Romanos III Argyros زوج ابنة قسطنطين الثامن وخليفته • (٦٢) وبهذا انتهت سلسلة طويلة من التشريعات التي أصدرتها الحكومة المركزية لوقف تعدى الاقوياء على ممتلكات صغار المزارعين •

ان مجموعة التشريعات التي صدرت في القرن العاشر الميلادي في الامبراطورية البيزنطية استهدفت حماية مجتمعات صغار المزارعين من تعدى الاقوياء ، واقامة توازن في ملكية الارض الزراعية • وان هذه التشريعات تروى لنا الكثير عن كبار الملاك وذوى النفوذ والسلطان كطبقة اجتماعية متميزة في المجتمع البيزنطي • وطبقا لما ورد في هذه التشريعات فان الاقوياء يمكن تحديدهم كأعضاء بارزين في الجيش ، والكنيسة ، والجهاز الادارى • فمنهم مجموعة الموظفين الذين سغوا المناصب الادارية واولئك الذين حملوا الالقاب السرفية غير المرتبطة بوظائف •

بالنسبة للجيش فان كل من كانوا في درجة ورتبة Protokentarches

أو أعلى (في النيمات) ، تم تصنيفهم ضمن طبقة الاقوياء • ويعتبر هذا تعميما تضمن معظم العسكريين المتمركزين في القسطنطينية والمناطق المحيطة بها ، وهم جند فرق الفرسان الاربعة المعروفة باسم التجماتا tagmata

Kedrenos, II, 486.

(٦١)

وهم القسم الأول من الجيش البيزنطي • كل هؤلاء الجند تم تصنيفهم ضمن الاقوياء بسبب ارتفاع اجورهم ولان الكثيرين منهم كانوا يفتخرون الى عائلات معروفة • (٦٣)

أما رقب الثيمات ، فعلى عكس فرق التجماتا Tagmata ، كانت تتكون اساسا من الجندي المزارع • ولقد حددت التشريعات أن كل الضباط في فرق الثيمات من درجة ورتبة Protokentarches فأعلى يجب تصنيفهم ضمن الأقوياء • ويعتبر هذا تصنيفا عريضا لأن رتبة Protokentarches ترتبها الثاني عشر بعد رتبة ستراتيجوس Strategos (قائد الثيم) ، وعلى هذا فان كل الضباط من ذوى الرتب التي تعلو رتبة Kentarches ، سم تصنيفهم ضمن الاقوياء في الاقاليم • (٦٤)

بالنسبة للادارة المدنية فان كل من شغل منصب سكرتير ادارة من ادانات الحكومة المركزية في العاصمة أو الاقاليم فأعلى ، تم تصنيفهم ضمن طبقة الاقوياء ، لان سكرتير الادارة المدنية كان ينساوى في المركز والمرتبة مع Protokentarches كذلك تضمنت طبقة الاقوياء كل من حملوا القابا شرفية مثل البطارقة ومن حملوا لقب ماجستير Magistroi فضلا عن الشيوخ من اعضاء مجلس السيناتو القديم • (٦٥)

اما الأقوياء من رجال الدين فقد كانوا مجموعة اكبر ، فقد تضمنت رؤساء الاساقفة والاساقفة ومقدمى الأديرة فضلا عن عدد آخر من كبار رجال الدين

(٦٣) كانت فرق التجماتا في القرن التاسع والعاشر من الميلاد تتكون من أربع فرق فرسان هي : فرقة Skholai ، وفرقة Exkoubitoi ، وفرقة Arithmos ، وفرقة Ikanatoi • وكانت فرقة السخولاي Skholai أهمها ، وكان القائد الاعلى للجيش في العادة هو قائد فرقة Skholai للمزيد عن هذا الموضوع انظر : Bury, Administrative System, 47-66. وانظر أيضا : Ahrweiler, Recherches, 23-31. (٦٤) Bury, Administrative System, 47-66. (٦٥) Vryonis, Time of Troubles, 206.

في العاصمة • ويلاحظ ان هذه الفئة من الاقوياء كانت أقل خطورة من الفئات المدنية والعسكرية اذ لم تشكل اى تهديد سياسى للحكومة المركزية •

وباختصار فان الاقوياء كانوا كل اولئك الذين يبدأون من أقل الموظفين المدنيين ، ورجال الدين ، والضباط العسكريين ، الذين كانوا قادرين على استعمال مراكزهم والنزوة المتاحة امامهم بحكم مناصبهم من أجل الاضرار بصغار المزارعين واولئك المسجلين كجند ومزارعين في الاقاليم • ولاشك ان في هذا تحديد قانونى شامل • ؟

ويلاحظ ان الظروف قدمت لفئات الاقوياء المختلفة فرصة كبيرة كى يزيدوا من ملكياتهم الزراعية • فالشتاء القاسى لعام ٩٢٧ / ٩٢٨ م والمجاعة التى اعتبته تسببت في حدوث اضطراب اجتماعى في الاقاليم • وخلال تلك الفترة الصعبة أجبر الفلاحون على بيع اراضيهم بأثمان زهيدة • ورغم أن القوانين التى صدرت بعد عام المجاعة ، صدرت خصيصا من اجل عودة تلك الاراضى ، الا ان المرجح ان معظم تلك الاراضى ظلت في حوزة الاقوياء ولم يعيدوها • كان الفلاح • اما غير قادر على تعويض القوى من أجل استعادة أرضه ، او كان ببساطة قانعا بحياة الأفتنان في ضيعة السيد القوى حيث وجد هناك قدرا من الأمن في اشد الحاجة اليه •

لقد هدد تعدى كبار الملاك على ممتلكات صغار الفلاحين ، بحرمان الدولة من قوتها العسكرية الدفاعية وقدرتها المالية • وأن النشء الذى لسم يذكر بالتحديد في هذه التشريعات هو أن تعدى الاقوياء بهذه الصورة الصارخة قد هدد سيادة الحكومة المركزية نفسها • وعلى هذا يمكن القول ان التشريعات التى تناولت الملكية الزراعية كانت بهدف كبح جماح النمو الاقتصادى والسياسى لطبقة الاقوياء • لقد كانت هذه القوانين اجراءات دفاعية من جانب الحكومة المركزية ضد قوى تحاول الخروج على الادارة المركزية وهى قوى كانت لها صبغة اقطاعية • ولكن رغم هذه التشريعات والاجراءات الا ان الحكومة المركزية فشلت في تحقيق هدفها ، لأن تطبيقها وتنفيذها كان في يد افراد من نفس الطبقة التى صدرت ضدها التشريعات •

قائمة المصادر والمراجع وبيان المختصرات :

- Ahrweiler, **Recherches** H. Glykatzi-Ahrweiler, «Recherches sur l'administration de l'empire byzantin aux IX^e — XI^e Siècles, Bulletin **Correspondance Hellénique**, 84 (1960), 1-109.
- Andreades, **Petit Propriété** A. Andreades, «Floraison et décadence de la petit propriété dans l'empire byzantin», **Mélanges Ernst Mo-haim**, 1 (1935), 261-66.
- Antoniadis-Bibicou, **Etudes** H. Antoniadis-Bibicou, **Etudes d'histoire maritime de Byzance**, à propos du 'Thème des Caravisiens' (Paris, 1966, SEI. and P.E.N.).
- Bach, **Lois Agraires** E. Bach, «Les lois agraires byzantines du Xe siècle», **Classica et Medievalia**, 5 (1942), 70-91.
- Bury, **Administrative System** J.B. Bury, **The Imperial Administrative System in the Ninth Century, with a Revised Text of the Kletorologion of Rhithotheos** (British Academy Supplemental Papers, I), (London, 1911).
- Charanis, **Monastic Properties** P. Charanis, «The Monastic Properties and the State in

- the Byzantine Empire», **Dubarton Oaks Papers**, 4 (1948), 51-118.
- Danstrup, Landed Property** J. Danstrup, «The State and Landed Property in Byzantium», **Classica et Mediaevalia**, 8 (1947), 222-62.
- Ferradou, Monastères** A. Ferradou, **Des biens des monastères à Byzance** (Bordeaux, 1896).
- Gaignerot, Des Bénéfices** A. Gaignerot, **Des bénéfices militaires dans l'empire romain et spécialement en Orient au Xe siècle** (Bordeaux, 1898).
- Georg. Mon. Con.** **Georgius Monachus**, in **Theoph. Cont.**, ed. I. Bekker (Bonn, 1838), 761-924.
- J G-R.** **Jus Graeco-Romanum**, Pars III : **Novellae, Constitutiones**, ed. C.E. Zacharia von Lingenthal (Leipzig, 1857), 220-318. Reprinted by J. and P. Zepos (edd.) (Athens, 193 P. Zepos (edd.) (Athens, 1931) Vol. I.
- Cedrenos** G. Cedrenus, **Historiarum**

- Compendium**, ed. I. Bekker
(Bonn, 1888-39) 2 vols.
- Lemerle, Esquisse**
Lemerle, Esquisse P. d. é
P. Lemerle, «Esquisse pour
une histoire agraire de By-
zance», *Revue Historique*,
219 (1958), 32-74 and 254-
84; 220, pp. 43-94.
- Leo VI, Les Nouvelles**
Les Nouvelles de Léon VI
le Sage, ed. and trans. P.
Noailles and A. Dain (Paris,
1944). (Société d'Édition les
'Belles Lettres').
- Leo Grammaticus**
Leo Grammaticus, Chrono-
graphia, ed. I. Bekker (Bonn,
1842).
- Mitard, Le Pouvoir Impérial**
M. Mitard, «Le pouvoir Im-
périal au temps de Léon VI»,
Mélanges Charles Diehl, I
(Paris 1930), 217-23.
- Ostrogorsky, Agrarian Conditions**
G. Ostrogorsky, «Agrarian
Conditions in the Byzantine
Empire in the Middle Ages»
Cambridge Economic History
of Europe, 1, 2nd. ed.
(Cambridge, 1966).
- Ostrogorsky, Pre-Emption Right**
G. Ostrogorsky, «The Pea-
sant's Pre-Emption Right.

An Abortive Reform of the Macedonian Emperors», **Journal of Roman Studies**, 37 (1947), 117-26.

Ostrogorsky, **Quelques Problèmes**

G. Ostrogorsky, **Quelques Problèmes d'histoire de la Paysannerie byzantine** (Brussels, 1956). (Corpus Bruxellense historiae byzantinae, Subsidia, II).

Ostrogorsky, **State**

G. Ostrogorsky, **A History of the Byzantine State**, Eng. trans. J.M. Hussey Oxford, 1968).

Ostrogorsky, **Steurgemeinde**

G. Ostrogorsky, «Die ländliche Steurgemeinde des byzantinischen Reiches im X Jahrhundert», **Vierteljahrschrift für Sozial- und Wirtschaftsgeschichte**, 20 (1928), 1-108.

Psellos, **Chron.**

M. Psellos, **Chronographie**, ed. F. Renauld (Paris, 1926, 1928), 2 Vols.

Pseudo-Symeon

[Pseudo-Symeon Magister, **Chronographia**, in **Theoph. Cont.**, ed. I. Bekker (Bonn, 1838), 603-760.

- Setton, **Land Tenure** K.M. Setton, «On the Importance of Land Tenure and Agrarian Taxation in the Byzantine Empire from the 4th Century to the 4th Crusade», **American Journal of Philology**, 74 (1953), 225-59.
- Svoronos, **Synopsis** N.G. Svoronos, **La Synopsis major des Basiliques et ses appendices** (Paris, 1964). (Bibliothèque byzantine : Études, IV).
- Syuzymov, **Le Village** M.Y. Syuzyumov, «Le Village et la ville à Byzance aux IXe-Xe Siècles», **Recherches Internationales à la lumière du marxisme**, 79 (1974), 65-74.
- Testaud, **Puissants** G. Testaud, **Des rapports des Puissants dans l'empire byzantine** (Bordeaux, 1898).
- Theoph. Cont.** Theophanes Continuatus, Ioannes Cameniata, Symeon Magister, Georgius Monachus, ed. I. Bekker (Bonn, 1938), 1-481.
- Toynbee, **Constantine Porphyrogenitus** A. Toynbee, **Constantine Porphyrogenitus and his World** (London, 1973).

Vryonis, **Time of Troubles**

S.Vryonis, **The Internal History of Byzantium during the 'Time of troubles' 1057-81**

Zonaras

A.D. (Dissertation, Harvard, I. Zonaras **Epitome Historiarum**, ed. M. Pinder, B. Butner-Wobst (Bonn, 1841-97), 3 Vols.

ثانيا : الكتب والدراسات الجديدة

١ — تقرير عن معرض القاهرة الدولي ١٩٨٣م

٢ — عرض ونقد كتاب « تاريخ المغرب — محاولة في التركيب »

تقرير عن معرض القاهرة الدولي للكتاب
وأهم ما جد فيه من مصادر ومراجع تاريخية
تتعلق بتاريخ الوجود اللاتيني في بلاد الشام
خلال مرحلة الصليبيات القرنين ٦ ، ٧ هـ / ١٢ ، ١٣ م

شهدت أرض المعارض بالجزيرة بالقاهرة في المدة الواقعة من ٢٧ يناير حتى ٧ فبراير عام ١٩٨٣ التقاء عدد من دور النشر العربية والأجنبية مجتمعة في المعرض الدولي الخامس عشر للكتاب . ومهما يكن من أمر الاختلاف بيننا بشأن مقارنة حجم ونوعيات دور النشر ونشاطها في المعرض وما احتواه من كتب جديدة فسأعرض هنا لما قد لفت نظري واسترعى انتباهي فيما ينصل بدراسة الحروب الصليبية في بلاد الشام خلال القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني عشر والثالث عشر ، الميلاديين .

أما بالنسبة للمصادر العربية ظهر في المعرض كتاب **محيى الدين ابن عبد الظاهر الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، نشر وتحقيق د . عبد العزيز الخويطر ط . الرياض عام ١٩٧٦م** وتناول هذه المخطوطة التي حققها الخويطر جوانب هامة فيما يتصل بدراسة عصر الظاهر بيبرس وسقوط امارة أنطاكية في عهده عام ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨م ، وكذلك موقفه من عناصر الاسماعيلية النزارية وسياسته تجاههم وكذلك عناصر الهيئات الدينية الحربية الصليبية أو فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام حينذاك حيث القى أضواء هامة على ظروف سقوط قلاعهم على يد المماليك في عهد بيبرس وبتفصيل تفتقر اليه المصادر التاريخية العربية الأخرى اللاحقة التي تناولت بالاشارة نفس المرحلة .

وقد حصل الباحث في دراسته لمخطوطة ابن عبد الظاهر على درجة الدكتوراة من جامعة لندن عام ١٩٦٠م . الا انها لم ترضوء النشر لأول مرة الا عام ١٩٧٦ عندما ظهرت في طبعة مدينة الرياض ومن قبل نشرها أشار الى اهمية ذلك العمل العلمى الأستاذ المستشرق فرانسيسكو جابريلى

Francesco Gabrieli فقد أشار الى المخطوطة السالفة الذكر في كتابه
الشهير عن مؤرخى الصليبيات العرب .

The Arab Historians of The Crusades

الذى ظهر بالايطالية في أول الأمر ثم ترجم الى الانجليزية من جانب ج .
كوسستيلو G. Costello (أنظر تناول المخطوطة في نفس الكتاب
الكتاب P. xxx 111 . ا وكذلك في الفصل الذى كتبه الأستاذ جابريلي
من الدراسة التى ظهرت من جانب جامعة اكسفورد Oxford عام
١٩٦٣ وأشرف عليها الأستاذان ب . لويس B. Lewis وهولت Holt
تحت عنوان مؤرخو الشرق الأوسط Historians of the Middle East
حيث شارك جابريلي بموضوع يحمل عنوان : —

The Arabic Historiography of the crusades

الكتابة العربية للحروب الصليبية ..

فقد أشار في المقالة الأخيرة ص١٦ هامش (٦) الى أن النص الكامل
الذى ألفه ابن عبد الظاهر عن سيرة الملك الظاهر بيبرس قد حققه الخويطر
كموضوع للدكتوراة وأنه لا يزال تحت النشر .

واود هنا ان أشير فقط الى الخط الذى وقع فيه سامى الدهان في مقدمة
تحقيقه للكتاب الأعلق الخطيرة ، والحقيقة أن المخطوطة لابن عبد الظاهر
كما تبين من قبل وان كان عز الدين ابن شداد له مخطوطة تتناول الظاهر
بيبرس في ادرنة — المسجد السلیمانى تحت رقم ٢٣٠٦ وقد أشار الى ذلك
الخويطر في مقدمة التحقيق ص ٣٩ .

عن اشارة الأستاذ الدكتور سامى الدهان عن ذلك أنظر : —
عز الدين ابن شداد ، الأعلق الخطيرة بذكر أمراء الشام والجزيرة
ط . دمشق ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م ص١٨ مقدمة التحقيق .

من ناحية أخرى شهد المعرض لأول مرة ظهور كتاب ابن طولون
الصالحى ، القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية . الجزء الثانى . ط
« دمشق عام ١٩٨٣م ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، وكان الجزء الأول قد
ظهر عام ١٩٤٩م . وهكذا فقد فصل بين الجزء الأول والثانى ما يزيد على
المئتين عاما وقد حقق الجزء الأول نفس المحقق . والكتاب كما هو معروف

مصدر على قدر كبير من الأهمية بشأن الصالحية .

ويفيدنا في تناول تطورها التاريخي والعمائر الدينية للمتصوفة على وجه الخصوص واثسارات هامة عن الدور الحضارى الذى لعبته عناصر الدسوفية وأسرة آل قدامة الجماعلى على وجه خاص .

وأود أن أشير هنا الى أنه من قبل قيام المعرض الدولى للكتاب فى القاهرة علمت بصدور الكتاب السابق من خلال النشرة التى أصدرها معرض المخطوطات العربية بالكويت فى عدد يناير ١٩٨٣م .

— هناك أيضا ما ألفه ابن نظيف الحموى فى كتاب **تاريخ النصورى تحقيق د. أبو العين دادو مراجعة د. عدنان درويش ط . مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٨٢م** ويشتمل على الأحداث التى وقعت إبان الفترة من عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م الى عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م . وهو مصدر هام للعصر الأيوبى فى بلاد الشام على وجه خاص فى تلك المرحلة .

— ظهرت فى المعرض طبعة جديدة لكتاب **ابن كثير ، البداية والنهاية ، ط . بيروت عام ١٩٨٢م** . ومن قبل كان الباحثون فى مجال الصليبيات يستعملون ، بطبعات قديمة مثل ط . القاهرة ١٣٤٨هـ / ١٣٥٨م . وكذلك طبعة بيروت عام ١٩٦٦م .

أما ما يتصل بالأعمال الحديثة والمراجع فقد احتوى المعرض على طبعة جديدة لمؤلفات **د. جوزيف نسيم يوسف** . ظهرت فى بيروت عام ١٩٨١م . تحت عنوان مكتبة الحروب الصليبية .

واحتوت الطبعة الجديدة على المؤلفات الآتية : —

— **العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ط . بيروت ١٩٨١م** . وكانت الطبعة الأولى لنفس الكتاب قد ظهرت فى القاهرة عام ١٩٦٣م ، فى سلسلة المكتبة التاريخية . دار المعارف بالقاهرة . الطبعة الثانية عام ١٩٦٧م .

— **الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي ط . بيروت** .

- ١٩٨١ • الطبعة الأولى في القاهرة عام ١٩٦٧ . في سلسلة المكتبة التاريخية ، دار المعارف بالقاهرة .
- العدوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارمسكور ط • بيروت ١٩٨١ •
- الطبعة الأولى بالقاهرة عام ١٩٦٩ م • الناشر دار المعارف .
- العدوان الصليبي على بلاد الشام ، هزيمة لويس التاسع على الأراضى المقدسة ط • بيروت ١٩٨١ •
- الطبعة الأولى بالقاهرة عام ١٩٥٦ م ، الثانية ١٩٥٩ ، الثالثة ١٩٧١ .
أما الطبعة التي ظهرت في المعرض فهي الرابعة ، بيروت ١٩٨١ •
- من ناحية أخرى ظهر في المعرض لأول مرة عدة مؤلفات جديدة للدكتور عارف تامر وهي : —
- المعز لدين الله الفاطمي ، ط • بيروت ، العزيز بالله • ط بيروت • الحاكم بأمر الله خليفة وإمام ومصلح • ط • بيروت ١٩٨٢ م • الناشر ، دار الأفاق الجديدة •
- وقد احتوى كتاب الحاكم بأمر الله رؤية مدافعة عن عقيدة الدروز أو الموحدين ودافع بشدة عن سلامة اعتقادهم •
- ظهرت في المعرض مؤلفات د. أسامة زكي زيد مدرس تاريخ العمود الوسطى • جامعة طنطا • وهي : —
- الصليبيون واسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية • القرن الثاني عشر م / السادس هـ • ط • الإسكندرية ١٩٨٠ م •
- صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي • ط • الإسكندرية ١٩٨١ م •
- واحنوى المعرض لأول مرة رسالة الماجستير التي أخرجتها الجامعة الأردنية عام ١٩٨١ م لظه تلجي الطراونة تحت عنوان : —

• ((مملكة صفد في عهد المماليك)) •

الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨٢م

• الناشر ، دار الافاق الجديدة •

وقد تناول في رسالته الحدود الجغرافية للملكة وتاريخها السياسي والمظاهر الحضارية فيها . ويرجع أهمية الكتاب على وجه الخصوص في تناوله للجانب الحضاري خاصة توزيعات السكان والناحية الاجتماعية واقتصادية وكذلك الجهاز الاداري .

وأود أن أشير الى نشاط الجامعة الأردنية التي اهتمت في مجال الدراسات الاسلامية بتناول بعض المدن واخصها للدراسة العلمية الأكاديمية فهناك مثلا انتاح بعض الباحثين الذين انتسبوا لها . أنظر : —

• محمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك في العصر المملوكي •

ط • عمان ١٩٧٦م

يوسف غواتمة ، تاريخ شرق الأردن في عصر

دولة المماليك الأولى

ط • عمان ١٩٧٩م •

ومن الأمور المقررة أن جامعة الاسكندرية كانت قد خطت نفس الخطوة من قبل من جانب أ.د. جوزيف نسيم يوسف بحيث يمكننا القول أن مدن أنطاكية وطرابلس وصيدا وقسارية قد تمت دراستها دراسة تاريخية خلال مرحلة الصليبيات أو في مرحلة سابقة عليها كمدخل لدراسة الحروب الصليبية . أما جامعة القاهرة فقد تمت دراسة مدينة طرابلس وصور وأتجه أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور الى تناول مواضيع ذات طابع سياسي أو تناول مظاهر حضارية خلال مرحلة الحروب الصليبية ولم يتوسع في تناول المدن بالدراسة .

ظهر في المعرض ما ألفه د. ميشيل جحا عن حركة الاستشراق في إنجلترا والمانيا وايطاليا وأسبانيا : —

ميشيل جحا . الدراسات العربية والاسلامية في أوروبا

النشر من جانب معهد الإنماء العربي — ليبيا

ط . بيروت عام ١٩٨٢م

وبحكم أن الباحث قد درس دراساته العليا في ألمانيا فقد قدم في كتابه تناولاً موفقاً لحركة الاستشراق في ألمانيا على نحو يميز دراسته على نحو خاص . ومن خلال ثبوت المراجع نجد أنه استعان ببعض الأبحاث التي كتبت باللغة العربية بالألمانية وترجمت الى العربية : —

- البرت ديتريش ، الدراسات العربية في ألمانيا .
ط . فسبادن عام ١٩٦٢ ، ط ١٩٦٨ .
- روتر ، الدراسات العربية الاسلامية .
بجامعة توبنجن ت . كمال رضوان . ١٩٧٤ .
- صلاح الدين المنجد . المستشرقون للألمان
ط . بيروت ١٩٧٨ .

ومع ذلك فهناك بعض الدراسات الهامة والتي كتبت في مجلدات متناثرة منعددة الاهتمام بالدواحي الأدبية والمباحث التاريخية ، ولم يطالعها الباحث على الرغم من أهميتها ومدور بعض منها قبل ظهور كتابه القيم في عام ١٩٨٢م .

انظر مثلاً : آخر بحث علمي باللغة العربية عن حركة الاستشراق الألماني قام به أحد الباحثين الألمان هو : —

Ulrich Harmann

أولريش هارمان

مدير المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت

In stitut der Deutschen Morgen landischen Gesellschaft

— أولريش هارمان ، الاستشراق الألماني

منجزات ومراجعة مواقف .

مقالة مستخرجة من مجلة الباحث

السنة (٥) العدد (٢٥) الصادر في يناير - فبراير ١٩٨٣ م • من
ص ١٤٣ - ص ١٥١ •

قدم فيها هارمان عرضا رائعا لحركة الاستشراق الألماني ودوافعها على
نحو مختصر •

أيضا هناك دراسة أ . د. عز الدين اسماعيل •

— عز الدين اسماعيل ، « ملخص الاستشراق في ألمانيا » •

مقالة مستخرجة من حوايات كلية الآداب - جامعة عين شمس م (٧)
عام ١٩٦٢ من ص ٢٤٩ - ص ٢٥٤ •

— ثم أخيرا دراسة قام بها د. مراد كامل •

— مراد كامل « العلماء الألمان والدراسات العربية »

مقالة مستخرجة من مجلة « المجلة »

السنة (٨) العدد (٩٨) •

مايو ١٩٦٤ •

من ص ٤٠ إلى ص ٥١ •

تتناول فيها حركة الاستشراق الألماني في القرن الثامن عشر والتاسع
عشر وبدايات القرن العشرين وامتياز المقالة بتنوعها ، فلم تقتصر على
الدراسات التاريخية فقط بل احتوت مجهودات المستشرقين الألمان في مجالات
التاريخ الإسلامي ، والنقوش العربية والأوراق البردية والدراسات لتاريخية
بعمامة ، والأدب الشعبي والشعر واللهجات العربية وتاريخ القرآن والفقه
والحديث وكتب السير . والجغرافية وحتى الطب والعلوم الطبيعية •

الباحثون الايطاليون ودراسة التاريخ العربى للمستغرب الابطالى
للاستاذ اومبرتو ريتستانو

ترجمة عن الايطالية / عيسى الناعورى

مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى

— ظهر في المعرض ككتاب المؤرخة « هسى » العالم البيزنطى

Hussey, The Byzantine World, London 1957.

في ترجمة عربية وفي طبعة جديدة هي الطبعة الثانية •

ترجمة د. رافت عبد الحميد أستاذ مساعد التاريخ الوسيط بكلية الآداب .
جامعة عين شمس . كانت الطبعة الأولى قد ظهرت من دار نشر سعيد رأفت
عام ١٩٧٧ م .

• أما الطبعة الأخيرة التي ظهرت في المعرض فهي طبعة القاهرة ١٩٨٢ م .
الناشر دار المعارف بالقاهرة .

أما الترجمة فتمتاز بالسلاسة والدقة وقد قام الباحث بتعليقات على
النص الأصلي لهسى محيلا فيها القارئ الى المصادر الأصلية اليونانية
واللاتينية للتاريخ البيزنطى . ويفيدنا الكتاب فيما يتصل بمشاركة الامبراطورية
الرومانية المتأخرة The later Roman Empire فى النشاط الصليبي وآثار
الحملة الصليبية الرابعة بالذات .

— احتوى المعرض لأول مرة على الترجمة العربية لكتاب الأستاذ / ر — س
سمائل R. C. Smail

Smail, Crusader warfare, Cambridge 1954

ترجمة سمائل هاشم ، تحت عنوان الحرب الصليبية ،
ط بيروت ١٩٨٢ . الناشر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

ويعتبر هذا الكتاب من أهم أعمال سمائل وأول عمل يترجم له الى اللغة
العربية .

أما أعمال سمائل فهي كالتالى : —

Smail, Military Methods employed by the latin states in Syria,
1097. 1192 —Diss. For ph. D., Cambridge 1947.

وهو مؤلفه الأساس الذى حصل على درجة الدكتوراة به من جامعة
كامبردج .

وله دراسة عن القلاع الصليبية فى القرن الثانى عشر ، انظر :

Smail, «Crusades Castles of The Twelfth Century» Cambridge His-
torical Journal Vol. X, 1951, pp. 133-149.

وأیضا له دراسة عن الصليبيين فى سوريا والأرض المقدسة .

Smail, Thee Crusaders in Syria and the Holy land, London 1973.

وهذه الدراسة هي أحدث ما وصلنا من أعمال الأستاذ سمائل .

مما سبق يتضح لنا أن هذا العمل الذي ترجمه سامى عاشم هو أول عمل له يترجم الى العربية . غير أن الترجمة أحيانا لا نجد لها بصورة سلسلة ومتتابعة السياق ، ولم يضع المترجم أية تعليقات على نص سمائل ولم يحيل القارىء الى أى دراسة عن الصليبيات ، بل لم يقدم المؤرخ الانجلىزى وكتابه للجمهور أو الباحثين . ومع ذلك فالثابت أن المترجم بذل جهدا فى نقل النص الانجلىزى على صعوبته لاحتوائه على الكثير من التعبيرات الاصطلاحية والجوانب الأثرية الدقيقة التى يفيض بها الكتاب .

ذلك كان عرضا موجزا لأهم المصادر والمراجع التاريخية التى تناولت مرحلة الحروب الصليبية والأمل معتود على نشاط حركة النشر فى دور النشر العربية لتخرج الى الضوء العديد من الأبحاث الهامة التى تناولت تلك المرحلة الهامة والحيوية من تاريخ أمتنا العربية .

عرض ونقد كتاب تاريخ المغرب — محاولة في التركيب
تأليف عبد الله العروى

سنوسى يوسف ابراهيم
مدرس مساعد بقسم التاريخ
كلية الآداب — جامعة عين شمس

ان محاولة عرض وتقييم واحد من الكتب التاريخية — في اعتقادي —
 لمهمة شاقة تحتاج الى الكثير من المعرفة ، وبخاصة منهجية البحث التاريخي
 بدءا من هوية المؤلف ، ومرورا بالعلوم المختلفة التي تنير الطريق للباحث ،
 وانتهاء بشمولية الفكر لتفسير الأحداث ، وقبل كل ذلك لابد من أساس
 ضروري وهو المعرفة الكاملة بالمصادر الأصلية التي كتبت عن الفترة التي
 بتناولها الكتاب ؛ كما أن عرض كتاب ونقده مثار جدل ؛ اذ يرى البعض أن
 الاختلاف مع المؤلف في تفسير بعض الأحداث ، وعدم التأكيد على صواب
 تفسيراته وما وصل اليه من نتائج هو هجوم على المؤلف .

وإذا كان الكتاب موضوع العرض متعلقا بتاريخ شمالي افريقيا
 (المغرب) الذي ما زال يحتاج الكثير والكثير من الجهد للتعرف على حقيقته ؛
 كما أنه ليس تاريخا لفترة معينة — على عكس ما اعتاد المخصصون في حقل
 البحث التاريخي في نأليفهم — وإنما تاريخا للمغرب بمخالف عصوره ، منذ
 أن ترك لنا الانسان بعض آثاره اما حفرا ونقشا ، واما آثارا وكتابة ، وحتى
 العصر الحاضر الذي دونت أحداثه بالعديد من وجهات النظر حتى كادت
 الحقيقة أن تضع بين هذه المفاهيم المختلفة ، مما زاد الأمر عسرا .

ولقد سرت مع المؤلف وصفحات كتابه الطريق كله ، بدءا بالمقدمة التي
 حدد فيها الهدف من تأليف الكاتب ، وأخراج أفكاره من الظلمات الى النور عبورا
 بالأحداث في سرعة ما انفقت مع المصادر الأصلية ، وتوقفا في نقاش وحوار
 مع المؤلف اذا حاد في تفسيراته — من وجهة نظري — عن الحقائق التاريخية
 الموثقة بالمصادر الأصلية ، أو اذ استخدم حدثا واحدا ليجهل منه نظرية
 تطبق على الفترة بكاملها ، غافلا غيره من الأحداث التي لا تخدم وجهة النظر
 التي يريد اثباتها ؛ فيشوه بذلك الحقيقة التاريخية ، ويحيد عن الموضوعية ؛
 حتى نصل في النهاية لما استخلصه المؤلف من الكتاب .

ولست في حاجة الى القول أن مثل هذا العمل قد بذل فيه من الجهد
 والوقت الكثير ، كما أنه ، لا شك ، قدم فائدة كبيرة لكل المهتمين بدراسة
 تاريخ المغرب قديمه ووسيطه وحديثه ، ودليل صدق يؤكد بوضوح مدى
 ثقافة المؤلف وسعة اطلاعه ، وبخاصة على كتابات المستشرقين . فاذا كان
 تركيزي في عرض الكتاب على الرد على بعض تفسيراته ؛ التي هي في
 اعتقادي بجانب الصواب ، أو محاولته ثني ذراع الحقيقة التاريخية

ليستقرئها ما يريد أن يثبت ، أو لتحقيق هدف أعد الكتاب من أجله ؛ فحاذ بذلك عن حيادية المؤرخ وموضوعيته ، فان هذا لا ينقص من قيمة الكتاب والجهد الذي بذل فيه ، وما قدمه لنا مؤلفه من أفكار جديدة وجريئة في بعض الأحيان ؛ فان جانب بعضها الصواب ؛ فكفى أن البعض الآخر كان جديدا لم يسبقه اليه غيره ، حتى اذا كان هذا الجديد فكرة واحدة أو نفسياً فريداً .

فلماذا وضع المؤلف كتابه ؟ يقول المؤلف أنه وضع الكتاب للرد على المستشرقين الذين افترضوا فرضيات جريئة دون سند حقيقي من أقوال المؤرخين المعاصرين (١) ، ثم تداول هذه الافتراضيات كل الذين جاءوا من بعدهم على أنها حقائق مؤكدة ، كما بالغوا في تقديرها وبخاصة ما كتب منها بالفرنسية ، دون نقد أو تمحيص أو الاطلاع على المصادر الأصلية ؛ لأنهم يجهلون العربية والبربرية ، ويشكك المؤلف في مدره المستشرقين على البحث التاريخي ، لأن معظم من كتبوا منهم عن تاريخ المغرب — حسب قوله — اما موظفون ذوو طموحات علمية ، أو عسكريون اتخذوا من الثقافة هواية ، أو مؤرخون في الفن وليس في التاريخ ، وكلهم دون اعداد لغوى ؛ واما لغويون وعلماء آثار بدون اعداد تاريخي ، ومن أجل هذا فكر المؤلف في تقديم وجهة نظر أحد المغاربة في تاريخ وطنه ، كما يقوم « بانتقاد المؤرخين الأجانب بقسوة شديدة » (٢) . ويحدد منهجية دراسته بأن كتابه ليس اعاده رواية التاريخ بقدر ما يعنى بابن المغرب اليوم في محاولة لربطه بماضيه على مر العصور .

ويقسم المؤلف تاريخ المغرب منذ القديم وحتى الوقت الحاضر الى أربع حقبة — متناسياً التقسيم الذي اتفق عليه مؤرخو الغرب والشرق — الحقبة الأولى يبدأها من عصور ما قبل التاريخ ، وتنتهي في القرن الثامن

(١) رغم قوله هذا فانه يشكك في مصادر تاريخ المغرب بعصوره المختلفة ؛ كما أن الموجود منها نص كبير بدرجة لا يمكن الاعتماد على هذه المصادر في كتابة تاريخ المغرب ، وعلينا أن ننتظر حتى اكتشاف مصادر جديدة حتى يتاح لنا كتابة هذا التاريخ .

(٢) وان استثنى من هؤلاء المؤرخين المستشرق الفرنسي جوليان Julien الذي كان للمؤلف صديقا ، ولمعظم المغاربة أسنادا ، وكان ليبراليا ومناضلا ضد الاستعمار .

المبلاذى ؛ حينما أخذ المغرب بنخلة من حالته كموضوع ، وتعرف على نفسه
 بى حركة أيديولوجية ذات خاصية دينية (ويعنى بها ثورة البربر على الولاة
 الأمويين سنة ١٢١ هـ) فانطلق منها لتكوين المدن - الدول ، والامارات تم
 الامبراطوريات ؛ فكان تاريخ المغرب منذ ذلك الوقت مختلطا بتاريخ تلك
 الحركات الايديولوجية ، وهى الحقبة الثانية ، التى تمند عند المؤلف حتى
 القرن الرابع عشر المبلاذى . أما الحقبة الثالثة ؛ فهى التى كان فيها نتاج
 المؤرخين متناميا مع عواصم السلطات المتعددة (أى الدول المستقلة) التى
 قامت فى المغرب ، ولا تدين للانشقاقات الدينية بشئ ، واتخذ هؤلاء
 المؤرخين من حياة عواصم هذه السلطات فى فاس ونلمسان وونوس موضوعا
 لتأريخهم ؛ فى برقت بدأت فيه علاقات مع عالم جديد بتزايد خطره ، ثم تجيء
 الحقبة الرابعة مع بداية القرن التاسع عشر الميلادى حيث يظهر نتاج فئتي
 المؤرخين الاسنعماريين والقوميين ، اللتين بتعارضان على الأقل فى تعبيرهما
 عن الحقيقة الواقعة . ويرى المؤلف فى تقسيم التاريخ الى أحقاب تبعاً لنتاج
 المؤرخين السياسى كوسيلة لترتيب التاريخ وعرضه ؛ ولينخلص المؤرخ على
 الأقل من منهجية الازدهار والانحطاط ، وكتابة التاريخ على نظام الأسرات ،
 فلا يكون منطوق العرض خاضعا أو ممزوجا بمنطق الوقائع نفسها .

ويرر المؤلف اختياره لهذا التقسيم فى تاريخ المغرب على وجه الخصوص ؛
 بأنه ينيح للفرقة بين المستويات المتعاقبة للاقتصاد والمجتمع ، والتنظيم المتعلق
 بالدولة والثقافة ، ويساعد المؤرخ فى تجنب عثرات عديدة منها تقسيم تاريخ
 المغرب الى عصور قرطاجية ، ورومانية وفندالية وبيزنطية وعربية وتركية
 وفرنسية ، وحتى لا بصور المغرب على أنه أرض المنازعات بين كيانين غير
 محددين هما الشرق والغرب ، وليس الدينان المسيحى والإسلامى ، واللغتان
 اللانينية والعربية سوى مظاهر لهذين الكيانين .

ويعيب المؤلف على المؤرخين المحدثين تقسيم تاريخ المغرب الى فترات
 ثلاث فى اطارها الضيق المحدود ؛ فهم مثلا يميزون بين فترة كلاسيكية تمتد
 من القرن السابع مع انتشار الاسلام ، وحتى نهاية القرن الرابع عشر ، عن
 الحقبة الطويلة التى تتلوها ، وهى اختفاء المغرب عن المسرح ، والهزائم
 المتتالية فى اسبانيا ، وتعديات الدول على أرض المغرب ، ولهذا يرى اما أن
 يؤخذ بالتقسيم الذى اختاره ، واما أن ننتظر حتى يتطور نتاج للمؤرخين

اقتصادي واجتماعى حتى يمكن كتابة تاريخ المغرب وتقسيمه الى فتراته على هذين الأساسين .

وقد اختار المؤلف عناوين للحقب الأربعة ليست أكاديمية شاملة جامعة مانعة بقدر ما هي براءة ؛ فاختار للفترة الأولى عنوان : المغرب تحت السيطرة ؛ بداية من قبل التاريخ ، وانتهاء بقيام الدول المستقلة (الرسنبيين ، المراريين ، الادارسة ، الأغالبة ، برغواطة) مرورا بالفتح العربي لبلاد المغرب ، دون تفرقة بين احتلال المغرب على أيدي سادة الغرب ، وتحول أهل المغرب الى الاسلام ، وأثر هذا الفتح الذى غير تاريخ المغرب كلية .

وتأخذ الحقة الثانية : عنوان المغرب الامبراطورى ، وهى التى تبدأ بقيام الدول المستقلة وينتهى بالقرن الرابع عشر الميلادى أى بعد فترة من قيام دولة بنى مرين ؛ معطيا تركيزا خاصا على الربط بين الاسلام والتجارة فى القرن التاسع الميلادى ، ثم عرض فى عجالة لتاريخ الدول المستقلة ، عارجا بعد ذلك على محاولتى المرابطين والموحدين ؛ ناعنا اياهما بمحاولة لوحدة ، ناهيا هذه الحقة بأخفاق هذه المحاولة .

أما الحقة الثالثة فهى بعنوان : توازن الانحطاط ، وتبدأ حيث تنتهى الثانية ، وتنتهى مع بداية القرن التاسع عشر الميلادى ، ويناقش فيها بقية الفترة التى عاشتها الدول المستقلة ، وتعرضت فيها لمحاولات صليبية من الغرب المسيحي ؛ فاستجابت للتحدى حيناً ، ثم ما لبثت أن شغلت بالصراع فيما بينها حتى أنهكت قواها فى الوقت الذى زادت فيه قوى الغرب ومحاولاته الاستيلاء على المغرب .

والحقة الرابعة اختار لها عنوان : المغرب الاستعماري ؛ حاول فيها نوضيح المحاولات الاستعمارية للمغرب من دول الغرب المسيحي ؛ فصمد المغرب أول الأمر ، ثم ما لبث أن انتصر المستعمر ، ثم يعرض بعد ذلك لمحاولات التجديد فى المغرب بعد تحرره من الاستعمار .

ويبدأ المؤلف الحقة الأولى بمناقشة آراء المستشرقين التى دارت حول البحث عن أصول سكان المغرب ، من أمثال س. قزال J. C. Gsell وبالوت L. Balaut ، ج . كامبس G. Camps وغيرهم ، مبينا أن

مصادر هؤلاء هي النقوش الليبية الفقيرة في معلوماتها ، والتي مازالت رموزها لم تتك حتى الآن ؛ الى جانب المصادر الأدبية اليونانية واللاتينية ذات التلميحات صعبة التفسير ، والننى تهتم بكل ما هو غريب وعجيب في التاريخ ؛ لأن كتابها أدياء وليسوا مؤرخين ، وكذلك الأماكن الأثرية التي لم تلق عناية كافية للحفاظ عليها فحسب ؛ وانما عانت من عبث وتدمير الكثيرين من الهواة في هذا المجال

أما ما يقدمه علماء الآثار ، وعلماء السلالات البشرية ، وعلماء اللغات من معلومات لتدبير السبيل في البحث عن أصول البربر ؛ فليست سوى فرضيات جزئية مسكوك في صحتها . ويخرج من نقد المسشرقين ومناقضته لآرائهم بفرضية عن أصل البربر لا تعتمد على براهين من النوع الأثرى الذى لا يدحض ؛ والذى يطالب به كل من خاضوا في بحث هذا الأمر ؛ ولنا الخيار في أن نقبل هذا الافتراض ، واما أن ننظر المستقبل وما بآنى به من اكتشافات تكون لنا عوناً على كتابة تاريخ المغرب في هذه الفترة .

ثم يأتى للفترة التى شملت فترات حكم الفينيقيين واليونانيين والرومان والفاندال والبيزنطيين ، ليؤكد أن هذه الفترة كاملة غير معروفة لنا الا من خلال الأدب اليونانى اللاتينى الذى اهتم في الدرجة الأولى بانحاكمين ولبس بالمحكومين ؛ فيكون ما ذكر فيها تاريخاً للقرطاجين وغيرهم من الذين احتلوا شمالى أفريقيا ، ولبس تاريخاً للبربر ، وبذلك يكون البربر موضوعاً لمعرفة غير مباشرة ؛ اذ يجرى التعرف عليهم من خلال القرطاجيين الذين نعر عنهم أعين الرومان ؛ أما المصدر الوحيد في هذه الفترة الذى يمكن أن يمدنا بمعلومات موضح القليل من الحقيقة هو التشريع الرومانى الذى يسمح بنكوبن فكرة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجزء المحتل من البلاد — وهو الشريط الساحلى — وليس كلها ، وعلى وجه التحديد حياة كبار الملاك ورجال الكنيسة وبعض المدن في هذا الجزء ، أما الساكن الأصلي ، الذى لم يجد وسيلة حتى الآن للتعرف عليه أو لسماع حكمه عن الدور الحضارى الذى قامت به روما ، وتغنى به كل من كتبوا عن هذه الفترة بحماس لا حد له ، فيمكن تخيله في المراعى وفي أعالي الجبال أو محاصراً في الأوراس ، أو مطارداً فيها وراء الحدود الرومانية ؛ باذلاً كل ما في وسعه من جهد ليدفع ما عليه من المحصول كل حول .

ويجادل المؤلف المستشرقين الذين كتبوا عن هذه الفترة — وهم جميعا في نظره أصحاب رؤية استعمارية ، وهم جميعا يسقطون في تفسيراتهم أوضاعا لاحقة على الماضي الذى لا يملكون عليه دليلا — لأنهم عملوا على تأكيد « أن شعب البربر مجرد تماما من كل مبادرة » وأن كل ما عرفه أهل المغرب من زراعة وصناعة ، وكل مقومات الحضارة حتى الأبجدية نفسها جاءتهم من خارج الحدود ، وليست من ابتكارهم ، ويحاول اثبات — دون دليل وثائقي ، وباستخدام المنطق وحدة ، ورفض كل ما قدمته مصادر تلك الفترة ؛ لأن مؤلفيها قليلي الاطلاع على حد تعبيره — أن الضرورة هي التى ألجأت سكان الشمال الافريقي ودفعتهم الى معرفة الزراعة ، ونتاج الحبوب بكثرة ، وعلى اسننتاجه هذا يمكن أن تقاس بقية الأشياء الأخرى من صناعة ومقومات الحضارة .

ويأتى المؤلف الى تحول البربر الى المسيحية مؤكدا انتشارها بينهم بدرجة كبيرة حتى غدت افريقية أرض المسيحية الممتازة أكثر حتى من اسبانيا أو بلاد الفال من نواح كثيرة ؛ وأن الاكتشافات الأثرية والكنيائية تشهدان بتعميق العاطفة المسيحية لدى البربر ؛ الا أنه يناقض نفسه ثانية عندما أراد أن يقدم تفسيراً لحدث آخر ؛ فيقول بأن المسيحيين كانوا نادرين في الشمال الافريقي ، ويخلص في النهاية الى القول بسطحية التنصير وبنية المسيحية في افريقية ، وأن المسيحية بها جذبت إليها جموعا من البؤساء سعيا وراء تبرير تعاستهم ، وأن المسائل الدينية لم تكن تحتل مكانا عظيما في السياسة الامبراطورية وفي حياة الناس اليومية أيضا .

ويرى أن تحول البربر الى المسيحية ، وبخاصة العقيدة الدونانية مسألة وطنية بحتة ، وصيغة من الثأر ضد الأغنياء والامبراطورية ، ويؤكد أن كل ثورة أو تمرد قام به سكان الشمال الافريقي كانت للأسباب الاقتصادية وحدها ، وأن نجاح بعض هذه الثورات — ولو الى حين — ارضاء الميول العلمانيين والديمقراطيين من اليسار المعادى للاستعمار ؛ وكان الوطنية كانت وقفا على هذين الحزبين دون غيرهما . ثم يقر في النهاية بحقيقة أن الثورات في تلك الفترة لا تدل على وعى قومى أو اجتماعى .

ثم يجيء الفاندال الفاتح الجديد ليطرد المستعمر القائم ، دون أن يغيروا في البنى القائمة ، أو يزيدوا من رقعة الأرض ؛ اذ عاشوا في نفس

نطاق افريقيا الرومانية الا أن فائدهم غير من أفراد الطبقات ؛ إذ كان على الأريوسية ؛ فصادر أملاك كبار الملاك وكبار رجال الكنيسة لمصالح أنصاره ؛ فاستعدى عليه الأخيرون رجال الدين في بيزنطة ؛ فضغط هؤلاء بدورهم على الإمبراطور البيزنطى حتى أرسل جيوشه واسترد المغرب ، ومن ثم أعاد للكنيسة أملاكها ، وللملاك الرومان اقتاعايتهم ، وورث البيزنطيون نفس ما ورثه الفاندال عن الرومان بما فيه المصاعب السياسية والعسكرية . ويؤكد المؤلف أن انظار رجال الدين في افريقية ما انجبت الى بيزنطة الا لأن مصالحهم الاقتصادية قد أضرت ، دون أى اعتبار للخلاف المذهبى ، وأن جوستينيان ما استرد الشمال الافريقى الارغبة فى ارضاء رجال الدين داخل عاصمته ، دون أسباب أخرى .

ويصور المؤلف العرب — دون ذكر اسمهم صراحة — بأنهم جماعة من البشر اتحدوا فى دولة حول عقيدة ، وعندما وصلوا الى المغرب ليخلفوا السابقين ، ويتصرفون فيه كوارثين استخدموا نفس مناهج المستعمرين السابقين ، وحاكوا البيزنطيين ؛ فعانوا نفس المصاعب مع السكان الأصليين . ويرى فى الفتح العربى للمغرب انتصارا سهلا على الحكام الأجانب ، وفتح عسير للمحكومين أهل البلاد الأصليين ، وأن العرب احتلوا نغس الجزء الذين سيطر عليه المستعمرون السابقون ، وأن هذا النغس لم يبتكر جديدا ، ولم يكن له أثر فى تشكيل سكان البلاد حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، وانتهى الأمر بالعرب الى التحديدات التى وضعها السابقون .

ولم يقدم لنا المؤلف أسبابا لطول مدة الفتح العربى للمغرب (الذى سماه فتحا عسيرا) سوى شدة وصلابة أهل البلاد ؛ مع أن طول مدة الفتح كان لها فى اضطراب أمور الخلافة مرات سببا ، وفى طبيعة سكان بلاد المغرب وجغرافية أرضه آخر ؛ فالنظام القبلى الذى هو طبيعة البربر والذى يحاول المؤلف جاهدا نفيه عنهم ، وعدم وجود حكومة مركزية تسقط البلاد بسقوطها كان ضمن أسباب طول مدة الفتح ؛ فكلما قضى العرب على قوة قبيلة ظهرت لهم أخرى وهكذا دواليك . أما قوله بأن العرب احتلوا نفس الجزء الذى سيطر عليه المستعمرون السابقون ؛ فقد بعد بذلك عن الحقيقة ؛ فقد انساب العرب فى البلاد وتوغلوا فى الصحارى ، وعاشوا بين السكان الأصليين واختلطوا بهم ، واليهم يرجع الفضل فى ربط الصحراء بالشمال الافريقى ، وقصة الفتح تملأ المصادر التاريخية ؛ وإن كان المؤلف يشكك فى

صدق هذه المصادر . أما قوله بأن العرب عاملوا البربر نفس معاملة الذين استعمرها المغرب قبل ذلك من استغلال واذلال ؛ فماذا هو قوله في مشاركة البربر للعرب في فتح بقية المغرب وفي فتح الاندلس ، بضمهم جنودا في الجيش العربي على أن يكون لهم ما للعرب ، وعليهم مثلهم ، وأن يكون من البربر قادة للجيش من أمثال طارق بن زياد وغيره . أما أن يتخذ المؤلف من شواذ ولاية المغرب أساسا للقياس ؛ فقد عمم القليل على الكثير ، وحاد عن موضوعية المؤرخ . فان كان عبيد الله بن الحجاج أساء ، فان غيره من الولاة كثير أحسنوا معاملة البربر ، وعاملوا من أسلم منهم على قدم المساواة مع العرب الفاتحين ، ومن أمثال هؤلاء عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار ، وحسان ابن النعمان ، واسماعيل بن عبيد الله الذي أسلم على يديه الكثير من البربر والذي كان حسن السيرة بشهادة غالبية المؤرخين المعاصرين .

ويستخلص المؤلف أن الغنيمة وحدها كانت غاية العرب الفاتحين ، ولم يكن في النفوس سوى المال هدفا ؛ فلم يكن المغرب أكثر ثراء من مصر آنذاك ، وقد بدأ فتح المغرب في عهد الخلفاء الراشدين حيث كانت الحمبة الدينية ما زالت في النفوس ، وشارك كثير من الصحابة في هذا الفتح ؛ فاذا كانت الغنيمة واحدا من الأسباب أو غاية بعض العرب الذين شاركوا في الفتح ؛ فلم تكن كل الأسباب أو غاية كل العرب كما يريد المؤلف أن يصور .

وبشكك المؤلف بالمنطق وليس اعتمادا على المصادر في وصول عقبة بن نافع الى المحيط الاطلنطي أو بحر الظلمات رغم ما ذكرته المصادر التاريخية لهذه الفترة من حصار قبائل محسودة التي تقطن هذه النواحي لعقبة وجيشه ، وما أنقذه من هذا الحصار الا قبائل بنى عبد الواد الزناتيين الذين تحولوا الى الاسلام من قبل ، ثم يناقض نفسه فيما أراد أن يشكك فيه حين تعرض لغزوات موسى بن نصير قائلا بأن سلك نفس الطريق الذي سلكه عقبة حتى طنجة ، ودن الثابت جغرافيا أن طنجة بالمغرب الأقصى المطل على المحيط .

ولم يكتف المؤلف بالتحشيك في المصادر التاريخية لهذه الفترة وسابقتها ولاحقها أيضا ، وإنما أمدنا بمعلومات استنتاجية ليس لها في المصادر التاريخية وجود حين يذكر أن هجوما بربريا مضادا أكره زهير بن قيس البلوي على اخلاء القيروان بعد أن استردها من الزعيم البربري كسيلة وقضى على قوة البربر المناهضة آنذاك ، فكيف يعتمد على المصادر التاريخية التي

كتبت عن الفتح العربي للمغرب ، وهى من وجهة نظره متأخرة وتستند الى احاديث شفهوية من أصول متنوعة ، كما أن كتب المغازى فهى من عمل فقهاء اهتموا فقط بالشروط التى اعترفت بها الولايات الاسلام . ولذا فهو ينتظر النصوص البيزنطية التى لم تنشر بعد — رغم أنه شكك فى صدق هذه النصوص عندما تحدث عن المغرب تحت حكم البيزنطيين — لأنها اصدق قولا .

أما عن تحول البربر الى الاسلام ؛ فانه يرى أن الفتح العربى كان فى جوهره اعترافا بالسيادة ، ولم يعن لا الدخول فى الاسلام ، ولا التقريب بين الحاكمين والمحكومين ، وأن المسألة منذ بدايتها سياسية أكثر منها دينية ، ويلمح بأن البربر اجبروا على اعتناق الاسلام بقوله « ان الاسلام لا يقر الاكراه فى اعتناق الدين ، وبخاصة فيما يتعلق بأهل الكتاب ، وبالمقابل فان الوثنيين هم مجبرون على الاهتداء بالدين ؛ فاعتناق الدين الجديد أخذ شكل الاعتراف بالسيادة » (٢) وان العرب لم يقدموا جديدا لم يكن لدى البربر الا طريقة خاصة لعبادة الله ليس مؤكدا أن البربر أحسوا بكل جدتها . ويرى العرب مستعمرين كالفانдал والبيزنطيين لم يتركوا أثرا فى المغرب (٤) ، ثم يناقش نفسه ليقول ثانية « ان التأثير العربى كان يتجاوز كثيرا تأثير البيزنطيين » (٥) .

ويعتقد أن المغرب استعاد استقلاله الذاتى بثورذ البربر سنة ١٢١ هـ / ٧٤٠م على ولاية بنى أمية تحت راية الانشقاق الدينى ، دون أن يحدد لنا مفهوم هذا الاستقلال — فهو يستعمل اصطلاحات حديثة كثيرة لم يكن لها وجود فى العصور الوسطى بنفس المعنى فى العصر الحديث . مثل هذه الكلمة وكلمة اليسار وغيرهما — فهى الاستقلال الذى يعنيه هو التخلص من سيطرة الخلافة الأموية ، وذلك لم يكن هدف الثورة وقت قيامها (١) أم التخلص من الوالى العربى ، واستبداله بأخر من أهل البلاد ؟ ؛ فإذا كانت الأولى فقد صدق ، أما اذا كانت الثانية فكيف يكون المغرب إستعاد استقلاله ؟ وكان على رأس دولة الأغلبية فى افريقية والتابعة للخلافة

• (٣) ص ٧٧ — ٧٨

• (٤) ص ٩٠

• (٥) ص ٩٢

• (٦) أنظر بعده

حاكم عربى وادارة عربية ، وفي تاهرت بالمغرب الأوسط عبد الرحمن بن رستم الفاريسى ، وفي فاس بالمغرب الأقصى الادارسة وحولهم القرويين والاندلسيين من العرب ؛ وفي برغوطه بأقصى المغرب الأقصى فى بلاد تامسنا دولة صالح بن طريف غير معروف النسب .

ولأن المؤلف يرى أن المغرب استعاد استقلاله بهذه الثورة التى أنهى بها الحقبة الأولى من تاريخ المغرب ؛ فانه يعتبر كل ما سبقها من قرون وما تحتويه من أحداث هو تاريخ الأجنب على الأرض المغربية .

وننتقل مع المؤلف الى الحقبة الثانية التى تمتد من القرن التاسع الى الرابع عشر الميلادى لنرى المغرب الامبراطورى كما يسميه ؛ اذ يرى أن هذه الحقبة تشكل وحدة لأن ارادة امبراطورية ظهرت الى الوجود ؛ فقد اتحد المغرب لأول مرة — بعد تجارب عديدة — تحت اسم فكرة دينية . فهل كانت هذه وحدة كما يسميها أم قبيلة زادت العقيدة الدينية من قوتها ، وقضت على العصبية القبلية بين بطونها ، والمنافسات بين زعمائها ؛ ففرضت سيطرتها على بعض القبائل الأخرى ، وضمت اليها مضاربها ، دون أن تذوب هذه القبائل مع بعضها ، وظل ولاء الأفراد للقبيلة وحدها ، دون احساس بوجود الدولة القائمة . وما أن انتقلت الخلافة الفاطمية الى مصر وأخذت معها الكثير من قبيلة كتامة حتى عاد المغرب الى طبيعته من تفكك وحياة قبائل كل تتبع زعيمها وتكون لها امارة بالسيطرة على قطعة من الأرض لمدة قرن من الزمان ، ثم أعادت قبيلة أخرى الكرة تحت فكرة دينية جديدة ومذهب مالكي لتسود على المغرب الأقصى وبعض المغرب الاوسط وتنطلق الى الاندلس ، وبعد قرن تضعف قوتها ليزيحها ائتلاف قبائلى آخر ويحل فى السلطة محلها ، ويضم مساحات وقبائل أخرى لسلطانه ؛ لتكون له نفس النهاية على أيدي قبائل داخل الدولة اشدت ساعدها ؛ فأقامت لها دولا على اجزاء من دولة الموحدين ، وحاول أحد سلاطين واحدة من هذه الدول أن يضم بقية الدول المستقلة لطاعته ويفرض الوحدة على المغرب من جديد ؛ فباءت المحاولة بالفشل ، ولم تقم لها قائمة مرة أخرى .

ويرجع المؤلف فشل المغرب فى وحدته الى عدم وجود مذهب اسلامى مستقيم الصحة ، ومحدد بوضوح — وليس الى النظام القبلى التصادمى فى المغرب بما فيه من ولاء للقبيلة وليس للدولة القائمة آنذاك ؛ وعدم ارتباط

بالأرض نفسها لأن طبيعة الكثير من قبائله حياة البداوة بما فيها من طعن و نرحال - فهو يرى أن المذاهب الاسلاميه جربت جميعها الواحد بعد الآخر من خارجي وزيدى وشيبي ومالكي وموحدي ، رغم أنه من الثابت- تاريخيا أن القبائل البربرية لم نقم دولا الا بعد الثقاف بعضها أو واحد منها حول مذهب ديني ثم نفرض الوحدة بعد ذلك على غيرها من القبائل ؛ فتكون- محاولة الوحدة كما بسميها . فقد كانت دولة الخوارج في باهرت على المذهب الاباضي وقبيلتي نفوسة وبنى بفرن الزناتيين ، ودولة الخوارج في سجماسة على المذهب الصغرى وقبيلة مكناسة ودولة الادارسة على المذهب الزيدى وقبيلة أودية ثم مفراوة ، والدولة الفاطمية على المذهب الشيعي وقبيلة كتامة ثم صنهاجة الشمال ، ودولة المرابطين على المذهب المالكي وصنهاجة اللثام ، دولة الموحدبن على المذهب الموحدى وقبيلة مسمودة .

والمؤلف يرى أنه مضطر الى تمييز المستوى السياسى الدينى لأنه المستوى الذى يمكن أنه يحظى بدراسة أفضل بالوثائق ، وهذه الوثائق من وجهة نظره لن تقدم - على أحسن وجه - الا نصف الحقيقة ؛ لأن التاريخ الاقتصادى هو وحده المنسر ، وهو متعذر النحقيق فى الوقت الحالى لعدم وجود مصادر تتناول الجانب الاقتصادى .

ولاهتمام المؤلف بالاقتصاد على اعتبار أنه المنسر الوحيد للتاريخ - فى منهج المؤلف - فإنه يربط بين التجارة ونشر الاسلام فى المغرب بصلة ونيقة (٧) ، ويصور الدولة المستقلة (برغواطه ، الادارسة المردارين ، المرستمين ، الاغالبية) على أنها مستعمرات تجارية . ويعرض لتاريخ كل منها فى ايجاز وبطريقته ، فزعم أن ادعاء صالح بن طريف يرجع لايدولوجية تنسيعة ، على عكس ما ذكرته المصادر من أنه كان خارجيا عمل مع ميسرة المطغرى فى نورته على ولاة بنى أمية ، وهى الثورة التى يقول المؤلف عنها أنها اتخذت من الخارجية ستارا دينيا وايدولوجية ، ويركز على أن رغبة البربر فى استيعاب الاسلام كانت مشروطة بأن يكون هذا الدين متمشيا مع ماضيهم ، وان تعديل صالح بن طريف فى سور القران وشرائعه وأحكامه دون نبذه كية هو فى حد ذاته اعتراف بقيمة الاسلام التحضيرية . وكعادته يشكك.

(٧) حقيقة أن الاسلام انتشر على أيدى انتجار المسلمين فى وسط افريقيا وغربها وليس فى الشمال الافريقى كما تصور المؤلف .

نقل خلافتهم الى محبر ، ويرجع هذا الانتقال الى مصر الى عدم قدرة الخلفاء الفاطميين على تنظيم البلاد أو استمالتها الى قضيتهم ، وهذا أحد الأسباب وليس كلها ، فمن المعروف أن غاية الفاطميين كانت مركز الخلافة العباسية ، ومصر المرحلة الأولى في هذا الانجاز ؛ لذا أرسل الخليفة الفاطمي الأول أولى حملاته على مصر ، ولم يمض على قيام دولته بالمغرب سنون قليلة . أما السبب الثاني فكان لعدم ثقة الفاطميين في البربر ، والدليل على ذلك ما قام به المهدي من بناء لعاصمة دولته — المهديية ، وفرضتها زويلة ، فكان يعزل بين الناس ومعاشهم وأموالهم بالليل ، وبينهم وبين البنائهم وذويهم بالنهار لعدم ثقته بهم ، كما أن المؤلف يقدم سببا واحدا لفشل الفاطميين في توحيد المغرب ، وهو نوازن القوتين الفاطمية والأموية ، وهو بالفعل سبب رئيسي وان كان هناك غيره من الأسباب أحدها طبيعة سكان البلاد ونظامهم القبلي ، واعتماد الفاطميين على قبيلة كتامة وهي التي لم تكن بالكثرة العددية حتى تتمكن من اخضاع المغرب لطاعة الفاطميين ، ووقوف بعض القبائل في وجه الفاطميين فأقلقت راحتهم طوال مدة اقامتهم في المغرب ، وعلى رأس هؤلاء المعارضين كانت قبيلة زنانة التي تحالفت مع الأمويين في الاندلس عندما لم تستطع أن تقف وحدها في وجه الفاطميين . سكان الصراع بين البتر والبرانس أو زنانة وصنهاجة الذي حاول الكثير من المؤرخين ايجساد تفسير له .

فقد رأى فريق من المؤرخين أن سبب هذا الصراع كان اجتماعيا واقتصاديا، ويرى آخرون أنه صراع عرقي بين جماعات البتر وهم البدو الرحل ، والبرانس وهم أهل الزراعة والاستقرار ، وعلى رأس هذا الفريق المستشرق الفرنسي جوتييه ، أما الفريق الثالث فيرى أنه الاختلاف في الجنس بين هذين الجذمين هو أصل الصراع ، وأن الصراع قديم قدم وجودهما في المغرب ؛ ويقدم لنا مؤلف الكتاب تفسيراً جديداً لهذا الصراع على أنه صراع بين أهل التجارة ، وأصحاب الزراعة ، واعتقد أنه في ذلك أصاب كبد الحقيقة .

ويقدم لنا المؤلف تفسيراً جديداً وان كان بعيداً عن الصواب لمشاركة البربر في حروب الاندلس في فترة الاضطراب التي انتهت بسقوط الخلافة الأموية وبقسيم الاندلس الى خمس عشرة امارة ؛ بأنه كان أنقلاماً للمغاربة من الأمويين الذين لم يستطيعوا توحيد المغرب ، ولا تركوا هذه المهمة

الافريقية ، وأن حقد البربر الذى يفصلهم عن سكان المدن والصحابة كان عنصرا حاسما فى تطور هذا الوضع . فالحقيقة أن البربر كانوا مضطرين الى المشاركة فى هذا الصراع ؛ اذ انتقلت منهم أعداد كبيرة الى الاندلس منذ الفتح ، أما الأهم منهم الذين استجلبهم المنصور بن أبى عامر كجند مرتزقة لضرب العصية العربية بالاندلس ، والاعتماد عليهم فى حروبه ضد النصارى ، وفريق ثالث خرج الى الاندلس فارا بنفسه نتيجة الصراع على السلطة ؛ فلم يكن أمام كل هؤلاء سبيل آخر للعودة الى شمالى افريقيا بعد ان عاشوا فى الاندلس . وذاقوا نعيمها وتمتعوا بخيراتها ، كما أنهم كانوا جندا مرتزقة يخدمون مع من يدفع لهم ، فلا انتقام هنا ولا حقد .

ولقبام دولة المرابطين يقدم تفسيرا جديدا ؛ فىرى فى أبى عمران الفاسى ، وعبد الله ابن ياسين صاحبى الفضل الأول فى قيام دولة المرابطين سلسلة من الدعاء للملكيين العباسيين الذين أرادوا تطويق المذهب الشيعى من الجناحين ، السلاجقة فى الشرق والمرابطين فى الغرب ردا على ما قام به الفاطميون من قبل بتطويق الدولة العباسية باستمالة الفرس وأهل افريقية ؛ فىرى أن هناك ارتباط بين قيام دولة السلاجقة ونظرائهم المرابطين ، وعلاقة بين قيام الدولتين والخلافة العباسية التى بعثت دعواتها فى أرجاء العالم الإسلامى ؛ فنجدت مهمتهم فى قيام هاتين الدولتين .

وان كان بعد ذلك يرى قيام دولة المرابطين والموحدين من بعدهم من أجل السيطرة على الطرق التجارية عبر الصحراء التى تربط الأطلس بالبحر المتوسط ؛ فان صدق هذا القول على المرابطين الذين كانوا هم دسهاجة اللتام ، الذين كانوا يسبطرون قبل قيام دولتهم على الطرق التجارية عبر الصحراء ؛ فجعاعتهم الدعوة الدينية ممثلة فى عبد الله بن ياسين ، واستطاعوا بها إقامة دولة ؛ فمدوا سلطانهم على بقية طرق التجارة التى عرفوها من قبل . وخبروا أهميتها ، وما تدر من خير وفير ؛ فكيف يصدق ذلك على الموحدين الذى اعتمد ابن تومرت عليهم وهم قبائل عاشت بعيدا عن هذا المجال التجارى فى جبال الأطلس .

وعلى نفس النهج الذى من أجله ألف الكتاب الذى بين أيدينا ، يدافع عن مسلك ابن تومرت وممارسته وعنفه السياسى ، يدافع عنه كأحد أبناء الشمال الإفريقى ، اذ يرى البعض أن عنفه هذا لكونه بربريا أما مؤلفنا فيرجع

ذلك للأثر اللاشعوري للسياسة الباطنية حتى على أولئك الذين يحاربونها ، وأن نزعة العنف السياسى فى مطلع القرن السادس الهجرى كانت خاصة العصر ؛ فدمع بذلك العصر كله بالعنف حتى يجد لعنف ابن تومرت مبررا . حتى أنه يشبه التنظيم فى بداية دولنى المرابطين والموحدين بالتنظيم الإسلامى الأول على عهد الرسول ﷺ ، ويربط بينهما ويقارن ، ويخلص من ذلك أن الثلاثة كانوا على نسق واحد .

أما فى تفسيره لسقوط دولة المرابطين الذين قلدوا السلاجقة ؛ فكان بسبب عدم وجود الظهير الاحتياطى الكبير لديهم الذى كان يملكه السلاجقة ممثلا فى الشعوب التركية النى كانت تستطيع امدادهم بالجنود وقت الحاجة ، وكذلك لعدم قدرة المرابطين على تشكيل مذهب مالكى جديد ، أما بالنسبة لدولة الموحدين فيقدم لسقوطها أسبابا أنتها من داخلها ، وأخرى سقطت عليها من خارجها ، وكلاهما تفسير مقنع يتفق والحقائق التاريخية .

وتستمر المحاولة فى اقامة امبراطورية مغربية بعد سقوط دولة الموحدين ، حتى تقضى هذه الفكرة نجبتها تماما بعد المحاولة الأخيرة التى أقدم عليها اسلطان المرينى أبو عنان ولم يكتب لها النجاح ، ويظل المغرب مقسما الى دول تتصارع فيما بينها فتضعف قوتها ، ويصبح ههما مشاكلها الداخلية ولا تمد اليد الى مسلمى الاندلس فى الوقت الذى كانت فيه دول الغرب تقوى وتزدهر . وهذه هى الحقبة الثالثة التى تستمر قرنين من الزمان يمثلان حقبة من الانحطاط العميق التى كانت واحدة من أكثر حقبة التاريخ المغربى مغزى ، فكانت الدول المغربية من الضعف الذى استدعى التدخل الخارجى من جانب البرتغاليين والأسبان ، ثم كانت الصحوة على أيدي السعديين الذين حققوا أول نصر على البرتغاليين ، وان كان ذلك بفضل مساعدة خارجية وليس بقوتهم الذاتية وحدها ، فرأى المؤلف أن هذه الحقبة هى مرحلة توازن الانحطاط .

ثم تكون الحقبة الرابعة والأخيرة ليكون فى أولها الانحطاط الكامل ، إذ استعمر المغرب كله ، وهذه الحقبة تبدأ — من وجهة نظر المؤلف — فى مطلع القرن التاسع عشر أى أن التاريخ الحديث للمغرب يبدأ من ذلك الوقت وليس قبله كما اصطلح على ذلك مؤرخو الشرق والغرب جميعا ، وتنتهى بطرد المستعمر ، وبحث سكان المغرب عن شخصيتهم وعن أنسب الطرق

للحكم والقضاء على التخلف الاجتماعى والثقافى والاقتصادى ، ويتطلب ذلك
مساعدة الماضى ، ومن أجل هذه المسألة كان تأليف الكتاب هذا .

وبعد هذا العرض السريع للكتاب ككل والتركيز على ما هو جديد فيه
اتفقا أم اختلافا ؛ فلا يفوتنى أن أكرر بل وأركز على الجهد الكبير الذى
بذله المؤلف والتحليل الموضوعى لكثير من الأحداث ، الا أنه أراد أن يصبغ
كل ذلك بصبغة اقتصادية ؛ فصدق معه ما كان الاقتصاد سببه .

ويجب أن انوه أن الكتاب ليس للقارئ العادى ؛ اذ لا يذكر المؤلف
الكلم الكافى من تفاصيل الأحداث ، وانما القليل الذى يستخدمه فى التندليل
على فكرة أو رأى يريد أن يسوقه ، أو للرد على بعض المستشرقين بدون أن
يذكر قولهم ؛ فعلى من يريد أن يتابع ما جاء فى الكتاب أن يكون لاحداث تاريخ
المغرب عارفا ، وبآراء المستشرقين عالما . ولذا فان هذا الكتاب يعتبر محاولة
فنظير من عل للأحداث رغبة فى استنباط نظريات توضح الاستمرارية
والانقطاع فى تاريخ المغرب ؛ متخذا من تركيب السكان وتطورهم الاقتصادى
والاجتماعى الخيط الذى يصل بين الفترات المتتالية من تاريخ المغرب حسب
تقسيمه لهذا التاريخ .

أما هذا التقسيم الجديد الذى قدمه لنا لم أجد له مبررا ؛ فانه يتناسى
الأحداث العظام ، ويضعها ضمن حقبة دون أن يجعلها بداية لفترة كما اتفق
المؤرخون على ذلك ، وكأنه — كما أراد أن يؤكد — لم يكن لها تأثير على
تاريخ المغرب ؛ فدفع تحول المغاربة الى المسيحية ثم الى الاسلام ضمن
الحقبة الأولى ، فان المغاربة وقفوا موقف المتفرج من المسيحية ، ومن انخذها
منهم عقيدة فليس عن ايمان ، وانما لتبرير تعاسة واقعة عليه ، أما الاسلام
والعرب الفاتحين فلم يقدموا شيئا أكثر مما قدم الذين سبقوهم فى حكم المغرب ،
وأن الفتوح العربى للمغرب لم يغير فيه شيئا أو يؤثر .

الا أن الأحداث التاريخية وما ذكره المؤرخون يؤكد غير ما يستنبطه
المؤلف دون سند تاريخى أو وثائقى . فقد غير الفتوح العربى فى بنى المجتمع
المغربى اقتصاديا واجتماعيا وروحيا ؛ فقد شارك بعض البربر فى فتح بقية
شمالى افريقيا وكذلك فى فتح الاندلس ونالوا من الغنائم نصيبا ، وفتحت
أبامهم آفاقا جديدة ؛ فكان فتح الأندلس لهم بابا الى مجالات اقتصادية جديدة ،

كما كان لهذا الفتح أثره على تركيب السكان وكثافتهم في شمالي افريقيا ؛ فقد شارك الكثير منهم في الفتح ، واستقروا في البلاد الجديدة ، وهجر آخرون المغرب ليلحقوا بهم سبقوهم ، ويبدو أن عدد هؤلاء كان كبيرا يتضح ذلك مما ذكره الجغرافيون وأصحاب معاجم البلدان من أسماء مدن وقرى أندلسية تحمل أسماء قبائل بربرية . وكان لهذا التحول الى الاسلام اثره في التنظيمات السياسية والادارية والاقتصادية أيضا .

ولا ادري لماذا اخنار ثورة البربر على الخلافة الأموية بداية لحقبة جديدة في تاريخ المغرب ، هل لأنها غيرت في تاريخه أكثر مما غير الفتح العربي وتحول البربر الى الاسلام ؟ ويرى أن البربر اتخذوا من الدين ستارا لثورتهم رغبة في الاستقلال عن الخلافة ؛ فيؤكد ذلك أن البربر تأثروا بهذه العقيدة وتفاعلوا معها وفهموا أحكامها ، وعرفوا ما لهم وما عليهم — على عكس ما يقول المؤلف بأن العرب لم يقدموا للبربر سوى طريقة جديدة لعبادة الله — ولم تكن هذه الثورة على الخلافة من أجل الاستقلال وانما قامت في وجه وال تعسف مع البربر ، فذهب وفد منهم الى الخليفة الأموي شاكين أملا في تغيير هذا الوالى وليس خلعا لطاعة الخليفة ، فلما لم يجدوا من الخليفة آذانا صاغية ، ثاروا في وجه الوالى الأموي ، في وقت كانت الخلافة الأموية فيه آيلة الى الزوال ، وشغلت بمشاكلها في الشرق عن هذا الجزء من العالم الاسلامي . وذلك واضح تماما في الرسالة التي نركها ميسرة المطعري زعيم ثورة البربر هذه الى الخليفة هشام بن عبد الملك عندما ذهب اليه شاكيا ، فلم يستطع لقاءه فترك له الرسالة بكل ما جاء من أجله عليه يدلح الأمر ، ولكن الخليفة أهمل في الاصلاح ؛ فكانت الثورة التي يحملها المؤرخون أكثر مما تحتل من التفسير .

ويحاول العروى في كتابه الرد على ما كتبه المستشرقون ، وبخاصة الفرنسيين منهم والذي يسميهم المؤرخين الاستعماريين ، ويحاول المؤلف أن يكشف عن الروابط العضوية التي تربط المغرب بحوض البحر المتوسط وليس بالشرق أو الغرب ، ومحاولة منه للتغيب في الماضي واستتراء لأحداثه ، ونقد كل ما كتب فيه ، لأنه يريد أن يعبر عن علاقة مغرب اليوم المقلق على مستقبله الحريمس على دعم هذا المستقبل بربطه بماضيه الحقيقي .

ويرى المؤلف وجود عاملين هامين هما القاعدة الأساسية لكل من

يحاول دراسة تاريخ المغرب أولهما : ان هذه المنطقة لم تدخل التاريخ وهى نصف متوحشة كما يحاول أن يصورها المؤرخون ، وأن النظام القبلى والبداءة لا تمثل النظام الأساسى الذى لا يتغير فى حياة سكان المغرب ؛ وانما هو نظام دفاعى يلجأ اليه المغرب فى ظروف محددة ، ويتخلى عنه عندما تناسبه الظروف . وهذه الفكرة شغل المؤلف نفسه كثيرا بالدفاع عنها ؛ رغم ما أكده المؤرخون قدامى ومحدثين بأن النظام القبلى هو أساس حياة سكان المغرب حتى اليوم ، وأن الولاء للقبيلة أولا وقبل الدولة حتى فى القرن العشرين .

وثانيهما فيتمثل فى دعوته الى كتابة التاريخ المحلى لسكان المغرب الاصليين ، والتطور التاريخى للمنطقة ، بغض النظر عن تاريخ المستعمرين . روماننا كانوا أم بيزنطيين ، عربا أم فرنسيين .

ويرى المؤلف أن تقسيم دراسة التاريخ المغربى كما حاول الأوربيون على ثلاث فترات زمنية توازى الفترات المأخوذة بها فى دراسات التاريخ الأوربى لا تتفق مع واقع المغرب ؛ ولذا قسمه هو الى أربع فترات حسب نتاج المؤرخين المعاصرين لهذه الفترات . وفى رأيه أن هذا التقسيم يمثل فى حد ذاته رؤيا جديدة للتاريخ المغربى ، تختلف عن تقسيمه الى قديم ووسيط وحديث ، وكذلك عن كتابة التاريخ بذكر العائلات الحاكمة واحدة بعد الأخرى دون أية دراسة للتطور السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى يعكس تطور المجتمع ككل . ويحاول المؤلف فى هذه الدراسة أن يبين المغرب ككيان حيوى رابطا ما بين الفترات التى مر بها المغرب مبينا العلاقات الأساسية فى تطور المجتمع مرحلة تلو أخرى وركز تركيزا كبيرا على أهمية ومركزية الدور الذى يلعبه العامل الاقتصادى فى تطور المجتمعات عبر التاريخ .

ويقدم العروى لنا تقسيما جديدا للمغرب غير ما اصطلح عليه غالبية المؤرخين والجغرافيين المسلمين وكذلك المحدثين ؛ فيقسمه الى منطقة الساحل والمغرب الأوسط الموازية لها ثم الصحراء أى حسب خطوط العرض ، وليس حسب خطوط الطول الى افريقية أو المغرب الأدنى ، والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى ؛ ويركز على الدور الذى لعبته الصحراء فى تاريخ المغرب ، وربما كان اختياره لهذا التقسيم لأنه على حسب تعبيره لأن جزءه الاول يشمل مدن السواحل التى لم يتعدها المستعمر ، وبقيت محوره ، وانتقلت

فيه السيطرة من حاكم الى آخر ، أما المغرب الأوسط ؛ فهو المغرب الحر
بلد الممالك المغربية ، ثم الصحراء التي كانت دائما منطقة نزاجع المغربي
ومركز الخطة الدفاعية .

ويرى العروى أن المغربي تبني الاسلام كأداة أيديولوجية للوصول الى
الاستقلال الذاتي ، وتبدو هذه الظاهرة — عنده — أكثر وضوحا في دور
أيديولوجية الخوارج بشمالى افريقيا ؛ وان كان المؤلف يعيب على المؤرخين
المحدثين الذين يسميهم استعماريين أنهم يسقطون أحداث لاحقة على
أخرى سابقة ؛ فكيف له أن يعرف أن البربر نبوا الاسلام للوصول الى
الاستقلال ويستدل بثورة الخوارج ، رغم تحول الكثير من البربر الى
الاسلام قبل ظهور حزب الخوارج الى الوجود بالمرّة .

أما أهم اضافات المؤلف فانه التركيز على ضرورة استيعاب حقبة
المنافسة والصراع الاقتصادي والاجتماعي في الفترة منذ بداية الاسلام وحتى
سقوط الموحدين على أنه صراع بين أصحاب التجارة والزراعة وليس بين
البدو والمستقرين كما افترض جوتبيه وردد ما قاله الكثيرون الذبن أنوا من
بعده .

وأخيرا فقد اعتمدت وبصفة أساسية على الترجمة العربية للكتاب ،
وهي التي قام بها د. ذوقان قرقوط . والحق أقول انها سيئة للغاية في
أسلوبها ولغتها العربية أولا ، وما زادها سوءا عدم الملم المترجم التام بكل
شئ عن تاريخ المغرب ، وذلك واضح كل الوضوح في ترجمته لأسماء
المدن والأعلام والقبائل ، وحتى أسماء مؤلفي المصادر الأصلية عن تاريخ
المغرب ، وكفى على ذلك مثلا أنه يترجم Ibn Idhari أي ابن عذارى
المؤرخ المغربي المشهور ، وصاحب واحد من عمد مصادر تاريخ المغرب
القليلة ؛ ابن الظهري . وقد اضطررتي سوء الترجمة هذا الى الرجوع الى
الكتاب بلغته الأصلية ؛ مما يحذوني أن أنوه بل وأطالب بأن من يقوم
بترجمة أحد الكتب لا بد وأن يكون متخصصا في نفس المجال حتى يقدم الفائدة
المرجوة من الترجمة . وبذلك يحترم نفسه ، ولا يستهين بالقارئ .

رسائل الدكتوراه والماجستير المسجلة في
التاريخ الإسلامى والوسيط بالجامعات المصرية

- ١ - أحصاء قوائم رسائل الدكتوراه والماجستير حتى بداية سنة ١٩٨٢م .
- ٢ - الرسائل التى نوقشت بين يناير ١٩٨٢ حتى أبريل ١٩٨٣ .

قائمة برسائل الماجستير والدكتوراه
التي نوقشت في كلية الآداب جامعة عين شمس
في موضوعات التاريخ الاسلامى والوسيط

أولا : رسائل الماجستير

- ١ - أحمد ابراهيم الشريف : مدينتنا مكة والمدينة في العصر الجاهلى وعصر الرسول (١٩٦٣ م) .
- ٢ - أحمد عبد الله الحسن : تحقيق الذيل التام على دول الاسلام للسخاوى
- ٣ - أحمد محمود عدوان : علاقة الدولة الحمدانية بالدول الاسلامية المجاورة .
- ٤ - توفيق سلطان اليوزبكي : الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية .
- ٥ - جمال جرجس يوسف : القضاء في العصر المملوكى تحقيق مخطوطة ابن قاضى شهوية نزهة النظار في قضاء الأمصار (١٩٧٢ م) .
- ٦ - حسين عبد الرحيم سليمان : تحقيق مخطوطة الاعلام بتاريخ أهل الاسلام (١٩٧١ م) .
- ٧ - اقبال موسى : الحسبة في المغرب مع بعض النصوص الخاصة بها (١٩٦٨ م) .
- ٨ - توفيق جاسر أحمد : الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام (١٩٧٤ م) .
- ٩ - عبد الجليل عبد الرحمن : العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرنين ٢ ، ٣ هـ . (١٩٦٨ م) .
- ١٠ - فتحى عبد الفتاح ابو سيف : الدولة الطاهرية ، التاريخ السياسى والحضارى (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) (١٩٧٦ م) .

- ١١ - محسن سعيد رضا : الكيسانية وأثرها السياسي والاجتماعى في المجتمع العراقى فى القرن ٣ هـ . (١٩٧٠ م) .
- ١٢ - عبد المحسن رمضان : اشتوريس لحدى القوى المسيحية الاسبانية المناهضة لولاة الأندلس . (١٩٨٠ م) .
- ١٣ - _____ : ملوك غرناطة والخلافة الفاطمية ٢٩٦ - ٣٦٢ هـ .
- ١٤ - _____ : الحسبة فى الدولة الفاطمية الى آخر ق ٤ هـ .
- ١٥ - _____ : الفن الحربى الملوكى .
- ١٦ - محمد فيصل الكيسى : تحقيق الحدائق الوردية فى قبة الأئمة الزيدية لأبى عبد الله الزيدى .
- ١٧ - محمود رزق محمود : العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى موقعة حطين .
- ١٨ - _____ : غرناطة فى عهد ملوك بنى زيرى ٤٠٣ - ٨٣٠ هـ .
- ١٩ - فائق نجم مصلح : طبقات المجتمع العراقى فى العصر العباسى الأول (١٩٧١ م) .
- ٢٠ - عبد القادر طلبمات : تحقيق مخطوطة دولة الانابكة ملوك الموصل لابن الأثير الجزرى (١٩٦٨ م) .
- ٢١ - عبد الله مهدى الخطيب : الحكم الأموى فى خراسان (١٩٧١ م) .
- ٢٢ - محمد سعيد جمال الدين : دولة الاسماعيلية فى ايران مع تحقيق، تاريخ جهانكشماى . (١٩٦٧ م) .
- ٢٣ - عمر محمود سعيد : نظم بلاط العباسيين ورسومه فى بغداد (١٣٢ - ٦٥٦ هـ) . (١٩٧٢ م) .
- ٢٤ - مراجع عقيلة : قيام دولة الموحدين . (١٩٦٨ م) .
- ٢٥ - رافت عبد الحميد محمد : سياسة قسطنطين الأول تجاه الفرق المسيحية (١٩٧٠) .

ثانياً : رسائل الدكتوراه

- ١ — _____ : فهارس شيوخ العلماء في الأندلس .
- ٢ — _____ : الفرق الدينية في الدولة العباسية ق ٣ ، ٥
- ٣ — _____ : أصول خراسان الحضارية .
- ٤ — _____ : العراق في عصر بني بويه دراسة اجتماعية .
- ٥ — عبد العظيم خطاب : تنصوة الغورى ونهاية للدولة الملوكية .
- ٦ — محمد أمين صالح : التنظيمات الحكومية لتجارة مصر في عصر المماليك الجراكسة . (١٩٧٠ م) .
- ٧ — _____ : التنظيمات العسكرية المغولية الأولى .
- ٨ — عماد الدين خليل : امارة بنى أرتق .
- ٩ — عبد القادر طليمات : المؤرخ ابن الأثير (١٩٦٧ م) .
- ١٠ — أكرم العمري : موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٩٧٣ م) .
- ١١ — اقبال موسى : دور قبيلة كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية (١٩٧٢ م) .
- ١٢ — أحمد إبراهيم الشريف : تاريخ الحجاز في القرن الأول والثاني (١٩٦٧ م) .
- ١٣ — توفيق الميوزبكي : تاريخ أهل الذمة في العراق ١٧ — ٢١٨ هـ . (١٩٧٢ م) .
- ١٤ — مراجع عقيلة : سقوط دولة الموحدين (١٩٧١ م) .
- ١٥ — شفيق جاسر : العلاقة بين المسلمين والمسيحيين بالقدس منذ الفتح الاسلامي حتى الحرب الصليبية . (١٩٨٠ م) .
- ١٦ — فضيلة الشامي : الخلفية العقائدية لحركة القرامطة وتأثيرها الاجتماعي والسياسي في المجتمع الاسلامي زمن الخلافة العباسية (١٩٧٣ م) .
- ١٧ — محمد سعيد رضا : العراق في عصر بني بويه . دراسة اجتماعية على ضوء التطورات السياسية (١٩٧٤ م) .
- ١٨ — رأفت عبد الحميد محمد : اثناسيوس . . فكرة وعلاقته بالدولة البيزنطية ، (١٩٧٤) .

- ١٩ - أحمد محمد عدوان : الوضع الاقتصادي في مصر في عهد الدولة المملوكية الأولى (١٩٧٢م) .
- ٢٠ - فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر الفاطمي (١٩٧٢م) .
- ٢١ - فابد محمد عاشور : التنظيمات العسكرية المغولية والمملوكية . (١٩٧٢م) .

قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التي نوقشت في كلية البنات جامعة عين شمس بمصر في موضوعات التاريخ الإسلامي والوسيط

أولا : رسائل الماجستير :

- ١ - سهام مصطفى أبو زيد : الحسبة في مصر الإسلامية من الفتح العربي الى نهاية العصر المملوكي .
- ٢ - سعدية محمد على : أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي .
- ٣ - فاطمة مدسطفى عامر : ابن عبد الحكم المؤرخ المصرى (١٩٦٨م)
- ٤ - نادية هاشم حسن : تاريخ مدينة الطائف في العصر الجاهلى وصادر الاسلام (١٩٧٦م) .
- ٥ - الطالب محمد يوسف : البحرين من الفتح الإسلامى حتى سقوط القرامطة .
- ٦ - راوية محمد حسن : الدولة العامرية وأثرها في علاقات الأندلس الخارجية .
- ٧ - سميرة مختار الليثى : حركات الزنادقة في العصر العباسى الأول ١٣٢ - ٢٣٢ هـ .
- ٨ - علية عبد السميع الجنزورى : الحياة السياسية في بلاد الشام في القرن الخامس هـ وأثرها في قدوم الحملات الصليبية (١٩٦٩م) .
- ٩ - جوزيف نجيب أسعد : الحركة الأدبية والعلمية في الفسطاط منذ الفتح العربى الى نهاية الدولة .

- ١٠ - أحمد التكرورى : تحقيق نيل الابتهاج بتطريز الديباح .
- ١١ - رمزية الاطرقجى : بناء بغداد فى عصر أبى جعفر المنصورى (١٩٦٧م) .
- ١٢ - زينب عبد المجيد رضوان : المنهج العلمى عند ابن خلدون .
- ١٣ - هيام عبد الرحمن سليم : شرق افريقيا عند الكتاب العرب من القرن ٣ هـ - ١٠ هـ .

ثانيا : رسائل الدكتوراه :

- ١ - علية عبد السميع الجنزورى : اماره الرها الصليبية (١٩٧٢م) .
- ٢ - نادية هانم صقر : الاتجاهات السياسية والحضارية فى الدولة العباسية فى عصر الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) .
- ٣ - جهادية الفرغولى : التنظيمات الادارية والعسكرية فى العراق والشام فى العصر العباسى الأول ١٣٢ - ٢٣٢ هـ . (١٩٧٤م) .
- ٤ - رمزية محمد الاطرقجى : الحياة الاجتماعية فى مدينة بغداد فى العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) (١٩٧٢م) .
- ٥ - سميرة مختار الليثى : حركات الشيعة فى العراق والحجاز فى العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) (١٩٧٥م) .
- ٦ - فاطمة مصطفى عامر : تاريخ أهل الذمة فى مصر الاسلامية منذ الفتح العربى الى نهاية الدولة الفاطمية .
- ٧ - سهام محمطفى أبو زيد : الدعوة الاسماعيلية ومدى نجاحها فى مصر للاسماعية .

قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التى نوقشت
فى كلية دار العلوم جامعة القاهرة فى
موضوعات التاريخ الاسلامى والوسيط

أولاً - رسائل الماجستير :

- ١ - حامد غنيم أبو سعيد : قيام دولة بني بويه .
- ٢ - حسن عبد الجواد : دولة الادارسة بالمغرب قيامها وتطورها الى منتصف القرن ٣ هـ .
- ٣- رمزية عبد الوهاب : تجارة الخليج العربي وأثرها في الحياة الاقتصادية الاقتصادية في منطقة الخليج والعراق منذ صدر الاسلام الى نهاية القرن الرابع هـ .
- ٤ - سليمان العسكري : التجارة والمدحة في الخليج العربي في العصر العباسي .
- ٥ - سوسن محهد نصر : القاضى الفاضل وصلاح الدين عماد الوحدة المصرية الشاملة . (١٩٧٦م) .
- ٦- طاهر راغب حسين : دور القبائل العربية بالمغرب العربي منذ المسيرة الهلالية حتى نهاية حكم الموحدين .
- ٧ - عبد الاعلا الطحاوى : عز الدين بن عبد السلام ومدرسته السياسية (١٩٨١م) .
- ٨ - عبد الحلیم عويس : دولة بني حماد في الجزائر .
- ٩ - عبد الحميد الدسوقي : موقعة عين جالوت وأثرها في حماية الحضارة العربية .
- ١٠ - عبد الخالق حسين : القضاء في مصر في عهد الفاطميين والأيوبيين (١٩٧٥م) .
- ١١ - عبد الرحمن سالم : التاريخ السياسي للمعتزلة حتى نهاية ق ٣ هـ (١٩٧٤م) .
- ١٢ - عبد الرحمن حسين العزاوى : المنهج التاريخى عند المؤرخين العراقيين في العصر البويهى (١٩٧٩م) .
- ١٣ - عبد الرؤوف عون : تاريخ فن الحرب ونظمها عند المسلمين حتى نهاية القرن ٢ هـ .
- ١٤ - عبد المجيد أبو الفتوح : العلاقة بين سلاجقة آسيا الصغرى والدولة الأيوبية . (١٩٧٦م) .

- ١٥ - عبد الوسيط الأوليس : القتال في الاسلام .
- ١٦ - على محمود : هجرة القبائل العربية الى الشام واثرها .
- ١٧ - على محمود عمر : دولة الظاهر برقوق وأسرته في مصر .
- ١٨ - نهى عبد الجليل : التنظيم الاسلامى والأرض الزراعية حتى قيام الخلافة العباسية وصلده بتقنين الاقتصاد الاسلامى .
- ١٩ - محمد البلتاجى : منهج عمر بن الخطاب فى التشريع .
- ٢٠ - محمد عبد الحميد : الدولة الغزنوية .
- ٢١ - محمد عبد الله النخيرة : انتشار الاسلام فى شرق افريقيا وبنهاضة الغرب له (١٩٧٦ م) .
- ٢٢ - محمد عيسى صابر : الدولة الرسنمية بالمغرب قيامها وتطورها (١٩٧٥ م) .
- ٢٣ - محمد محمود عامر : دولة بنى عدوان فى ديار بكر .
- ٢٤ - محمد يوسف البحرأوى : العلاقة السياسية والاقتصادية بفى الهند والخلافة العباسية ،
- ٢٥ - أحمد كامل محمود : الحاكم بأمر الله وعصره (١٩٨١ م) .
- ٢٦ - مصطفى عباس : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن الاسلامية فى العراق حتى نهاية القرن ٣ هـ .
- ٢٧ - نصارى فهمى : الدولة الزيادية فى اليمن .
- ٢٨ - وفاء جاعوس : بنو منقذ ودورهم فى زحف الحروب الصليبية (١٩٧٩م) .
- ٢٩ - يونس السامرتى : السفارات فى التاريخ الاسلامى حتى قيام الدولة العباسية .
- ٣٠ - السيد محمد أبو العزم : الأثر السياسى والحضارى للمالكية فى شمال افريقيا حتى قيام دولة المرابطين .
- ٣١ - عبد العزيز حمادى : الحركة الفكرية والتعليمية بمدينة مراكش منذ تأسيسها حتى سقوط دولة الموحدين واثرها على المراكز الثقافية الاسلامية جنوب الصحراء ٤٥٤ - ٦٦٨ هـ .

- ٣٢ — عسر عمران أحمد : دولة الاشراف السعديين في مراكش (١٩٨١ م) .
- ٣٣ — طاهر راغب حسين : الدولة الحفصية بالمغرب .
- ٣٤ — محمد عبد الحميد الرفاعي : الدولة الفزنوية (١٩٧٥ م) .
- ٣٥ — شفيق ابراهيم أبو الخير : الحركات السياسية والمذهبية في الخليج العربي من منتصف القرن ٣ هـ الى نهاية القرن الرابع (١٩٧٧ م) .

ثانياً — رسائل الدكتوراه :

- ١ — حسن عبد الحميد : العلاقات بين مصر والادارة الحكومية في عصر الولاة من الفتح العربي الى قيام الدولة الطولونية .
- ٢ — سوزى محمد : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في اتابكيات الجزيرة العراقية وعلاقتها السياسية في القرن ٦ هـ .
- ٣ — سوسن محمد نصر : الاخوة الملوك الثلاثة اولاد العادل الأيوبي .
الكامل والمعظم والأشرف (١٩٧٧ م) .
- ٤ — عبد الخالق حسن : النظم القضائية في مصر في عصر سلاطين المماليك (١٩٨١ م) .
- ٥ — فهمى عبد الجليل : النزعة القبلية وتأثيرها في التاريخ الاسلامى حتى نهاية القرن الثانى الهجرى (١٩٧٨ م) .
- ٦ — محمد التاجى : مناهج التشريع الاسلامى في الدين في القرن ٢ هـ .
- ٧ — محمد عبد الحميد الرفاعي : الحركات الاستقلالية في ابران في انقرنين ٣ ، ٤ هـ . (١٩٧٩ م) .
- ٨ — محمد عبد الله النقيرة : التأثير الاسلامى في السودان الغربى من بداية القرن ٦ هـ الى القرن ١٠ هـ . (١٩٨٠ م) .
- ٩ — محمد محمود عامر : المماليك المصريون الذين لمعوا في ميدان الفكر (١٩٨٠ م) .
- ١٠ — على محمد عمر : دولة الظاهر برقوق وأسرته في مصر (١٩٧٨ م) .
- ١١ — ياسين التكريتى : الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة ٦٤٨ هـ — ٥٦٤ هـ (١٩٧٨ م) .

- ١٢ - رمزية عبد الوهاب : تجارة الخليج العربى آثارها فى الحياة الاقتصادية فى منطقة الخليج والعراق من صدر الاسلام حتى
نهاية القرن الرابع الهجرى (١٩٧٩ م) .
- ١٣ - حسين عبد الحميد جبر : التيارات المذهبية والنزعات التحريرية وأثرها فى توجيه السياسة فى مصر من منتصف القرن الثالث الى منتصف القرن الرابع هـ (١٩٨١ م) .

**قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التى
نوقشت فى كلية الآداب جامعة الاسكندرية
فى موضوعات التاريخ الإسلامى والوسيط**

أولاً - رسائل الماجستير :

- ١ - حلمى محمد سالم : السلطان الظاهر برقوق حياته ونشأته فى الديار المصرية .
- ٢ - أحمد جمال الدين عامر : الخلافة العباسية فى مصر .
- ٣ - محمد صالح قزاز : الحياة السياسية فى مصر فى العصر العباسى الأخير .
- ٤ - عماد الدين خليل : عماد الدين زنكى حياته وأعماله السياسية وعظمه العسكرية .
- ٥ - حسان قوام السامرى : المؤسسات الادارية فى الدولة العباسية خلال الفترة من ٢٤٧ - ٢٣٤ هـ .
- ٦ - نبيل عبد المنعم : نشأة الشيعة الامامية .
- ٧ - فوزى نجيب حسين : صلاح الدين وتوحيد الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين .
- ٨ - كاظم ابراهيم : المآذن ونشأتها وتطورها فى آتار العراق الى نهاية العصر السلجوقى .
- ٩ - أحمد طه ابراهيم : تونس منذ سقوط الدولة الصنهاجية الى قيام الدولة الحفصية .
- ١٠ - رشيد عبد الله الجميل : دولة الاتابكة فى الموصل بعد عماد الدين زنكى (١٩٦٨ م) .

- ١١ - أسهمت غنيم : العلاقات السياسية بين الدولتين البيزنطية والفاطمية
• (١٩٦٩م)
- ١٢ - أحمد عبد الحميد خفاجى : موقف مصر من الحجاز فى عصر المماليك
الجراكسة (١٩٦٨م) •
- ١٣ - محمد عبد العال أحمد : دولة بنى الأيوب فى اليمن (١٩٦٨م) •
- ١٤ - ابراهيم سليمان محمد : نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول
• (١٩٦٩م)
- ١٥ - عدلى أحمد فريد : السلطان قنصوه الفورى وعصره (١٩٧٠م) •
- ١٦ - محمد بدوى موسى : قصور القاهرة فى عصر دولة المماليك البحرية •
- ١٧ - صلاح عبد الهادى : المجتمع العراقى فى العصر العباسى الأول
- ١٨ - محمد عبد المنعم صالح : صقلية والنورمانيين وعلاقتهم بالمسلمين
• (١٩٧١م)
- ١٩ - أحمد الطوخى : مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة •
- ٢٠ - نبيلة حسن محمد : انتشار الاسلام فى السودان الغربى من القرن
الخامس حتى القرن التاسع هـ (١٩٧١م) •
- ٢١ - أحمد القساوى : البحرية الاسلامية فى مصر والشام بعد عهد صلاح
الدين الأيوبى •
- ٢٢ - ناجلا محمد عبد الغنى : العلاقات بين البندقية ومصر فى عهد الدولة
الملوكية الأولى •
- ٢٣ - مصطفى الحناوى : جماعة الاستبارية ودورها فى الصراع الصليبي
الاسلامى فى عصر الحروب الصليبية •
- ٢٤ - ابراهيم خميس : جماعة الفرسان الداوية وعلاقتهم السياسية
بالمسلمين فى الشرق الأدنى حتى نهاية حكم دبلح
الدين •
- ٢٥ - على محمد الماضى : المغرب فى عصر السلطان أبى عثمان المراكشد •
- ٢٦ - فريال قطان : نشأة الرق التركى والصقلبى فى المجتمع الاسلامى حتى
نهاية القرن الرابع هـ •
- ٢٧ - محمد توفيق بلبع : آثار السلطان قايتباى فى الاسكندرية •

- ٢٨ — بشر محمد عبد الله : ظاهرة الحرب في المجتمع الجاهلي .
- ٢٩ — جوزيف نسيم يوسف : حملة لويس التاسع الدليبية على مصر .
- ٣٠ — محمد كمال أبو راية : الأمومة عند العرب في الجاهلية .
- ٣١ — حسن رجب : المدرسة المنصرية .
- ٣٢ — كمال الدين درويش : محمد بن عبد الوهاب والدعوة الوهابية .
- ٣٣ — ثابت اسماعيل الرواس : العراق في العصر الأموي من الناحية السياسية والاجتماعية الادارية .
- ٣٤ — محمد سلیمان أيوب : تاريخ الدولة في عهد مملكة مروى .
- ٣٥ — كاظم اراهيم : تخطيط مدينة الكوفة في المصادر التاريخية الأثرية خاصة في العصر الأموي .
- ٣٦ — مصطفى الكنانى : العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الأدنى (٤٨٧ — ٥٦٧ هـ / ١٠٩٥ — ١١٧١ م) .
- ٣٧ — محمد محمد السيد : تاريخ القبائل العربية في مصر في عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية (١٩٧٧ م) .
- ٣٨ — عبد المنعم سلطان : الهجرة الاسلامية في العصر الفاطمي (١٩٧٥ م) .
- ٣٩ — محمد عبد المنعم صالح : صقلية النورماندية وعلاقتها بالمسلمين (١٩٧١ م) .
- ٤٠ — درويش نخيلى : فتح الفاطميين في الشام في مرحلته الأولى ٣٠٨ — ٣٩٢ هـ (١٩٧٢ م) ٦
- ٤١ — محمود سعيد عمران : حملة حنادى برين الصليبية على مصر ٦١٥ — ٦١٨ هـ / ١٢١٨ — ١٢٢١ م (١٩٧٣ م) .
- ٤٢ — وسام عبد العزيز فرج : العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية في عهد ليو الثالث الايسورى .
- ٤٣ — أسامة زكى زيد : العلاقات بين الصليبيين واسماعيلية الشام في القرن الثانى عشر (١٩٧٤ م) .
- ٤٢ — محمد عبد العزيز محمود : تطور الخط العربى في عصر الأيوبيين والمماليك (١٩٧٤ م) .
- ٤٥ — رضوان محمود رضوان : الجيش في عصر الدولة الفاطمية (١٩٧٤ م) .

- ٤٦ — أحمد محمد الطوحي : نشأة مملكة غرناطة الاسلامية في اسبانيا
(١٩٧٤م) .
- ٤٧ — مصطفى عمرو : القبائل العربية في المغرب في عصر الموحدين وبنو
مرين .
- ٤٨ — يوسف سلامة : امارة الكرك ودورها السياسي والاقتصادي في
منتصف القرن السادس الهجري حتى منتصف
القرن السابع هـ . (١٩٧٥م) .
- ٤٩ — فايز نجيب اسكندر : فن الحرب والقتال لدى الصليبيين والمسلمين
(١٩٧٦م) في الشرق الأدنى في النصف الأول من
القرن السابع هـ .
- ٥٠ — حمدي عبد المنعم حسين : دولة بني يوسف المرابطي في المغرب
والاندلس .
- ٥١ — كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ مدينة بننسية الاسلامية حتى
سقوطها في أيدي المرابطين .
- ٥٢ — وديع فتحى عبد الله : العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية
والخلافة العباسية في عهد الامبراطور دينوفيلوس
٨٢٩ — ٨٤٢م / ٢١٤ — ٢٢٨ هـ .
- ٥٣ — عبد الهادي التازي : جامع القرويين من الناحيتين التاريخية والأثرية
(١٩٧٥م) .
- ٥٤ — حسين محمد عطية : امارة أنطاكية الصليبية وعلاقتها السياسية
بالدول الاسلامية المجاورة (١٠٩٨ — ١١٧١م)
(٤٩٢ — ٥٦٧ هـ) .
- ٥٥ — حيدر محمد حسن : أبو عبد الله البكري حياته وآثاره العلمية
والتاريخية ٤١٣ — ٤٩٦ هـ .
- ٥٦ — سر الختم سيد فرج : الامارات العربية في ساحل شرق افريقية في
العصور الوسطى .
- ٥٧ — حسن عبد الوهاب حسين : قيسارية تحت حكم اللاتين (١٩٨٢م) .

ثانياً - رسائل الدكتوراه :

- ١ - عبد القادر محمد دسوقي : النظريات الاسلامية .
- ٢ - عثمان اسماعيل : الجديد في حضارة شمالة الاسلامية على ضوء المقابر الأثرية .
- ٣ - جوزيف نسيم يوسف : لوبس التاسع في سوريا ١٢٥٠ - ١٢٥٤ .
- ٤ - عبد الغنى ابراهيم : السلاجقة والصليبيون في موقعة ملازجرد ١٠٧١م / ٤٦٥هـ .
- ٥ - سليمان اسحق ابراهيم : تاريخ التعليم في فلسطين في عهد سلاطين المماليك .
- ٦ - عبد الهادي التازي : دولة الموحدين في المغرب وامريقيا والاندلس .
- ٧ - محمد المناوي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي (١٩٦٨م) .
- ٨ - محمد سليمان أيوب : حربة تاريخها وحضارتها (١٩٦٨م) .
- ٩ - رضوان البارودي : الحياة الحربية في عصر الدولة المرينية .
- ١٠ - جابر سلامة : السياسة الخارجية للملك بنى أيوب في الشام بعد صلاح الدين .
- ١١ - جميل حرب محمود : الحجاز واليمن في العصر الأيوبي .
- ١٢ - عبد المنعم عبد الحميد : المجتمع المصري في عصر الدولة الفاطمية .
- ١٣ - فايز نجيب اسكندر : مملكة ارمنية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى .
- ١٤ - مصطفى الكنانى : العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الاسلامى .
- ١٥ - مصطفى أبو ضيف : القبائل العربية في الاندلس حتى نهاية الخلافة الأموية .
- ١٦ - محمد أحمد سيد أبو الفضل : شرق الأندلس في عصر دولة الموحدين .
- ١٧ - نبيلة محمد السيد : ابن تغرى بردى مؤرخا للمغرب والاندلس وموقفه من معاصريه دراسة مقارنة في المصادر .
- ١٩ - اسامة زكى زيد : بارونية صيدا علاقاتها السياسية بالمسلمين في الشرق الأدنى في عصر الحروب الصليبية .

- ٢٠ — درويش محمود : مصادر المقریزی فی کتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء .
- ٢١ — محمود عونى : العلاقات السياسية بين الغرب اللاتينى والمغرب الاسلامى فى عصر الحروب الصليبية .
- ٢٢ — محمود عبد العزيز : الخط العربى فى الأندلس وتطوره .
- ٢٣ — حسن أمين : تاريخ العراق فى العصر السلجوقى .
- ٢٤ — محمود زكى : الممالك الاسلامية فى الهند .
- ٢٥ — يوسف درويش : تاريخ منطقة شرق الأردن فى عصر دولة المماليك الأولى .
- ٢٦ — رشيد الجميلى : ابارة الموصل فى العصر السلجوقى ٤٨٩ — ٥٢١ هـ .
- ٢٧ — عدلى حسن فريد : انهيار وسقوط دولة المماليك الجراكسة بمصر والشام .
- ٢٨ — ابراهيم شريف : مفرج الكروب بأخبار بنى أيوب لجمال الدين بن واصل .
- ٢٩ — جمال الدين الشيبان : تحقق مفرج الكروب لابن واصل .
- ٣٠ — محمد أحمد عبد المولى : القوى السنية فى المغرب منذ قيام الدولة الفاطمية حتى قيام الدولة الزيدية .
- ٣١ — أحمد عبد الحميد خفاجى : السلطان الظاهر جقمق وعصره ١٤٣٨ — ١٤٥٣ هـ (١٩٧٢ م) .
- ٣٢ — اسمت غنيم : العلاقات السياسية بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الاسلامية (١٩٧٣ م) (٨٢٧ ر ٩٩١ هـ / ٢١٢ — ٣٥٠ هـ) .
- ٣٣ — بدرى محمد مهد : تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير (٥٥٢ — ٦٥٦ هـ / ١١٥٧ — ١٢٥٨ م) .
- ٣٤ — حسن طه ابراهيم : بنو غانية فى المغرب والأندلس .
- ٣٥ — محمد عبد العال أحمد : اليمن فيما بين الدولة الأيوبية والفتح العثمانى — دراسة فى العلاقات السياسية الخارجية (١٩٧٦ م) .

٣٦ — محمد عبد المنعم صالح : صقلية النورمانية وعلاقتها بالمسلمين
٥٤٨ — ٦٤٨ هـ / ١١٤٥ — ١٢٥٠ م (١٩٧٥م) .

قائمة رسائل الماجستير والدكتوراه التي نوقشت
في كلية الآداب جامعة القاهرة في
موضوعات التاريخ الإسلامى والموسيط

أولا — رسائل الماجستير :

- ١ — ابراهيم حسن سعد : الجيش في عصر سلاطين المماليك (١٩٧٣ م) .
- ٢ — ابراهيم على طرخان : نظام الانتطاع في العصور الوسطى الى نهاية
عصر الايوبيين .
- ٣ — أحمد الياس حسين : الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل
القرن ١٦ كما عرفها الجغرافيون العرب .
- ٤ — أحمد جمال الدين حسن : الخلافة العباسية في مصر .
- ٥ — أحمد رمضان أحمد : شبه جزيرة سناء في القرنين ١٢ ، ١٣ م
(١٩٧٤ م) .
- ٦ — أحمد عبد الرحمن الغوابى : عبد الرحمن الناصر ونظام الحكم في عصره
(٣٠٥ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م) .
- ٧ — أحمد عبد الكريم سليمان : الحياة الزراعية في مصر في العصور الملوكى
(١٩٧١ م) .
- ٨ — أحمد مختار العبادى : قيام الدولة المملوكية الأولى في مصر .
- ٩ — أمينة على البيطار : موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين
حتى أواخر القرن الخامس هـ .
- ١٠ — أيمن فؤاد سيد : المذاهب الدينية في بلاد اليمن وأثرها على الجانبين
العقلى والسياسى في ق ٥ ، ٦ هـ .
- ١١ — بدر عبد الرحمن محمد : النشاط التجارى في مصر في العصر الفاطمى
(١٩٧٧ م) .

- ١٢ — تقى الدين عارف : علاقة صقلية بدول البحر المتوسط الاسلامية من
الفتح العربى حتى نهاية الغزو النورمندى .
- ١٣ — جابر سلامة المدبرى : الزراعة فى مصر فى العهد الأيوبى والملوكى
(١٩٧٤م) .
- ١٤ — جرجس ميخائيل : السلطان حقوق وحالة مصر فى عصره (٨٤٢ —
٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ — ١٥٤٣م) . (١٩٧٤م) .
- ١٥ — جهادية عبد الكريم : الحياة السباسبية ومظاهر الحضارات فى مدينة
سامراد خلال القرن ٣ هـ .
- ١٦ — حافظ حمدى : الدولة الخوازمية وعلاقتها بالمغول .
- ١٧ — حامد غانم زيان : حلب فى العصر الزنكى ٤٨٨ — ٥٧٩ هـ .
- ١٨ — حسن أحمد متولى : عبد العزيز بن مروان وحضارة مصر فى عصره .
علاقات الفاطميين بالدول الاسلامية وخادسة
- ٢٠ — حسين محمد سليمان : ثقيف منذ ظهور الاسلام حتى سقوط الدولة
الأموية . (١٩٧٢م) .
- ٢١ — حمدان ابراهيم عبد الله : الامامة فى العراق الاسلامية حتى ق ٣ هـ .
- ٢٢ — فوزى نجيب حسين : صلاح الدين وتوحيد الجبهة العربية زمن
الصليبيين .
- ٢٣ — قاسم عبده قاسم : نهر النيل وأثره فى الحياة المصرية فى عصر سلاطين
المماليك . (١٩٧٢م) .
- ٢٤ — محمد على حيدر : الدولة الساسانية نشأتها وتطورها وحضارتها
حتى سنة ٣٣١ هـ .
- ٢٥ — محمد فتحى الشاعر : اقليم الشرقية فى عصر سلاطين الأيوبيين
والمماليك . (١٩٧٦م) .
- ٢٦ — محمد فتحى عثمان : الثغور الجنوبية الشامية الى نهاية عهد المتوكل .
- ٢٧ — محمد محمد أمين : السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ١٢٤٠ —
١٢٤٩م .
- ٢٨ — محمد محمد الشيخ : الجهاد الدينى ضد الصليبيين حتى سقوط
الرها . ١٠٩٧ — ١١٤٤م .

- ٢٩ - محمد محمود أحمد : الحياة الزراعية في العصر الفاطمي الى نهاية عهد
المستنصر بالله (٣٥٨ - ٨٤٧ هـ) (١٩٧٧ م) .
- ٣٠ - محمد محمود أبو زيد : أثر النيل في الحياة المصرية حتى منتصف القرن
٤ هـ .
- ٣١ - محمد حسين الزهراني : الزراعات في العصر البويهى السلجوقى
(٣٣٤ - ٥٩٠ هـ / ٩٤٥ - ١١٩٣ م) .
- ٣٢ - محمود اسماعيل عبد الرازق : السياسة الخارجية للاغلبة (١٨٤ -
٢٩٦ هـ / ٨٨٠ - ٩١٢ م) .
- ٣٣ - ليلى القاسمى : الفيوم في العصور الوسطى بين القرن ١٢ ، ١٦ م .
- ٣٤ - فيصل السامر : حركة الفرنج واثرها في تاريخ الدولة العباسية
(ب - ت) .
- ٣٥ - محمود ابراهيم شلبية : علاقات المغول بسسلطنة المالك في مصر
والشام . (ب - ت) .
- ٣٦ - محاسن لبيب : الأزياء في التصوير في العصرين السلجوقى والمغولى .
- ٣٧ - محمود أحمد زيور : العلاقات بين الشام ومصر في العصرين الطولونى
والأخشيدي .
- ٣٨ - محمد بركات البيلى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اشبيلية في
عصر بنى عباد (١٩٧٨ م) .
- ٣٩ - محمد توفيق خفاجى : أثر الأتراك السياسى والاجتماعى في اشبيلية
في القرن ٣ ، ٤ هـ .
- ٤٠ - محمد حسين عيد الزيدى : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المكوفة
منذ نشأتها حتى نهاية الحكم الأموى .
- ٤١ - محمد زينهم عزب : الادارة المركزية للدولة الاموية (١٩٨١ م) .
- ٤٢ - محمد صالح القزاز : الحياة السياسية في العراق في العصر العباسى
الأخير .
- ٤٣ - محمد عبد الرحيم غنيمه : مقدمة لتاريخ التعليم الجامعى في الاسلام .
- ٤٤ - محمد عبد الفتاح غلبان : ترامطة العراق في القرن ٣ ، ٤ هـ .
- ٤٥ - نظير حسان سعداوى : نظام البريد في الدولة الاسلامية .

- ٤٦ - نعمت أبو بكر : المنابر الخشبية في مصر حتى العصر المملوكى .
- ٤٧ - مواهب عبد الفتاح ابراهيم : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في دولة السلاجقة على عهد السلطان ملكشاه .
(١٩٨٢) .
- ٤٨ - فوزى حمدي القيس : الفروسية في العصر الجاهلى .
- ٤٩ - هادى نهر : معارك نور الدين محمود بن زنكى في عصر الحروب الصليبية .
- ٥٠ - عبد الرؤوف عفيفى : الأشرف خليل بن قلاوون .
- ٥١ - عبد العزيز محمد عبد الدايم : امارة طرابلس الصليبية في ق ١٢ م .
- ٥٢ - سامية مصطفى : العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الاموية (١٩٨٠ م) .
- ٥٣ - سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان في العصر الوسطى
- ٥٤ - سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية .
- ٥٥ - سلام شافعى محمد : اهل الذمة في مصر في العصر الفاطمى الأول .
(١٩٧٦ م) .
- ٥٦ - سليمان اسحق عطية : تاريخ التعليم في فلسطين منذ الفتح العربى حتى آخر عصر الأيوبيى .
- ٥٧ - سليمان عبد الغنى مالكى : مرافق الحج والخدمات المدنية في الأراضى الاسلامية المقدسة من السنة ٨ هـ حتى سقوط الدولة العباسية . (١٩٧٨ م) .
- ٥٨ - السيد الباز العرينى : تحقيق نهاية الرتبة في طاب الحسبة لعبد الرحمن الشيرازى مقدمة تاريخية لوظيفة المحتسب وتطورها في مصر .
- ٥٩ - صابر دياب : تطور الحائنة السياسية في بلاد اليمن خلال القرن ٣ ، ٤ هـ
- ٦٠ - عبد الغنى رمضان : قصر الخلافة في العصر العباسى .
- ٦١ - عبد الغنى محمود عبد العاطى : التعليم في مصر زمن الايوبيين والمماليك .
(١٩٧٥ م) .

- ٦٢ — عبد الله ناصر سيف : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز
في العصر الأموي من عام ٤٠ — ١٣٢ هـ .
- ٦٣ — عثمان عشرى : الأسطول والبحرية على عصر سلاطين الماليك
٦٤٨ هـ / ٩٢٢ هـ .
- ٦٤ — عصام الدين الفتى : الحالة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية في مدينة
دمشق من الفتح العربي الى نهاية العهد الأموي .
- ٦٥ — عفاف صبره : ديوان الانشاء وتطوره في عصر الأيوبيين والماليك ،
تحقيق مخطوطة الدر الموشى في صناعة الاتشاسا
للموصلى الكاتب .
- ٦٦ — عفيفى محمود ابراهيم : أحوال بلاد المغرب الاقتصادية في ظل
السيادة الفاطمية (٢٩٦ — ٤٤٣ هـ) . (١٩٧٧ م) .
- ٦٧ — على أحمد بيومى : قيام الدولة الأيوبية في مصر .
- ٦٨ — على السيد على : المجتمع المسيحى في بلاد الشام في عصر الحروب
الصليبية (١٩٧٩ م) .
- ٦٩ — على بن حسين السلیمان : علاقة مصر بالحجاز زمن سلاطين الماليك
(١٩٧٠ م) .
- ٧٠ — على حسنى الخربوطلى : حركة عبد الله بن الزبير وأثرها في تاريخ
الدولة الأموية .
- ٧١ — فاضل عبد اللطيف : تطور الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق
خلال القرن ٥ هـ .
- ٧٢ — منى رضوان أحمد : الأسرة الجمالية ودورها في الحياة السياسية
والاجتماعية في عهد الدولة الفاطمية (١٩٨٢ م) .
- ٧٣ — فاطمه مصطفى الحكيم : الاسكتندرية في العصر الأيوبي (١٩٨٠ م) .
- ٧٤ — فرج محمد : النظم المالية والادارية في الدولة العربية الاسلامية
(١٩٧٦ م) .
- ٧٥ — حمدان عبد الحميد : أسواق بغداد حتى العصر البويهى .
١٤٥ — ٣٣٤ هـ / ٧٦٢ — ٩٩٥ م . (١٩٧٧ م) .

- ٧٦ — حنفى محمود خطاب : الحركات الداخلية فى الدولة الملوكية الأولى .
- ٧٧ — حورية عبد الجيد سلام : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة
الفسطاط فى العصر الفاطمى .
- ٧٨ — خاشع المعاضيدى : دولة بنى عقيل فى الموصل (٣٨٠ — ٤٨٠ هـ) .
- ٧٩ — خطاب عطية : تاريخ التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول .
(٣٥٨ — ٤٦٥ هـ / ٩٦٨ — ١٠٠٢ م) .
- ٨٠ — خليل ابراهيم صالح : علاقات المرابطين بالممالك النصرانية فى الأندلس
وبالدولة الاسلامية .
- ٨١ — خليل صابات : تاريخ الطباعة فى الشرق الأدنى .
- ٨٢ — الدرديرى اسماعيل الببلى : الربط فى بلاد المغرب انشائها
وتطورها حتى منتصف القرن الخامس هـ .
(١٩٧٨ م) .
- ٨٣ — راضى عبد الله عبد الحليم : النظام الادارى والحربى فى الدولة
العربية والاسلامية على عهد الخلفاء الراشدين
(١٩٧٩ م) .
- ٨٤ — رجب: محمد عبد الحليم : دولة بنى حمود فى مالقة بالأندلس (١٩٧٦م) .
- ٨٥ — رضوان اغياتى : القبائل العربية فى مصر فى القرن ٣ ، ٤ هـ وأثرها
على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية .
(١٩٧٦ م) .
- ٨٦ — زاهر رياض : مظاهر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين فى الحبشة
فى العصور الوسطى .
- ٨٧ — زبيده محمد عطا : الشرق الاسلامى والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين .
(١٩٦٨ م) .
- ٨٨ — زين العابدين سراج : دولة تكانم الاسلامية ق ٩ — ١٤م (١٩٧٥م) .
- ٨٩ — سامية توفيق : تطور الوزارة فى بداية العصر العباسى حتى نهاية
القرن ٣ هـ . (١٩٧٧ م) .
- ٩٠ — عادل محمد شهاب : منهج البحث التاريخى عند البيرونى (١٩٨٠م) .

- ٩١ — ابتسام صالح عبد الحليم : بهادر شاه ظفر آخر سلاطين المغول .
 . (١٩٨٠ م)
- ٩٢ — منى حسن محمود : العلاقات بين دولة الفرنجة والمسلمين في الأندلس
 . (١٩٨٠ م)
- ٩٣ — عادل بخيت رستم : مظاهر الحضارة الاسلامية في الدولة السامانية
 . (١٩٧٨ م)
- ٩٤ — عباده عبد الرحمن كحيل : المولدون في التاريخ الأندلسي (١٩٧٨م) .
- ٩٥ — أحمد محمود زيور : العلاقات بين مصر والشام في العهدين الطولوني
 والأخشيدي . (١٩٧٦ م) .
- ٩٦ — صالح مصطفى مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال
 : لخلافة الى مصر (١٩٧٦ م) .
- ٩٧ — شوقى عبد القوى عثمان : العلاقات الخارجية بين مصر والدول
 الافريقية في عصر سلاطين المماليك (١٩٧٧ م) .
- ٩٨ — جمال الدين الخولى : دراسة مقارنة لوثائق للاستبدال بمصر في
 القرن العاشر الهجرى (١٩٧٤ م) .
- ٩٩ — عادل سليمان زيتون : العلاقات بين القوى الايطالية وبيزنطة في القرن
 ١٢م - (١٩٧٥ م) .
- ١٠٠ — نوال عبد العزيز : العرب في شرق افريقيا من القرن الثامن الميلادى
 حتى تدخل البرتغال في القرن الثامن عشر م
 . (١٩٨٠ م)
- ١٠١ — صالح حسين ناصر : تاريخ مشرق الجزيرة والخليج العربى في فجر
 الاسلام حتى نهاية الدولة الأموية (١٩٨١ م) .
- ١٠٢ — صفاء حافظ عبد الفتاح : النفور البحرية منذ الفتح العربى حتى نهاية
 العصر الفاطمى .
- ١٠٣ — عبد الجبار منسى : دور الخليفة المجرى العباسى فى اقرار النظم
 العباسية .
- ١٠٤ — عبد المجيد الشرقاوى : الملاحة البحرية الأندلسية فى القرن ٣ ، ٤ هـ

- ١٠٥ — عبد الرحمن عبد الله الحاج : العلاقات بين بلاد المغرب وشرق السودان منذ ظهور الاسلام حتى ظهور الفرنج (١٩٧٦م) .
- ١٠٦ — هاشم اسماعيل هاشم : دراسات تاريخية عسكرية عن الدولة البيزنطية منذ الفتح العربى للشام حتى نهاية العصر العباسى الأول (١٩٧٧م) .
- ١٠٧ — هشام سليم عبد الرحمن : الحكم فى الأندلس فى عصر الخلافة (١٩٧٥م) .
- ١٠٨ — داود محمد فهمى رشوان : دار الخلافة الأموية فى دمشق نظما ورسمها (١٩٨٠م) .
- ١٠٩ — محمد محمود عرفه : الجيش فى العصر الأموى (١٩٨٠م) .
- ١١٠ — محمود محمد الحويرى : أسوان فى العصور الوسطى .
- ١١١ — مزمل محمد حسين : نيات الشام فى عهد الدولة المملوكية الأولى .
- ١١٢ — مصطفى عبد الخالق : هجرة بنى هلال للمغرب . (١٩٨١م) .
- ١١٣ — منى ابراهيم عبد الرحمن : السفارات الأجنبية فى مصر على عهد سلاطين المماليك (١٩٧٥م) .
- ١١٤ — منى حسن أحمد محمود : العلاقات بين الفرنجة والمسلمين فى الأندلس ٧١٤ — ٨١٥م .
- ١١٥ — موسى عبد الغفار : الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى فلسطين فى العهد الأموى ٤٠ — ١٣٢هـ (١٩٧٩م) .
- ١١٦ — نبيل أحمد عبد العزيز : دمشق ١٠٧١ — ١١٥٤م (١٩٦٨م) .
- ١١٧ — نبيلة ابراهيم مقامى : فرق الرهبان الفرسان فى بلاد الشام فى القرنين ١٢ ، ١٣ م . (١٩٧٥م) .
- ١١٨ — نجله قاسم الصالح : بلاد الحجاز خلال العصر العباسى الأول .
- ١١٩ — نزيهة عبد العزيز : الحياة السياسية ومظاهر الحضارات فى العراق والمشرق فى عهد الخليفة القادر بالله العباسى (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) (١٩٨١م) .
- ١٢٠ — عبد الحفيظ محمد على : الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين فى الشرق الأدنى (١٩٧٥م) .

ثانياً - رسائل الدكتوراه :

- ١ - آمال أحمد حسن : المنشآت التجارية في القاهرة في العصر المملوكي
(١٩٧٥ م) .
- ٢ - ابراهيم على طرخان : النظم القطاعية في دولة المماليك الأولى والثانية
(١٩٥٥ م) .
- ٣ - ابراهيم راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية في العهد الفاطمي
(١٩٤٤ م) .
- ٤ - أبو النصر الخالدي : المختار بن عبيد التقي أسباب ثورته ونتائجها
دراسة اجتماعية .
- ٥ - أحمد عبد الكريم سليمان : العلاقات بين الدولة البيزنطية والقوى
الإسلامية في شرق البحر المتوسط في ق ١٠ ،
١١ م (١٩٨٠ م) .
- ٦ - أمينة البيطار : الحياة السياسية أهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام
منذ قيام الخلافة العباسية حتى الفتح الفاطمي
(١٩٧٥ م) .
- ٧ - بدر عبد الرحمن محمد : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق
والشرق الإسلامي في ق ٤ هـ منذ ظهور السلاجقة
(١٩٨٠ م) .
- ٨ - جاسم محمد الوهابي : النظام الإداري الفارسي وأثره في الإدارة
الإسلامية في عصر الراشدين والأمويين .
- ٩ - حامد زيان غانم زيان : العلاقات بين جزيرة صقلية ومصر والشام ابان
الحروب الصليبية (٤٩٠ - ٦٥٩ هـ / ١٠٩٦ -
١٢٦١ م) . (١٩٧٣ م) .
- ١٠ - حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين بالمغرب .
- ١١ - حسن الباشا : تاريخ الألقاب والمراسيم في الإسلام .
- ١٢ - حسن سليمان محمود : الصليحيون في اليمن وعلاقتهم بالفاطميين في
مصر .
- ١٣ - حسن على محمد : الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية في المغرب
في القرنين ٥ ، ٦ هـ .

٤٠١

(م ٢٦ - الخدوه)

- ١٤ — حسنين محمد ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين .
- ١٥ — حسين محمد سليمان : مدينة دمشق منذ سقوط الخلافة الأموية حتى زوال السيادة الفاطمية ١٣٢ — ٤٦٧ هـ .
- (١٩٧٦ م)
- ١٦ — حكيم عبد السرد : قيام دولة المالك الثانية ١٣٨٢ — ١٤١٢ م .
- ١٧ — حورية عبد الجيد سلام : علاقة مصر ببلاد المغرب منذ الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية .
- ١٨ — خاشع عباده المعاضدي : الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي ٣٥٩ — ٥٦٧ هـ . (١٩٧٣ م) .
- ١٩ — رجب عبد الحليم : العلاقات بين الممالك الإسلامية والنصرانية في أسبانيا من الفتح العربي حتى نهاية ق ٥ هـ .
- (١٩٨١ م)
- ٢٠ — زاهر رياض : العصر الأول في الأسرة السليمانية في الحبشة ١٢٦٨ — ١٤٦٨ م .
- ٢١ — زاهر قدورة : الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول .
- ٢٢ — زبيدة محمد عطا : تحقيق زبدة الفكر في تاريخ الهجرة مع دراسة خصائص الكتابة التاريخية في العصر المملوكي لبيبرس الدويدار (١٩٧٥ م) .
- ٢٣ — زكي النقاش : الحشاشون وأثرهم في السياسة والاجتماع .
- ٢٤ — زين العابدين السراج : دولة كانم الإسلامية في ق ٩ — ١٥ م .
- ٢٥ — سامي سلطان سعد : الاستتارية في رودس (١٣١٠ — ١٥٢٢ م) .
- ٢٦ — دمالح مصطفى : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية في مصر .
- ٢٧ — عباس حلمي اسماعيل : السياسة الداخلية في الدولة الأيوبية بعد السلطان العادل .

- ٢٨ - عبد الحميد الشرقاوى : الحياة الاقتصادية فى الأندلس خلال ق ٤ هـ .
- ٢٩ - عبد الشافى غزيم : حالة المسلمين الثقافية والاجتماعية فى جزيرة صقلية فى العصر النورمندى (٤٨٤ - ٦٦٧ هـ / ١٠٩١ - ١٢٦٨ م) .
- ٣٠ - عبد العزيز عبد الدايم : الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر ، تحقيق نص مخطوطة بن منكلى المصرى ، مع دراسة فن القتال فى العصر الملوكى (١٩٧٤ م) .
- ٣١ - عبد الغنى ابراهيم : السلاجقة والصليبيين فى موقعة ملازجرد ٤٦٥ - ٥٣٦ هـ / ١٠٧١ - ١٢٢٤م حتى سقوط الرها .
- ٣٢ - سامية توفيق : الحياة السياسية فى خراسان من بداية العصر العباسى حتى نهاية القرن ٣ هـ . (١٩٧٩ م) .
- ٣٣ - عادل زيتون : النشاط التجارى للمدن الايطالية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط فى القرنين ١٣ ، ١٤م (١٩٧٨م) .
- ٣٤ - سر الختم عثمان : مدينة صور فى القرنين ١٢ ، ١٣م (١٩٧١م) .
- ٣٥ - سعيد عاشور : دراسات فى الحياة الاجتماعية فى عصر سلاطين
- ٣٦ - سليمان اسحق : تاريخ التعليم فى فلسطين فى عهد سلاطين المماليك .
- ٣٧ - سليمان عبد الغنى مالكى : بلاد الحجاز منذ بداية عهد الاشراف حتى سقوط الخلافة العباسية فى بغداد فى منتصف القرن ٤ هـ - القرن ٧ هـ .
- ٣٨ - سليمان عطية : سياسة المماليك فى البحر الأحمر حتى نهاية عهد السلطان برسباى ١٢٥٠ - ١٤٣٨م .
- ٣٩ - السيد الباز العريشى : الفروسية فى عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠ - ١٥٠٠م (١٩٥٥ م) .
- ٤٠ - صابر محمد دياب : سياسة الدولة الاسلامية فى حوض البحر

المتوسط من أوائل ق ٢ حتى نهاية العصر الفاطمي

• (١٩٧٢ م)

٤١ — سيدة اسماعيل كاشف : مصر في عهد الاخشيديين •

٤٢ — أحمد رمضان أحمد : المجمع الاسلامي في بلاد الشام وعصر الحروب

الصليبية (١٩٧٧ م) •

٤٣ — عبد المنعم نافع : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في الشرق

الاسلامي على عهد الخليفة هشام بن عبد

الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) •

٤٤ — عثمان عشري : الاسماعيليون في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية

• (١٩٧٥)

٤٥ — عصام الفقى : الحياة السياسية والتنظيمات الادارية والمالية في دولة

الانابكة بالموسل والجزيرة •

٤٦ — عطية القويمى : التجارة في البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى

سقوط الخلافة العباسية ٦٥٦ هـ (١٩٧٣ م) •

٤٧ — عفاف صبره : علاقة البندقية بمصر والشام منذ بداية القرن ١٢ حتى

القرن ١٤ م •

٤٨ — عفيفى محمود ابراهيم : مظاهر الحضارة في بلاد المغرب منذ انتقال

الخلافة الفاطمية حتى منتصف القرن السادس هـ

• (١٩٨٠ م)

٥٠ — على حسنى الخربوطلى : تاريخ العراق في ظل الحكم الاموى من

النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية

• (١٩٥٧ م)

٥١ — على بن حسين السليمان : النشاط التجارى في شبه الجزيرة العربية

• (١٩٧٤ م)

٥٢ — فاضل الخالدى : نظم الحكم في العراق في اواخر العهد العباسي

٤٤٧ — ٦٥٦ هـ • (١٩٧١ م)

٥٣ — فيصل حربى : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب •

- ٥٤ - قاسم عبده قاسم : اهل الذمة في مصر في عصر سلاطين المماليك
دراسة وثائقية . (١٩٧٥ م) .
- ٥٥ - محمد عبد الوهاب خلاف : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في قرطبة
خلال القرن الخامس هـ . (١٩٧٧ م) .
- ٥٦ - محمد محمد أمين : تاريخ الأوقاف في مصر في عصر سلاطين المماليك
(١٢٥٠ - ١٥١٧) . (١٩٧٢ م) .
- ٥٧ - محمد محمد الشيخ : الامارات العربية في بلاد الشام في القرنين ١١ ،
١٢ م .
- ٥٨ - محمد محمود : الكتابة في مصر في عصر الدولة الأيوبية .
- ٥٩ - محمود اسماعيل عبد الرازق : أثر الخوارج في الحياة السياسية في
بلاد المغرب في منتصف القرن ٤ هـ . (١٩٧٠ م) .
- ٦٠ - محمد توفيق خفاجي : تطور النظم المالية والادارية في بلاد العراق
والفرس في مستهل العصر العباسي الى نهاية
القرن ٤ هـ .
- ٦١ - محمد حسين عبد الزبيدي : التنظيمات السياسية والادارية والاقتصادية
في عصر حنا الثاني كومنفي (١١١٨ - ١١٤٣ م) .
في العراق في العصر البويهي ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ .
(١٩٦٨ م) .
- ٦٢ - محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية في الاسلام حتى
منتصف القرن ٣ هـ .
- ٦٣ - محمد عبد الفتاح عليان : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد
دولة بني رسول باليمن (١٩٧٣ م) .
- ٦٤ - عبد الحفيظ محمد على : السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية
في عصر حنا الثاني كومنين (١١١٨ - ١١٤٣ م) .
(١٩٨٣ م) .
- ٦٥ - محمد صالح محيي الدين : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في
العراق والمشرق في عهد الناصر لدين الله العباسي
٥٧٥ - ٦٢٢ هـ . (١٩٧٤ م) .

- ٦٦ — نبيل عبد العزيز : تحقيق ونشر مخطوطة نهاية السؤال والأمنية في
تعليم الفروسية في عصر سلاطين المماليك .
- ٦٧ — ناجي معروف : المستنصرية وأثرها في تطور المدرسة الى الجامعة .
- ٦٨ — مليحه محبد رحمه : الحالة الاجتماعية في العراق في القرن ٣ ، ٤ هـ
(١٩٦٨ م) .
- ٦٩ — محمود الحوير : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين
١٢ ، ١٣ م (١٩٧٨ م) .
- ٧٠ — مصطفى طه بدر : ايران في عهد ملزان (٢٩٤ — ٣٠٧ هـ) .
- ١٢٩٤ — ١٣٠٣ م وعلاقتها بمصر بوجه خاص .
- ٧١ — نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى في عهد صلاح الدين الأيوبى .
- ٧٢ — هاشم سليمان أبو رجيلة : علاقات الموحدين بالمماليك النصرانية
بالدولة الاسلامية بالاندلس (١٩٧٩ م) .
- ٧٣ — عبد الجبار العبيدى : دور الخليفة المهدي العباسى في اقرار النظم
السياسية . (١٩٧٠ م) .
- ٧٤ — محمد محمود أحمد درويش : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في
العراق والمشرق الاسلامى خلال العصر السلجوقى
الأول . (١٩٨٠ م) .
- ٧٥ — سلام شافعى سلام : اهل الذمة في مصر في العصر الفاطمى والايوبى
(١٩٧٩ م) .
- ٧٦ — زاكية محمد رشدى : ميخائيل السريانى الكبير وتأريخه لصدر الاسلام
والعصر الأموى (١٩٦١ م) .
- ٧٧ — نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب
في أواخر العصور الوسطى (١٩٦٨ م) .
- ٧٨ — حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية وعلاقتها بالمغول (١٩٤٧ م) .
- ٧٩ — عبد الله ناصر سيف : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز
في العصر الأموى (١٩٧٨ م) .

قائمة بالموضوعات المسجل فيها لدرجتى الماجستير
والدكتوراه بكلية الآداب جامعة عين شمس

أولا - رسائل الماجستير :

- أحمد فؤاد سببد : نظام الحكم والادارة في العصر الأيوبي بمصر .
تاريخ التسجيل ١٩٧٧م [نوقشت في آخر
١٩٨٣] .
- ناريان عبد الكريم أحمد : أحوال المرأة في مصر في العصر الفاطمي .
تاريخ التسجيل ١٩٧٨م .
- كرم كمال الدين الصاوي : مظاهر النغير الحضارى في مصر الاسلامية
منذ الفتح العربى حتى نهاية الدولة الطولونية
من خلال وثائق البردى .
تاريخ التسجيل ١٩٨٢م .
- نجوى عدلى بشاره : الحركة الفكرية في مدرسة الاسكندرية في القرن
الثالث م .
تاريخ التسجيل ١٩٧٩م .
- محمد مؤنس أحمد عوض : التنظيمات الاسلامية والمسيحية في بلاد الشام
في عصر الحروب الصليبية .
تاريخ التسجيل ١٩٨٠م .
- فاطمة فهيم حافظ خليل : التغيرات الحضارية النى طرأت على المجتمع
الانجلو ساكسونى بعد موقعة هاستنجز عام
١٠٦٦م .
تاريخ التسجيل ١٩٧٨م .
- عاطف مرقص بطرس : الأرمن وعلاقتهم بالبيزنطيين والمسلمين (١٠٧١ -
١١٧١ م) .
تاريخ التسجيل ١٩٨١م .
- ايمان حسن خليل : العلاقات البيزنطية الفاطمية في المدة من ١٠٢٥ -
١٠٧١ م .
تاريخ التسجيل ١٩٨٢م .

- حرب عبد المقصود : الحسبة في الامارات الصليبية .
 - تاريخ التسجيل ١٩٨١ م
- اسماعيل عبد المنعم قاسم : الأمراض الاجتماعية زمن سلاطين الماليك .
 - تاريخ التسجيل ١٩٨١ م
- لطفى أحمد سعيد : وسائل الترفيه في عصر سلاطين الماليك .
 - تاريخ التسجيل ١٩٨١ م

ثانياً — رسائل الدكتوراه :

- سنوسى يوسف ابراهيم : دور زناتة في المغرب الاسلامى بعد خروج
الفضليين وحتى قيام دولة المرابطين .
 - تاريخ التسجيل عام ١٩٨٠ م
- عبد المحسن رمضان : مملكة اشستوريس وعلاقتها بمسلمى الأندلس
تاريخ التسجيل ١٩٨٠ م
- محمود رزق محمود : المجتمع المصرى فى العصر الطولونى .
 - تاريخ التسجيل ١٩٧٩ م
- جمعة مصطفى الجندى : حياة الفرنج ونظهم فى الشام خلال القرنين
١٢ ، ١٣ م .
 - تاريخ التسجيل ١٩٨٠ م

قائمة بالموضوعات المسجلة في التاريخ الاسلامى والوسيط

لدرجتى الماجستير والدكتوراه بكلية الآداب

جامعة الزقازيق - مصر

١ - سامية مصطفى محمد : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اقليم غرناطة

في عهد المرابطين والموحدين ٤٨٤ - ٦٢٠ هـ /

١٠٩٢ - ١٢٢١ م .

ك ١٩٨١/١٠/٢١

ج ١٩٨١/١٢/ ١

٢ - على السيد على محمود : مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك .

ك ١٩٨١/١١/٣٠

ج ١٩٨٢/ ١/ ٥

٣ - محمد فتحى عوض الشاعر : السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية

في القرن السادس الميلادى .

٤ - زينب عبد المجيد عبد القوى : العلاقات الدينية والسياسية بين

الامبراطورية البيزنطية وغرب أوروبا في الفترة من

١٠٧١ - ١١٠٤ .

ك ١٩٨٠/١٢/ ٢

ج ١٩٨٠/١٢/١٦

٥ - حسين السيد متولى : العلاقات السياسية والاقتصادية بين دولة

المماليك الثانية ودول البحر المتوسط الأوربية من

سنة ١٣٨٨ - ١٥١٦ م .

ك ١٩٨١/ ٢/١٣

ج ١٩٨٠/١٢/١٦

٦ - أحمد محمد عبد العظيم ناصر : الحياة الاقتصادية في مملكة بيت المقدس
في القرن الثاني عشرم .

ك ١٩٨١/٤/٢٩

ج ١٩٨١/٥/٢٥

٧ - بهى الدين محمود عوض : الحياة الثقافية في مصر في العصر الفاطمي .

ك ١٩٨٣/٣/١٣

ج ١٩٨٣/٤/٥

٨ - طارق محمد عبد القادر : التحصينات الحربية في العصر الأيوبي
والمملوكي في شبه جزيرة سيناء .

ك ١٩٨٣/٣/٢٠

ج ١٩٨٣/٤/٥

٩ - حمدي أنور السيد : تحقيق ونشر ونقد للمجلد لثالث من مخطوطة ابن
الفرات الحنفي .

ك ١٩٨٢/٢/٢١

ج ١٩٨٢/٢/٢٢

١٠ - فتحي عبد العزيز محمد : دور الكنيسة في مملكة بيت المقدس اللاتينية
حتى عام ١١٨٧م .

ك ١٩٨٢/٢/٢٧

ج ١٩٨٢/٢/٢٢

١١ - بلال محمود أحمد محسن : علاقات الفاطميين بالقوى الإسلامية
والصليبية في الشام في الفترة من ١٠٧١ -
١١٧١م .

ك ١٩٨٢/٣/٧

ج ١٩٨٢/٥/١٨

١٢ - محمد محمد عبد القادر الشمبي : الأسواق في المناطق الصليبية لبلاد الشام في الفترة من ١٠٩٩ - ١٢٩٩ م .

١٣ - سميرة عمارة محمد اسماعيل : العلاقات بين الدولة البيزنطية والدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور .

ك ١٩٨٢/١٠/١٦

ج ١٩٨٢/١١/٧

١٤ -- صلاح الدين موسى : المواجهة العربية والاسلامية للصليبيين حتى عام ١١٩٢ م .

ك ١٩٨٢/١٠/١٦

ج ١٩٨٢/١١/٧

١٥ - محروس عبد القدوس : جستنيان وسياسة الاسترداد .

ك ١٩٨٢/١٢/٢٨

ج ١٩٨٣/١/٧

١٦ - محمد عبد القادر موافي : المنشآت المعمارية المملوكية في شرق الدلتا .

ك ١٩٨٢/١٢/٢٨

ج ١٩٨٣/١/٧

رسائل الماجستير والدكتوراه
التي نوقشت منذ يناير ١٩٨٢ حتى ابريل ١٩٨٣ م

اعداد
محمد مؤنس عوض
المعيد بكلية الآداب جامعة عين شمس

قوائم رسائل الماجستير والدكتوراه
التي نوقشت على امتداد عام ١٩٨٢ والثلاث
الاول من عام ١٩٨٣ م [حتى ابريل]

اولا : - كلية الآداب - جامعة القاهرة : -
محمود عرفة محمود « الجيش العباسي خلال عهدى البويهيين والسلاجقة »

رسالة دكتوراه غير منشورة - ١٩٨٣ م .

اشتملت الرسالة على أربعة أبواب : - الباب الاول اشتمل على الجيش العباسي بعد دخول البويهيين بغداد ، اما الباب الثاني فقد كان عنوانه اضمحلال الجيش العباسي في بداية العهد السلجوقي اما الثالث فقد تناول هوضب الخلفاء العباسيين لاعاده تكوين الجيش العباسي ودوره في تحرير البلاد من السيطرة السلجوقية واستعادة سلطان الخلافة ، اما الباب الرابع فقد اختص بتناول تنظيمات الجيش العباسي وأسلحته .

ويقرر الباحث في ختام رسالته أن بنى بوية اهتموا بتنظيم الجيش واعداده وتجهيزه بكل ما يحتاج اليه من أسلحة ومؤون وعناد ويرى ان على الرغم من نجاح البويهيين في احلال جيشهم محل الجيش العباسي فان سياستهم أدت الى قيام النزاع والتنافس بينها طمعا في السلطة مما أدى الى ازدياد حالة الخلافة سوءا في اواخر العهد البويهي في العراق .

وقد وضع الباحث من خلال دراسته حال الجيش العباسي في بداية العهد السلجوقي ومدى ما اصاب هذا الجيش من انحلال بسبب سياسة السلاجقة التي هدفت الى احلال جيشهم محل الجيش العباسي .

يمنى رضوان أحمد رضوان • الأسرة الجمالية ودورها في الحياة السياسية والحضارية في عهد الدولة الفاطمية •

رسالة ماجستير - عام ١٩٨٢ م

اشتملت الرسالة على خمسة فصول ، الفصل الاول تناولت فيه الباحثة الأحوال الاجتماعية في مصر في اوائل عهد المستنصر بالله الفاطمي ، الفصل الثاني تناولت من خلاله الدور الذي لعبته الوزارة في عهد ذلك الامام الفاطمي ، أما الفصل الثالث فانها تناولت فيه ازدياد سلطة الوزراء في ظل أسرة بدر الجمالي الذي استدعاه الخليفة من أجل القيام بإصلاح أحوال مصر الاقتصادية المضطربة ، وبالنسبة للفصل الرابع فقد عالجت فيه الباحثة موضوع جهود وزراء الأسرة الجمالية في توطيد سلطان الخلافة الفاطمية ، وفي خاتم الفصول وهو الفصل الخامس بحثت فيه الأسرة الجمالية وآثارهم الحضارية في عهد دولة الفاطميين •

محمد بركات البيلي البربر في الأندلس

منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر الامارات ٩٢ - ٣١٦ هـ / ٧١١ م

٩٢٩ م

رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٨٢

اشتملت الرسالة على بابين أساسيين انقسما بدورهما الى العديد من الفصول ، الباب الاول هو الأحوال السياسية للبربر في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر الامارة ، أما الباب الثاني فقد تناول فيه الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والفكرية للبربر في الأندلس حتى نهاية عصر الامارة الفصول العديدة التي شملتها الرسالة منها نذكر دور البربر منذ الفتح الإسلامي في الأندلس والأحوال السياسية للبربر في الأندلس في عصر الدولة والأحوال السياسية للبربر في الأندلس في عصر الامارة وكذلك الأحوال الاجتماعية للبربر في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية عصر الامارة ، ثم الأحوال الاقتصادية ودور البربر في الحياة الفكرية في الأندلس خلال المرحلة الزمنية موضوع الدراسة •

بوية مجانى ، أثر العرب اليمينية فى تاريخ بلاد المغرب فى القرون الثلاثة الاولى للهجرة ٤

رسالة ماجستير غير منشورة ١٩٨٢ م

اشتملت الرسالة على خمسة فصول ٠ الفصل الاول دور العرب اليمينية العسكرية خلال الرحلة موضع الدراسة اما الفصل الثانى فكان دور العرب اليمينية على عهد الخلافة الاموية وذلك فيما يتعلق بالناحية السياسية ، أما الفصل الثالث فقد اشتمل على دورهم السياسى على عهد الخلافة العباسية والفصل الرابع احتوى دور العرب اليمينية فى الحياة السياسية خلال عهد الدول المستقلة ، وفى الفصل الخامس عملت الباحثة على ابراز الدور الحضارى لهم ٠

وخلصت الباحثة فى ختام رسالتها الى تفيرير بعض الحقائق منها أن العرب اليمينية لعبوا دورا كبيرا فى تاريخ العرب عسكريا وسياسيا وحضاريا ، فمن الناحية العسكرية مثلا شاركوا بفسط وافر فى عملية الفتح كجنود وكقواد ، أما دورهم السياسى فانهم بعد أن انتهت الفترحات وأهـسـجـح المغرب ولاية اسلامية شاركوا فى احداة السياسية بما فيها من صراعات قبلية ثم صراعات وحركات مذهبية ومن خلال ذلك ظهر دورهم العسكري من جديد أما من الناحية الحضارية فقد ساهموا اسهاما كبيرا فى ادخل السند العلمى الى بلاد المغرب الذى قام بهذا الدور هم الصحابة والتابعين وعلى يد هؤلاء تأسست المدرسة الفقهية المغربية التى كان روادها من اليمينية ٠

يونس عبد الحميد السامرائى ٠ الدولة المرادسية فى حلب

رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٨٢ م

اشتملت الرسالة على أربعة أبواب انقسمت بدورها الى العديد من الفصول وقد قدم لها الباحث بتناوله لاسم حلب وموقعها وجغرافيتها بصفة عامة ، ثم تناول المرادسيين وأصلهم ودورهم فى حكم حلب ليصل ببحثه الى

تناول علاقاتهم بالقرى السياسية المجاورة لهم مثل علاقاتهم بالخلافة العباسية والخلافة الفاطمية والام:راطورية الجيزنطية وعلاقتهم بالامارات والقبائل العربية المجاورة لهم ، تم تناول أيضا المظاهر الحضارية في المدينة ونظمتها تحت حكم اترادسيين ، مثل ذلك تناوله لألعاب امراء الدولة الرواسية وولاية المعهد والبلاط الرواسي والوزارة والجيش وحركة الأحداث في المدينة وكذلك انقضاء والمحتسب وغيرها من الوظائف ، ثم تناول أيضا النشاط الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة وكذلك بحث في الضرائب وحركة العمران والحالة الاجتماعية .

ومما يؤخذ على الرسالة ، ان الباحث لم يضع أية عناوين خاصة بأبوابها على نحو أفقدها تحديد هوية المواضيع الكلية المرتبطة بالموضوع والتي تناولها في صورة جزئية متمثلة في الفصول ، وعلى حين وضع عنوانا لكل فصل فانه اغفل ذلك بالنسبة للأبواب على الرغم من أهمية ذلك

ثانيا : دار العلوم

أحمد مصطفى الصغير ، المصادر الجغرافية للتاريخ

المسعودى - الادريسي - ابن بطوطة

رسالة ماجستير - ١٩٨٢ م .

انقسمت الرسالة الى أربعة فصول ، الفصل الاول خصصه الباحث لدراسة المصادر المختلفة للتاريخ الاسلامى وهدف من خلاله الى القضاء الضوء على المصادر الجغرافية في كتابه التاريخ الاسلامى . أما الفصل الثانى فقد تناول فيه المسعودى وكتابه واسنويه في كتاباته الجغرافية والمصادر التي اعتمد عليها ، أما الفصل الثالث فقد خصصه لدراسة الادريسي والرابع لابن بطوطة

ويجاء على الرسالة عدم تناولها لمرجع واحد بلأية لغة من اللغات الاوربية الحديثة ولا يستعين بأى عمل من أعمال المستشرقين بلغته الاصلية وخذت قائمة مصادره ومراجعته من أية إشارة لمرجع أجنبى واحد .

**عبد المرزى محمد زايد ، دولة بنى زيان بالمغرب
رسالة ماجستير غير منشورة ١٩٨٢ •**

اشتملت الرسالة على اربعة فصول ، الفصل الاول الدولة الزيانية وظروف قيامها ومؤثرات العامل القبلى والجغرافى ، الفصل الثانى الدولة الزيانية بين الاتساع والانحسار من خلال مؤثرات العامل القبلى والصراع داخل البيت الزيانى والموقع الجغرافى • اما الفصل الثالث فقد اشتمل على تناول علاقة الدولة بجيرانها من حيث علاقاتها بالموحدين وبنى مرينج وبنى حفص وعلاقتهم بالاندلس ، اما الفصل الرابع فقد بحث فيه النشاط الحضارى للدولة الزيانية •

**محمد محمد زغروت ، الجيش فى عهدى المرابطين والموحدين
رسالة دكتوراه غير منشورة ١٩٨٢ •**

تناولت الرسالة اربعة ابواب هى كالاتى : الباب الاول تناول نشأة جيوش المرابطين والموحدين وتنظيمها والاشراف عليها ، اما الباب الثانى فانه اشتمل على اسلحة القتال وبالنسبة للباب الثالث فقد تناول الباحث فيه تنظيم القوات والباب الرابع خصصه لرحلة مابعد المعركة ، اما الباب الخامس فقد خصصه لدراسة مقارنة لبعض المعارك •

هذا ، وقد فضل الباحث ان يقسم الابواب الى فصول والفصول الى اقسام مثلما حدث فى تقسيمه للفصل الثانى من الباب الثانى وعنوانه اسلحة القتال الدفاعية حيث قسم هذا الفصل الى القسم الاول واشتمل على آلات الدفاع الخفيفة والاسلحة الثقيلة ، اما القسم الثانى فانه انقسم الى وسائل الدفاع الثابتة •

ومن ناحية اخرى فان الباحث كان قد قدم لرسائله بعرض للحياة العسكرية لبلاد العرب قبل ظهور المرابطين والموحدين •

رقم الايداع / ٢٣٢٣ / ٨٤
تقديم دولى ٦-٧٥٨-٠٢-٩٧٧

دار التضامن للطباعة
٢٢ شارع سامى - ميدان لاطوغلى
القاهرة ٠ تليفون ٣٠٥٥٦

137276/01

Bibliotheca Alexandrina



0339634

30.

